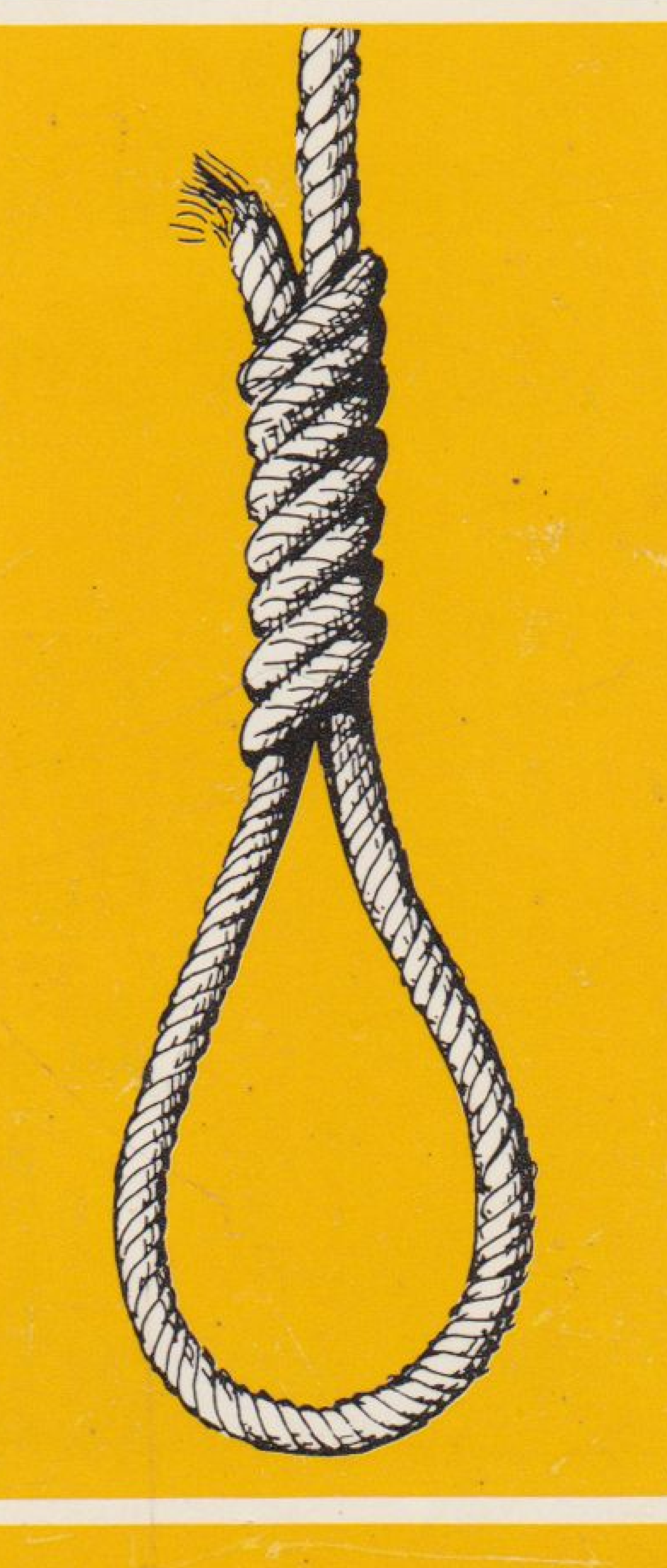
فردريك بوتشر

أشهر المحاكمات عبر التاريخ

ترجمة : عبد اللطيف أفيوني





أشهر المحاكمات عبر التاريخ

صدر هذا الكتاب باللغة الفرنسية بعنوان :

LES GRANDS PROCÈS DE L'HISTOIRE

Par
Frédéric Pottecher

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية
برج الكارلتون ، ص.ب : ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/٨
تلكس : LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع : عمان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف : ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الثالثة

١٩٩٠

أشهر المحاكمات عبر التاريخ

تأليف : فريديريك بوتشر
ترجمة : عبد اللطيف أفيوني

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

مقدمة

هذا الكتاب ليس مؤلفا تاريخياً بقدر ما هو دراسة عن العدالة وبفضل التعاون الذي أبداه كل من فيليب كيزين وجان فرنسوا هيمونيه وباتريك غوبييه وبيار بوشمور، فقد جاء صورة للمحاكمات الكبرى التي سبق وقدمها راديو مونت كارلو. وهذه المحاولة هدفت الى تخليد لحظات تمازج فيها الغضب والحب، لحظات صورت، في فترات مختلفة من التاريخ، الجريمة والفضيلة، الخطأ والجبن، الشجاعة والتعقل.

أنا لا أدعي أنني نقلت كل التفاصيل. فهذا أمر مستحيل. وهو، ان كان ممكناً على سبيل الافتراض، يحتاج إلى اطنان من الورق وآلاف الساعات من البث. بل ما يمكنني قوله انني اخترت الأهم. وما اخترته يكفي لاعطاء الصورة الصحيحة للأحداث ولابراز الشخصيات الهامة، التي صنعت تلك الأحداث، والتي تطفو على سطح الذاكرة من حين الى آخر. يقال ان المحاكمات السياسية تتزامن مع الأزمات: هذا صحيح. لكن الصحيح أيضاً، هو أن المحاكمات الجنائية الكبرى ما هي إلا وليدة لحظات تخل، لحظات هفوة يتصارع فيها وربما يتمازج، الشر والخير، الرذيلة والفضيلة.

وسواء أكانت المحاكمات سياسية أم جنائية، فإنها كثيراً ما تشوه صورة عصر من العصور أو فترة زمنية من الفترات وكم تغيرت وجوه العدالة بين ما كانت عليه في القرن الماضي وبين ما هي عليه اليوم!.. من هذه التغييرات ما هو مثير. واذا ما حاولنا احياناً أن ننفذ إلى أعماق بعض منها، فذلك لنستخلص صوراً لما كان عليه وضع بيئة من البيئات في وقت من الأوقات، إن من حيث أنماط التفكير وطرقه، أو من حيث العادات والتقاليد.

وقد تجنبنا أي تشويه أو تأويل. فجميع ما سيرد في هذا الكتاب يشكل الحقيقة بعينها.

وما هذه المحاكمات سوى وقفات حاسمة في حياة الأمة إنها تحوي الأمجاد كما تحوي

المخازي. وكم تمكنت محاكمة صغيرة من إعطاء صورة لواقع سياسي أو اجتماعي قلما تستطيع إعطاءه مؤلفات طوال.

ماذا بقي من الحروب والثورات والأنظمة التي تعاقبت عبر التاريخ، اللهم إلا الأحقاد والمطالب وتصفية الحسابات بين الأمم كما بين الناس؟ إنها ساعة العدالة وساعة الحقيقة.

وهكذا يكتشف الأبطال بعضهم البعض ويتعرف الواحد منهم على الآخر: رجال ونساء أدهشوا معاصريهم لا تزال صورهم محفورة في الأذهان من خلال جملة أو كلمة أو موقف. والقضاة، هم أيضاً، مطبوعون بزمانهم. وقلما نرى قاضياً يفلت من هذا الواقع. وكثيراً ما كان ذلك يؤدي، من خلال التيارات السياسية الراهنة، إلى صراعات داخل ضمير القاضي. من هنا أهمية الأبحاث التي قام بها كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب.

لقد اخترنا في لائحة المحاكمات الكبرى، من سياسية وجنائية، تلك التي طبعت بعضاً من تقاليدنا وتركت بصماتها في أنماط أحكامنا على الناس والأشياء.

ولا ندعي أننا اكتشفنا جديداً. كل ما عملناه هو أننا بعثنا قضايا قديمة نموذجية أثارت مشاعر آبائنا في يوم من الأيام، قضايا تسنح لنا أن نفهم، بعمق أكبر، أناساً وفترات من ماضينا.

قاتل جوريس

نحن الآن في ٢٤ آذار ـ مارس من عام ١٩١٩ أمام قصر العدل في باريس. أبواب القصر مغلقة والحراسة شديدة. وعلى الرصيف تتجمع حشود صامتة واجمة.

كثيرون من اعضاء الحزب الاشتراكي نزلوا باريس من مختلف الضواحي والدساكر. جاؤوا متعاطفين مع جوريس، الزعيم الاشتراكي، الذي اغتاله راوول فيلان في ٣١ تموز ـ يوليو سنة ١٩١٤، عشية الحرب العالمية الأولى، تلك الحرب التي كان القاتل متحمساً لاندلاعها، خلافاً للمغدور.

لقد ظلت محاكمة فيلان تؤجل حتى ٢٤ آذار من سنة ١٩١٩ وذلك بسبب هذه الحرب اللعينة، التي كلفت الفرنسيين مليوناً ونصف المليون من الضحايا. وقد قصد من هذا التأجيل المتمادي تجنب صراعات داخلية في وقت كان الفرنسيون فيه بأشد الحاجة إلى التماسك الداخلي في وجه الألمان. كما قصد منه أن يفعل الوقت فعله في تهدئة العواطف وتخدير النعرات. أما في ذلك اليوم وقد انتهت الحرب وطال الأمد، فلم يعد بالإمكان التمادي في التأجيل، على الرغم من أن الجو الاجتماعي كان مشدوداً بتفاقم البطالة بعد إخلاء الخنادق، وهكذا، عشية انتخابات تشريعية لم ترق لحكومة كليمنصو، ألد أعداء جوريس، أنيط اللثام عن فيلان في سجنه.

من دفع فيلان لارتكاب جريمته؟ اليمين المتطرف؟ جماعة العمل الفرنسي؟ ام عملاء القيصر، كما تكهن بعض الاشتراكيين؟ أم، أخيراً، الألمان بغية جر فرنسا الى حرب أهلية يخرجون هم منها منتصرين؟

أسئلة وتساؤلات، أقلها قد يسبب المتاعب للرئيس كليمنصو، كانت وراء اجراء المحاكمة بعيداً عن الناس والغوغاء. سيما وان كليمنصو، الذي اعطى لنفسه لقب «الشرطي الفرنسي الأول»، لم يكن ليتساهل في هذا المضمار، فهو، منذ عام ١٩١٧، يحكم البلاد بقبضة من حديد.

ولكن، على الرغم من كل هذه الاحتياطات، فإن المتفرس في وجوه من تجمعوا يوم المحاكمة على رصيف قصر العدل لم يكن ليلاحظ على اكثريتها الحقد المتوقع. كان الطابع البارز هو الحزن والفضول.

داخل قاعة المحكمة، حيث سمح للصحفيين فقط بالدخول، ظهر فيلان داخل القفص، نحيلاً وشاحباً. وعند دخوله القفص، همهم بعض الحضور: هل يعقل أن يقدم هذا الصعلوك، بضغط بسيط على الزناد، على ان يصرع أكبر ادمغة عصره؟!

رداً على سؤال من المحكمة، أجاب فيلان، بصوت خال من أية نبرة، أنه كان، وقت حصول الجريمة، طالباً في مدرسة اللوفر، وان أمه، التي لا يذكرها الا مريضة، أصيبت بمرض عقلي عقب ولادته مباشرة. وامعاناً في الاستعطاف، أكمل فيلان، بصوت متهدج، ان أباه كان يهمله ليهتم بمغامراته العاطفية، وان جدته لأمه، التي تعهدته كانت، هي الاخرى على شفير الجنون. اما اخوه الاكبر فقد كان مشغولا بتحصيله العلمي. لكن التحقيق أظهر ان فيلان كان مبالغاً في ما قاله حيناً ومختلقاً إله أحياناً، الأمر الوحيد، الذي ذكره فيلان وكان صحيحاً هو انتماؤه. في فترة من الفترات، الى عصبة أصدقاء الألزاس ـ لورين، وهي واحدة من الحركات الرجعية في فرنسا آنذاك.

وعندما سأله رئيس المحكمة عما اذا كانت له نشاطات سياسية، اجاب بنفي حازم. لكنه استطرد قائلاً انه ثار، شأنه في ذلك، كما ادعى، شأن كل الفرنسيين، عندما وجد جوريس يدعو الى عدم الحرب، هذه الحرب التي بواسطتها، كان بالامكان استرداد الألزاس ـ لورين من المانيا. وعندها، قرر قتل «الخائن».

وبدأ الشهود العيان بالادلاء بمعلوماتهم. استذكروا تلك الأمسية في نهاية يوم ٣١ تموز من عام ١٩١٤. كان جوريس متوتراً يزرع ارض مكتبه في شارع كرواسان بخطى عصبية، بعد ان أيقن أن الحرب واقعة لا محالة، وما ان فتح شباكه بعفوية مطلقة، حتى عاجله القاتل بطلقين ناريين وضعا حداً لقلقه والحياة.

بعد الاستماع الى الشهود، التفت الرئيس الى الجاني:

ـ هل لديك ما تضيفه؟

ـ نعم، سيدي الرئيس. أنا لا أشعر باي تأنيب لضميري، على الرغم من مشاعري الدينية الحادة. فقد تصرفت بما املته علي وطنيتي.

ـ اذا أنت تصرفت بدافع ثورة وطنية في نفسك؟

ـ تماماً سيدي.

هنا، بدأ فيلان مرتاحاً لتوجيه الرئيس للمحاكمة وجهة وطنية. فهذا كان في نظره مقبولاً عقب النصر واسترجاع الألزاس ـ لورين من المانيا.

لم يبخل الشهود، وعددهم سبعة عشر، بالاشارة بفضائل المغدور وأفكاره في الاشتراكية. الأمر الذي لم يرق، كما كان ظاهراً من حركات التململ، للمحلفين الذين اختيروا، ربما. عن غير قصد، من الطبقة البورجوازية، والذين، والحال هذه، لم يخفوا، اثناء استماعهم للشهادات، مشاعرهم ضد المغدور امل الطبقات المسحوقة لفترة طويلة حتى الحزب الاشتراكي نفسه، الذي اشترك في الحلف المقدس ضد المانيا وتمثل في حكومة الحرب، فانه لم يكن كثير الحماس لجوريس، الداعية الى السلم. فقد كان التوغل في التعاطف معه يشكل بالنسبة لكثيرين من زعماء الحزب، مغامرة خاسرة لهم وللحزب معاً ونوعاً من العواطف الغبية التي تجاوزتها الأحداث. وليس سهواً ان يكون الجميع في الحزب قد طمس ما سبق وقاله جوريس لوزير الخارجية أبيل فيري من ان الاشتراكيين سيعارضون التعبئة العامة، اذا ما أقرت، ولو أدى ذلك الى اعدامهم بتهمة خيانة الوطن.

الواقع هو أن محاكمة جوريس فجرت خلافات الحزب وأظهرتها للعيان. وها هي أحدى السيدات من الحضور تصرخ غاضبة: «اننا نشهد اغتيالاً ثانياً لجوريس. لكن من اصدقائه هذه المرة».

وطالت جلسات المحاكمة وفي الملل، عمق ثبات الحضور من محلفين وصحفيين وها هو احدهم يعلق بقوله: «لقد جيء باعظم الخطباء ليعرفوا الجاني على ضحيته، فهل هذه محاكمة؟

وسط هذا الخضم وذاك المنحى، تبلور أمر واحد، وهو أن اليمين انتهزها فرصة للتعرض لجوريس وافكاره وحزبه. مما حمل الحزب الاشتراكي الى اتخاذ موقف الدفاع بدلاً من الهجوم، وهو، في الأصل الموقف الطبيعي. وهكذا انقلبت الأدوار وزاغت الحقيقة بزوغان الحق.

في اليوم الثالث للمحاكمة، يوم ٢٦ آذار ـ مارس سنة ١٩١٩، جاء دور شهود الدفاع. كان متوقعاً ان تستمع المحكمة ومعها الحضور الى عبارات الاستغراب والاستعطاف يستفيض بها أصدقاء الجاني. لكن ما حصل كان عكس ذلك. لقد أيد هؤلاء الجريمة وباركوها. وها هو احدهم، روجيه بولين، يتساءل: «أنا لا أفهم لماذا ينظر البعض الى فيلان نظرتهم لمجرم. لقد قتل جوريس حباً بفرنسا. لقد كان جوريس يدعو الى نزع السلاح. وكانت الأكثرية ترى في ذلك خطراً على الوطن». شاهد آخر، هو ملازم أول في

الجيش، لم يتورع عن اعطاء لقب «بطل وطني» لفيلان. وهكذا، ما ان انتهى هذا اليوم الا واصبح فيلان الضحية وجوريس الجاني.

٢٧ آذار مارس ١٩١٩، اليوم الرابع للمحاكمة. في هذا اليوم، تمخضت المرافعات بين محامي الادعاء ومحامي الدفاع عن تصوير المغدور وكأنه خائن لوطنه بتعاونه مع العدو وضربه الروح المعنوية للجيش عن طريق تحريضه على الامتناع عن خوض الحرب.

لقد أخطأ الادعاء منذ البداية باعطاء الطابع السياسي للجريمة هذا الخطأ، مضافاً الى حنكة اليمين المعادي، أدى الى جعل فيلان بطلاً من أبطال الأمة. حتى أن الأدعاء وجد نفسه مضطراً للدفاع عن وطنية جوريس وصوابية موقفه. وهذا لم يكن بالأمر اليسير عقب حرب كان النصر فيها للفرنسيين على عدو تقليدي متعجرف هو الألمان.

غير أن هذه الأجواء، بكل ما تلبد فيها من غيوم وما تصاعد حولها من غبار، لم تمنع أحد محامي الأدعاء، الأستاذ دوكو، من أن يعود الى أساس الموضوع، الى جريمة الاغتيال وان يوجه الضوء الى أمور ووقائع وردت على ألسنة الشهود ولم تحفل بها المحكمة. من هذه الوقائع ما دكره احد الشهود، سيبار، من ان فيلان ينتمي فعلاً الى جماعة «العمل الفرنسي» وهي جماعة تدعو الى عودة الملكية الفرنسية. ومما جاء أيضاً في كلام سيبار هذا هو ان تلك الجماعة اختارت فيلان من بين افرادها لتنفيذ جريمة اغتيال جوريس.

وأضاف ان هناك شخصين كانا ينتظران فيلان على مدخل البناء الذي اغتيل فيه جوريس، وأن فيلان تحدث معهما قبل اقترافه الجرم بقليل. لماذا لم يُعر قاضي التحقيق هذه الوقائع الاهتمام المفروض؟ سؤال لا بد من طرحه مع اسئلة اخرى واخرى، ظلت كلها دون جواب.

٢٦ آذار ـ مارس سنة ١٩١٩، آخر يوم من أيام المحاكمة.

في ذلك اليوم، كان المنحى الذي اتخذته المحاكمة طوال أيامها السابقة قد فعل فعله في نفوس المحلفين وحتى ان ردة الفعل كانت معدومة خلافاً لما ينتظر في مثل هذه الجرائم، عندما طلب المدعي العام اخذ ظروف الجريمة في الاعتبار وانزال عقوبة مخففة بالقاتل. هذا الموقف دفع محامي الدفاع لأن ينبري بحماس وثقة طالباً ابراء فيلان، او في الحدود القصوى، اعتبار المدة التي حجز فيها موقوفاً في السجن كافية وبالتالي، اطلاق سراحه.

هنا، كانت الساعة داخل قاعة المحكمة تشير الى السابعة مساءً. عندها، طلب من هيئة المحلفين الاختلاء للتقرير.

بعد نصف ساعة فقط، كانت الهيئة تعود الى قاعة المحكمة ومعها القرار: فيلان غير

مذنب، ولعل من غريب المفارقات ان نضيف هنا ان زوجة جوريس لم تنج من الحكم عليها في دعوى الحق العام . .

غير مذنب!

بعد أيام قليلة من اصدار هذا الحكم، أطلق أحدهم ويدعى اميل كوتين، النار على السيارة التي كان يستقلها الرئيس كليمنصو. جرح الرئيس جروحاً طفيفة وحكم على كوتين بالاعدام . .

وبغية الاحاطة بالموضوع، لا بد من اتمام القصة. اطلق سراح فيلان بعد الحكم ببراءته وهو القاتل. حاول عبثاً التفتيش على عمل والالتقاء بأصدقاء لم يكن يصطدم بغير نظرات الشذر والتنكر، مما اضطره للسفر الى اسبانيا والاقامة في جزر الباليار. لكن الكراهية لحقت به الى هناك واحاطته بذراعيها من خلال السكان المحليين الذين نبذوه بعد ان عرفوا ما اقترفت يداه في فرنسا .

وذات يوم في أيام سنة ١٩٣٧، وكانت الحرب الاهلية مستعرة في اسبانيا، القى الجمهوريون القبض على فيلان، قاتل ألمع وجوه الاشتراكية الفرنسية، وأعدموه.

اما كوتين، فقد لحق بصفوف المحاربين الجمهوريين الاسبان بعد ان امضى سنوات في سجنه بفرنسا وبعد ان شمله عفو خاص من كليمنصو نفسه. وقد مات هناك فيما كان يحارب من اجل القضية التي آمن بها، وهكذا احتوت الأرض الاسبانية كلًا من فيلان وكوتين فطويت بذلك صفحتان متلازمتان من صفحات الحوادث التي أثارت في وقت من الأوقات اهتمام الناس وفضولهم في فرنسا وخارجها.

محاكمة جان دارك

نحن الآن في ٢١ شباط ـ فبراير من عام ١٤٣١. في ذلك اليوم، وفي قاعة باردة من قصر روان، حيث جلس بشكل نصف دائري خمسة وأربعون من رجال الكنيسة بدأت محاكمة جان دارك في مركز الدائرة، وعلى كرسي صغير جلست المتهمة «الساحرة» مكبلة بالأصفاد ـ امام هؤلاء الرجال.

افتتح الكاهن كوشون المحاكمة بسيل من التهم صبها على رأس المسكينة وتتراوح بين الشعوذة والفجور.

والواقع أن أحداً من الحضور لم يكن مخدوعاً بحقيقة الأمر. فالتهم التي ذكرت ليست سوى تغطية لما هو أدهى وأكثر خطراً على البعض. لقد طردت جان دارك هذه الانكليز من أورليان عام ١٤٢٩. وبعد شهرين توجت ولي العهد ملكاً على فرنسا تحت اسم شارل السابع مكان الملك الانكليزي هنري السادس.

هذا هو سبب محاكمة «الساحرة». وهذا هو أيضاً سبب محاكمتها في روان، التي تعتبر عاصمة الانكليز في فرنسا، ومن قبل جماعة تعتبر عميلة لانكلترا.

عندما طلب منها رئيس المحكمة كوشون أن تقسم على الانجيل بأن تقول الحقيقة في اجاباتها عن اسئلة القضاة، رفضت أن تقسم الا على ما يتعلق، في هذه الاجابات، بها وبعائلتها، أما فيما يختص بالأمور الأخرى، كالوحي الذي ينزل عليها وينير خطواتها من وقت لآخر، فقد أجابت بتصميم أنها لن تفصح عنه الا لملكها شارل السابع، حتى ولو كلفها رفضها هذا حياتها.

لم يُفد اصرار رئيس المحكمة أمام ثبات موقف جان. . وعندما سألها ان تذكر اسمها والقابها ومكان ولادتها، أجابت بكل هدوء أن اسمها جان وأنها ولدت في دومريمي من أب فلاح وأم علمتها الخياطة والحياكة، أما الألقاب، فليس لها شيء منها، وقد انتهزتها فرصة

لتذكر مآسي قريتها مع الجنود الانكليز الذين كثيراً ما كانوا يقومون بأعمال النهب والسلب والحرق فيها، مما كان يدفع أهلها للنزوح والالتجاء الى أماكن أخرى مجاورة.

لم يرق هذا للرئيس، لكنه احتوى الانفعال. بعدها، سألها:

- مم تشكين؟
- من الاغلال التي تقيد رجلي
- هذه الأغلال وضعت لأنك حاولت الهرب من السجن
- هذا طبيعي . فكل سجين يتمنى الهرب.

هنا، انتقل الرئيس الى موضوع آخر وسأل المتهمة:

- متى بدأت بسماع الأصوات الخفية أو ما تسمينه الوحي؟
- منذ سن الثالثة عشرة. وكنت عندها في حديقة البيت ظهر أحد الأيام، أنه صوت آت من عند الله لهدايتي الى الطريق القويم.
- بأي شكل ظهر عليك هذا الصوت؟
- لن أعطي جواباً عن هذا السؤال. كل ما يمكنني قوله هو أن الصوت أمرني بالتوجه الى اورليان لتحريرها من الانكليز وتتويج ملك فرنسا عليها.
- هل استقبلك الملك بسهولة؟
- نعم
- لماذا؟
- لأن الملك، هو أيضاً، لديه بعض الايحاءات.
- كيف؟
- لا يمكنني الاجابة. يمكنك أن تذهب عنده وتسأله.

هنا، رفع الرئيس الجلسة لتعقد يوم السبت في ٢٤ شباط فبراير. وفي ذلك اليوم أيضاً، حاول الرئيس كوشون مرة أخرى أن ينتزع من جان دارك ما عجز عن انتزاعه منها في السابق، وهو أن تقسم على أن تقول كل شيء بما في ذلك حقيقة مصدر الوحي وأسراره. ولكن اصرار جان دارك على موقفها الرافض عمّق لديه الخيبة، وهذا الاصرار على أن علاقتها بربها هي علاقة مباشرة ولا تمر بأي وسيط، والكنيسة وسيط، جعل الفتاة تقع في الفخ الذي نصبه لها كوشون. هنا، وبعد نجاح خطته، أعطى الرئيس الكلام لعضو المحكمة جان بوبير، الذي بدأ باستجوابها بما يلي:

- متى سمعت هذا الصوت آخر مرة؟

ـ سمعته البارحة واليوم.
ـ في أية ساعة؟
ـ سمعته ثلاث مرات، صباحاً وظهراً ووقت القداس.
ـ ماذا كنت تفعلين البارحة عندما أتاك الصوت؟
ـ كنت نائمة، والصوت هو الذي ايقظني.
ـ كيف؟ بهز الذراع؟
ـ ايقظني دون أن يلمسني.
ـ هل كان الصوت في غرفتك؟
ـ كلا، كان في القصر.
ـ هل شكرت الصوت وركعت على ركبتيك؟
ـ نعم. وطلبت منه أن يساعدني. والآن، يطلب مني هو أن أكون شجاعة.

وهنا، التفتت الى كوشون، كما لو كانت تنفذ ما طلب منها الصوت في شجاعة، وقالت له:

ـ احذرك،انت من تقول انك حاكمي، احذرك مما تفعل. أنا مرسلة من الرب فتنبه للخطر...

كان من الممكن أن يكفهر جو المحكمة لهذا التهديد يصدر بوجه الرئيس من فتاة بسيطة كجان دارك، لولا أن احتواه كوشون على مضض، ولولا أن تدخل بوبير على الفور قائلاً لها:

ـ وهل تعتقدين أن قول الحقيقة يغضب الله؟

لم تعر جان أي اهتمام للسؤال، بل أكملت:

ـ لقد أوصاني الصوت أن أبوح به للملك دون سواه. وهذه الليلة بالذات، كلفني برسالة له على قدر كبير من الأهمية بالنسبة اليه. وأريد أن تصل اليه.
ـ ألا يمكنك اقناع صاحب الصوت أن ينقل الرسالة بنفسه الى الملك؟
ـ لا أعرف. فهذا يتعلق بارادة الرب.
ـ هنا، بدأ بوبير يفقد صبره:
ـ أليس لهذا الصوت وجه وعيون؟
ـ لن أقول لك شيئاً من هذا.
ـ اتعتقدين أنك تحت رحمة الرب؟

ـ ان لم أكن كذلك، فالرب يحيطني بها، وان كنت، فهو يديمها علي.

لقد أدهش الجواب الحضور، وجلهم من كبار اللاهوتيين. وهذا الجواب، بجرأته وعمقه وصفائه، أعطى برهاناً آخر على أن هذه الفتاة تنعم بسر الهي خارق.

لكن المحكمة معقودة، لا لتظهر اعجابها ودهشتها، بل لتحاكم جان دارك بتهمة الشعوذة. لذلك، كان لا بد من تبديد ما علق في الأذهان من ايجابيات للفتاة، وهذا ما فعله كوشون عندما رفع الجلسة.

ولما عادت المحكمة والتأمت، كان لا بد من محو الانطباع السابق المتألق في أذهان الحضور، هذه المهمة أخذها بوبير على عاتقه:

ـ هل كنت تلعبين مع أولاد قريتك وترعين معهم القطعان؟
ـ نعم. عندما كنت صغيرة.
ـ هل تعرفين شجرة الجن؟
ـ نعم. وكنت اذهب اليها احياناً مع بعض بنات القرية. لكني لم أجد أية جنّية. كما أني لا أؤمن بوجود الجن.
ـ هنا أيضاً، لم يوفق بوبير في الايقاع بالفتاة المسكينة.

ـ هل تودين يا جان لبس ثوب امرأة؟
ـ لا مانع لدي، على الرغم من أن ما ألبسه يعجبني لأن الرب لم يعترض عليه.

لقد قصد بوبير أن يبرز جريمة جان، كما كان ينظر الى الأمور آنذاك، يلفت انتباه المحكمة الى ما تلبسه جان وهو بزة عسكرية يلبسها المحاربون، دون سواهم.

ـ هل ينبعث أمامك نور عندما يتحدث اليك الصوت؟
ـ نور وهّاج!

هذه الجرأة، تبديها فتاة بسيطة أمام محكمة بهذه الضخامة وذاك المقام، كلفت جان اجراءات مشددة في سجنها. فيوم السبت في ١٧ آذار ـ مارس ١٤٣١، كان قد مضى عليها أسبوع كامل دون أن تخرج من زنزانتها. واذا ما أضيف هذا التشدد الى اجراءات أخرى، عرفنا مدى ما تركه موقفها من أثر سيء في نفوس حاكميها. لقد نقلت الى سجن علماني يحرسه جنود انكليز. ومعروف كم حاربت جان دارك الانكليز. وهذا مخالف للقانون الذي يفرض على من يحاكم أمام محكمة كنسية أن يحجز في سجن كنسي. يضاف الى ذلك أن جان يجب أن تكون في سجن نسائي ومحروسة من قبل حراس من النساء. ومما يبرز التحيّز، هو أنه لم يعين محام للدفاع عنها. ناهيك عن أن أتعاب هيئة المحكمة.كانت

على عاتق الانكليز دون سواهم. والفضيحة الكبرى في هـذه القضية هي أن المحكمـة أعلنت، منذ انعقادها في الجلسة الأولى، أن جان دارك ستسلّم الى الانكليز لتحاكم من قبلهم، اذا ما قررت المحكمة تبرئتها. كل هذا يعني بوضوح أن المحاكمة برمتها ليست سوى تمثيلية يراد بها تغطية الحقيقة وهي مطالبة الانكليز لرأس من أقسمت على اخراجهم من فرنسا.

الجلسة الآن تعقد في زنزانة السجينة. وفيها تولى جان دي لافونتين الاستجواب مكان بوبير:

- هل لك أن تقيّمي حبك للكنيسة وخدماتك لها؟
- أحب الكنيسة وأتفانى في دعمها بكل ما أوتيت من قوة، وأود لو تسمحون لي بحضور القداديس. أما أعمالي، فأترك لرب السماء تقييمها، الرب الذي أرسلني الى شارل، الملك الحقيقي لفرنسا، وبالمناسبة، أقول لكم أن الفرنسيين سينتصرون على الانكليز في معركة حاسمة. تذكروا أني قلت لكم ذلك يوماً.
- هل تقبلين حكم الكنيسة مهما كان؟
- أنا أقبل بحكم الرب. ولما كان الرب والكنيسة واحداً، فلماذا نوقع انفسنا في متاهات السؤال؟
- هناك كنيسة مظفرة يذوب فيها الرب والقديسون والملائكة. وهناك كنيسة ملتزمة تشمل البابا والكرادلة والأساقفة. هذه الكنيسة معصـومة عن أي خـطأ لأنها بإمـرة الروح القدس. فهل تنصاعين للكنيسة الملتزمة، الكنيسة الأرضية؟

سؤال محرج. هل ترد بالسلب وتعتبر خارجة على الكنيسة وتحاكم على هذا الأساس؟ لقد فهمت المأزق. لكنها اختارت طريقها منذ وقت طويل.

- لقد أرسلت الى ملك فرنسا من قبل الرب. والى الرب اقدم حساب ما فعلت وما سأفعل.
- هل تقبلين بالافصاح عما رفضت الافصاح عنه أمام قداسة البابا؟
- بالتأكيد. خذوني أمامه وسأقول له كل شيء.

كان الجواب واضحاً ومحكماً. لكن المرسوم هو أن تقاد جان دارك أمام الانكليز وليس أمام البابا. وهذا السؤال يدل على النية المبيتة من قبل لافونتين:

- هل يكره الرب الانكليز؟
- لا أعلم مشاعر الرب تجاه الانكليز كل ما أعرفه هو أنهم سيطردون من فرنسا، باستثناء من سيموت منهم على أرضها.
- من دفعك لرسم ملائكة بأذرع وأرجل وثياب؟ هل يظهرون عليك على هذه الصورة؟

ـ هكذا هم مرسومون في الكنيسة.
ـ لماذا هم اثنان فقط؟
ـ لان راية الجيش المهاجم للانكليز يقودها الرب بواسطة القديسة كاترين والقديسة مارغريت، اللتين قالتا لي: «تسلمي أنت هذه الراية باسم رب السماء».
ـ هل يعتمد الأمل في النصر على الراية أو عليك بالذات؟
ـ انه يعتمد على الرب.
ـ لماذا كانت رايتك وحدك حاضرة عند تنصيب الملك وليست راية سائر القواد؟
ـ لأنها هي التي جاهدت. فهي اذاً التي تستحق هذا التكريم.
ـ هل تقبلين خلع لباسك العسكري ولبس ثوب نسائي للذهاب الى القداس؟
ـ اقبل. ولكني سأعيد بزتي العسكري وأعود الى الجهاد حالما أخرج من الكنيسة.

هنا، وقد أخذ الضيق مأخذه في نفس رئيس المحكمة، أمر برفع الجلسة. وما هي الا لحظات حتى رأت جان دارك نفسها ثانية في زنزانتها وجهاً لوجه أمام حراسها الانكليز.

ثلاثة اشهر مرت والفتاة حبيسة الزنزانة. ثلاثة أشهر عاشت فيها بعذاب نفسي وجسدي قلما أصاب سجيناً آخر. ومع ذلك، فانها لم تركع. ولما كان يقتضي الانتهاء من هذه القضية خوفاً من تفاقمها وانعكاساتها، فقد قررت جامعة باريس، الملتئمة بكامل هيئتها في ١٥ أيار ـ مايو ١٤٣١، أن تتبنى لائحة من اثني عشر رئيساً اتهامياً. هذه اللائحة قدمت من قبل كوشون نفسه مرفقة بكتاب من ملك انكلترا. جميع هؤلاء وجهوا الى جان دارك تهمة الشعوذة والهرتقة والوثنية، كما وجهوا اليها تهمة قتل الانكليز والتعطش للدم المسيحي.

وفي ٢٣ أيار مايو، طلب من المتهمة العودة عن « اخطائها وتصرفاتها المشينة». لكنها رفضت باصرار «حتى ولو رأت النار التي سيحرقونها بها تشتعل».

٢٤ أيار ـ مايو. في هذا اليوم كان كل شيء قد هيّء للحكم وللتنفيذ. الحكم بالموت حرقاً. واستكمالاً لفصول المهزلة، دعي الناس لحضور الجريمة. وعلى رأس هؤلاء، ملك انكلترا الحقيقي، اسقف ونشستر وهيئة المحكمة. ومقابل المنصة الرئيسية، منصة الشرف، وقفت جان دارك.

بدأ «الاحتفال» بخطاب القاه في وجه المتهمة المحامي غليوم، صديق كوشون الشخصي:
ـ جان، انت ساحرة ومهرتقة وخارجة على الكنيسة. وملكك الذي أراد استرجاع ملكه بواسطة امرأة هو، في الواقع، مثيلك. ثم أكمل بلهجة أكثر ليونة:

ـ أنا أرثي لحالك. عودي عن اقوالك والا، فان الحكم سيكون قاسياً عليك.
ـ انك تتعب نفسك كثيراً لتثنيني عن عزمي ولتحضني على انكار الحق.

هنا، انبرى جاك كالو، سكرتير ملك انكلترا، وأخرج من كم سترته ورقة سطر عليها بضعة أسطر، هي الدليل على أن كل شيء قد هُيِّء مسبقاً. صرخ غليوم ملتفتاً نحو جان:

ـ وقعي على هذه الورقة والا فانك ستنتهين الى النار.

أذعنت جان بصوت ضعيف. لكن مفاجأة غير متوقعة حصلت. فقد ثار الانكليز الموجودون في المنصة على الرئيس كوشون نفسه وسائر أعضاء المحكمة متهمين اياهم بنقض الاتفاقية وبالخيانة: لقد اعتبروا أن الورقة التي عرضت على جان دارك للتوقيع ستؤدي، عند توقيعها، الى تبرئة المتهمة وعدم تسليمها الى الانكليز. ماذا كانت تحوي هذه الورقة التي وقعتها الفتاة المسكينة بعد أن شنت عليها حرب نفسية رهيبة؟ انها اعتراف منها بالشعوذة ونكران لسماعها صوت الرب كما أنها تعهد بالامتناع عن لبس الثياب العسكرية. . أما كوشون، العميل الأمين لأسياده الانكليز، فقد سارع، عندما ثارت ثائرة هؤلاء الأسياد، الى تطمينهم، وامعاناً في ذلك، فقد عجل في اصدار حكمه على جان دارك: السجن مدى الحياة على الخبز والماء لتغسل خطاياها ولتكف عن اقتراف غيرها.

امتقع لون المسكينة عند سماعها الحكم وعرفت انها وقعت في الفخ الذي نصب لها. فتوقيعها على الوثيقة لم يكن الهدف منه سوى اهانتها وهدر كرامتها، لانقاذها، كما ذكر أمامها.

أما الأنكليز، فقد ظلوا على انفعالهم. صحيح أن جان دارك ستمضي بقية ايامها في السجن، لكن الصحيح أيضاً هي أنها ستبقى حية، في حين أنهم دبروا ما دبروا ودفعوا ما دفعوا لتنتهي عدوتهم الى النار وليتخلصوا منها الى الأبد.

عادت جان دارك الى زنزانتها لتلبس، كما تعهدت، لباس امرأة. لكن، لم تمض سوى ثلاثة أيام حتى شوهدت تعود الى لبس الزي العسكري. فما الذي حدث حتى تنقض السجينة تعهدها؟ الأمر غاية في البساطة، لقد أمرها سجانها الانكليز بذلك بقصد إعادتها الى محاكمة جديدة وبالتالي، اصدار الحكم بحرقها حية.

وهكذا، وفي اليوم الرابع للمحاكمة الأولى، بعد يوم واحد من نقضها القسري لتعهدها، عادت المسكينة لتواجه المحكمة والمصير المرسوم، جرت المحاكمة ـ المهزلة وحكم على جان دارك بالاعدام حرقاً، ورضي الانكليز.

خمسة وعشرون عاماً مرت على موت جان دارك. ففي ٧ تموز سنة ١٤٥٦، كان أناس كثيرون يتجمهرون في باحة قصر روان ليستمعوا خاشعين الى حكم آخر يقضي، هذه المرة، باعادة اعتبار الشهيدة.

كبار رجال الكنيسة في باريس وريمس وكوتانس ومعهم شقيق جان دارك التأموا في اجتماع تاريخي ليعلن كاهن ريمس باسمهم ما يلي.

«نعلن باسم الرب، الحسيب الوحيد على أعمالنا، أن المحاكمة، التي ذهبت جان دارك ضحية انحرافها وعمالتها، باطلة، وان الحكم الصادر عنها بحقها هو ايضاً باطل. كما نعلن ان جميع الاتهامات بالشعوذة والهرتقة الموجهة الى الشهيدة باطلة، هي الأخرى. لذلك فاننا نحكم بالغائها جميعاً».

ما أن انتهى الكاهن من قراءة وثيقة البراءة، حتى ظهرت علامات الرضى على وجوه الحضور وهمهمات الموافقة على شفاههم. وامعاناً في التكريم، توجه الجميع الى مقبرة سان ـ اوين، حيث انتزع، احتيالاً، اعتراف جان دارك بالشعوذة وانكارها لسماع صوت الرب. وهناك، قرأ كاهن ريمس حكم البراءة ثانية على مسمع من الحضور. وقد تكرس هذا الحكم من قبل البابا نفسه.

كان هذا تتويجاً لجهود دامت سبع سنوات، سبع سنوات مليئة باجراءات باعادة محاكمة شاقة ومثيرة. أعيد النظر بكل الوثائق. فنّدت كل الأقوال ودحضت جميعها. وقد أشرف على هذه العملية كبار القضاة ورجال القانون بأمر من الملك شارل السابع، ملك جان دارك، الذي تنبأت المسكينة بانتصاره على الانكليز وبعودته الى عرش بلاده. وقد صدقت النبوءة.

وهكذا انتهت أول محاكمة سياسية في تاريخ فرنسا. كانت محاكمة مثيرة أظهرت بوضوح ما يمكن أن تؤدي اليه عمالة ضعاف النفوس. صحيح أن جان دارك اصبحت بطلة وطنية ويطلق اسمها على الساحات والشوارع والمؤسسات في فرنسا وخارجها، لكن الصحيح ايضاً هو أنها ماتت حرقاً. وهذا المصير، لمجرد تخيله، رهيب، فكيف به عند المنفذ به؟ واذا كان من عبرة لهذه القضية برمتها، فهي أن الحق هو المنتصر الأخير في الجولة الأخيرة. ذاك هو منطق الأمور. ولكن... كم من الضحايا تسقط وكم من الرؤوس تتدحرج قبل أن تصل الأمور الى نهاية منطقها أو، بالأحرى، الى منطق نهايتها؟ قد تكون التضحية بالذات هي القربان الأمثل الذي يقدمه المرء لاحقاق حق او لابراز حقيقة. وهذا، في نظر الكثيرين، قمة العطاء.

محاكمة ڤرين ـ لوكاس

نحن الآن في ١٧ شباط ـ فبراير من عام ١٨٧٠ . الشارع المؤدي الى قصر العدل في باريس ، بولفار سان ميشال . يعج بالوافدين المتزاحمين يتوجهون صوب القصر ليشهدوا محاكمة تعتبر من أطرف المحاكمات . انها محاكمة يتخاصم فيها فلاح مع الأكاديمية الفرنسية للعلوم . من هنا طبيعتها غير العادية والمثيرة .[1]

لم تعد أروقة قصر العدل ، على رحابتها تتسع للجمهور الذي احتشد فيها . حتى ان البعض لم يجد مكاناً له داخل قاعة المحكمة أو على السلالم المؤدية لها . الكل في هرج ، الا مجموعة من الشيوخ جلست على مقعد طويل تنتظر دون حراك . انها مجموعة من أعضاء الأكاديمية . وبينما الوضع على هذه الحال ، اذ برجل نحيل الجسم ، طويل القامة ، على وجهه آثار النعم وفي شخصيته سمة المتعلم ، يمر أمام المجموعة فتبادر بتحيته بكل احترام . هذا الرجل هو ميشال شاسلس . عمره ٧٧ عاماً عضو في الأكاديمية الفرنسية للعلوم ، خريج معهد البوليتكنيك ، حامل وسام كوبلين ، وهو أعلى وسام تمنحه انكلترا الى العلماء .

ما أن دخل هذا الرجل المهيب قاعة المحكمة ، حتى طلب اليه الرئيس بكل احترام أن يجلس . في الطرف الآخر ، في قفص الاتهام ، وقف رجل قصير وضيع المنظر وجهاً وثياباً . انه المتهم فرين ـ لوكاس .

وبدأت المحاكمة . فالتفت الرئيس الى لوكاس : ـ أنت متهم بالاحتيال وبيع السيد شاسلس ٢٧,٣٤٥ مخطوطة مزورة بقيمة اجمالية قدرها/ ١٤٠,٠٠٠/ فرنكاً . لم يأبه المتهم للهمهمة الاستغرابية التي ابداها الحاضرون ، بل ابتسم ابتسامة فيها الكثير من الخبث والسخرية ، مما حمل الرئيس على تنبيهه بأن عليه أن يخجل من فعلته ، التي كان ضحيتها رجل محترم مع المؤسسة العلمية الكبيرة التي ينتمي اليها .

ـ لقد أقررت بذنبي . ولكن أرجو الرئاسة أن لا تتهمني بأكثر من ذلك أو أن توجه الي

أي تـوبيخ . لقد فعلت ما فعلت خدمة لوطني . أردت من الوثـائق التي بعتها ' للسيد شاسلس اظهار أن نيوتن ليس مكتشف نظرية الجاذبية ، كمـا يقولون ، بـل باسكـال ، الفرنسي . وفي هذا خدمة جلّى لفرنسا !

ـ اسكت . انت تسرق افكاراً ساقها السيد شاسلس عن نظرية الجاذبية . ولم تكتف بذلك ، بل قمت بتلفيق وثائق تغطي بها فعلتك . هل من الـوطنية في شيء بيـع السيد شاسلس رسالة مزورة من كليوباترا الى يوليوس قيصر تقول له فيها ان ابنها سيـزاريون بصحة جيدة . وأنه سيتمكن من تحمل عناء السفر الى مرسيليا ؟

هنا ضجت القاعة بالصخب والضحك ، مما اضـطر رئيس المحكمة الى التهـديد باصدار أمر باخلائها إن لم يكف الحضور عن التشويش . أما السيد شاسلس ، فقد بدا مرتبكا خجلاً ، فيما أكمل الرئيس كلامه :

ـ أنا لا أفهم ما الذي يضحككم في هذا الاحتيال الحقير؟ هنـا ، انبرى من بـين الحضور صحفي وقال :

ـ نتساءل من هو الفلاح البسيط ، لوكاس أم العالم الكبير . . . . ؟

تجاهل الرئيس هذا التدخل وتناول رسالة أخرى كانت بين الأوراق أمامه وقال :

ـ اسمعوا . اسمعوا ما كتبه هذا المعتوه . وهنا أيضاً ، انبرى رجل ضخم الجثة كان يجلس في المقاعد الخلفية ، وصرخ :

ـ المعتوه هو الزبون وليس البائع . هاتوا قبعة حمار لعضو الأكاديمية .

وغصت القاعة بالصخب والهرج ، بينما كان الرئيس قد باشر بقراءة رسالة مزعومة أخرى موجهة هذه المرة من مارلين الى أخيها لازار ، بلغة فرنسية قديمة ، غاية في اتقان التمويه ، وفيها تشيد مارلين بحسن وفادة اهالي بلاد الغال لها ومعاملتهم لمرافقيها .

كانت هذه الرسائل من الطرافة بحيث راقت لجمهور الحاضرين فطلبوا المزيد منها ، وهم يضربون على المقاعد بضربات رتيبة ومتناغمة . ولم ينفـع تهديـد الرئيس بـاحضار الشرطة . بل على العكس ، زاد هذا التهديـد من قوة الضجيـج واستفحال الصخب . وأصبح الجو أشبه باجواء المسارح الشعبية . هنا ، وقد أفلت الزمام ، أمر الرئيس برفـع الجلسة .

يوم ٢٥ شباط كان موعد الجلسة التالية . لم يشهد قصر العدل حشداً من الحضور كالذي جاءه اليوم . الكل متعطش لسماع رسائل أخرى من التي زورها لوكاس وخدع بها

شاسلس . حتى أن الصحف أفردت في ذلك اليوم مساحات كبرى من صفحاتها للتحدث عن الموضوع . تهكمت على شاسلس ما فيه الكفاية . نشرت بعضاً من الرسائل ، معظمها يدل على بله لا يغتفر من رجل علم كشاسلس . ذلك أن أبطالها غير متزامنين ولغاتها ليست لغة العصر . وزيادة في بلة الطين ، فان الورق التي كتبت عليه هذه الرسائل ، هو الورق العادي الذي لم يكن ممكناً توافره في الزمن الذي تعود اليه الحوادث المدونة في الرسالة ، أو العصر الذي عاش فيه ابطالها . كل هذا ، وشاسلس كان يشتري هذه الرسائل من لوكاس ، بـ « ٥٠٠ فرنكا» لكل رسالة ، على أنها النسخ الأصلية دون أي ريب منه .

تلك هي البلاهة بعينها . بلاهة جاء المثقفون الى المحكمة ، في ذلك اليوم ، ليسخروا منها . أما الأخرون ، أما الفلاحون ، فقد جاءوا ليفخروا بزميل لهم استطاع أن يضلل كبير العلماء المرموقين . وكأنهم يريدون أن يسخروا ، من خلاله ، من أهل الحكم وأولي الأمر في ذلك العصر ، عصر حكم نابليون الثالث الاستبدادي . القضية اذاً اصبحت رمزاً ، بل رموزاً ، كل فيها يغني على ليلاه .

في هذا الجو داخل قاعة المحكمة ، بدأ محامي الدفاع مرافعته :

ـ ان انطلاء الحيلة على السيد شاسلس ، هو الذي شجع موكلي على الاستمرار والتكرار . كما أن من عناصر التشجيع ايضاً لهفة السيد شاسلس وتعطشه لمخطوطات أخرى وأخرى ، مما لم يجد معه موكلي ما يردعه عن الوقوع في اغراءات ثمنها .

ـ ويتدخل الرئيس مقاطعاً المحامي : غريب أمرك يا أستاذ . أو تعتقد أن لهفة السيد شاسلس لاقتناء المخطوطات القديمة ، بهدف اغناء المؤسسة التي ينتمي اليها ، أمر مبرر لجريمة لوكاس؟ ثم يكمل منفعلاً :

ـ هل أن هذه الرغبة النبيلة هي التي دفعت بموكلك الى الكذب وادعاء أن هذه المخطوطات يملكها شخص يدعى بواجوردان ، أحد اصدقاء لويس الرابع عشر؟ هنا ، وبشكل مفاجىء ، وقف شاسلس بقامته النحيلة وعقده الثامن ، ليطلب الكلام :

ـ لقد خدعت فعلاً يا حضرة الرئيس . ولكن الخدعة لم تنطل علي وحدي ، بل ان لوكاس أتاني ، للمرة الأولى ، ومعه توصية من أحد زملائي . وهو من كبار العلماء . صحيح أن بعضاً من الرسائل التي باعني اياها كان مليئاً بالمفارقات ، لكن الصحيح أيضاً هو أن رسائله الأولى كانت من الاتقان بحيث يمكن أن تنطلي على أي كان ، وبسهولة .

وقاطعه محامي الدفاع :

ـ أو لم تلاحظ في المراسلة التي زعم لوكاس أنها تمت بين نيوتن وباسكال ، أن نيوتن لم

يكن تجاوز الثانية عشرة من عمره ، وأن نظريات رياضية وردت فيها لم تكن معروفة آنذاك؟ كيف انطلى عليك أن كليوباترا ويوليوس قيصر يتكاتبان باللغة الفرنسية؟

وسط الضحك والضجيج ، وعبر التصفير والتهكم ، أجاب شاسلس مرتبكاً :

ـ لقد لاحظت هذه المفارقات وسألت لوكاس عنها ، فكان جوابه على قسط كبير من الخبث . قال لي أن هذه ترجمات بالفرنسية للنسخ الأساسية ، ترجمات قام بها رابليه نفسه في القرن السادس عشر .

لكن أحداً لم يسمع ما قاله شاسلس . كان الجميع يضحكون ويضجون . أما الرئيس ، فبعد أن أشار الى شاسلس بالعودة الى مقعده ، بدا عليه الضيق ونفاد الصبر . رفعت الجلسة ودخلت هيئة المحكمة للمداولة . وبعد دقائق فقط خرج الجميع والحكم جاهز بين أيديهم :

سنتان من السجن للوكاس و٥٠٠ فرنك غرامة . لم يكن الحكم بالشيء الذي يذكر أمام ربح بلغ ١٤٠,٠٠٠ / فرنكاً ، وكذلك أمام اضحاك أوروبا ، بل العالم كله لفترة امتدت حتى اليوم ، ولا يبدو أنها على وشك الانتهاء .

الأختان پاپين

لم يكن البرد قارساً في مدينة لومان الفرنسية في ذلك اليوم ، ٢٩ أيلول ، سبتمبر سنة ١٩٣٣ . ومع ذلك فقد كان الناس في قاعة محكمة سارك يرتجفون . كانوا يرتجفون من هول ما سمعوه عند قراءة قرار الأتهام العائد للأختين كريستين وليا پاپين .

في الثاني من شهر كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٣٢ ، اكتشف الشرطي ديزاليه ، في الطابق الأول من أحد ابنية لومان ، جثتين ، الأولى للسيدة لانسلين والثانية لابنتها . وقد اتضح انهما قتلتا بشكل فظيع : انتزعت عينا الأم وبقي مكانهما محجران مظلمان . أما البنت ، فقد طعنت في ظهرها عشرات الطعنات ، كما اقتلعت ، هي الاخرى ، عيناها .

عند اكتشاف الجريمة ، وجدت الأختان كريستين وبابين ، ٢٨ سنة و٢٢ سنة ، عاريتين في سرير واحد في غرفة من غرف البيت وعندما دخل رجال الشرطة عليهما ، بادرتاهم بالقول بكل بساطة :

ـ كنا بانتظاركم .

في المحكمة ، وبعد قراءة قرار الاتهام ، طلب من كريستين الوقوف ففعلت منتصبة . بعد ذلك ، بدأ رئيس المحكمة بتلاوة نبذة عن حياة المتهمتين : طلاق الأبوين ، العيش في ميتم بالنسبة لكريستين وفي مأوى بالنسبة لليا . دراسة طبيعية مع بعض التفوق ، ثم دخولهما في خدمة المغدورتين . بعد ذلك ، بدأ الرئيس باستجواب كريستين :

ـ كريستين ، لماذا غيرت عملك مرات عدة قبل الدخول في خدمة السيدة لانسلين ؟

ـ بسبب عدم الارتياح .

علماً بأن الذين استخدموا الأختين ، وكانتا تصران على العمل معاً ، ذكروا بأنهم كانوا مرتاحين ، هم ، لعملهما وسلوكهما ، على الرغم من بعض الكآبة التي كانتا تتسمان بها .

كان يبدو أنك كنت مرتاحة في منزل لانسلين ، اليس كذلك؟ وطول السنوات السبع التي امضيتها فيه ، كنت تعاملين وأختك معاملة حسنة . وقد ادخرت/ ٢٠,٠٠٠ / فرنك. فما هي مآخذك على هذه العائلة ، سيما وأن السيد لانسلين أدلى بحقك بشهادة جيدة؟

لم تجب كريستين ، بل ظلت واقفة صامتة وكأنها لا تسمع شيئاً مما تسأل فيه ، بل وكأنها لا تحس بشيء مما يجري حولها.

ـ بما أنك لا تجيبين ، فأنا سأتولى الاجابة عنك . ان مآخذك على عائلة بابين هي أنها من هذه العائلات البورجوازية القديمة التي تفتقر الى المرارة . وقد كان هذا الجوينعكس على معاملتك ، مما لم يترك مجالاً للتعاطي معك الا في حدود الخدمات التي كانت تطلب منك . اليس كذلك؟

ـ لا شيء

ـ هل سبق وعنفتك السيدة لانسلين؟

ـ كلا . بل أنا التي تثاقلت عليها . ويوم وقوع الجريمة ، كان يوم أحد ، دخلت مع أختي بعد الظهر الى غرفتنا ، حيث كنا نمضي اجازتنا الاسبوعية وبعد قليل سمعت ضجة في الدار ، خرجت ففاجأتني السيدة لانسلين بالتوعد . رأيت أمامي قضيباً من المعدن . ضربتها به فوقعت على الأرض . هنا ، جاءت ابنتها فهجمت عليها ونزعت عينيها بأصابعي . بعد ذلك ، خرجت أختي من الغرفة وتولت الاجهاز على الأم واقتلعت عينيها باصابعها ، هي الأخرى . وعقب ذلك ، نزلنا الى المطبخ واحضرنا منه مطرقة وسكيناً مثلنا بهما بالجثتين .

ـ ألم يكن بينك وبين أختك علاقة شاذة؟ كنتما تنامان في سرير واحد عاريتين؟

ـ كلا

ـ هل لديك ما تضيفينه؟

ـ كلا . . .

وجلست . في حين بدأ إستجواب ليا :

ـ بم اقتلعت عيني الأم؟

ـ باصابعي .

ـ ماذا فعلت بالسكين؟

ـ مثلت بواسطتها بالجثتين.

ـ لقد قتلت السيدة لانسلين. أما أختك فانها متهمة بالجريمتين. وعندما سألها وعندما سألها الرئيس عما اذا كانت نادمة على فعلتها، اجابت دون تردد بالسلب.

بعد هذا الاستجواب، بدأت قافلة الشهود كان الجو كله، وطوال المحاكمة، مشحوناً بالاستنكار والاستهجان. وكانت من وقت لآخر، تسمع صرخات من الحضور: الموت لكريستين وليا. أما الطبيب الشرعي، الذي جاء ليشهد، فقد قال انه لم ير في حياته جريمة ارتكبت بمثل هذه الفظاعة. وزيادة في بلة الطين، أكد الطبيب النفسي في تقريره الذي قدمه للمحكمة أن الفتاتين تتمتعان بصحة نفسية جيدة وبذكاء معقول. وهذا ما زاد في الحيرة حول اسباب الجريمة ودوافعها. كل ما ذكره هذا الطبيب هو أن عنصر الحنان كان مفقوداً في تربية الفتاتين، مما دفعهما الى الالتصاق ببعضهما البعض بالشكل الذي ذكر.

أما عن الأهل والأقارب، فقد أظهر تقرير عنهم ما يلي:

جد لأم كان مصاباً بداء النقطة. ابن عم مات في مستشفى للأمراض العقلية بعد اصابته بالجنون. عم شنق نفسه اثناء نوبة انهيار عصبي. وعن مراحل حياتهما الأولى: أم منحرفة تنتهي بطلاق زوجها وترك بناتها. أب مدمن على الكحول ومهمل لبناته، باستثناء الكبرى، اميليا، التي اصبحت عشيقته في الحادية عشرة من عمرها. وهي الآن راهبة في أحد الأديرة. لم يكن للحب مكان في حياة كريستين. كل هذه العناصر لم تكن، في تقرير الطبيب النفسي، على أي قدر من الأهمية. وأكد التقرير أن الأختين مسؤلتان مسؤولية كاملة عن فعلتيهما.

ثم جاء طبيب نفسي آخر، الدكتور لوغر، طبيب الشرطة، ليؤكد، خلافاً لزميله أعلاه، أن في الأمر انحرافاً نفسياً وشذوذاً جنسياً. وقد سبق أن تأكد ذلك عندما وضعت الأختان معاً في السجن لاختبار هذه الناحية. شوهدتا، بعد لحظات من تلاقيهما، في وضع غرامي فاضح. بعد هذا، ها هو النائب العام يلقي مرافعته ويطلب انزال اقصى العقوبة بحق المجرمتين: الأعدام لكريستين والمؤبد مع الأشغال الشاقة لليا.

لم يهز هذا الطلب أيا من الجالستين في القفص. حتى ليخيل أن الأمر لا يعنيهما لا من قريب ولا من بعيد.

وجاء وقت الدفاع فوقفت المحامية جرمين لتقول:

ـ منذ أن وقع نظري على الأختين بابين في السجن، أحسست أني أمام معتوهتين.

ثم بدأت بتفنيد الثغرات في التحقيقات وفي أقوال الشهود :

ـ لماذا لا نأخذ في الاعتبار العاهات العقلية والنفسية في العائلة؟ لماذا لا نعير وزناً للعقلية القروية التي نشأت عليها المتهمتان؟ أنا لا أطلب أنكم ستحكمون بالعقوبة القصوى على مريضتين . كما أني لا أطلب تبرئتهما . كل ما أطلبه هو بعض التعمق في دراسة الوضع النفسي والعقلي للفتاتين . ألم نسمع تناقضاً بهذا الشأن من طبيبين مشهورين في حقل الطب العقلي؟ أيجوز أن لا يكون هذا التناقض في مصلحة الفتاتين؟

استمرت الجلسة حتى بعد منتصف الليل . عندها ، انسحبت هيئة المحكمة وهيئة المحلفين للاختلاء والتداول . أربعون دقيقة مرت وهم في الداخل . ولما خرجوا ، أعلن الرئيس الحكم :

الأعدام لكريستين والسجن مع الأشغال الشاقة عشرة سنين لليا .

دخلت السجينتان السجن وأغلق خلفهما باب القفص الداخلي وكانت الساعة قد قاربت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل . وباغلاق الباب ، اغلق على السر الخفي الذي دفع الفتاتين لارتكاب الجريمة المزدوجة .

لم ينفذ حكم الاعدام بكريستين . لقد ماتت في مستشفى المصح العقلي الذي ادخلت فيه بعد حوالي ثلاث سنوات .

أما ليا ، فقد مكثت في سجنها ثماني سنوات ، خرجت بعدها منه معفاة من سنتين من أصل المدة بسبب سلوكها الجيد . وفور خروجها عام ١٩٤١ ، ذهبت لتعيش مع أمها وتموت الى جانبها وبموتها اسدل الستار وغابت الذكريات .

بودلير

باريس في ٢٠ آب ـ أوغسطس سنة ١٨٥٧ . لم يكن الحضور كثيفاً في قاعة المحكمة . ذلك أن هذا النوع من المحاكمات لا يستقطب الكثير من الفضوليين . علماً بأن جلسة اليوم قد تتضمن بعض المشوقات . المتهم يدعى شارل بودلير. والتهمة الموجهة اليه والى الناشرين المتعاونين معه ، هي أنه نشر مجموعة شعرية اعتبرت مخلة بالآداب العامة : أزهار الخطيئة .

ها هو رئيس المحكمة دوباتي يتلو قرار الملاحقة : طعن بالآداب العامة ، طعن بالتقاليد الدينية . . .

لم يكن شارل بودلير مشهوراً لدى الكثير من محبي الشعر . فأعماله الأدبية ، وهو لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره ، محددة : كتابان في النقد الفني وترجمة لكتابين من تأليف ادغار پوهما : قصص غريبة وقصص جديدة غريبة .

لكن ذلك لم يمنع فيكتور هوغو وفلوبير من اعطائه وزناً ومن اعتباره نداً لهما .

هذا الأديب الناشيء ، النحيل القامة والمهمل المظهر ، يجلس مع الناشر مالاسيس في قفص الاتهام . أما الناشر الأخر برواس فلم يحضر . . .

التهمة أخلاقية . وهذا النوع من التهم لم تكن تحظى بأي سبب مخفف في عهد الامبراطورية الثانية المتشددة في هذا المضمار . حتى أن فلوبير ، منذ حوالي ستة أشهر ، كاد يدخل السجن لنشر قصته الشهيرة «مدام بوفاري» لولا أن استطاع اقناع المحكمة بحسن النية ونقاوة المرمى .

لكن الوضع مع بودلير مختلف والأمر ليس بالسهولة نفسها . خصوصاً اذا علمنا أن نابوليون الثالث كان ، بطبعه ، شديد الحساسية تجاه الأدباء ، وكان لا يسمح لهم بما يسمح به اليوم من بعض الحرية في المسرح والمغناة . حتى أن فكتور هوغو لم يكن ليتمكن من كتابة

ما كتب لولا ابتعاده عن فرنسا في تلك الفترة من عهد هذا الامبراطور.

ومما زاد الطين بلة، أن النقمة انصبت على بودلير اثر فشل المحكمة في النيل من فلوبير الشهير والخطير لقد وجد القاضي بينار في المتهم الجديد متنفساً لعقدة العجز التي عانى منها مع فلوبير. فبودلير لا يثير بين الأدباء وفي اوساطهم ضجة تذكر والحكم عليه لا يسبب أية اشكالات ولا يفرز أية ذيول.

هذا الوضع تركز بشكل أعمق عندما انبرت مجلة نصف اسبوعية، الفيغارو، في حملة مسعورة على بودلير، ملصقة به أبشع التهم. كان ذلك في مقالين متتاليين صب فيهما كاتبهما حقداً أسود وضمنتهما ما لا يوصف من النعوت والاستعارات.

في هذا الجو ووسط تلك الخلفيات، بدأت المحاكمة. وبدأ الادعاء العام مرافعته. كان قاسياً وجارحاً. صب على المتهم شتى أنواع تهم التهتك والتحلل الاخلاقي. نعته بالخطر الاجتماعي وبالآفة. صوره وكأنه الشيطان.

بعد هذه المرافعة الحاقدة، جاء دور الدفاع. وها هو المحامي شاكس يقف ليفنّد ويقول:

ان ما جاء في مرافعة الادعاء العام مجتزأ ومفصول عن ينبوعه. هذا الينبوع هو الأهم: لقد ابرز الشاعر بعض الصور اللاأخلاقية في الظاهر، وذلك بهدف توعية القارىء وارشاده. تماماً كما فعل موليير عندما تهكم على العيوب وجعل المشاهد لمسرحياته يستنتج المغزى. هذه الطريقة هي الفضلى في تعليم الفضائل. وهي ما توسلها المتهم من خلال صوره الشعرية. الخلاصة إذاً، هي أن بودلير حسن النية. وهذا هو المهم.

ثم، ألا ترون أننا اذا حكمنا على بودلير، فاننا سنضطر الى الحكم على كثيرين غيره من كبار كتابنا وشعرائنا، الذين سلكوا، جميعاً، نفس الطريق وانتهجوا نفس الوسيلة؟ أذكر من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: لافونتين وروسو وفولتير وبومارشيه.

قال ذلك وطلب البراءة لموكله. هنا، سمع بودلير يتمتم باستياء بأن ما قيل في مرافعة الدفاع ليس ما يجب أن يقال. في نظره ليس على الكاتب ان يتقدم للأخلاق بكشف حساب. ونيته يجب أن لا تؤخذ في الاعتبار، بل ما يجب أن يؤخذ في الاعتبار هو موهبته والموهبة فقط..

لم يمض طويل وقت الا وكانت المحكمة تلفظ الحكم بالغرامة على بودلير بقيمة ٣٠٠ فرنك وعلى كل من الناشرين بغرامة تبلغ ١٠٠ فرنكاً. وتضمن الحكم أمراً بحذف المقاطع التي تمس الأخلاق والتقاليد.

لم يستغرب بودلير الحكم. فقد كان يتوقعه في محكمة تمثل الجناح المحافظ في المجتمع.

حدثان اثنان اعقبا الحكم على بودلير:

الأول ـ تحفل برسالة تهنئه وتشجيع تلقاها من فكتور هوغو في منفاه، يشدّ فيها الكاتب والشاعر العظيم على يد بودلير ويعتبر الحكم اكليل غار كرس الانتصار.

ـ اما الحدث الثاني فقدحصل بعد حوالي مئة عام، عندما قررت محكمة السين، بناء لطلب عصبة الآداب، الغاء الحكم ضد بودلير. وقد صدر هذا الحكم في ٣١ أيار ـ مايو سنة ١٩٤٩.

وهكذا انتصر الفكر المبدع على أخلاقية العصر في صراعهما. انتصر بعد مئة عام مدللاً أن المسألة مسألةوقت. ترى، هل تبادر لذهن بودلير وهو يخرج من قاعة المحكمة بعد الحكم عليه، ان مئة سنة ستمضي قبل أن يلفظ حكم آخر برد اعتباره وبانتصار ما آمن به في وقت كان جد مبكر؟..

محاكمة السيدة كايو

في العشرين من شهر تموز- يوليو من عام ١٩١٤ ، بدأت في باريس محاكمة السيدة كايو، زوجة اشهر رجال السياسة الفرنسيين آنذاك ، السيد جوزيف كايو، الذي تعاقب خمس مرات على وزارة المالية ، وشغل منصب رئيس الحكومة، بالاضافة الى كونه زعيم الحزب الراديكالي.

والسيدة كايو متهمة باطلاق رصاصات قاتلة على السيد غاستون كالميت، مدير جريدة الفيغارو، لشنه حملة صحفية على زوجها ، اعتبرتها ، هي ، مغرضة .

وعلى الرغم من أن هذه المحاكمة ليست مثيرة في بداية هذا الصيف من سنة ١٩١٤ بالقياس إلى انشغال البلاد والعباد بأخبار الحرب التي حصدت، في ما بعد، الأخضر واليابس ، فأن الكثيرين أتوا الى قصر العدل لمشاهدة المحاكمة . ناهيك عن العدد الكبير من رجال الأمن ، الذين اندسوا بين الناس بلباسهم المدني تحسباً لكل طارىء . وإلى جانب هؤلاء كان هناك من دعوا للحضور من المجتمع المخملي. اتوا بكامل أناقتهم . حتى ليخيل للمرء أنه في الاوبرا في حفلة افتتاح تمثيلية جديدة .

والطريف أن مناقشاتهم عن شؤون الساعة ، ومنها الشأن الدائم، ازياء الموسم ، لم تنقطع عند دخول هيئة المحكمة والمباشرة بالمحاكمة . الا أن البعض منهم تنبه ، لحسن الحظ ، لهذا المنظر مهيب: هيئة المحكمة ، النائب العام ، المحامون ، ومنهم لابوري ، محامي دريفوس ، الضابط الشهير المتهم بالتجسس لحساب الألمان . بالاضافة الى المحلفين الاثني عشر ذوي التعابير الجامدة . ولا ننسى من في القفص ، السيدة كايو، التي جاء الكثيرون من أجلها . وقد كانت في أبهى حلتها .

وبينما الناس ينتظرون في بداية المحاكمة أن يبدأ الرئيس بعبارته التقليدية: أيتها المتهمة ، قفي ، اذ به يلتفت نحو القفص الحديدي ويقول للجالسة فيه ، تلك التي كان

الرئيس لوقت قريب يجلس على الموائد بجانبها ويتباهى بالتجاور وزوجة معالي الوزير: هل تتكرمين بالوقوف، سيدتي؟

وقفت المتهمة المحترمة فعلاً. وبصوت رخيم وواثق، أجابت عن الأسئلة. عرضت مراحل حياتها: نشأة سعيدة في عائلة بورجوازية، زواجها الأول من الكاتب ليو كلاريت، انجابها منه طفلين، طلاقها لعدم الانسجام، غرامها مع السيد كايو المتزوج، هو أيضا، من سيدة تدعى غيدان. كانت المتهمة تقص مراحل حياتها كما لو كانت تترنم بذكريات ممتعة. أما القاعة، فكانت كلها آذاناً صاغية. لم لا والقصة مشوقة من امرأة بجمال وأنوثة السيدة كايو؟

هنا، توقفت المتهمة لحظة عن الكلام. وعندما عاودته، تبدلت لهجتها وأصبحت على شيء من الكآبة. قالت ان الزوجة الأولى للسيد كايو هي التي هدمت حياتها مدفوعة بالغيرة التي كانت تنهش اعصابها. سرقت تلك المرأة رسائل الغرام والسياسة التي كان العاشقان يتبادلانها في أوج تعلقهما، الواحد بالآخر، وقبل تحرر كل منهما من زواجه، سرقتها وعرضتها على الصحف للتشهير بزوجها الذي «خانها» مع سواها.

هنا، استجمع الرئيس قواه وسأل المتهمة عن العلاقة بين هذه الرسائل وفعلتها. سيما وأن الصحف التي عرضت عليها رفضت نشرها، باستثناء الفيغارو التي نشرت رسالة واحدة منها. وهذه الواحدة لا ذكر فيها للغرام ولا لبطلته. عن هذا السؤال، اجابت المتهمة:

- صحيح، سيدي الرئيس، لكن السيد كالميت كان سينشر سواها، لا سيما رسائلي، أنا، الى زوجي. وفي هذا فضيحة كبرى. وعندما ذهبت اليه، انما فعلت ذلك لتهديده فقط، ولم يكن في نيتي قتله. والآن، كم كنت اتمنى لو قام بنشر كل الرسائل على ان يلقى هذا المصير؟

ما أن انتهت السيدة كايو من الكلام حتى دوت عاصفة من التصفيق. شيء طريف. لقد تحولت الى مسرح. والستار أسدل على الفصل الأول وسط اعجاب الجماهير بالممثلة. ونجاح هذا الفصل، شجع الجميع على الاستمرار في مشاهدة الفصل التالي، حيث سيكون البطل، هذه المرة، السيد كايو نفسه.

وهكذا كان. ففي اليوم التالي كان الحضور اكثر كثافة. بدأت المحاكمة بمرافعة المدعي العام شينو. وكانت مرافعة أشبه شيء بالصاروخ الموجه الى الوزير كايو بالذات. لقد اتهمه بدفع زوجته لارتكاب الجريمة خوفاً من فضيحة. هذه الفضيحة ليست، والقول

لا يزال لشينو، بسبب رسائل الغرام، بل لأن كالميت أعلن أنه سيكشف عن سر عرفه كايو وخاف من انكشافه. هذا السر هو ضغطه على المدعي العام فابر لحماية رجل المال روشيت، الذي اتهم بفضيحة باناما الشهيرة، وبالتالي، تبرئته، زوراً، من التهمة. لماذا هذا الضغط، وقد حصل من خلال مركزه كوزير للمالية؟ لأن روشيت هو الذي قام بتمويل حملة كايو الانتخابية.

هنا بدأت الهمهمات في القاعة. بعض من الحضور، وهم مأجورون جاء بهم كايو لوقت الحاجة، بدأوا بالتصفير وبشتى أنواع التشويش بهدف منع المدعي العام من اكمال مرافعته. في حين أن جموعاً أخرى تصدت لهذه المناورة مطلقة صرخات مدوية: لص، محتال، قاتل . . . . وقد وجد الرئيس كثيراً من العناء في اعادة الهدوء الى القاعة. واستمر شينو في مرافعته وسط محاولات متكررة من التشويش ومواقف مائعة من الرئيس، كلما كان التشويش صادرا من رجال كايو. وبعد أن انتهى شينو من قراءة الرسالة، رسالة كايو الى زوجته الأولى، التي كلفت كالميت حياته والتي صورت الكثير من الازدواجية الخداعية في شخصية كاتبها، أعلن الرئيس أنه سيستدعي السيد كايو كشاهد، وأنه يطلب من الجميع الهدوء والانضباط.

وما هي الا لحظات حتى دخل كايو. اشرأبت الأعناق لترى الرجل الذائع الصيت. لقد كان مهيباً فعلاً. وازدادت هيبته وتعمق وقاره عندما بدأ يتكلم. كان أخاذاً في حديثه. قال وعيناه شاخصتان في زوجته الجالسة في قفص الاتهام تجهش بالبكاء:

ـ سيدي الرئيس، أنا القاتل الفعلي وليست زوجتي. أنا القاتل لأني لم أحم زوجتي، التي اعطتني السعادة، من خبث الخبثاء وحقد الحاقدين. كان يجب أن ألاحظ في نظراتها المشعة بالحب ظلال الاسى الذي سببه لها مكر كالميت وحقارته. لقد قتلت فعلاً في لحظة ضعف. لكنها قتلت لأنها تخشى على الحق وتخاف من أن يضيع. لقد اتهمني المدعي العام بالضغط لانقاذ روشيت. نعم، لقد فعلت هذا. ولكني فعلته بتوجيه من الحكومة ككل، وخوفاً على تفاقم الوضع المالي لفرنسا في وقت كان هذا الوضع دقيقاً وعلى وشك الانهيار. يتهمني البعض بالاثراء من خلال الوزارة. هذا غير صحيح وبامكاني اثباته. والصحيح هو أن كالميت هو الثري. كالميت الذي كان يدعي الدفاع عن حقوق الضعفاء. وهاكم برهاناً على ذلك. هذه نسخة عن وصيته الى ورثته: ١٣ مليوناً من الفرنكات.

ما أن ذكر هذا حتى بدأ الاستياء على الكثيرين: كيف تمكن كايو، وتحت أي ستار، من الحصول على وصية خاصة مع أن هذا محظور تماماً بحكم القانون؟ وبلغ هذا الاستياء

درجة اضطر معها الرئيس الى رفع الجلسة.

في اليوم التالي، ٢٢ تموز-يوليو، ظهرت الصحف وفيها عن أخبار المحاكمة أكثر بكثير مما فيها عن أخبار الحرب. لقد وجدت صحف اليمين في فضيحة الوصية مادة للتهجم على وزارة المالية وعلى كايو ومعهما اليسار والاشتراكية.

الواقع أن كايو يلعب في هذه المحاكمة ورقة مستقبله السياسي. هل تمر السحابة ويعود، بعد أن استقال من وزارة المالية بسبب القضية، على رأس تحالف راديكالي اشتراكي، فيشكل حكومة تمنع نشوب الحرب؟ أم أن السحابة قد تجرفه وتجرف معه كل من يمثل وما يمثل؟

أسئلة تفرض نفسها، خصوصاً اذا علمنا أن كايو، دون سواه، وبما يتمتع به من قوة، يستطيع التحاور مع ألمانيا. وهو وحده الذي فاوض، منذ ثلاث سنوات، في المعاهدة الفرنسية الألمانية، عقد حادث أغادير، هذه المعاهدة التي أطلقت يد فرنسا في المغرب مقابل جزء من الكونغو لالمانيا. يضاف الى ذلك أنه صديق لسفير المانيا في باريس والخصم العنيد الذي يستطيع أن يقف في وجه كليمنصو وبارتو، من خلال نوابه الكثر في المجلس. ومعلوم ان هذين الأخيرين متحمسان للحرب ضد ألمانيا، خلافاً لكايو، الذي يرى في هذه الحرب ضرراً كبيراً على البلاد وعلى العباد، يمكن تفاديه بالتفاهم.

ونعود الى قاعة المحكمة. السيد لاتزاروس، محرر الفيغارو، يدلي بشهادته:

- حضرت السيدة كايو الى مقر الجريدة وطلبت مقابلة السيد كالميت. وبعد فترة انتظار، سمح لها بالدخول، فاذا بها، وبكل هدوء، تسحب من فتحة كمها مسدساً وتبدأ باطلاق النار، دون أي انفعال أو تردد، على السيد كالميت، الذي لم يجد الفرصة للوقوف لاستقبالها. وما هي الا لحظات، حتى أغلق عينيه وغاب في لا وعي أبدي أمام مرأى الصحفيين والحجاب وجمود تفكيرهم. عبارة واحدة تمكن من تمتمتها قبل الموت:
«أشعر بالانزعاج... قولوا أني قمت بواجبي». صرخ أحدهم: «السيد كالميت يموت». فأجابت السيدة الأنيقة، دون أن يرتعش فيها عصب: «كان لا بد من ذلك، فالعدالة معدومة في فرنسا».

هنا، خيم سكون ثقيل على القاعة بمئات من فيها. المحلفون يسترقون النظر الى المرأة الجالسة في القفص والتي تبكي دون صوت. هذه المرأة المنهارة هي ذاتها التي ارتكبت جريمتها بهدوء وتصميم منقطعي النظير منذ ما يقل عن أربعة أشهر.

وتابع لاتزاروس:

ـوقبل نقل جثة السيد كالميت من المكتب، ، قمنا، جميعاً، صحفيين وحجاباً، بتنظيم محضر بالأوراق والمستندات وكافة موجودات المكتب. واذا كانت السيدة كايو قد قتلت السيد كالميت لخشيتها من نشر رسائل اعتبرتها ماسة بـزوجها ومستهـدفة مستقبله السياسي، فماذا كانت ستفعل لو أنها علمت بما كانت تحويه حافظة أوراقه ساعة اقتراف الجريمة؟ كان فيها ما يشين سمعة السيد كايو ويصنفه في لائحة الخونة. أجل الخونة.

لدى سماع هذه الكلمات اهتزت القاعة بكاملها. حتى لكأن صـدمة كهـربائيـة أصابت الجميع، لا سيما أنصار معالي الوزير. . . ومن أعماق القاعة، تعالت أصوات تطالب بكشف الحقيقة عن «المستندات الخضراء! . . . . »، وبفضح الخائن. . . . !

لقد استنتج الجميع أن المستندات الخضراء ليست سوى الوثائق التي كثر اللغط حولها منذ فترة، وهي تتعلق بوعود تعهد بها كايو، للألمان خلال محادثاته معهم عام ١٩١١، وأخفاها عن سائر أعضاء الحكومة آنذاك. هذه المستندات لم يتمكن أحد من اكتشافهـا لاثبات الخيانة. وها هي تظهر في حاملة اوراق المغدور. ويحق الآن لأي كـان استنتاج الدافع الحقيقي للجريمة، التي أراد بها كايو استباق الحوادث واسكات الصوت الوحيد، الفاضح لمؤامرته الدنيئة ضد الوطن. وما ادعاؤه وادعاء زوجته أن الجريمة وقعت في لحظة ضعف وتخلّ الا تغطية لجريمة اقترفت عن سابق تصور وتصميم وبتنسيق وثيق بين القاتلة وزوجها.

ما أن انتهى لاتزاروس من تفجير قنبلته التي أصابت شظاياها الأصدقاء والدفاع، حتى انبرى المحامي العام شينو واقفاً وعلى وجهه كل ما يمكن أن يعبر عن تصميمه على سحق كبرياء كايو المزيف وصلفه الذي كثيراً ما توسله للنيل من خصومه السياسيين. وقف ليطلب من لاتزاروس متابعة الكلام وقول المزيد مما يعرف. لكن لاتزاروس لم يفعل ليقينه أن كشف مستنـدات كتلك في العلن ليس بالأمـر المستحسن. هذا المـوقف أثلج صدر الرئيس، الذي طلب من الشاهد أن يعود الى مكانه، معتبراً أن الفضيحة طويت.

ولكن، لم تمض لحظة الا وكانت مفاجأة محامي الدفاع، السيد لابوري. لقد رفض هذا أن يسكت لاتزاروس، بل توجه الى هيئة المحكمة صارخاً بأعلى صوته:

ـ أرفض أي اشكال يمكن أن يكون قد علق في الأذهان وأطلب من الشاهد كل افصاح وأمام السيد كايو بالذات.

تطلع الرئيس الى المحامي وكأنه كان يلومه على رعـونته وخفتـه. وازداد الرئيس امتعاضاً عندما سمع السيد كايو يتدخل، هو الآخر، ليقول للشاهد:

ـ عندما تتهم ، يجب أن تذهب الى أبعد مدى في الاتهام . اتحداك أن توضح !
ـ لا أستطيع كشف المستندات . فالسيد كالميت لم يكن ينوي نشرها . كان يخشى على البلد من مخاطر هذا النشر .
ـ كفاك كذباً وتلفيقاً . اذا كانت هذه المستندات لديك ، فما عليك الا قراءتها . اقرأها . . . . اقرأها !
ـ قلت لك لا أستطيع . لقد تدخلت شخصيات كبيرة لدى السيد كالميت لثنيه عن نشرها . بعد كل هذا ، أنا لا أجرؤ أن أتحمل وحدي مسؤولية كشفها اليوم . ويتدخل محامي الدفاع ليقول للشاهد :
ـ بسكوتك ، يا سيد لاتزاروس ، تضيف ذنب الكذب الى ذنب التشهير! . . . .
ـ أنا لا أشهر . هذه المستندات موجودة فعلاً . وقد قام شقيق المغدور بتسليمها الى رئيس الجمهورية .

وغرقت القاعة في بحر من الضجيج والصخب . فهم الجميع لماذا لم يستثمر المحامي العام شهادة لاتزاروس لمصلحة الحق والعدالة . وفهموا أن القضية نسفت من الأساس ومنذ البداية .

هنا ، أحس لابوري ، محامي الدفاع ، أن الأمر يفلت من يده . لكنه ، وهو المناور اللامع ، انتقل الى الهجوم لكي لا يجرف بالتيار من خلف . التفت الى المحامي العام ليقول له بانفعال شديد مصطنع :

ـ كيف يمكنني يا سيدي أن استمر في مهمتي وهناك عناصر هامة بين يدي الحكومة ، في حين موقعها الطبيعي هنا . لذلك أعلن امام الجميع انني سأمتنع عن المرافعة منذ هذه اللحظة وحتى احضار المستندات .

نجحت المناورة وتعالى التصفيق . لكن الأمر اصبح واضحاً بعد أن مرت العاصفة : لقد أخذت القضية منحىً سياسياً . وهذا قد يعطل ، الى حد بعيد ، تحرك العدالة بحرية ، كما قد يخفي الحقيقة على من هم أحق الناس بها .

في ٢٤ تموز-يوليو ، وهو اليوم الرابع للمحاكمة ، ازدحمت المقاعد في القاعة . حتى أن أماكن الصحفيين لم تسلم من الاجتياح . وكانت المظاهر تدل على أن نسبة كبرى من الحضور كانت من الطبقة الاستقراطية والطبقة البورجوازية . جاءوا ليشهدوا المحاكمة المثيرة التي شغلت الناس وملأت أعمدة الصحف في صفحاتها الأولى . جاءوا ليسمعوا ويشاهدوا رئيس الحكومة ووزير المالية وزعيم الحزب الراديكالي وقائد الخط الداعي الى

السلام مع ألمانيا . . ليسمعوه ويشاهدوه في أدق لحظات حياته . لقد اصبح السيد كايو هو المتهم واسترق الاضواء من أمام زوجته القاتلة . اليس هو المستفيد من الجريمة التي كانت ترمي الى منع كالميت من نشر المستندات الخضراء؟

كما جاءوا ليسمعوا شهادة السيدة غيدان ، الزوجة الأولى للسيد كايو ، والمتهمة بتحرير رسالته التي نشرها كالميت في صحيفته . لذلك ، ينتظر ان تكون الجلسة مليئة بالاثارات . سيما وأن السيد كايو حشر في القاعة عدداً كبيراً من عناصر الميليشيا الخاصة به والتي شكلها من قساة الكورسيكيين . هذا التحضير المنظم لاجهاض ما يمكن أن يحدث ، برز في التصفيق الحار الذي قوبل به رئيس الحكومة السابق عندما دخل قاعة المحكمة ، كما أغرق خصومه وأضعف من شأنهم . ولما أبدى أحد الصحفيين ملاحظة في وجهه في هذا الموضوع ، أجابه بأن خصومه ينوون احتلال قصر العدل . فالميليشيا هذه ، الآتية من كورسيكا ، ضرورية لمنع التمرد .

أعلن الرئيس افتتاح الجلسة . وأول ما قام به هو اعطاء الكلام للمدعي العام هيربو ليقرأ جواب الحكومة عمّا اثير في جلسة الأمس .

- «ان المستندات التي قيل انها أودعت رئيس الجمهورية والمسماة» المستندات الخضراء» ليست سوى أوراق مزورة ، القصد منها النيل من وطنية السيد كايو» .

لم يصدق احد ما قرىء . لكن هذا لم يمنع رئيس المحكمة من اعتبار الموضوع منتهياً ومن الأمر بطيّه . غير أن المحامي العام ، السيد شينو ، أعلن أمام الجميع :

- الموضوع طوي . نعم . طوي وارتاح السيد كايو . أما أنا ، فلا أشعر بهذا الارتياح .

وتابع :

انها مفارقة طريفة . بين عشية وضحاها ، يحصل السيد كايو على شهادة رسمية بالوطنية .

انتفض السيد كايو وجابه السيد شينو قائلاً :

لقد اخطأت السماع يا سيدي : أذكرك أن حضرة المدعي العام قال أن هذه المستندات غير موجودة أصلاً !

- أنا أؤكد أنها موجودة ، لكني لا أستطيع الاتيان بها وكشفها لأسباب تتعلق بالسلامة الوطنية .

- ان كلام السيد شينوخال من الشعور بالمسؤولية . وأترك تقدير الموقف للسادة المحلفين .

- أنا أتحمل شخصيا مسؤولية كل كلمة قلتها بهذا الشأن. اذ كنت تهددني يا سيدي، فلأنك لا تعرف من أنا.

لم يجب السيد كايو. فالتصفيق الحار الذي تفجر في القاعة اعجاباً بموقف المحامي العام منع عليه أية كلمة. وها هو الرئيس يستدعي الشاهدة السيدة غيدان، زوجة السيد كايو الأولى.

بدأت الشهادة باستعراض لمرحلة زواجها السعيد من السيد كايو وقبل ان تأتي زوجته الثانية لتخطفه منها. أما الرسائل فقد قالت السيدة غيدان عنها أنها ليست من الأهمية في شيء وأنها لن تظهرها لأحد، لأن الأمر يعنيها هي ولا يستطيع احد الزامها خلاف ذلك. وأصرت على موقفها على الرغم من تدخل المحامي العام شينو وطلبه اليها مراراً ابرازها للمحكمة دون جدوى. امام هذا الموقف الثابت، فكر شينو بالضرب على وترحساس لسيدة هزمت امام امرأة انتزعت منها من تحب، فلفت انتباهها الى أن امتناعها عن ابراز الرسائل لا يخدم السيد كايو في شيء، بل يخدم زوجته الموجودة في قفص الاتهام، تلك التي اتهمتها بتسليم الرسائل لمحرر الفيغارو.

لقد عرف شينو كيف يسدد الضربة ويصيب الهدف. بعد تردد ليس بالطويل، فتحت السيدة غيدان حقيبتها وأخرجت الرسائل ووضعتها امام المحلفين.

هنا، انتفض السيد كايو معترضاً بحزم باعتبار ان زوجته قتلت لمنع هذه الرسائل من النشر. فمن الظلم، كما قال، ان تفضح أسرار خاصة وبهذا الشكل.

تأثر المحلفون بالحجة التي ساقها السيد كايو ولم يمد احد منهم يده للرسائل. فما كان من محامي الدفاع الا أن انتهز الفرصة وامسك بها.

بعد ان اطمأن السيد كايو الى ان الرسائل اصبحت مع محاميه، وقف ومشى نحو مدخل القاعة مغادراً. فما كان من رئيس المحكمة الا ان أعلن رفع الجلسة وسط استغراب واستهجان الجميع من هذه التبعية الغريبة.

٢٨ تموز - يوليو ١٩١٤. في هذا اليوم، وبينما كانت قاعة المحكمة تكتظ بالحضور في أخر يوم من محاكمة السيدة كايو، كانت باريس تعيش حالة من الغليان، فالحرب تدق أبوابها من الطرف الآخر من الراين.

في هذا الجو المشحون، كانت التحالفات تتشكل: المانيا والنمسا والمجر من جهة، وفرنسا وروسيا من جهة اخرى. اما انكلترا فلا زالت تنتظر، وعلى الرغم من كل هذا، كانت هناك اصوات ترتفع خافتة حيناً ومدوية حيناً آخر، وتدعو الى تفادي الحرب، وذلك

في كل من فرنسا والمانيا على السواء.

في فرنسا، هناك جان جوريس، الزعيم الاشتراكي. لكن دعوته المتحمسة للتعقل لم تكن بالقوة الفعالة. كان يحتاج الى حليف قوي في صفوف اليسار الوسط، يسار البورجوازية الفرنسية. وليس من حليف افضل من كايو. لكن كايو منشغل منذ اسبوع بمحاكمة زوجته. وهو، منذ اسبوع ايضاً، لا يحضر الى مكتبه في رئاسة المجلس.

في هذا الجو تمت المرحلة الأخيرة من المحاكمة. لم يستطع محامي المغدور ان يؤثر في العمق على قناعات المحلفين. اما محامي الدفاع المشهور بمناوراته البارعة فقد بدأ مرافعته بابداء الأسف على مقتل السيد كالميت الذي «أخطأ دون قصد وانحنى عندما كانت السيدة كايو تطلق النار الى اسفل» وهذا الخطأ هو الذي أدى الى الوفاة، بالاضافة الى تأخر الاطباء في اسعاف المصاب»!!

السيدة كايو اذا لم تكن تقصد القتل. هذا ما «أكده» محاميها. هذه العناصر وخلفياتها السياسية مع ما أفرزت من ضغوطات منظورة وغير منظورة جعلت المحلفين يقررون ان السيدة كايو غير مذنبة. وصدر الحكم بالبراءة. البراءة، نعم، هكذا، وبكل بساطة.

داخل المحكمة انفجرت عاصفة من التصفيق. اما في الخارج، فقد احرق المتظاهرون الكثير من اكشاك الصحف وقاموا بمجابهة رجال الشرطة رافعين شعارات التنديد بكايو وزبانيته.

لم يطل شهر العسل الذي حلم به كايو. فبعد خمسة ايام فقط على انتهاء المحاكمة، صرع جان جوريس، حليف كايو المنتظر، وبمصرع جوريس، تلاشى آخر أمل بتفادي الحرب. تلك الحرب التي اندلعت بعد ثمانية ايام وباندلاعها غرق العالم في مأساة دامت سنوات وحصدت الملايين من الناس بعد ان قلبت المعادلات السياسية في اوروبا بل وفي العالم أجمع.

السموم
لابرينفيلييه

لم تكن القضية، التي تنظر فيها أعلى محكمة في المملكة، هذا اليوم، ١٧ نيسان ـ ابريل ١٦٧٦، قضية عادية. فالمتهمة هي المركيزة ماري مادليني روبي، مركيزة برنفيلييه، المرأة التي هام بحبها الكثيرون وتمنى القرب منها كثيرون آخرون.

لذا، فالجميع ينتظر مفاجآت خلال المحاكمة. وقد بدأت هذه المفاجآت فعلاً بوثيقة تتضمن «اعترافاً» للمركيزة، وجدت في علبة مخبأة في زاوية غرفة الكابيتان غودين، الذي وجد مقتولاً في بيته منذ حوالي اربع سنوات في ٣١ تموز ـ يوليو سنة ١٦٧٢.

فوق العلبة، وجدت رسالة مكتوبة بخط يد الكابيتان تطلب الى من يجد العلبة ان لا يفتحها بل ان يعطيها الى صاحبتها المركيزة لكن العلبة فتحت من قبل الشرطة وقرىء ما فيها: اعتراف ببعض الديون ورسالة منها الى الكابيتان. اما العنصر المريب، فهو السائل الذي وجد في العلبة، والذي اكتشف اصحاب الاختصاص انه سم. هذا السم كان قد تسبب في موت كثيرين، منهم والد المركيزة واخوها. وهذا ما أفقد المركيزة صوابها وجعلها تسعى بشتى الوسائل لتفادي الفضيحة وبالتالي لاسترجاع العلبة.

ولما فشلت، تركت فرنسا ورحلت متخفية بين بلجيكا وانكلترا لتعيش السنوات الاربع السابقة لتوقيفها.

القي القبض على المركيزة في اذار ـ مارس من سنة ١٦٧٦ يوم دخلت الجيوش الفرنسية الى بلجيكا وقد قام بالقاء القبض عليها الكابيتان ديفري وارسلها تحت حراسة مشددة الى باريس لتحاكم وجاهياً بعد ان حكمت بالاعدام غيابياً يوم كانت متوارية عن الانظار كما حكم آنذاك على خادمها وعشيقها لاشوسيه بالاعدام لاشتراكه في اقتراف جرائمها ونفذ فيه حكم الاعدام.

وبالقاء القبض على المركيزة واحالتها الى المحاكمة، بدأت قضية «السموم» كما عرفت في التاريخ.

هل يجوز كشف سر الاعتراف؟ سؤال قسم المحكمة فريقين متنازعين: الأول يتقدمه القاضي باليو ومحامي الدفاع نيفال، ويقول بقدسية الاعتراف، والثاني يتقدمه رئيس المحكمة لاموانيون، ويقول بجواز كشف سر الاعتراف، باعتباره ليس امام الكاهن، بل في ورقة، شأنه في ذلك شأن اي سر عادي آخر.

ولم يهدأ النقاش الحاد والذي بلغ حد النزاع الا عندما حسمه الرئيس بأمر بات: ليقرأ الاعتراف. وهدأت العاصفة واشرأبت الاعناق عند ابتداء كاتب المحكمة بالقراءة:

أعترف بأني كنت أزني ثلاث مرات كل اسبوع
وبعدد اجمالي تجاوز الثلاثمـاية مرة حتى الان . . . اعترف كـذلك أني مـارست الحب مع اخي طوال أربعة عشر عاماً. كما مارسته مرات عدة مع رجل متزوج وانجبت منه ولدين . . ، وأول مرة مارست فيها الحب كان عمري ٧ سنوات.

كما أني مارست المغازلة مع اخي الآخر لفترة امتدت لسبع سنوات خلت.

ويكمل الكاتب امام افواه الحضور الفاغرة وعيونهم الشاخصة:

«لقد أعطيت سيدة بعض السم لتدسه في طعام زوجها. كما دسست السم لابنتي لأنها كانت طويلة القامة. اعترف باني سممت أبي لأرثه، كذلك سممت أخوي وأختي، هذه الأخت التي كانت تثقل علي بتوبيخها لي ولومها اياي على نمط الحياة التي اعيشها . .

«اعترف بأني حاولت تسميم زوجي بين خمس او ست مرات لكني ندمت وقمت بالاعتناء به حتى شفي، غير انه اصيب بعاهة دائمة في اعصابه . . »

انتهى الكاتب من قراءة الاعتراف ومضت لحظات قبل ان يستفيق الحضور من اثر الصدمة. اما المركيزة، فلم يتحرك لها ساكن وعندما سألها الرئيس عما اذا كان ما قرىء هو اعتراف منها اجابت:

- لا أتذكر أبداً أني سطرت اعترافاً كهذا.

- لكن، هل كانت لديك رغبة في الاعتراف؟
- انا لا أعرف أيا من رجال الدين لاعترف أمامه.

وعندما جوبهت بأن الاعتراف مكتوب بخط يدها قالت:

- كنت في حالة يأس ولم أكن أعرف ماذا أفعل . . والواقع اني لا أتذكر ماذا دونت.

ثلاثة اشهر مرت على بدء المحاكمة ولم تعترف المركيزة بجرائمها التي كانت توزع فيها السم على ضحاياها كما توزع الحلوى . .

الى ان جاء يوم الثالث عشر من تموز - يوليو من عام ١٦٧٦. في هذا اليوم، وكانت المحكمة لا تزال تتخبط مع المركيزة في مماحكات عقيمة، جاء الشاهد بريانكور، معلم اولادها واحد عشاقها، ليجابه المتهمة باعترافات لها كانت قد كاشفته بها في ساعة من ساعات الهيام. عندما بدأ تعارف بريانكور بالمركيزة، كانت هذه الاخيرة تزمع التوسع بفظاعاتها وقتل اختها واخت زوجها كما ذكر الشاهد. وأكمل قائلاً:

- أحببتها لدرجة أني لم أتمكن من تركها على الرغم من تخوفي منها. لقد حاولت اقناعها بالعدول عن التوغل بجرائم جديدة والارتداع عن ذلك فلم تأبه.. وذات يوم؛ احسست ان دوري أتى. دعتني إلى فراشها مساءً في ساعة معينة. أتيت قبل الوقت لأتنصت علني اكتشف خطتها. لكنها لمحتني وتجاهلت ارتيابي. وعندما دفعتني إلى الفراش وتظاهرت بخلع ملابسها لتلحق بي إليه، إذ بخادم من خدامها، سانت كروا، يهجم علي ويريد قتلي بخنجر كان يحمله بيده. تمكنت من الافلات منه، لأتعرض عند خروجي من البيت لمحاولة اغتيال. فقد اطلق مجهول علي طلقين ناريين من مسدس وهرب. أصاب احد الطلقين ثوبي دون ان يمس الجسم. اما الثاني، فقد اخطأ. هذا، وقد حاولت المركيزة الانتحار باجتراع السم من علبتها الشهيرة عندما اكتشفت خديعتها فمنعتها على الرغم من الحال التي كنت فيها بعد تخلصي من سانت كروا وهربه هو مني ومن البيت.

عندما انهى بريانكور شهادته، التفت نحو المركيزة واجهش بالبكاء كان بالغ التأثر وكانت نظراته تدل وهو يسترق بعضها الى القفص، على استمرارالهيام ،على الرغم من كل ما حدث.

انتهى بريانكور من شهادته والقاعة بكل من فيها في ذهول.من اي نوع هي تلك الامرأة؟ أي شيطان يسكن رأسها؟ كيف استطاعت اقتراف هذه الفظاعات وكيف لم يهزها ما قامت به؟ اسئلة واسئلة بقيت حتى اللحظة حائرة دون جواب. لقد تأثر الملك لويس الرابع عشر أيما تأثر عندما بلغه ما قامت به من تحمل في بلاطه لقب مركيزة. وها هو يطلق يد المحكمة بانزال العقوبة التي تستحقها المجرمة ودون اخذ لقبها بأي اعتبار. وكولبير، كبير وزراء الملك احاط هيئة المحكمة بكاملها برأيه. وهي ان هذه الامرأة «مجرمة رهيبة». ولكن، وعلى الرغم من كل هذه المواقف وتلك الأجواء اصر المحامي نيفال، ليس على الدفاع عن موكلته فحسب بل على طلب البراءة لها.

كانت مرافعته رائعة. لقد دحضت كل ما ورد من براهين واثباتات انطلاقاً من الاعتراف الخطي بالعلبة ذات السم وانتهاء بشهادة بريانكور. كل هذا كان بنظره مجرد تكهنات أو مجرد احقاد.ضحيتها امرأة «مسكينة» لا يمكن بحكم منبتها النبيل أن تمس بسوء

أي إنسان أما اعترافها الخطي، فقد قال عنه محاميها انه كتب في ساعة من ساعات اليأس وهو ترجمة لأفكار سوداء وليس لأعمال ارتكبت فعلاً.

لا يمكن انكار ما فعله نيفال بالمحلفين من خلال مرافعته الساحرة. لكن الصورة الأولى عادت وان متأرجحة، عندما تدخل الرئيس موجهاً كلامه الى المركيزة:

- ألست نادمة على أفعالك؟ ألا تهتز عواطفك عندما تتذكرين أباك وسائر أفراد عائلتك الذين تسببت بموتهم؟ ثم أليست محاولتك الانتحار جريمة هي الاخرى فظيعة وتستحقين عليها غضب السماء؟

لم تنبس المركيزة ببنت شفة ولم يرتعش لها جفن عند استماعها الى اسئلة الرئيس .كان ينتظر منها أن تنهار باكية او أن تثور. لكن شيئاً من هذا لم يحصل. بقيت جامدة وكأن الأسئلة لا تعنيها. أخيراً، وبعد ان أغرقت بنظرات الاستهجان والاحتقار، تحركت شفتاها بهذه الكلمات:

- اشعر بأسى في قلبي.

وصمتت ملفوفة ببرود الواثق وهدوء المذهول.

١٦ تموز - يوليو سنة ١٦٧٦. يبدو ان كل شيء قد بدأ مبكراً في ذلك اليوم في قصر العدل والسجن التابع له حيث تحتجز المركيزة بانتظار مصيرها الذي سيتقرر اليوم. في زنزانتها المظلمة لم يسمح آنذاك بالدخول الا للأب بيرو. سمح له لسببين، الأول لأداء واجب ديني تجاه السجينة التي قد تواجه نهاية محتومة والثاني لمحاولة استكشاف سر السم الذي يملأ العلبة والذي كان وراء موت الكثيرين من ضحايا المركيزة وربما من ضحايا سواها. السر الذي سيحاول الاب بيرو معرفته من السجينة هو ما اذا كان وراء هذا السم اشخاص آخرون غير المركيزة. ذلك ان المعتقد لدى المحكمة، هو ان اكتشاف السر هذا هو الذي سيضع حداً لتعدد الضحايا بعد الحكم على المركيزة. فالحكم وحده وان كان الإعدام نفسه، لا يكفي ان هو لم يستأصل الشر من جذوره.

فهل نجح الاب بيرو في انتزاع السر من السجينة؟ لا أحد يعرف حتى الساعة. كل ما استشف هو انه غادر قصر العدل يومذاك وعلى وجهه علامات الارتباك وعدم الارتياح.

ولنعد الآن الى قاعة المحكمة في ذلك اليوم يوم ١٦ تموز - يوليو، آخر ايام المحاكمة ويوم اعلان الحكم. المكان مهيب والحضور جميع الحضور من قضاة ومحلفين وجمهور، كانوا واجمين. اما المركيزة، فقد كانت كعادتها تجلس هادئة على كرسيها في قفص الاتهام. لحظات مرت ثقيلة قبل ان يقرأ الكاتب الحكم:

«تعلن المحكمة ان المدعوّة أوبري دي برينفيليبيه ارتكبت جريمة قتل ابيها وأخويها. وأنها حاولت قتل اختها، لذلك حكمت المحكمة على المجرمة بالتعذيب والركوع على ركبتيها امام كنيسة باريس والاعتراف بجرائمها امام الملأ، قبل قطع رأسها بالمقصلة وحرق جسدها ونثر رماده في الهواء..».

الموت إذاً وقبله التعذيب.

كان من المنتظر ان تنهار هذه الامرأة عند سماع الحكم او ان تثور.

لكن شيئاً من هذا لم يحدث كل ما في الامر كما اوضح بعد ذلك الاب بيرو هو انها «طعنت في كرامتها للحكم عليها بالركوع امام الناس بعد ان يكون حراسها جابوا بها الشوارع المؤدية الى الكنيسة على عربة مكشوفة».

وبعد، هل ستعترف بما أخفت حتى الان؟ يبدو ان الأب بيرو نجح في اقناعها لذلك وقفت متوجهة الى القضاة وقالت:

«كنت احضر السم من الارسنيك والفيتريول. شركائي في الجرائم التي اقترفت هم فقط سانت كروا الذي اعدمتموه ورجاله».

هذا كل ما قالته. ويبدو ان المحكمة اكتفت به والآن جاءت مرحلة التعذيب. كان شيئاً فظيعاً: لقد أدخلوا في فمها قمعاً وبدأوا بملء معدتها بالماء حتى الانتفاخ. كان صراخها يملأ الأرجاء. ظل هذا الوضع حتى بعد الظهر. إذ ذاك، نقلت الى باب الكنيسة حيث اعترفت امام الناس وهي خائرة القوى بعدها جيء بها الى منصة الإعدام قص شعرها وعصبت عيناها و.. قطع رأسها واحرق جسدها ونثر رماده في الهواء..

وبذلك أسدل الستار عن كابوس قلما شهدت المحاكم مثيلاً له.

فهل استؤصل شيطان السموم بموت الجسد الذي عشش فيه؟

يبدو ان الكثيرين يقولون لا، وان الأمر ليس إلا في بدايته..

زمن القداديس السوداء

٢١ شباط- فبراير سنة ١٦٨٠ . في ذلك اليوم ، وبعد حوالي أربع سنوات من قضية المركيزة برينفيلييه التي ظن البعض أن موتها وضع حداً للجرائم التي ارتكبتها ، تنعقد محكمة خاصة لليوم الثالث على التوالي للنظر في قضية امرأة متهمة بالسحر تعرف باسم لافوازين . ونظراً لجسامة الأمر ، فقد اهتم لويس الرابع عشر شخصياً به وأمر بتشكيل المحكمة التي ستعالجه من قضاة اختارهم هو من بين من يثق بكفاءاتهم العالية وأخلاقهم الرفيعة .

كثيرات هن الساحرات اللواتي حكمت عليهن هذه المحكمة بالموت حرقاً في نطاق هذه القضية ، واللواتي أعدمن فعلاً . لكن لافوازين ، متهمة اليوم ، هي من وزن آخر . إن مجرد ذكر اسمها يدب الرعب في نفوس الكثيرين . فالجرائم التي اتهمت باقترافها تعد بالعشرات مع أن شكلها البسيط والقروي لا يوحي بذلك البتة . حتى ليبدو أن قضاة المحكمة جزعون منها .

بدأت الجلسة بأسئلة الرئيس للمتهمة :

- هل اشتركت بقداديس سوداء ، أيتها المرأة؟

- نعم وكانت هذه القداديس تجري في بيتي من قبل الكاهنين دافو وماريبيت وعلى بطن عار لفتاة أو لامرأة .

- وهل صحيح ، كما ادعى مرشدك لوساج أن الكاهن كان يقبل الأماكن المحرمة للمرأة وهو يتولى القداس؟

- أجل . وأضيف أن مئات من عمليات الإجهاض أجريت لنساء يملأن باريس طولاً وعرضاً . وكلهن ساحرات ومسممات .

السم . هذا ما يريد رئيس المحكمة معرفة سره . فقد كثرت جرائم التسميم منذ قضية المركيزة ، لدرجة ان التخلص من زوج مزعج او عاشق خائن او أب قاس أصبح أمراً

ميسوراً وبالتالي مألوفاً في العاصمة الفرنسية .

أما قضية لافوازين ، فقد بدأت منذ عامين . ففي أحد أيام عام ١٦٧٨ ، كان أحد المحامين ، ويدعى بيرين ، يتعشى عند أحد أصحابه ، السيد فيفوريه . هناك ، التقى الضيف بسيدة تتعاطى كشف البخت وبعض أعمال السحر تدعى ماري بولس . هذه السيدة كانت تتحدث في العشاء عن محاسن مهنتها وكيف أنها تتعرف من خلالها على المجتمع المخملي من بورجوازيين ونبلاء . وأثناء الحديث ، وكانت قد أسرفت في الشرب بعض الشيء ، انزلق لسانها برغبتها في اعتزال مهنتها بعد «إتمامها عمليات تسميم ثلاث» إذ بذلك تكون قد جمعت ثروة كافية تحميها من كل عوز . . . . ! هال المحامي ما سمع من هذه المرأة على الرغم من أن زوجة مضيفه حاولت التمويه عن طريق لوم ماري لإفراطها في الشرب .

في اليوم التالي ، سارع المحامي إلى صديقه الكابيتان دوغريه ، الذي سبق وألقى القبض على المركيزة لا برينفيلييه وساقها إلى السجن ، ونقل إليه حرفية ما سمع . أخطر الكابيتان دوغريه مدير الشرطة بالأمر ، فنصب هذا الأخير الفخ لماري . ارسل زوجة احد رجاله اليها لتشكو لها سوء معاملة زوجها وتطلب منها مساعدتها على التخلص منه . فما كان من ماري الا أن اقترحت على الشاكية بعضاً من السم وينتهي الأمر مع هذا الزوج المزعج » .

وهكذا وقعت ماري في الفخ وكذلك مدام تيفوريه وغيرهما كثيرات . والمريع أن من بين من افتضح أمرهن نساء وبنات ينتمين إلى أعلى طبقات المجتمع وأكثرها نفوذاً .

هذا المدى الخطير الذي بلغته القضية هو الذي دفع لويس الرابع عشر الى الإهتمام شخصياً بها وتشكيل محكمة خاصة للنظر فيها . ومحاكمة لافوازين بالذات تأخذ بعداً اكثر خطورة مما يمكن أن يتصوره أحد . ذلك أن لافوازين متهمة بمحاولة تسميم الملك نفسه . هذا ، على الأقل ، ما ادعاه لوساج ، صانع السم والمتعامل مع لافوازين .

ولدى سؤالها عن هذه النقطة بالذات ، لاذت المتهمة بالصمت . لماذا؟ أهو صمت الخائف أم صمت الخبيث؟ لم يتمكن أحد من معرفة ذلك . سألها الرئيس :

ـ هل سبق واخذت سماً الى قصر الملك؟

ـ نعم أخذته مرة لتسميم خادمة في القصر تسعى الى الزواج من سيدها . ليس هذا الهراء هو ما يرغب الرئيس بكشفه ، بل سر إحضار السم إلى القصر في وقت كان الملك موجوداً فيه . وهذا السم كان عبارة عن منشط جنسي لا يلبث أن ينقلب ، بعد فترة من

استعماله ، إلى مادة مميتة . عرف الرئيس هذا من لوساج . كما عرف أن لافوازين ، وقد أصبحت تملك ثروة طائلة ، كانت تنوي مغادرة فرنسا والعيش في الخارج مع أموالها التي جمعتها من علية القوم عن طريق الدعارة وبيع السموم .

هل كانت هناك محاولة لقتل الملك؟ ذاك هو السؤال الذي كان رئيس المحكمة يسعى للحصول على جواب عنه .

ـ والاسترحام الذي تعهدت بتقديمه للملك ماذا كان يحوي؟

ـ كان الغرض منه طلب العفو لأحد اصدقائي . وقد شجعني لوساج على ذلك ووعدني بالسعي ، هو بدوره ، لدى الملك للحصول على العفو .

ـ وهذا الاسترحام الم يكن مسموماً؟

ـ كلا أقسم على ذلك .

كانت لافوازين واثقة من أن مصيرها لن يكون غير الاعدام حرقاً . ومع ذلك كانت هادئة . ترى ، هل هو هدوء الثقة بالنجدة تأتي في اللحظة الأخيرة ، أم هدوء من تعيش في عالم آخر ، عالم السحر والتخيلات والأشباح؟ لا فرق . بل لم يعد من فرق بعد أن لفظت المحكمة فعلاً حكمها بإعدام الساحرة المجرمة حرقاً . كان ذلك يوم ٢٢ شباط ـ فبراير من عام ١٦٨٠ .

في اليوم التالي ، جيء بها الى غرفة التعذيب فالعدالة تقضي بأن تلفظ خطاياها بالعذاب . كان هناك القضاة الذين حكموها ورئيس شرطة باريس ، مريني ، المولج من قبل الملك مباشرة بقضية السموم . وهذا ليس بالغريب فمريني يحظى بثقة الملك منذ زمن طويل . ولم يحصل ان أخل بهذه الثقة أو جعلها تهتز قيد انملة .

تقدم الجلاد ومساعدوه . والجلاد لم يكن غليوم ، أحد عشاقها السابقين ، والذي قام باعدام المركيزة . طرح هؤلاء الرجال المجرمة أرضاً وأوثقوا رجليها على لوحين خشبيين . وهنا ، اقترب رئيس المحكمة منها ودار بينهما حوار كشفت فيه لافوازين عن فظاعاتها دونما تغطية أومواربة ، الاف من حالات الإجهاض وقتل الأطفال والقداديس السوداء والتسميم بملامسة الكفوف أو تنشق العطر . كانت الاعترافات تتدفق مع ازدياد الضغط على اللوحين الخشبيين .

ـ لوبير قام بعشرة الآف عملية اجهاض!

انتفض الحضور لضخامة الرقم لكن الرئيس لا يزال في هاجس معرفة سر الاسترحام الموجه الى الملك ، سيما وان المجرمة كانت ولا تزال تتهرب ، بشكل أو بآخر ، من

إرواء غليله حول هذه النقطة بالذات.

ـ اعترف ايضاً ان مـدام دي فيفون ومـدام دي لاموت طلبتـا مني التخلص من زوجيهما.

ومعروف ام مدام دي فيفون هي اخت زوج مدام دي مونتسبان، أولى المحظيات لدى لويس الرابع عشر، والتي انجبت له ستـة أولاد كرسـوا جميعهم شرعيـين من قبل البرلمان.

هنا سألها الرئيس :

ـ هل تعرفين لاكاتوا ؟

ـ نعم ، أعرفها .

ـ أية علاقة بينك وبينها ؟

ـ فقط كنت اقوم بقراءة كفها، وعندما قلت لها مرة انها ستحاط بعشاق عديدين من الطبقة الراقية، طلبت مني ان اعرفها بمدام دي مونتسبان.

ـ وماذا فعلت لهذه الغاية ؟

ـ طلبت منها قميصاً لاطـرزه لها هـدية الى مـدام دي مونتسبـان. ومنذ تسلمهـا القميص، لم اعرف شيئاً عنها.

ـ ماذا اعطتك لاكاتو مقابل هذه الخدمة ؟

ـ قليلاً من الدراهم . .

قالت ذلك وهي تصرخ من آلام التعذيب والضرب.

ـ هل كانت لك علاقة بمدموزيل دي زوييه؟

مدموزيل دي زوييه كانت الوصيفة المحظية لمدام دي مونتسبان واحدى عشيقات الملك اللواتي كانت مدام دي مونتسبان تسمح له بالتعاطي معهن من حين لآخر. فهي ، من هذه الناحية ، ممن لا يجوز المساس بهن، سيما وان للملك منها ولدا غير شرعي .

ـ كلا ، لا اعرفها . .

على الرغم من قسوة التعذيب، حرصت لافوازين على عدم التشهير بمن له علاقة بالملك.

ـ لماذا كانت فرتمار تسعى لأن تكون في حاشية مدام دي مونتسبان؟

والمعروف عن فرتمار هذه انها كانت تتردد على الساحرات والمسممات.

ـ لا أعرف، كل ما اعرفه هو انها كانت تسعى لأن تكون في أجواء علية القوم. وعلى الرغم من انها قدمت لي عقداً من اللؤلؤ، فانني لم اتمكن من خدمتها.

ـ ماذا كنت تتوسلين لاقناع مدام دي مونتسبان بادخال تلك النسوة في حاشيتها؟

ـ لا اعرف.

ما زالت تنكر، على الرغم من التعذيب الذي تتعرض له.

ـ من هم الاشخاص الذين تعرفينهم في القصر الملكي ويتعاطون تجارة السموم او يشتبه بأنهم يتعاطونها؟

ـ لا اعرف أحداً.

كان هذا آخر ما تلفظت به لافوازين، ففي اليوم التالي، اقتيدت الى المنصة وقطع رأسها واحرق جسدها امام اعين المئات من الباريسيين، الذين تجمهروا في الساحة وعلى الشرفات ليشهدوا موت من تسبب بموت الكثيرين ممن ساقهم سوء قدرهم اليها ليموتوا بين يديها او بواسطتها شر ميتة.

بموت لافوازين، تهيأ للجميع ان الستار انسدل عن قضية السموم الى الأبد. لكن التهيؤ كان سراباً. فبعد يومين فقط من احراق الساحرة، أي في ٢٣ شباط ـ فبراير من عام ١٦٨٠، عادت القضية الى الساحة مع ماري ـ مارغريت، ابنة لافوازين. عادت أكثر زخماً وأكثر اثارة. لكنها لم تعد الى قاعة المحكمة بعلنيتها، بل حصرت في نطاق ضيق رسمه الملك نفسه وأمر الجميع بعدم تخطيه.. تولى القضاة انفسهم استجواب ابنة الساحرة التي ادلت باعترافات مذهلة: محاولة تسميم الملك نفسه بواسطة عريضة الاسترحام المسمومة، ومحاولة تسميم مدموزيل دي فونتاج، التي دخلت في حاشية مدام دي مونتسبان واصبحت، في ما بعد، المشتهاة الأولى من الملك، أمام عيني المدام ورغماً عن غيرتها.

غير ذلك: بغية اكمال الحلقة، فقد اكتشف ان امرأة تتعاطى السحر والتسميم تدعى لافيلاستر، قد دخلت في حاشية مدام دي مونتسبان وبدخولها ترسخ الانطباع بأن كل شيء يوحي بحبكة جرائم داخل القصر، وربما ضد سيده.

استجواب ابنة لافوازين يتولاه الآن مدير الشرطة:

ـ من الذي أشار الى أمك بتسميم الملك بواسطة العريضة؟

ترددت ماري ـ مارجريت لحظة قبل ان تجيب. لكنها ما لبثت أن أجابت بكل جرأة

ودون أي تحفظ:

ـ ذات يوم، اتت امرأة الى بيتنا واصطحبت امي بعربة فخمة، وقد سمعت امي تذكر اسم مدام دي مونتسبان على أنها استدعتها الى القصر. وتكرز هذا الاستدعاء مرات عدة. وذات مرة، قالت لي أمي ان هذه السيدة تعيش تحدياً مراً من امرأة أخرى..

صمت رئيس الشرطة وكأنه صعق بما سمع. هل يعقل ان تسوق الغيرة مدام دي مونتسبان الى قتل الملك وهي من هي بالنسبة اليه وصاحبة حظوة لديه تفوق حظوة زوجته الملكة نفسها؟ وتستمر الفتاة في اعترافاتها:

ـ علاقة أمي بمدام دي مونتسبان ـ عمرها خمس او ست سنوات. كانت تجلب لها السموم، ومرة، ادخلت عندها احد الكهان، هو الأب غيبور الذي عرف عنه بأنه كان يقرأ القداديس على بطون النساء، عاريات. ومنذ فترة، قرأ هذا الكاهن قداساً على بطن امرأة.... وصلى من أجل ان تظل هي المرغوبة من الملك الى الأبد، حصل ذلك في وقت كانت مدام دي مونتسبان تتحرق غيظاً من ميل الملك لاحدى آنسات القصر، المدموزيل دي فاليير.

كان رئيس الشرطة يستمع الى هذه الاعترافات وكأنه في حلم. وسرعان ما توجه الى القصر ليخبر الملك. ماذا كانت ردة الفعل عند لويس الرابع عشر وهو يعلم انه محاط بالتآمر؟ وممن؟ من التي وهبها حبه وفضلها على كل من في القصر، حتى على زوجته. من أم ابنائه الستة. كل ما ذكره مؤرخ القصر في تلك الفترة هو أنه أمر بالتوغل في القضية لاستجلاء الأمور. وكلما توغل المحققون. كانت اصابع الاتهام تتكاثر متوجهة الى مدام دي مونتسبان. ما هذا الذي يظهر؟ عشرات بل مئات من الساحرات والمسممات يؤكدن ضلوع هذه السيدة التي يرتجف الجميع من ذكر اسمها، في عمليات من السحر، والتسميم والقداديس السوداء، لا تعد ولا تحصى. ولم تسلم مدموزيل دي زوييه نفسها من الاتهام بهذا التورط الرهيب.

ما العمل؟ لا بد من جلب مدام دي مونتسبان للتحقيق، كما يبدو انه لا بد من توقيفها. مستحيل. فالملك يرفض ذلك. لكن القضية بدأت تفاصيل فضائحها تخرج من القصر وتتناقلها ألسن العوام.

واستمر القضاة ورئيس الشرطة في التحقيق. وكانوا كلما تقدموا خطوة فيه، ظهرت أمامهم حقائق جديدة مذهلة. لافيلاستر تؤكد ان القداديس السوداء التي كان يتولى قيادتها الكاهن غيبور، انما كانت تجري في حضرة مدام دي مونتسبان وباشرافها. لافوازين الابنة،

تؤكد، بدورها، ان مدام دي مونتسبان اطعمت الملك «مسحوق الحب» لكي يبقى على حبها ويكره من يحوله عنها. ويستمر فيض لافوزين: نعم، كان غيبور يتولى قراءة قداسه على بطن المدام وهي مستلقاة عارية على سريرها....

وقد يكون هناك بعض الشك في اقوال هؤلاء الشهود. لكن رئيس الشرطة رجل جدي ويتقن مهنته. وانطلاقاً من هذه الصفات، توغل في التحقيق، لا ليعرف المزيد فحسب، بل ليتأكد مما يسمع ويتيقن من صحته. وهاهم أخصّاء الكاهن غيبور، من رجال دين وغيرهم، يؤكدون ذلك.

في ٣٠ ايلول ـ سبتمبر ١٦٨٠، حكم على لافيلاستر بالاعدام، وقبل ان تعدم، أخضعت الى مرحلة التعذيب. وفيها قالت:

ـ استخدمت مدام دي مونتسبان احد رجالها، ويدعى شابلين، ليعطي السم الى مدموزيل دي فونتاج وكذلك مسحوق الحب.

غير أن لافيلاستر انكرت أقوالها هذه أمام رئيس الشرطة وقبل اعدامها بلحظات. لكن الاتهامات لم تعد من النوع المتأرجح. كيف تكون كذلك والكاهن غيبور نفسه اعترف بما يعود اليه منها؟ لقد أقر انه مارس قراءة القداديس السوداء على بطن خليلة الملك. أمام هذا القدر من المعلومات، رأى رئيس الشرطة، اغلاق الملف ورفعه الى الملك، وكانت سنة ١٦٨٠ قد أشرفت على نهايتها. وهكذا أصبح مصير مدام دي مونتسبان بين يدي عشيقها ومنجب أولادها.

في غرفة الملك الخاصة، التأمت هيئة المحكمة التي ستحاكم مدام دي مونتسبان. الوضع دقيق للغاية والتحركات فيه تجري بسرية مطلقة. مدام دي مونتسبان اختارت محاميها. انه كولبير، كبير اعضاء مجلس الملك. ومن غير كولبير يمكنه ان يتولى هذه المهمة؟ انه، بالاضافة الى صفاته الرسمية والشخصية، الخصم التاريخي والتقليدي للنائب العام في هذه القضية، لوفوا. أما رئيس المحكمة، فكان لويس الرابع عشر نفسه.

أول ما قام به كولبير هو أن كلف المحامي دوبلسّي وضع تقرير مفصل يقيّم فيه الاتهامات الموجهة ضد مدام دي مونتسبان. وجاء في هذا التقرير تشكيك في اقوال جميع من اتهموها: هم من الرعاع الحاقدين على الطبقة العليا. كلهم يريدون كسب الشهرة واستقطاب الاهتمام عن طريق اتهام شخصية كبيرة لا حيلة لهم بالوصول اليها. كلهم سحرة ومسممون ومن اصحاب السوابق. يضاف الى ذلك ان اتفاقهم جميعاً على اتهام هذه السيدة بالتشابه الذي جرى به هذا الاتهام، انما يعني امراً واحداً ألا وهو تآمرهم المنسّق

واتفاقهم على قول الشيء نفسه وبالطريقة نفسها، بهدف الايقاع بها والنيل منها وكسب الشهرة على حساب سمعتها. أما الكاهن غيبور، هذا المجرم الحقير، فانه لم يذكر السيدة بالاسم، بل قال ان من قرأ القداس على بطنها كانت عشيقة الملك. ولم يضف تفصيلاً آخر. برهان آخر ساقه دوبلسي على ضعف الشهادات وافتراء اصحابها: أما كان أحرى بلافوازين، وقد تأكدت من موتها ومن عدم «مسارعة مدام دي مونتسبان لانقاذها»، أن تسارع، هي، في افشاء ما يدعون انه سر هذه السيدة المحترمة؟ هل كانت تنتظر لتموت حتى تتولى ابنتها عملية الافشاء تلك؟.

قرأ الملك هذا التقرير بإمعان. ولم يجرؤ أحد على سؤاله عن رأيه فيه. كما لم يجرؤ أحد على اقتراح التوسع في الاستماع الى شهود جدد خوفاً من أن يؤدي ذلك الى الوصول الى الاستماع الى مدام دي مونتسبان، وهو أمر يعتبر نوعاً من المحرمات. لكن الأحكام كانت تتوالى من محكمة «السموم» وقد بلغت احكام الاعدام العشرات.

في هذه الجو المحموم الذي خلقته قضية السموم في القصر وخارج القصر، وبعد ان أبعد تقرير دوبلسي اصابع الاتهام، بعض الشيء، عن خليلة الملك الأولى، توفرت معلومات لدى رئيس الشرطة لغير صالح المتهمة، معلومات لم يتأخر بوضعها بين يدي الملك. منذ اثنتي عشرة سنة، عام ١٦٦٨، القي القبض على لوساج، شريك لافوازين، وعلى مارييت، كاهن سان سوفير، وحكما بتهمة القداديس السوداء التي كانا يتوليانها مع افراد من حاشية القصر، رجالاً ونساءً، ومنهم مدام دي مونتسبان. طلب رئيس الشرطة الملف. قرأه وتأكد من الاتهامات. لا ريب اذاً في علاقة هذه السيدة بلافوازين وزبانيتها، ومنذ ما لا يقل عن اثنتي عشرة سنة.

لكن لم كل هذه الممارسات وهذه الاتصالات؟ لم اللجوء الى السحر والتعاويذ والقداديس؟ أليس فقط للاحتفاظ بقلب الملك؟ ألم تكن مدام دي مونتسبان، فاتنة لويس الرابع عشر والقصر بكامله، في هاجس دائم من ان يفلت حبيبها منها ويميل الى سواها؟ ألم تلاحظ بوادر هذا العزوف وهي ترى الملك يخص مدموزيل دي فونتاج الباهرة بعربة تجرها ثمانية من الخيول المطهمة، في حين هي، حبه الأول وأم أولاده، لم تصل الا الى عربة من ستة؟.

حادثة اخرى جاءت تثقل الجو من حول مدام دي مونتسبان: أصيبت مدموزيل دي فونتاج بمرض عضال. ولم يمض وقت طويل حتى ماتت. وعلى الرغم من تأكيد الاطباء ان هذه الميتة طبيعية، فان الألسن تناقلت تساؤلات حول دور مدام دي مونتسبان فيها.

على الرغم من كل هذا، على الرغم من تأكد الجميع، ومنهم، ربما، الملك، في تورط هذه السيدة بممارسات شائنة، وأعمال حقيرة قد تكلفها رأسها بعد أن كلفت العديد رؤوسهم، فان لويس الرابع عشر وضع حداً لهذه القضية التي وصلت أنواؤها الى عرشه. أخذ بتقرير كولبير واعلن، مقتنعاً أم لا، براءة مدام دي مونتسبان.

وفي ٢١ تموز - يوليو في عام ١٦٨٢، انهت محكمة «السموم»، هي الأخرى، أعمالها بعد ان كانت قد اصدرت مئة وأربعة أحكام، منها ستة وثلاثون بالاعدام واربعة بالمؤبد وثلاثون بالبراءة. ستون ممن مثلوا امام المحكمة لم يحاكموا، من بينهم جميع من اتهم مدام دي مونتسبان.

هؤلاء، وعددهم خمسة عشر، امضوا بقية حياتهم في غياهب زنزاناتهم وسط صمت قسري رهيب. لم يكن يسمح لأحد منهم بفتح فمه الا ليأكل كسرة خبز أو ليشرب جرعة ماء. كانت التعليمات مشددة من ان يمس احدهم مدام دي مونتسبان بكلمة.

أما في القصر، فلم يكن أحد يجرؤ على التحدث بقضية السموم. والملك، الذي لم يعد يزور أم أولاده في جناحها، تحول الى سيدة أخرى هي مدام دي مانتنون. وفي ١٣ تموز - يوليو عام ١٧٠٩، بعد أيام من وفاة رئيس الشرطة الذي تولى قضية السموم، أمر الملك بإحراق كل الملفات الخاصة بالقضية واشرف بنفسه على الاحراق.

ترى بماذا كان الملك يفكر وهو يرى الدخان يتصاعد من اللهب الذي يأكل أوراقاً حوت أسراراً رهيبة لقضية دحرجت الكثير من الرؤوس وشغلت المحكمة بأكملها؟ بماذا كان يفكر وقد مرت سنتان على موت مدام دي مونتسبان؟ لا أحد يعرف. كل ما هو معروف، هو أن لويس الرابع عشر رأى بحكمته انقاذ رأس خليلته مرة وانقاذ سمعتها في التاريخ مرة أخرى. ولكن اذا كان رأسها قد سلم، فهل سلمت السمعة؟.

لاندرو

كانت محطة القطار في فرساي تعج بالقادمين في ذلك اليوم، يوم الإثنين ٧ تشرين الثاني-نوفمبر سنة ١٩٢١. ولم يكن هؤلاء قادمين، كما هو مألوف، لزيارة القصر وحدائقه، بل لحضور محاكمة لاندرو، التي ستبدأ عند الصباح.

ولاندرو هذا أصبح حكاية على كل لسان. لقد سيق الى السجن بعد اتهامه بقتل عشر نساء وتجريده اياهن من كل ما يملكن. منذ شهور وصوره تبرز في الصحف، والحديث عنه يسبق كل حديث. والطريف أن كل أصلع ملتح سارع إلى حلق ذقنه لينقذ نفسه من ملاحقة الصبية له وهم يرددون:

«لاندرو لاندرو».

غريب أمر الفضوليين. لقد جاؤا في جو مثلج ومنذ المساء ليكون لهم موطىء قدم أمام سور قصر العدل. والبعض منهم باع موطىء قدمه هذا لبعض آخر بسعر بلغ خمسين فرنكاً للصف الثاني وثلاثين للصفوف الأخرى التي تليه.

أما داخل قاعة المحكمة، فالمنظر شبيه بمسرح يوم حفل الافتتاح. سيما وأن في الحضور نواباً ووزراء وفنانين معروفين، كانوا يرصعون القاعة بوجودهم. ظل الجميع، وفيهم نسبة كبيرة من النساء، ينتظرون داخل القاعة وخارج القصر حتى الظهر، عندما التأمت هيئة المحكمة برئاسة جيلبير وحضور المدعي العام غودفروا ومحامي الدفاع جيافيري. وما أن استقروا جميعاً على مقاعدهم حتى صرخ الرئيس:

- أيها الحراس، أحضروا المتهم!

وفتح باب صغير يؤدي إلى قفص الاتهام ودخل لاندرو فاشرأبت الأعناق. دخل منتصباً يحمل تحت إبطه مجموعة من الملفات ما لبث أن وضعها أمامه.

لم يلتفت إلى الحضور، بل توجه بنظراته إلى الرئيس دون سواه. لم يكن في شكله ما يثير أو ما يعجب، باستثناء عينيه السوداوين الغارقتين في محجريهما. فقد كانت تحويان شيئاً ما غريباً، شيئاً من المغناطيسية غير مألوف. . .

بعد استيضاح الرئيس التقليدي عن هوية المتهم قرأ الكاتب قرار الاتهام.

بدأت القصة في شباط سنة ١٩١٤ باعلان ظهر في احدى الصحف عن «رجل في العقد الخامس يرغب في التعرف الى آنسة أو أرملة دون أولاد بين العقد الرابع والخامس».

وتوالت السمكات يعضضن الصنارة. أولاهن كانت جورجيت كوشيه. جاءت اليه فوجد فيها ضالته، مع تساهل أبداه تجاهها: ابنها ذو السنوات السبع عشرة. استمرت الصداقة بينهما أشهراً. وفي بداية سنة ١٩١٥، دعاها وابنها لقضاء يوم في فيلته. لبّى المسكينان الدعوة ولم يعودا.

بعد ذلك، تكررت الصورة مع تيريز لابوردلين، أرملة في السادسة والأربعين من عمرها، تم التنفيذ في ١٥ حزيران ـ يونيو في السنة نفسها.

وفي ٢ آب ـ أغسطس، الضحية الثالثة: انجليك غيلين وفي ٨ كانون الأول ـ ديسمبر، كان موعد الضحية الرابعة واسمها هذه المرة برت ـ آنا هيون. لكن المكان لم يكن فيلته، بل فيلا أخرى استأجرها لاندرو في قرية غامبيه الجميلة والقريبة من باريس.

وانتهت سنة ١٩١٥ بهذا العدد من الطرائد، وفي ٢٧ كانون الأول ـ ديسمبر في عام ١٩١٦، كانت نهاية الضحية الخامسة: آنا كولومب، أرملة في التاسعة والثلاثين من عمرها.

ويستمر الكاتب في القراءة التي أصبحت محتوياتها مقززة للنفوس. ويصل الى الضحية السادسة: اندريه بابليه، التي تختلف عن سابقاتها بأنها لم تتجاوز التاسعة عشرة من عمرها، وقد تمت تصفيتها في ١٢ نيسان ـ ابريل سنة ١٩١٧.

أما الضحايا الأربع الأخرى منهن:

ـ سلكين بويسون، ٤٦ سنة، أول أيلول ـ سبتمبر ١٩١٧

ـ لويز ـ جوزفين جوم، ٢٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ١٩١٧

ـ آنيت باسكال، ٥ نيسان ـ أبريل ١٩١٨

ـ والأخيرة تيريز ماركارييه، ١٣ كانون الثاني ـ يناير ١٩١٩، مع كلابها الثلاثة.

لقد تعرف لاندرو، في خلال اعلاناته في الصحف، على ٢٨٣ امرأة، حددت هويات ٢٧٣ منهن واعتبرت العشر الأخريات في عداد المفقودات، بالاضافة الى الضحية الحادية عشرة، ابن مدام كوشيه.

بعد انتهاء كاتب المحكمة من قراءة قرار الاتهام، كان الارهاق بادياً على الجميع. لذلك، رفع الرئيس الجلسة الى اليوم الثاني، حيث ستبدأ المحكمة بالاستماع الى الـ ١٨٠ شاهداً. شيء مرهق خصوصاً اذا أضيف الى ما بلغه ملف الدعوى من ضخامة طوال مدة توقيف لاندرو، اثر شكوى من عائلة احدى الضحايا وتعقب شائك لصمتهم، هذا التوقيف الذي تم في ١٢ نيسان ـ ابريل سنة ١٩١٩. ويكفي، لنتخيل ضخامة الملف، أن نعرف أنه يحوي افادات الـ ٢٧٣ امرأة، اللواتي اصطادهن لاندرو بطعم اعلاناته، افادات استلزم تدوينها استهلاك ٧٠٠٠ ورقة من الحجم الكبير. ان مجرد قراءة العناصر التي يتكون منها هذا الملف يستغرق أياماً بكاملها.

بدأ اليوم الثاني من المحاكمة باستعراض لمحة عن حياة المتهم: اسمه هنري ـ ديزيريه لاندرو. أبوه صناعي بسيط وأمه خياطة. تعلم في مدرسة دينية وكان تلميذاً نجيباً. بعد تأديته الخدمة العسكرية، عمل في مكتب مهندس معمار. وقد كان موضع اعجاب رؤسائه خلقاً وسلوكاً. عام ١٨٨٩، وكان في العشرين من عمره، تزوج من ماري ـ كاترين ريمي بعد فترة غرام بينهما. انجب منها أربعة أولاد وكان أباً صالحاً، لكنه ما لبث أن قام، بعد زواجه بقليل، بأعمال احتيالية أوصلته الى السجن.

هنا، انتفض لاندرو ليحتج على اثارة ماضيه بهذا الشكل الذي من شأنه أن «يؤثر على انطباع المحلفين عنه»، وأضاف أنه نال جزاءه على افعاله تلك و«لا حاجة لنبشها في هذه المناسبة». لكن أحداً لم يحفل بهذا الاعتراض، واستمرت اللمحة.

عام ١٩١٤، حكم على لاندرو من جديد بتهمة الاحتيال وحكم بالسجن لمدة أربع سنوات. لكنه توارى عن الأنظار وبدأ العيش متخفياً باسماء مستعارة مختلفة.

في هذه الاثناء، انتحر ابوه شنقاً في غابة بولونيا بسبب الغم الذي جلبته له أفعال ابنه المشينة.

وتأتي بعد ذلك الفترة الاجرامية المعروفة، والتي لم ينقطع لاندرو خلالها عن زيارة زوجته وأولاده واحضار الهدايا لهم وللبيت. ومنها قطع أثاث كان يأتي بها من بيوت ضحاياه.

بعد هذا العرض، سأله الرئيس عن سر الدفتر الصغير الذي وجد معه وقد دون فيه تواريخ اعتبرها المحقق تواريخ اقتراف الجرائم الأحدى عشرة، فأنكر أية علاقة بين هذه التواريخ وما «تدعيه المحكمة»، كما أنكر اقترافه أية جريمة. وقال في تأييد انكاره ان عدم ايجاد النساء العشر لا يعني أنه قتلهن، اذ لا يخفى أن تلك لسنوات موضوع حوادث المحاكمة هي سنوات حرب وأن كثيراً من المناطق اجتاحها العدو. يضاف الى ذلك أن عنصر الرجال قد ندر في تلك الفترة. حتى أن النسبة وصلت الى رجل واحد لكل عشر نساء. وهذا ما يفسر نجاح اعلاناته. كما أن هذا ما يدعم ادعاءه بأنه امتهن تجارة الأثاث المستعمل والذي كـان «يشتريـه» من بيوت الأرامل والمعوزات.

ولما سأله الرئيس عن سبب توسله اعلانات الزواج لممارسة تجارته، أجاب باستخفاف:

ـ مجرد حيلة تجارية. ناهيك عن أن المتقدمات كن جميعاً راشدات.

ـ ولماذا كنت تعدهن بالزواج مع أنك متزوج؟

ـ هذا من قبيل الدعاية التجارية. أين الخطورة في ذلك طالما أن الزواج لم يكن يتم؟

وجاء اليوم الثالث من المحاكمة ومعه عدد غفير من الحضور. وسط قاعـة المحكمة، وضعت قطع اثاث تخص مدام كوشيه، الضحية الاولى، وقد احضرت كأداة اثبات للجريمة، من الفيلا التي يملكها لاندرو. في سان ـ اي ـ واز. وبدأ الرئيس بسؤال المتهم:

ـ هذه القطع وجدت في فيلتك. هل تستطيع أن تقول لماذا كانت هناك؟

ـ لأنها ملكي أنا.

ـ كيف تثبت ذلك؟

ـ بل كيف يمكنكم اثبات خلاف ذلك؟

ويتدخل المدعي العام لأول مرة:

ـ لاندرو، ذكرت في التحقيق أنك تعرف مكان وجود مدام كوشيه وابنها. اين هما؟ قل. ذلك لينقذك.

ـ ليس لدي ما أقوله.

ـ هناك اذاً سر بينك وبينها!

ـ أبداً، لكن الخصوصيات لا تعني الا صاحبها.

ـ حتى لو كانت حياتك في الميزان؟

ـ نعم. حتى...

ـ حسناً....

ويسكت المدعي العام ليعود الرئيس الى استجواب المتهم:

ـ كيف وصلت هذه القطع من الأثاث الى مرآب فيلتك مع أنها تخص مدام كوشيه؟

ـ نتيجة ترتيب تم بيني وبينها.

ـ أي ترتيب؟

ـ انك تدفعني لأن أبوح بأمور خاصة، لقد أجريت معها عقوداً لا يمس في شيء أياً من القوانين. لكني أرفض الافصاح عنها.

هنا، وبعد أن استمعت المحكمة الى شقيقة مدام كوشيه التي أكدت اعتقادها بأن لاندرو قتل أختها واستحوز على أثاث بيتها وعلى اغراضها الخاصة، رفعت الجلسة.

وتوالت الجلسات. واستمر لاندرو في الانكار وفي التذرع بعدم جواز المساس بخصوصياته، كلما تطرقت الاسئلة الى سبب وجود أثاث ضحاياه واغراضهن الخاصة لديه. حتى أن تكرار الأسئلة والاجابات عنها مع كل ضحية بات أمراً مملاً للجميع، لا سيما عند بلوغ تلك الجلسة الخامسة عشرة في ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٩٢١.

في ذلك اليوم، كان لاندرو في وضع لا يحسد عليه. لقد أدلى الطبيب الشرعي، الدكتور بول، بشهادته أمام المحكمة، وفيها أنه عثر في رماد موقد المتهم على نسبة عالية من عظام بشرية. وجاءت شهادة الأستاذ انطوني، عالم الأنتروبولوجيا في متحف التاريخ الطبيعي، متوافقة مع شهادة الدكتور بول. وقد اضاف لاندرو أنه وجد في الموقد مع بقايا العظام قطعة من منشار مكسور.

وعندما سئل لاندرو، أجاب بأنه كان يحرق ما كان يقع تحت يده من محتويات القمامات ومما كان يستهلكه من مآكل. وهذا كله كان يحتوي على نسبة عالية من العظام والمواد العضوية الأخرى. أما عن قطعة المنشار، فقد قال انها تعود لمنشار استعمله لنشر قطعة من باب في فيلته لم يكن يعمل بسهولة. وأثناء النشر، كسر المنشار ورميت قطعة منه في الموقد. صحيح أن لاندرو وجد الاجابات المناسبة عمّا جوبه به، لكن الارتباك بدأ أكثر من مرة على وجهه. كما بدا على الحضور عدم الاقتناع بالحجج التي ساقها.

وجاء يوم الأربعاء ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر من سنة ١٩٢١ ليختم واحدة من أطول المحاكمات في تاريخ القضاء الفرنسي. في هذا اليوم، صدر الحكم باعدام لاندرو.

قبل صدور الحكم، وعلى وجه التحديد، في اليوم السابق له، وقف المدعي العام ليوجه أشنع التهم وأحقر الصفات للمتهم. لقد الصق العار به من كل جانب. كانت مرافعته شديدة التأثير على الحضور. وهذا ما جعل مرافعة محامي الدفاع، مع كل ما فيها من براعة، تتكسر كموجة عاتية على صخرة صماء.

الاعدام.

كلمة رهيبة لفظها الحكم لينزل بها العقاب الحق على ازهاق أحدى عشرة روحاً بدون وجه حق. هذه المقارنة البسيطة والعميقة جعلت الحكم مقبولاً، بل وربما مطلوباً.

في تمام الساعة الخامسة والنصف من صباح الثالث والعشرين من شباط ـ فبراير عام ١٩٢٢، دخل قضاة المحكمة الى احدى زنزانات السجن ليوقظوا لاندرو النائم، كان مطيعاً. نهض، لبس ثياب الاعدام بمساعدة الحراس. وخرج معصوب العينين. كان البرد قارساً والظلام دامساً. ومع ذلك، كان هناك اكثر من سبعين

شخصاً أتوا ليشاهدوا نهاية المجرم. وما هي الا لحظات حتى كان.رأس لاندرو يتدحرج بجانب المقصلة.

بعد حوالي سنة من ذلك اليوم، في ٢٣ كانون الثاني - يناير من عام ١٩٢٣ على وجه التحديد، تحولت القاعة التي جرت محاكمة لاندرو فيها في فرساي الى قاعة للمزاد العلني. وكان الموضوع ما تركه لاندرو وضحاياه من أثاث. ومن بين القطع الموقد الذي احترقت فيه الجثث الأحدى عشرة المقطعة. لم يكن هذا الموقد القديم والمغطى بالصدأ يساوي أكثر من مئة من الفرنكات الفرنسية. ومع ذلك، فقد بيع بأربعة آلاف ومئتين. والشاري كان مدير متحف غريفن في باريس.

محاكمة خدام الهيكل

الزمان، ١٣ تشرين الأول- أكتوبر سنة ١٣٠٧ . المكان، مدينة بروفن الفرنسية.. الحركة تدب ببطء في الشوارع والأزقة . فالوقت لا يزال مبكراً وأشعة الشمس تطل خجولة عبر صقيع الفجر الجارح . أما بيوت المدينة ، الملتصق بعضها بالبعض الآخر ككتلة عشوائية تفتقر لكثير من الجمال ، فتبدو وكأنها خلو من ساكنيها . اللهم الا اذا استثنينا سيدة تنشر غسيلها أمام شباك غرفتها أو كلباً ينبح متثاقلاً في طرف حديقة مهملة . في هذا اليوم وذاك الصباح ، وبعد أن كانت الشمس قد أطلت بكامل نورها منذرة من لم يستيقظ بأن يسارع وينهض، كانت مجموعات من المساجين وحراسهم الجنود تتقدم بخطى كئيبة في الشوارع الضيقة الملتوية . لم يكن من الصعب معرفة هؤلاء المساجين . ذلك أن الصليب الأحمر المركّز على أكتاف أثوابهم البيضاء يدل بوضوح على أنهم «خدام الهيكل»، أو «فرسان يسوع»، كما يدعونهم بتعبير آخر .

لقد اصبح هؤلاء ورفاقهم المنتشرون بكثافة في كافة انحاء المقاطعة ، من القدرة والفعالية بحيث ترتعد لذكرهم فرائص الحكام أنفسهم . كانوا أشداء . وكانت ممتلكاتهم تمتد بسرعة مخيفة لتشمل البيوت والحقول . لذا ، فأن السلاسل الحديدية الموثوقة بها أقدامهم لم تكن لتجعل منهم مساجين عاديين مطأطئي الرؤوس ، مهيضي الجناح ، بل ان العكس هو الصحيح ، اذا ما أجريت مقارنة بينهم وبين حراسهم المندسين بينهم والمحيطين بهم في مسيرتهم عبر الطرقات ، صبيحة ذلك اليوم .

وحركة خدام الهيكل هؤلاء بدأت منذ ما يقرب من مئتي سنة ، عام ١١١٩ ، على يد سيد اقطاعي يدعى هوغ دي باين . لقد وضع هذا السيد بعضا من فرسانه بتصرف الحجاج المتوجهين الى بيت المقدس لحمايتهم من قطاع الطرق وهجمات أهل البلاد المسلمين . لكن «ميليشيا يسوع» هذه ، كما عرفت في ما بعد ، ما لبثت أن اصبحت جيش الفرنجة الدائم في القدس ، الذي أسسه غودفروا دي بويون ابان الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٩ ، والذي

ما فتيء بودوان الأول وبودوان الثاني يغذيانه ليصدا به هجمات المصريين والسوريين على الصليبيين .

عندما عاد هوغ دي باين من القدس الى أوروبا ، تمكن من اقناع البابا والملوك بالاعتراف بالحركة وبتقديم الدعم والمساندة لها . وقد بلغ الحماس ان انضم اليها كونت شمبانيا وبرنار دي كليرفو، الذي اصبح فيما بعد سان برنار، وكثيرون من اصحاب السلطة والنفوذ . حتى أن هنري دي شامبانيا أصبح عام ١١٩٢ على رأس مملكة القدس . لكن هذه المملكة ولدت مريضة وما لبثت أن انهارت لتعود إلى ايدي المسلمين .

قويت الحركة وتوسعت بسرعة هائلة . لقد اصبحت تضم عشرات الآلاف من الفرسان والمحاربين ، كما أصبحت تملك الآلاف من العقارات ، من بيوت وأراض زراعية ، في أوروبا والشرق . والعلاقة التاريخية بين خدام الهيكل ومقاطعة شمبانيا أصبحت عنصر مفاخرة يعتز به أهالي المقاطعة . وعندما مر المساجين في طرقات مدينة بروفن ، لم ينس سكانها أن عشرين الفاً من رفاق هؤلاء الغارقين في اثوابهم البيضاء ماتوا في الشرق دفاعاً عن القضية لذلك فأن علامات الاستنكار كانت بادية في عيونهم وعلى وجوههم وهم يرون «ابطالا» و«منقذين» مقيدين بالسلاسل كالمجرمين يواكبهم جنود ملك فرنسا ، فيليب لوبل . حتى ان استياءهم بلغ حداً جعل البعض يصرخ في وجه الجنود دون أي تهيب :

ـ اللعنة على الملك . الموت والعار لفيليب لوبل . توقف الجنود وقاموا بتجميع المساجين . هناك رسالة من الملك موجهة الى الشعب . وقد بدأ جندي بقراءتها :

ـ انه لمن دواعي الحزن والأسى أن ينساق أشخاص ادعوا خدمة الرب في أعمال شائنة وجرائم مروعة . ان خدام الهيكل انقلبوا خداماً للشيطان . وقد شهد على ذلك أناس معروفون بصدقهم ومشهورون بموضوعيتهم ، مما لا يترك مجالاً للشك في ما يوجه اليهم من تهم . . . »

لقد قضي الأمر واتخذ الملك موقفاً حاسماً ضد الحركة . ففي كل مكان ، من المدن الكبرى حتى أصغر القرى ، انقض جنود المملكة على خدام الهيكل والمتعاطفين معهم وساقوهم الى السجون . ومع ذلك ، فقد كان الملك شديد القلق صبيحة ذلك اليوم ، يوم ١٣ تشرين الأول ـ اوكتوبر سنة ١٣٠٧ . ترى ، هل كان يستشف خطورة ما أقدم عليه؟ لم يكتف الملك بزج عناصر الحركة في السجون ، بل أرسل جنوده ليستولوا على خزائنهم وكم

كانت الدهشة كبيرة عندما وجدت هذه الخزائن فارغة . فهل جاء من داخل قصر الملك من أوعز لخدام الهيكل بتهريب أموالهم؟ واذا كان هـذا صحيحاً، فلماذا لم يهرب هؤلاء ويتواروا عن الأنظار، بل لماذا على الأقل، لم يتصدوا للحملة مدافعين عن أنفسهم؟ وهل أن انقضاض الملك على خزائنهم التي كان يفترض أن تكون مليئة بالذهب، كان يستهدف، ليس التنكيل بأصحابها وتجريدهم مما يملكون، بقدر ما يستهدف دعم مالية المملكة المنهارة بفعل سوء تصرف الملك ونفقاته المرهقة؟

لكي نفهم هجمة الملك على خدام الهيكل وعدم حصول أي تحرك من قبل هؤلاء تصدياً لحملته، وهم المعروفون بقوة شكيمتهم، علينا الرجوع بضع سنين الى الوراء، الى سنة ١٢٩١، عندما وقعت عكا، آخر مدن فلسطين، في أيدي السلطان المصري.

بعد هذا التاريخ الذي انهى وجود الصليبيين في الشرق، لم يعد من داع فعلي لوجود هؤلاء المقاتلين بقوتهم البشرية والمالية التي اصبحت مقلقة للسلطة ومرهبة للناس، كانوا يرفضون دفع الضرائب. كما كانوا يرفضون الانصياع لأية سلطة دينية أو دنيوية. حتى الاعتراف، فانهم لم يكونوا يمارسونه الا من خلال حركتهم وفي نطاقها. لقد أصبحوا، باختصار كلي، أناساً غير مرغوب فيهم من الملك ومن الناس، أكثر الناس، على السواء. صحيح أن أحداً لم يكن يجرؤ على المجاهرة بانتقادهم خوفاً أو تهيباً، لكن هذا لم يخف حقيقة، وهي أن تسلطهم واستعلاءهم جعلا منهم أناساً محاطين بمشاعر البغض والحقد والغيرة. وهذا أمر طبيعي اذا ما عرفنا أن تصرفاتهم الشاذة تزايدت وتفاعلت وسط حرية انتزعوها، بامجاد ماضيهم، من ملك لم يسمح لهم بتلك الحرية الا مرغماً ولوقت لا يجوز أن يطول مداه.

ومما زاد في حدة هذه المشاعر، سواء من الملك أو من عامة الناس، استمرار هؤلاء في سلوكهم المستأثر بالتجارة والمصارف، واستمرارهم، كذلك، بالتدريبات العسكرية في معسكرات خاصة بهم وببنائهم قلاعاً جديدة تعود اليهم وحدهم.

وعندما كانوا يسألون عن مبررات هذه التصرفات، كانوا يجيبون أنهم عائدون لاسترجاع القدس لكن أحداً لم يكن يصدق. فاستعادة القدس بات أمراً مستحيلاً بعد أن انشغل كل من ملوك فرنسا وانكلترا وألمانيا بحماية حدوده، وأصبح شن حرب مرهقة في صحاري الشرق أمراً غير وارد بالنسبة اليهم. ليس هذا فقط، بل أن هؤلاء الملوك اصبحوا ينظرون الى الحركة، وهي تتعاظم قوة ونفوذاً، بعين قلقة. يضاف الى ذلك أن ملك فرنسا، فيليب لوبل، كان يرى في الحركة، وهي دينية متزمتة، عائقاً لتحقيق رغبته في

انشاء دولة علمانية ذات سلطة مركزية قوية . وكان يعيش في هاجس أن يرى الحركة تتحالف مع البابا ضده لمنعه من تحقيق ما يصبو اليه .

حاول فيليب لوبل مرة احتواء الحركة عن طريق قبوله فيها رئيس شرف ، حتى اذا تسنى له ذلك ، ضربها من الداخل ، فلم يوفق أمام رفض رئيسها جاك دي مولاي المهذب والحاسم . لم ييأس . حاول مرة أخرى ، وبتوسيط البابا ، أن يدمج الحركة بحركة أخرى هي حركة «المضيفين» ، بغية اذابتها واضعاف شأنها ، فتنبّه دي مولاي للمكيدة ورفض طلب البابا بكل تهذيب ، كذلك ، ولكن بكل حزم ايضاً .

بعد فشل كل هذه المحاولات ، قرر الملك توجيه ضربة قاتلة للحركة التي يقض وجودها مضجعه . ومن العناصر التي عجلت في اتخاذ الملك قراره ، الصعوبات المالية التي باتت المملكة تتخبط فيها ، والتي ليس اخطرها عجز الخزانة العامة عن التعويض على اليهود والتجار الايطاليين الذين طردهم الملك بعد أن جردهم من ممتلكاتهم ، وكذلك عجزها عن ايفاء الديون المتراكمة للحركة . ولما كان المأمول ان تكون خزائن الحركة مليئة بالذهب ، اتضح الحماس الذي تفاعل في نفس الملك للضرب والاستيلاء . وهذا ما نصح به مستشار الملك الخاص ، غليوم دي نوغاريه . علماً بأن الملك لم يكن بحاجة للنصيحة او المشورة بعد أن كان القرار متخمّرا في اعماقه .

والواقع أن قضية خدام الهيكل بدأت عملياً مع هذا المستشار الذي جعل القضاء على هذه الفئة هدفه الأول . انه ، بالاضافة الى ذلك ، صانع السياسة المعادية للإكليركية التي تمشى عليها فيليب لوبل طوال مدة حكمه . فالقضاء على حركة الخدام اذاً ، وهم رجال دين بالدرجة الأولى ، يدخل في نطاق هذه السياسة . متى بدأت القصة؟ وكيف؟ بدأت ذات يوم من أيام الخريف عندما دخل على المستشار خادمه يستأذنه السماح لشخص يطلب مقابلته بالدخول . اسم هذا الشخص اسكين دي فلوريان . لم يكن هذا الزائر ليعني شيئاً لغليوم لولا أن اسمه يدل على أنه من الجنوب ، مسقط رأسه . بعد مقابلة دامت ساعتين ، خرج اسكين موثقاً بالسلاسل ووضع على حصان واقتيد محاطاً بالحراس في سفر طويل دام أياماً وانتهى في سجن تولوز . وضع «المسكين» في زنزانة مع قاتل محكوم بالاعدام . وقد علم أن أسكين عضو في جماعة الخدام وأنه متهم بقتل أخ له في الجماعة . وهذا عمل فظيع استحق عليه الاعدام دون أن يكون له الحق في بركة كاهن . في الزنزانة المشتركة ، أسرّ أسكين لرفيقه بمعلومات عن الحركة جعلت الرجل يصعق لهولها وشدة وقعها . هذه المعلومات تدور حول الممارسات الجنسية والدينية من تهتك وزندقة ، والتي تشكل السلوك الخفيّ للجماعة . ما أن سمع نزيل زنزانة سكين ما سمع ، حتى صرخ داعياً الحراس اليه

وطالباً ابلاغ ادارة السجن بالمعلومات .

انتقل الخبر بسرعة البرق ليستقر في اذن نوغاريه ، ومنه في أذن الملك نفسه ، الذي طلب احضار اسكين اليه فوراً للتأكد مما سمع . لم يتردد اسكين في تكرار الاتهامات على مسمع من الملك . لكنه كشف عن أن الحكم عليه بالاعدام كان من نسج نوغاريه بعد أن حضر اليه في زيارة أولى وطلب منه الحماية بسبب طرد الجماعة له . وقد حبك نوغاريه قصة الاعدام هذه لينشر من خلالها على الملأ مخازي سلوك الجماعة التي يكره واسرارهم .

على الرغم من أن الحيلة لم تنطل على الملك ، وهو الذي يعرف مستشاره حق المعرفة ، فأنه تظاهر بالاستياء وطلب من نوغاريه أن يبلغ البابا نسخة عن المحضر الذي دونت فيه اعترافات اسكين . كما ارسل أسكين هذا الى اسبانيا ليبلغ ملكها شخصياً بالأمر . الا أن الاثنين خذلا ملك فرنسا . فالبابا رفض فتح أي تحقيق ، وملك اسبانيا قام بابلاغ الجماعة بما يدبر لهم وما يحاك ضدهم .

لكن نوغاريه ، خلافاً لفيليب لوبل ، لم يلق سلاحه . جهز فريقاً واسعاً من المأجورين وأرسلهم الى الأقاليم والمقاطعات ، بعد أن لقنهم ما يقتضي عليهم قوله ، طلب منهم أن يقصوا على الناس مخازي ملفقة عن الجماعة لتأليب الرأي العام عليها . نجح نوغاريه في ما دبّر ، لدرجة أن البابا أرسل في طلب رئيس الجماعة ، دي مولاي ، الموجود في قبرص لتجهيز حملة صليبية ضد سوريا .

وصل دي مولاي الى فرنسا في وقت عين فيه نوغاريه رئيساً لوزراء الملك مكان ناربون الذي رفض التورط في القاء القبض على خدام الهيكل وسوقهم الى المحاكمة . جرى تعيين نوغاريه رئيساً للوزراء في ٢٣ أيلول- سبتمبر . وفي ٢٤ منه ، أي تماماً في اليوم التالي ، جمع نوغاريه في مكتبه ، في القصر الملكي ، كبار المستشارين والمسؤولين ليعلن لهم ما يزمع القيام به ويأمرهم بالقاء القبض على عناصر الجماعة والمتعاطفين معهم في جميع انحاء المملكة .

انتهت الحملة واعتقل الجميع دون أن يبدي أحد مقاومة ، أو يحاول الهرب . ترى ، أيكون هذا السلوك بسبب الثقة بانفسهم وبالبابا ، الذي افترضوا أنه يهب لانقاذهم؟ ربما . لكن أحداً لا يستطيع التأكيد . كان كل ما فعلوه قبل الاعتقال ، الذي بلغهم خبره مسبقاً ، هو أنهم قاموا باخفاء مستنداتهم وجميع اوراقهم في مكان لم يعثر عليه حتى الآن .

وبدأت في ١٣ تشرين الأول- اوكتوبر عام ١٣٠٧ أطول محاكمة في التاريخ . استمرت سبع سنوات . ولم يعرف في نهايتها ، كما لم يعرف حتى الآن ، ما اذا كان خدام

الهيكل أبرياء من التهم التي حوكموا بها، أم مذنبين باقترافهم اياها.

لم تشهد شوارع باريس في اليوم التالي، ما كان مألوفاً فيها من المعاطف البيضاء بصلبانها الحمراء. لقد اختفت واختفى معها أصحابها. زج بهم في السجون في حملة شملت الجميع دون استثناء يذكر. بدأت الحملة مع بداية الليل. بدأت في البيت المركزي حيث القي القبض على مئة وأربعين، بينهم دي مولاي، الرئيس الأعلى للجماعة. وما أن وصل الخبر الى الباريسيين، حتى هرعوا الى البيت واقتحموه في مهرجان تنفيسي كان أشبه بعرس وثني. احتلوا القاعات والحدائق. نزلوا الى الكهوف وأخرجوا منها ما لذ وطاب من أنواع الخمور، وبدأوا بتوزيع الكؤوس على المارة في جو تميز بالشماتة والتشفي. ولم يكن المطر الغزير والبرد القارس ليمنعاهم من الرقص في العراء على أنوار القناديل الخافتة. وفعلت الخمرة فعلها في الرؤوس وازداد الصخب وعلا الضحك. كل هذا وخدام الهيكل يقبعون في سجن بيتهم ويسمعون قهقهات من كانوا، لساعات خلت يتزلفون اليهم تزلف الضعيف المغلوب على أمره أمام سيده المتغطرس المتسلط. كل هذا وأحد لم يأت ويشرح لهم اسباب اعتقالهم. حتى أنهم لم يذوقوا طعم الأكل أو الشرب وقد مضى على وجودهم داخل سجن بيتهم طوال يوم كامل. ان ما يجري هو، بالنسبة اليهم، نوع من الحلم المزعج، حلم نقلهم من نعيم الى جحيم.

في احدى الزنزانات المنفردة، وضع دي ميلي، أحد زعماء الجماعة. كان منزوياً يفكر بما حل به. لم يلق مثل هذه المعاملة حتى من المسلمين في عكا عندما أسر هناك. انه الآن يشعر بالندم لهربه من الأسر وعدم موته شهيداً لدى آسريه. وبينما هو في هذه الحال، اذ بصرير الباب يوقظه من كابوسه ليرى أحد الحراس يدخل عليه ويأمره بان يتبعه. وعندما سأل مغتاظاً عن تفسير لهذا الذي حصل له، لم يلق أي جواب ممن كان يقتاده. اجتاز الاثنان الممر الطويل حتى وصلا الى فناء واسع جلس فيه بعض الرهبان على مقعد. عرف دي ميلي أنه أمام هيئة محققين. وقد تأكد من ذلك عندما سأله أحدهم:

- أيها الأخ، اقترب ولا تخف فنحن هنا لنستمع اليك بأمر من الرب. هل أنت مستعد لأن تجيب عن اسئلتنا، وهل تقسم على قول الحقيقة؟

لم يستطع دي ميلي الكلام. فقد كان وجهه ممتقعاً وكان يشعر بالخوف لأول مرة في حياته. خاف اثناء مروره من الزنزانة الى الفناء عندما سمع أحدهم يصرخ صرخة الموت ويتحشرج حشرجة النزاع الأخير. علم أنه أحد الاخوان وأنه يموت من شدة التعذيب.

انتظر السائل الجواب. وعندما لم يأت، كرر ببعض الانفعال، هذه المرة:

ـ هل فقدت القدرة على الكلام؟

هنا، استجمع دي ميلي قواه وقال:

ـ أنا لست ملزماً بتقديم الحساب لأحد، باستثناء سيدالهيكل،من تكون أنت لتسألني وأجيبك؟

ـ أنا غليوم امبار، كبير محققي فرنسا وامين سر الملك. اني أسألك باسم البابا

ـ هذا خطأ... هذا خطأ فالبابا لا يقبل أن يعامل خدام الهيكل بالشكل الذي تعاملونهم به.

ـ هل ستجيب أم لا؟

ـ أرني أمراً خطياً من قداسة البابا فأجيبك.

ما أن قال دي ميلي ذلك حتى رأى حارسين يتقدمان منه، باشارة من المحقق، فينزعان عنه معطفه ويتركانه بملابسه الداخلية أمام الحاضرين.

ـ حسناً. انزعا معطفه فربما يتعلم كيف يكون أكثر لطفاً وتهذيباً.

خاف دي ميلي من العواقب. خصوصاً وأنه لمح آلة التعذيب بالصلب وتمزيق المفاصل منتصبة بالقرب منه، وهي الآلة التي شاهد مثلها في اسبانيا والتي استخدمها الأسبان في تعذيب المسلمين أثناء حروبهم معهم.

ـ أيها الأخ دي ميلي، هل ستجيب دون اكراه عن الأسئلة حول كيفية دخولك الحركة وكيف كنتم تمارسون التهتك والهرتقة؟

ـ هذه اسئلة مشينة ولن أجيب عنها.

نهض المحقق واقترب من طاولة عليها بعض الأوراق. فتش في هذه الأوراق برهة وأخرج منها واحدة وقدمها لدي ميلي قائلاً:

ـ هل تعرف أن تقرأ أم أنك جاهل كمعظم رفاقك؟

ـ نحن محاربون ولسنا بمتعلمين كرجال الدين. لكني تمكنت من تعلم مبادىء القراءة وأنا في فراشي عندما جرحت في احدى المعارك.

ـ اقرأ اذاً. اقرأ اعترافات رئيسك دي مولاي.

اقترب دي ميلي ليقرأ. وبعد لحظات، قال له المحقق:

ـ سأقرأ عليك البقية بنفسي. هذه الاعترافات ادلى بها دي مولاي دون أي اكراه من

ضغط أو تعذيب :

«ـ متى دخلت في الجماعة ؟

«ـ منذ أربعين سنة ، على يد الأخ هوبير.

«ـ ماذا طلب منك في احتفال التكريس ؟

«ـ قدم لي صليبا وطلب مني هوبير أن أبصق عليه وأن اتنكر اليه . ففعلت من غير أن أكون مرتاحاً لذلك .

«ـ كم مرة بصقت على الصليب؟

«ـ مرة واحدة . اذكر ذلك جيداً .

لدى سماعه ذلك ، صرخ دي ميلي :

ـ مستحيل . لا يمكن أن يكون هذا الكلام للرئيس .

ـ بل هو له . وقد أدلى به دون أن يجبره عليه أحد .

ـ أكرر أني لا اتكلم ولا أجيب عن أي سؤال الا أمام الرئيس نفسه .

عندها ، نفد صبر المحقق فأمر ببدء التعذيب . تقدم جلادان مرعبان من دي ميلي فخلعا ملابسه وبدآ بالضرب . لم تمض دقائق الا وكانت ساقا المسكين مكسورتين وصدره مسحوقاً وجمجمته مهشمة . لكنه لم يفقد وعيه . وكلما كان صراخه يعلو ، كان المحتفلون في الخارج يوقفون صخبهم مشنفين آذانهم نحو الصوت .

ويوقف الجلادان التعذيب ليسمع دي ميلي رفاقاً له يعترفون أمامه بأنهم أنكروا المسيح وبصقوا على الصليب في حفل تكريسهم . لم يصدق ما سمع . هل يعقل أن يقدم هؤلاء ، وقد عرفهم محاربين أشداء ومؤمنين في العمق بالتعاليم المسيحية ، على ما يفعلونه ويقولونه ؟ لماذا ؟ أخيراً ، وعلى الرغم من الحالة التي وصل اليها والآلام التي يعاني منها ، فهم أنه هو السبب في ما يدلي به رفاقه . لقد أتوا به أمامهم وعذبوه بالشكل الذي عذبوه به ليرهبوهم ويجعلوهم يدونون اعترافات مزيفة كانوا يهربون من التعذيب . لذا ، فقد كانوا مستعدين لقول أي شيء يطلب منهم .

انتهى التعذيب ، تعذيب دي ميلي بشنقه من خصيتيه . وفي نهاية يوم ١٤ تشرين الأول ـ أوكتوبر ١٣٠٧ ، خرج أحد رجال الملك الى الساحة ليقرأ على الملأ اعترافات خدام الهيكل . من أصل ١٤٠ سجيناً ، ١٣٦ «اعترفوا» وأوغلوا في اعترافاتهم . . . كثيرون لم

تنطلي عليهم الخطة . حتى أعداء الخدام وخصومهم لم يصدقوا ما سمعوه أمام المحامون الذين كانوا يتهيأون للدفاع عن الموقوفين ، فقد اسقط في يدهم وتسمّروا في اماكنهم . والبابا نفسه هاله ما جرى، لقد تجاوز فيليب لوبل ، بنظره ، كل الحدود وداس بفعلته على صلاحيات البابوية نفسها . لذلك قرر قداسته التحرك .

عيّن محققين هما الكردينالان فريدول وسوزي وأرسلهما على عجل الى باريس ليستقصيا الحقيقة بنفسيهما . لم يرق هذا التدبير للملك فيليب لوبل كما لم يرق لكبير وزرائه دي نوغاريه . لكنهما لم يتمكنا من الأفلات ، فسمحا للمبعوثين باداء مهمتهما .

في أعلى البرج ، كان أحد البارزين في الحركة ، هوغ دي بيرو ، مسجوناً في زنزانته منذ ما يقرب من أربعة أشهر ، امضى معظمها في تعذيب رهيب . وذات مساء ، في ١١ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٣٠٨ على وجه التحديد ، وبينما كان مستلقياً على مقعده الحجري يلفح جسمه برد شتاء قارس ، اذ بالباب يفتح عليه ويطل راهب ليقول له :

ـ سيدي الأخ . هناك من يطلبك اليه .

أحس المسكين برجفة ارتعدت لها فرائصه ، لا بد أن جلسات التعذيب ستعاد بعد توقف . نهض متثاقلاً ومشى مع الراهب ، وكان يواكب هذا الأخير بعض الحرس . مشى الجميع قاطعين ممراً ضيقاً ووصلوا الى الدرج . كان الظلام دامساً ، لم يتمكن هوغ وسطه من نزول الدرج الا بصعوبة . وعندما وصل الى أسفل ، شاهده أحد اخوانه القدامى يتعثر فهب لنجدته ودسّ في كفه ورقة صغيرة مطوية . أكمل هوغ مع مرافقيه الطريق الى أن وصل الى زاوية فيها تمثال للعذراء مضاء بالشمع . أدخل المنظر الخشوع في قلبه فطلب التوقف ليصلي . سمح له . وهناك ، انتهز الفرصة وقرأ ما في الورقة . كان فيها اعلاماً له بقدوم رسولي البابا وتشجيعاً لأن يقول ما جرى له ولرفاقه من مآسٍ على يد رجال الملك . التوقيع : جاك دي مولاي .

أكمل هوغ طريقه بعد الصلاة ليرى نفسه أمام مائدة عامرة بأشهر المأكولات والخمور ، يجلس عليها رسولا البابا . وهناك كرسي ثالث ينتظره . جلس هوغ مشدوهاً . ما الذي حصل ليدعى الى مثل هذه المائدة . بعد التعارف ، سئل هوغ من قبل الرجلين عما جرى له ولرفاقه فقص كل شيء . تكلم وتكلم والرجلان مطرقين يستمعان وينفعلان .

شملت الاتصالات كل المساجين من خدام الهيكل . وكان الجميع يعطون الصورة البشعة نفسها . ولأول مرة منذ أربعة شهور ، استطاع هؤلاء المساكين ايجاد فرصة للشكوى غير آبهين بالجلادين والحراس .

نظم رسولا البابا تقريرهما وفيه أن ثلاثين من خدام الهيكل قضوا تحت التعذيب وأن كل ما ذكر من اعترافات انما هي أقوال مزيفة انتزعت من أصحابها بالأرهاب في ابشع صوره.

عندما قرأ البابا التقرير، استاء واستنكر وأمر بأن يعاد التحقيق وأن تجري محاكمة كنسية للمساجين. فرح خدام الهيكل للقرار وأحسوا بالأمل يملأ قلوبهم، فارتفعت أصواتهم بالصلوات والترانيم، لكن المساكين. وقد طال انتظارهم، عادوا الى قنوطهم السابق ويأسهم بالأمس. فلا التحقيق أعيد ولا الاعترافات المزيفة اتلفت كما وعد البابا. لقد تبين أن البابا هو نفسه سجين فيليب لوبل. ألا يوجد مقره في أحد قصور الملك في بواتييه؟

واشتد الضغط على المساجين. عدد منهم، ممن رفضوا الاعتراف، وجدوا مقتولين في زنزاناتهم. وآخرون، ممن كشفوا الحقيقة أمام رسولي البابا، قتلوا وهم ينقلون من باريس الى المقاطعات. وقيل على لسان رجال الملك أنهم انتحروا، أو أن النار اطلقت عليهم عندما حاولوا الهرب.

لم ينم هوغ دي بيرو منذ اليوم الذي التقى فيه مبعوثي البابا على المائدة في ذلك المساء الشهير من شهر كانون الثاني-يناير الماضي. لقد أعيد الى زنزانته بعد اللقاء وكشفه ما جرى في التحقيقات. وفي اللحظة التي وصل فيها الى الزنزانة بحراسة اثنين من الرجال، انقض عليه هذان لكماً وضربا، بعد ذلك قاما بحلق ذقنه بسكين، ويا له من ألم. أما الأكل الذي قدم له، وهو بطبيعة الحال فقير للغاية، فقد تناوله منبطحاً على بطنه ويداه موثوقتان الى ظهره. ولما خارت قواه ووجد أن لا سبيل للاتصال مجدداً بممثلي البابا، انهارت قواه النفسية وانفجر يشتم الحركة ويلعن المنتسبين اليها. وعندما هدأت ثورته، طفق يبكي وكان ذلك للمرة الأولى في حياته.

لم يكتف البابا بالبعثة الأولى وبتقريرها الذي قدمته اليه. لم يكتف لأن الحملة ضد خدام الهيكل استمرت بافتراءاتها واستمر معها التشويش في ذهن الحبر الأعظم. لذلك قرر ارسال بعثة أخرى تتقصّى، هي الأخرى بدورها، الحقائق وتنقلها إليه. وهذا الحل جاء نتيجة تسوية كان بطلها غليوم دي بليزين، أحد المستشارين المقربين من الملك وشريك غليوم دي نوغاريه في حبك ما خطط للخدام وفي تنفيذه. لقد هيآ معاً المؤتمر، الذي انعقد في مدينة تور بين ١١ و ٢٠ أيار-مايو سنة ١٣٠٧، للنظر في تجاوزات خدام الهيكل»... هما اللذان وضعا لائحة المؤتمرين من نبلاء واقطاعيين ورجال دين. وهما اللذان أرسلا من يوغر صدور الناس في طول البلاد وعرضها ضد الحركة واعضائها

وبالتالي ، من يضع في اذن البابا حكايات ملفقة عن انحرافات الجماعة . لقد تمكنا ، كما أسلفنا ، من تأليب معظم الفئات على الحركة ، فأحسنا التمهيد للانقضاض عليها وتمزيقها بالشكل الذي تم . واليوم ، ها هو أحدهما ، دي بليزين ، يهدد البابا نفسه بنبش قضية سلفه الباب بونيفاس الثامن ، ان هو أصر على الاستماع « شخصياً » لرؤوس الحركة وقادتها . فعندما علم دي بليزين أن البابا يزمع اصدار قرار بذلك ، سارع اليه وقال له ان قراره هذا قد يكلفه كرسيه . وانه ان فعل فسيسعى لدى الملك لفتح ملف البابا بونيفاس الثامن واثبات أنه كان بابا مزيفاً . والبابا الحالي يعرف خطورة وابعاد ذلك . يعرف أن اثبات زيف سلفه يجعل تعيين الكرادلة من قبل هذا السلف غير شرعي ، ولما كان هؤلاء الكرادلة هم الذين انتخبوا البابا الحالي ، فان الطعن بشرعية وجودهم في مناصبهم سيؤدي حتماً الى الطعن في شرعية من انتخبوا . ذلك أن ما قام على باطل فهو باطل . وهكذا نجح دي بيزين في ثني البابا عن عزمه واستبدل قراره بقرار آخر هو ارسال بعثة استقصاء ثانية . وهذا الحل ـ التسوية كان الحد الأقصى الذي يمكن للبابا أن يحصل عليه من الملك في هذه القضية ، كما كان مدعاة لارتياح دي بيزين . لم لا والبابا لن يستمع الى خدام الهيكل ولن يسمع بصورة خاصة ، وهذا هو الأهم ، الى رئيسهم جاك دي مولاي .

البعثة الثانية وصلت . لذا ، يجب الاسراع في تهيئة الأجواء الملائمة لاقناع رؤوس الحركة ، لا سيما دي مولاي ، بعدم تكرار ما حصل أمام البعثة الأولى . ومن أولى بهذه المهمة من دي بيزين ؟

تقدم هذا السيد المهيب من دي مولاي في زنزانته وتعانق الاثنان عناق الصديقين الحميمين . لقد كانا فعلاً ، ولفترة طويلة ، على علاقة وثيقة ، الواحد بالآخر . ولم تكن علاقتهما هذه لتزرع أي شك لدى دي مولاي بأن دي بيزين استمام ولا يزال في تحطيم الهيكل وخدامه . وعند رؤيته يدخل زنزانته ، انفرجت اساريره وقال :

ـ كم أنا مسرور برؤيتك . فهذا شرف عظيم لي .

بل لي يا سيدي . لقد قدمت من تور لاستقبل بعثة قداسته وانتهزت الفرصة لأطمئن عنك .

لم يشعر في مولاي بمثل هذا السرور يغمر قلبه منذ زمن طويل . شد على يد زائره

بكل ما بقي له من قوة . وبعد أن توجه الرجلان نحو المقعد الوحيد وجلسا ، بـادر في بليزين صديقه بالقول :

ـ ماذا تنويه أن تقول للكرادلة ، مبعوثي البابا ، عندما سيتحدثون اليك ، سيدي المعلم ؟

ـ لا أعرف في الواقع . . . اني ضائع . . . .

وبعد لحظات من الصمت ، رفع عينيه نحو بليزين وسأله :

ـ بماذا تنصحني ؟

وقف دي بليزين وبدأ يذرع الزنزانة بخطاه ، ثم توقف ليقول لدي مولاي :

ـ لست في موقع يسمح لي باسداء النصح اليك يا صديقي . فأنت تعرف علاقتي بالملك . . . غير أني ، من خلال ما أحس به تجاه ما تعانيه من عذاب وما أشعر به أنا من حزن ، ألفت انتباهك الى أن الملك محاط باناس يضمرون الشر لك ولأخوانـك . لقد دفعوا بالكثير من هؤلاء الى الهلاك ، ولن يتوقفوا عن دفع المزيـد طالمـا أنك تصـر على اعلان براءتك . . .

ـ أعرف ذلك ، أعرفه جيداً . غير أني أيضـاً ، بقبـولي ـ قول ما يطلب مني ، سأجرد نفسي واخواني من الشرف والكرامة وربما أدفع بهم وبنفسي الى الموت .

ـ لا أوافقك على ذلك ، يا سيدي . انك تعرض نفسك ورفاقك للهلاك ان أنت عدت الى ترداد ما قلته أمام البعثة البابوية الأولى . ان أعداءكم لا يريدون سـوى حل الحركة ومصادرة ممتلكاتها ولا شيء سوى ذلك . . .

ـ لا شيء سوى ذلك ؟ أو تـظن أن هذا بـالأمر البسيط بـالنسبة الينـا ؟ ان حل الحركة يعني القضاء علينا .

ـ سيدي بودي لو أبوح لك بمعلومات توافرت لدي ، لولا أني . . .

ـ قل . قل وثق أني لن أبوح بكلمة مما ستقول . اقسم لـك بشرفي الفـروسي . أطرق دي بليزين لحظة متظاهراً بالضيق والاحراج ، ثم قال بلهجة من قرر البـوح بعد صراع :

ـ اسمـع . أنا عـائـد لتـوي من بـواتييـه . هنـاك ، علمت أن البـابـا لا يسعـه

مساعدتكم . فالملك مصمم على تحطيمكم . كل ما تمكن البابا من ضمانه ، باتفاق بينه وبين الملك ، هو أنه سيتولى هو أمركم . ولا شك عندي أنه سيعيد اليكم كل ممتلكاتكم . القضية قضية وقت وبعض الصبر . لذا ، فان تأكيدكم افاداتكم الأولى « المزيفة » من شأنه أن يسهل مهمة البابا ويعطيه الفرصة لانقاذكم . وبانقاذ انفسكم هكذا ، تنقذون الفرصة الأخيرة لعودة الهيكل الى عزه ، ولو بعد حين .

لم يجب دي مولاي ، كل ما فعله هو أنه شد على يد زائره مبتسماً وهو يودعه .

فور وصول البعثة البابوية الجديدة الى باريس ، حطت رحالها في القلعة حيث يسجن قادة خدام الهيكل . كان عناصرها الثلاثة متعبين من عناء السفر . وما أن جلسوا في قاعة الاستقبال الكبرى الملاصقة للكنيسة ، حتى طلبوا أن يؤتى لهم بالنبيذ المثلج ، فالحر كان شديداً والطريق من بواتييه طويلاً ، كانت البعثة الثلاثية تضم كادينالاً واحداً جديداً ، لاندولف براكاتشيو ، أما الاثنان الآخران فهما الكاردينالان فريدور وسويزي ، عضوا البعثة السابقة . في القاعة حيث جلسوا ليستريحوا كان في استقبالهم غليوم دي نوغاريه ، عدو الهيكل اللدود . لم يكن أحد في البعثة على عجلة من أمره ، فان عضويها القديمين كانا واثقين من أن قادة الهيكل سيكرران شهادتهم السابقة . والعملية الجديدة ستكون مجرد شكليات تنتهي بما انتهى اليه التحقيق الأول . لكن دي نوغاريه تدخل ليرجو البعثة الاستماع الى دي مولاي الذي « ينتظر في الممر . ولا يجوز انسانياً تركه واقفاً لمدة طويلة نظراً لكبر سنه وعلو شأنه » . تأثرت البعثة من لفتة دي نوغاريه الانسانية وأمرت بادخال دي مولاي ، الذي ما أن خطا نحو البعثة ، حتى خر على ركبتيه طالباً الصفح والرحمة لأنه كذب في المرة الأولى :

ـ صحيح أنني انكرت المسيح ولعنته عند انتسابي للهيكل . أطلب الغفران و . . .

دهش دي سويزي ودي فرويدل لهول ما سمعاه . هل يعقل أن يقول دي مولاي ذلك ؟ لم يستطع دي سويزي السكوت فقال له :

ـ لكنك قلت خلاف ذلك في افادتك السابقة . .

ـ أجل . كان ذلك بتأثير الخمرة التي شربتها على المائدة معكم .

مرة أخرى ، حاول دي سويزي اعادة دي مولاي الى صوابه ، فشد على كتفه محدقاً إلى عينيه وداعياً اياه للتفكر في ما يقول . لكن دي مولاي أصر على افادته واستأذن

بسرعة وخرج .

وتكرر المشهد ذاته مع كافة القادة الذين استمعت اليهم البعثة . وكان كلما تكلم واحد منهم ، ازدادت دهشة البعثة لما تسمع . كانت المشاهد رهيبة وحالة اعضاء الحركة النفسية يرثى لها . كثيرون منهم عادوا الى زنزاناتهم منهارين باكين . وقد حفر بعضهم على جدران زنزاناته عبارات طلب الغفران والرحمة من الرب .

قرأ البابا تقرير البعثة بما فيه من تبدل للأقوال والمواقف . لم تبد على وجهه علامات الاستغراب . ترى ، هل كان على علم بما حيك ضد هؤلاء المساكين ؟ لا أحد يعرف . لكن الاستغراب بدا على وجوه الكرادلة عندما اطلعوا على وثائق اعتراف المساجين الخطية والموقعة منهم ، كان تاريخ هذه الوثائق ١٢ آب ـ أغسطس سنة ١٣٠٨ ، أي قبل ثمانية أيام من وصول بعثة البابا واستماعها اليهم . فهل من شك في أن ما قامت به البعثة كان عملاً شكلياً بحتاً ، سبقه العمل الأساسي وهو انتزاع الاعترافات المزورة الخطية من المساكين وبالوسائل المعروفة ؟

« من أجل الدفاع عن الهيكل ! من أجد الدفاع عن الهيكل ! . . . » بهذه الصرخة ، أيقظ حارس السجن أعضاء الحركة في زنزاناتهم ، في الساعة الخامسة من صبيحة يوم ٢٨ آذار ـ مارس سنة ١٣١٠ .

انتفض الجميع على الرغم من النعاس . فهذا اليوم تاريخي بالنسبة اليهم . لقد طال انتظارهم له سبع سنوات طوال . سبع سنوات مليئة بالقهر والتعذيب . حتى أن معظمهم فقد سحتيه ، الجسدية والنفسية . لقد نجحت المؤامرة حتى هذه اللحظة نجاحاً باهراً : شر زمتهم ، أهانتهم ، حطمت كبرياءهم وتركتهم كافرين بكل انسان ، بكل قيمة ، بكل شيء .

لم تمض دقائق الا وكان الجميع ينتظرون أمام أبواب زنزاناتهم لتفتح لهم . وما أن فتحت هذه الأبواب وخرج منها أصحابها وتجمعوا في باحة القلعة ، حتى انطلق مشهد يعجز عن وصفه قلم كاتب . العناق والقبلات والدموع والذكريات كانت سيدة الموقف . منظر مؤثر فعلاً . هذا اللقاء الجماعي لم يحصل منذ يوم الاعتقال .

في هذه اللحظة ، برقت في رأس أحد الاخوان ، بيار دي بولوني ، فكرة وضعها فوراً في التنفيذ : صرخ بأعلى صوته « تلك مشيئة الله ! تلك مشيئة الله ! عونك يا رب ! »

فعلت هذه الصرخة فعل السحر في نفوس المتجمهرين ، وحركت في نفوسهم ومضة الايمان المتأصل والأمل المكبوت ، فهبوا يرددونها بكل ما أوتوا من حماس . عادوا ، بلحظة واحدة ، ثواراً وفرساناً ومقاتلين . عادوا فأعادوا الذكريات ويا لها من ذكريات . . . !

كان المد الروحي جارفاً بحيث لم يتمكن الحراس من احتوائه . ووصل الخبر الى الخارج ، بعد أن ابلغ الملك وأخصاؤه به . وللمرة الأولى منذ سنوات ، عاد الباريسيون الى تذكر خدام الهيكل ببطولاتهم وامجادهم . تذكروا ونسوا . نسوا مشاعرهم السلبية التي كانت المنطلق القوي لأقدام الملك ورجاله على اعتقال الخدام وتحطيم حركتهم .

لم يكن الاتفاق على الهيئة التي ستقوم باعادة فتح التحقيق بالأمر السهل فالملك ومن ورائه دي نوغاريه ودي بيزين ، يرغب في البدء بالمحاكمة بناء على الاعترافات المزورة السابق ذكرها . والبابا يشك بصحة هذه الاعترافات . وبعد مخاض عسير ، تم الاتفاق بينهما على أن تشكل لجنتان ، الأولى للملاحقة والثانية للتحقيق . وأعمال اللجنتين تعرض على هيئة تتولى هي الحكم .

وحكمها يكون مبرماً ، أما الجهة التي ستتولى الحكم على الرئيس الأعلى للهيكل وقادته ، فقد تم الاتفاق على أن تكون البابا نفسه .

بحث كذلك في الدفاع ، فاستقر الرأي على أن يتولاه اعضاء من الحركة نفسها . وعلى من يجد في نفسه الرغبة والكفاء للقيام بهذه المهمة ، ان يتقدم من لجنة التحقيق بطلب ، واللجنة تؤمن انتقاله من سجنه الى مقر اللجنة .

المفاجأة التي لم يتوقعها أحد هي أن أحداً من الأعضاء لم يتقدم بطلب للدفاع عن اخوانه . لقد سلب منهم التعذيب والجوع والوحدة ، كما سلب منهم موقف البابا المخيب للآمال كل رجاء ، فباتوا في ذهول وضياع لا يعادلها شعور آخر .

لما لم يتقدم أحد للدفاع ، وبعد خمسة عشر يوماً من الانتظار ، قررت اللجنة أن تستدعي الرئيس دي مولاي ليقوم هو بمهمة الدفاع . فليس سواه احق منه في القيام بهذه المهمة . لكن قرار اللجنة هذا أفقد دي بليزين صوابه . ذلك أن دي مولاي سيتوصل حتماً الى اقناع الهيئة العامة بالبراءة وبالتالي ، الى اطلاق سراح الجميع . وهنا الطامة الكبرى .

يوم الجلسة ، جيء بدي مولاي ليدافع . وما أن أذن له بالكلام ، حتى انطلق

بفصاحة وجرأة أدهشت الحاضرين ، باستثناء دي بيزين ، الذي حاول اخفاء وجهه عن « صديقه القديم » . انطلق دي مولاي يفند المآخذ والحجج . لم يكن بالصورة التي نقلت عنه محطماً تعباً . وكان ، كلما توغل ، يغرق دي بيزين في بحر من الهواجس والانفعال . وبينما هو كذلك من الحماس والتأثير ، اذ به يلمح وجه صديقه دي بيزين فتهدأ حدته ويبتسم . ثم لا يلبث أن يتعلثم ويعتذر عن المتابعة طالباً الأذن بالاختلاء بـ « سيدي دي بيزين » . وعاد في اليوم التالي ليطلب اعفاءه من متابعة الدفاع ، صاعقاً بذلك من بنى الآمال عليه من اخوان ومؤيدين .

أثر هذه الضربة ، تقدم عدد من أعضاء الحركة بطلبات للدفاع ، وكانوا هم من البسطاء محدودي الكفاءة والتأثير . وغرقت التحقيقات في خضم من التناقضات واللفظ والارتباك . وأحس المدافعون أن اللجنة ، التي شكلت بصورة خاصة من خلال سلطان الملك ومستشاريه ، ليست بالهيئة المؤهلة للتقييم وطلبوا أن لا يحضر الاجتماعات أي من العلمانيين أو أبواق الملك . لم يكتفوا بذلك ، بل كوانوا ، كلما دخلوا قاعة الاجتماع للدفاع ، يجولون بأنظارهم ليروا ما اذا كان قد دسّ فيها جاسوس للملك أو عميل لمستشار له . وكم من مرة امتنعوا عن الكلام لوجود أحد من هؤلاء بين الحضور . ولم يلق زبانية الملك سلاحهم ، بل لجأوا الى وسائل متنوعة أخرى كالرشوة والترهيب والتصفية . ألم يشتروا أحد المدافعين ، ريمون دي فوسينياك ، الذي غاب فترة عن زنزانته ليعود اليها وقد خلع ثوبه ؟ لقد أنكر ريمون هذا أمام اللجنة أي وجود للتعذيب أو سوء المعاملة . وعند سماعه يشيد بحسن معاملة ساجنيه ويتنكر للحركة و « ممارساتها » ، لم يتمالك دي بولوني ، صاحب الصرخة الشهيرة ، نفسه ، فانفجر يصرخ : « أن الكثيرين من سجناء الحركة ماتوا تحت التعذيب ، وأن منهم من أصيب بعجز دائم . هذا الوضع أدى الى شل ارادتهم وكبت حريتهم ، لذلك ، سهل شراء من بقي منهم سلياً . ودي فوسينياك الماثل أمامكم ، لا شك ، واحد منهم » .

ما قاله دي بولوني ليس ، في الواقع ، دفاعاً عن الهيكل بقدر ما هو اتهام صريح لرجال الملك ، ومن خلاله ، للملك نفسه . لقد بدأت التحقيقات تأخذ مناحي خطرة عل الحكم ورجاله . يلاحظ ذلك من تبرم بعض اعضاء اللجنة واستيائهم الظاهر من الوسائل غير الانسانية التي استخدمت في انتزاع الاعترافات من أصحابها . ومرة لم يستطع دي نوغاريه انتزاع ما يسمح له باصدار أحكام بالاعدام ، فاستدعى فيليب دي ماريني ، كاهن رعية سانس ، وحصل منه على حكم بالاعدام على أربعة وخمسين عنصراً من الحركة صادر عن اللجنة الكهنوتية العاملة في نطاق رعيته . وقد نفذ حكم

الاعدام هذا حرقاً على مرأى من الجميع . هذا العمل أثار النقمة كما أثار الخوف . وها هو أحد المدافعين يتراجع عن أقواله أمام اللجنة ويبدي استعداده ليلعن ، ليس الحركة فحسب ، بل الرب نفسه ، اذا كان ذلك من شأنه أن ينقذه من الموت حرقاً . وفي اليوم نفسه ، تدافع عشرات من المدافعين أمام اللجنة ليتراجعوا عن أقوالهم .

عند ذلك ، طلب دي بولوني من اللجنة أن تتصل بالملك لوقف مسلسل العنف والتزوير هذا . هذا الطلب أربك اللجنة ، فطلبت رفع الجلسة لليوم التالي بعد أن أعلنت عدم صلاحيتها لمثل هذه الأمور .

لكن دي بولوني هدد ، في اليوم التالي ، بازماعه الكتابة مباشرة الى البابا وكشفه له عن كل ما يجري من مخاز أثناء التحقيق وبسببه .

مساء ذلك اليوم ، وكعادته منذ بدء التحقيق وتبرع دي بولوني الدفاع عن اخوانه ، كان القارب ، الذي أتى بهذا المدافع عبر نهر السين الى حيث تجلس اللجنة ، ينتظر ليعود به الى السجن . وصل السجين مع السلاسل الحديدية التي تكبل قدميه وتثقل مشيته فأنزل الى القارب . لم يكن سائق القارب ولا الحارسان اللذان فيه هم أنفسهم الذين اعتاد ان يراهم كل مرة . لقد أبدل السائق بآخر وهو عضو سابق في الحركة كان قد طرد منها لارتكابه سرقة في قبرص . هذا التبديل المفاجىء في الطاقم بكامله جعل المسكين يتأكد من دنو أجله . لم يخف « بل على العكس ، شعر بالراحة والغبطة فالموت غرقاً في النهر أسهل عليه من الاحتراق بالنار في ساحة الاعدام . لم يكذب الظن ولم يطل الوقت . فما أن دخل القارب تحت قبة الجسر المظلمة ، حتى أحس بألم حاد تحت ابطه الأيسر . وفي اليوم التالي ، أعلن في بدء الجلسة أن الأخ بيار دي بولوني تمكن من الافلات من حراسه « والهرب » . . . !

في ٥ حزيران ـ يونيو سنة ١٣١١ ، علقت اللجنة جلساتها . لقد نفذ حكم الاعدام حرقاً بالكثيرين من خدام الهيكل في طول البلاد وعرضها وبأحكام صدرت عن لجان اقليمية برئاسة كهنة الاقاليم . هذا الوضع الارهابي والشاذ وهذا التجاوز للجنة واستباق تحقيقاتها أديا الى جو غير طبيعي كان من نتيجته استنكاف جميع المدافعين عن متابعة مهمتهم .

عندما علقت اللجنة جلساتها ، كان قد مضى سنتان على بدء أعمالها . خلال هذه المدة ، استمعت الى مئة وثلاثين عضواً في الحركة من أصل خمسة عشر ألفاً هم مجموع من اعتقلوا طوال الحملة . مات منهم المئات حرقاً أو تعذيباً أو قتلاً . عدد بسيط

أطلق سراحه فعلاً بسبب « حسن السلوك » . هؤلاء قاموا بكشف أسرار الحركة واعلام السلطان عن بقية أسماء الأعضاء ، وقد ترك معظمهم البلاد الى الخارج ، حيث ينتظر اعضاء من الحركة محاكمتهم أمام لجان كالتي شكلت في فرنسا . في فيينا ، كان موقف رجال الدين يتلخص بالاصرار على الاستماع الى دفاع المتهمين شخصياً ، كل بمفرده . هذا الموقف كان ناتجاً عن عدم الاقتناع بصحة التهم الموجهة الى الحركة . ذلك أنهم كانوا يتتبعون أعمال اللجان والنتائج على الطبيعة . وهذا ما جعلهم جد مستائين في العمق . والأغرب هنا أن البابا نفسه لم يكن من رأيهم ، فهو لا يرى ضرورة لأن يكون الدفاع شخصياً كما يرى الكهنة النمساويون . لكن هؤلاء أصروا على موقفهم .

هذا الموقف المتصلب أوصل الملك الفرنسي فيليب لوبل فجأة الى فيينا يرافقه جيش جرار . وبوصوله تغيرت مواقف البعض . يضاف الى ذلك اجتماعه سراً هناك بالبابا واتفاقهما « الحر » على الاسراع بانهاء القضية ومحاكمة « ميليشيا الهيكل » دونما حاجة الى الدفاع . وعلى الرغم من كل الارهاب الذي سببه وجود الجيش الفرنسي وملك فرنسا ، وعلى الرغم من « انصياع » البابا لرغبة الملك ، ظل عدد من الكهنة متصدياً لهذا التعسف ومقاوماً لتدابيره .

عدم الاجماع هذا أدى الى تأخير القرار القاضي بحل الحركة . ولكن ، في ٣ نيسان ـ ابريل سنة ١٣١٢ ، وفي بداية الدورة الكهنوتية ، أعلن البابا كليمان الخامس بحضور الملك فيليب لوبل ، حل حركة خدام الهيكل . وجد الكهنة أنفسهم أمام أمر واقع ولم يعترض أحد . وبعد شهر ، في ٢ أيار ـ مايو على وجه التحديد ، أصدر البابا أمراً بعدم السماح لأي انسان بلبس الثوب العسكري بعد أن كان أمر بحل الميليشيا . أما ممتلكات الحركة ، فقد وهبت الى الأديرة . وهكذا صدر قرار الحل ونفذت اجراءاته قبل أن تجري المحاكمة .

واستمرت مهزلة المحاكمة . أمام باب القلعة ، توقفت عربة لنقل المساجين الى حيث هيئة المحكمة الى كنيسة نوتردام في باريس .

في الطريق ، كانت مجموعة ، دي مولاي وعدد من القادة . حاول دي مولاي أن يبث فيهم روحاً نسوها منذ وقت طويل . وقبل المحاولة ، جهد هو في تجميع ما تبقى من قوة وعزم . لكن رفاقه ، وقد أعياهم تعب طويل وارهاق متماد ، لم يعيروا كلامه أي اهتمام . كانوا في ذهول فاغري الأفواه ، عديمي التعابير . أما دي مولاي نفسه ، الغارق في معطفه الرث ، فقد صمم أن يقول كل شيء ، أن يكشف كل شيء . ولكن هل

سيجد من يسمعه بعد كل ما جرى وبعد كل ما قيل ؟

كانت الجموع التي جاءت لتشهد المحاكمة غفيرة . في صدر القاعة الكبرى ، جلست هيئة المحكمة الكهنوتية بأبهى حلتها . كان أعضاؤ ها يتسامرون والانشراح باد على وجوههم ، في الوقت الذي كان المتهمون يفدون ليأخذوا امكنتهم . من بين أعضاء المحكمة ، بدا فيليب دي ماريني ، صاحب مجزرة الأربعة والخمسين المعروفة . وها هو يبدأ المحاكمة بالطلب الى المتهمين تكرار اعترافاتهم المشينة بانكار الله وشتم المسيح .

ما أن انتهى دي ماريني من كلامه ، وسط صخب الحضور وهرجهم ، حتى هب دي مولاي ، وكأنه الرعد المزمجر ، ليكيل التهم والشتائم للبابا والملك والمحكمة مفنداً الانحرافات والتجاوزات والتواطؤ والخيانة . لم يكن عجوزاً في وقفته ، ولا حتى في صوته . لقد عاد هذا الهرم شاباً طافحاً بالحيوية ، على الرغم مما أصابه من الأيام ، كان غزيراً في اتهاماته . جريئا في عباراته .

لكن رجال الملك لم يتركوه يكمل . انتزعوه بالقوة من أمام المحكمة . لكن الجماهير الحاضرة ، وقد أحست بالظلم والقهر والاستبداد ، هبت لنجدة دي مولاي ورفاقه . واختلط الحابل بالنابل . واضطر رجال الملك الى استعمال سيوفهم لإعادة النظام .

وجاء الفصل الأخير يضع نهاية مفجعة للقصة . مساء اليوم نفسه ، كان كل شيء قد هيء لاعدام دي مولاي ورفاقه من القادة حرقاً . وها هو فيليب لوبل يقف على شرفة قصره مقابل المنصة التي اعدت للاعدام ، ليحيي الجماهير المحتشدة في الباحة باشارة من يده هي ، في الوقت نفسه ، اشارة للجلاد . . .

ارتفع اللهب وغطى الأجساد التي تحترق . كان آخر صوت سمع قبل أن ينتهي كل شيء صوت دي مولاي :

ـ أيها البابا!يا أيها الملك فيليب ! . . . قبل مرور سنة ، أدعوكما لتمثلا أمام محكمة الله ! . . .

لم يعش البابا أكثر من خمسة عشر يوماً بعد الاعدام . . أما الملك فقد مات خلال شهر تشرين الثاني . نوفمبر من السنة نفسها ، سنة ١٣١٢ .

وأسدل الستار تاركاً في القلوب غصة وفي الأذهان أكثر من علامة استفهام .

بتيو

في ١٨ آذار ـ مارس من عام ١٩٤٦ ، بدأت ، في قصر العدل في باريس ، أكبر محاكمة منذ قضية الماريشال بيتان . أنها محاكمة بتيو ، أو الدكتور ساتان ، كما يلقب . كانت قاعة المحكمة ، على اتساعها ، واروقة القصر وباحاته ، على تعددها ورحابتها ، تغص بالمئات ، بل بالألاف ، جاؤوا ليشاهدوا الرجل ويشهدوا ما سيكون عليه من سلوك وتصرف اثناء محاكمته . وعندما دخل المتهم قفص الاتهام مخفوراً بحارسيه ، رفع يديه المكبلتين وكأنه زعيم يحيي الجماهير من على شرفة قصره .

ابتسم وأشار للشرطيين أن ينزعا عن يديه القيد ففعلا . نزل الدرجة الوحيدة التي توصله الى مقعده ، وخلع معطفه بكل هدوء وتأن ، والتفت نحو المصورين وكأنه يقول لهم : «بدأ التمثيل . . . وأي تمثيل ! »

بتيو هذا متهم بسبع وعشرين جريمة قتل . أجل ، سبع وعشرين ! أمام المصورين ، الذين بهروه بأنوار آلاتهم ، وقف بوجهه الأسود وقامته النحيلة ليقول لهم متضايقاً :

ـ كفى أيها السادة ، هل تظنون انفسكم في قصر الحمراء؟ لا عجب من سلوك الرجل ، فهو قاتل غير مألوف ومتهم غير مألوف أيضاً . أنه لا يتورع عن المقاطعة ، عن الشتم . وهو بذلك يذكر من نسي أنه مجرم ، استثنائي ، يذكرهم بأكداس حقائب السفر العائدة لأولئك المساكين الذين سافروا دون أن يعودوا بعد أن زاروه ، هو ، الدكتور ساتان !

وبدأ كاتب المحكمة يقرأ على مسمع الحضور لائحة هؤلاء المسافرين : أوشينو جواشان ، فان بيفر جان ـ مارك ، هوتين دينيز ، كريباي جوزفين ، دريفوس ايفان . . . وينتفض بتيو واقفاً ليز مجر :

ـ ارفض اعطائي صورة المذنب !

وتلتفت صوبه ، من جديد ، كل الرؤوس لتصطدم النظرات بعينيه . انهما عينا

ساحر. أجل، هذا هو التعبير، ساحر. تماماً كعيني الأفعى التي تسيطر على ضحيتها وتشل حركتها.

أكمل الكاتب لائحة السبع والعشرين، بينهم خمسة عشر يهودياً ويهودية، أربعة تجار رقيق أبيض، أربع مومسات، ثلاثة من زبائن بتيو وجثة لم تعرف هويتها. أما اكتشاف هذه الجرائم، فقد تم مصادفة منذ سنتين. في أحد أيام شهر آذار - مارس من عام ١٩٤٤، لاحظ أحد القاطنين في شارع لوسيور في باريس أن دخاناً ذا رائحة كريهة وغير عادية ينبعث من مدخنة بيت مجاور. استدعى الشرطة فحضرت مع رجال الاطفاء وخلعت الباب لترى مرجلاً في طابق سفلي يغلي بمحتواه وبجانبه بقايا أجساد بشرية من أذرع وجماجم... كما وجدوا حفرة مليئةبالكلس الحي. كل ذلك والبيت شاغر وخال من أية حركة.

من يا ترى اشعل النار تحت المرجل وغادر؟ من هو قاتل اصحاب هذه البقايا البشرية. صاحب البيت هو الدكتور بتيو. بدأ التفتيش. بالقرب من غرفة المعاينات، عثر على غرفة مثلثة الشكل ثقب احد جدرانها بثقب صغير يسمح فقط برؤية ما وراءها وهو أشبه بغرفة غاز صغيرة. وبينما رجال الشرطة يتابعون عملية التفتيش، اذ برجل يدخل البيت مع دراجته ويقترب من الرجال ليقول لهم بكل هدوء: «أنا شقيق صاحب البيت، والقضية لها علاقة بالمقاومة...» هذا الرجل كان الدكتور بتيو نفسه. ولكي نفهم سبب ربط الوضع بالمقاومة، يقتضي أن لا ننسى أننا في سنة ١٩٤٤، سنة انتهاء الحرب وما تخللها من أعمال قامت بها حركة المقاومة ضد الاحتلال النازي لفرنسا. كذلك يقتضي أن نتذكر أن التصويت على الدستور الجديد سيتم بعد أيام في بلد لا يزال في طور النقاهة بعد حرب طاحنة.

ولنعد الآن الى قاعة المحكمة.

- أيها المتهم قف!

وبعد التعريف التقليدي بالهوية والمهنة من قبل المتهم، تابع الرئيس:

- بعد حرب ١٩١٤، دخلت مصحاً للأمراض العقلية...

ويقاطع المتهم الرئيس ليقول:

- لكني حصلت على شهادة الطب بدرجة جيد جداً.

هنا يكمن التناقض: رجل مجنون في طبيب لامع وشعبي. حتى أنه انتخب عمدة وبعدها، مستشاراً عاماً لمدينة ايفون. لكن بعضاً من تصرفاته كانت تثير الاستغراب. لقد ضبط وهو يسرق الكهرباء، كما وجد في المقبرة ينتزع الصلبان من على القبور....

- بعد اختفاء خادمتك وعشيقتك لويزيت، تركت ايفون واستقريت في

باريس . . . .

ـ ونجحت فيها نجاحاً باهراً أكسبني ثروة ضخمة .

ـ لكنك لم تصرح بما جمعت لدوائر ضريبة الدخل .

ـ كنت منسجماً مع ابناء وطني . أتريدني أن أخرج على التقليد الفرنسي ؟ وامتلأت القاعة بالضحك ، وكأن الضاحكين نسوا الفظاعات التي ارتكبها هذا الذي يضحكهم .

ـ هل صحيح أنك سرقت كتاباً من واجهة مكتبة جيبار؟

ـ ألا تعرف أيها الرئيس أن الناس تتهم بالجنون من لديه عبقرية الاكتشاف . أنا عندما أخذت الكتاب ، انما فعلت ذلك دونما انتباه . فقد كنت غارقاً في التفكير في تصميم جهاز يقضي على الكسل المعوي .

ـ تدعي الجنون لما وجدت نفسك في مأزق ، ليس الا . . .

ـ لا يستطيع المرء أن يعرف ما اذا كان مجنوناً أم لا . فهذا لا يمكن معرفته الا بالمقارنة .

وتراءى للحضور أن بتيو، لا الرئيس ، هو الذي يدير الاستجواب .

ـ والغرفة المثلثة ، ما حكايتها .

ـ الأمر غاية في البساطة . أردت أن أخصصها للتصوير الشعاعي . وهذا يفسر كثافة الجدران . أما الثقب، فهو لتحرير السلك الكهربائي . الا ترى بأني ضحية وشايات أخذت بها الصحافة دون تعمق؟

ـ والبقايا البشرية التي وجدت في بيتك؟

ـ لا دخل لي بها . أنها من عمل الغستابو. وقد كان مروعاً أن أتعايش معها في بيتي . الا ترى ذلك؟

وبدا بتيو مضطرباً وهو يتحدث عن ذلك . حتى أن عينيه اغرورقتا بالدموع . انه ممثل بارع . هذا الطبيب، الذي ناضل في صفوف المقاومة ، اتخذ لنفسه أسماء تمويهية وصفات متنوعة : الكابيتان فاليري ، الكابيتان وترولد ، العميل س-٢١ ، بطل التحرير ، محارب الشوارع ، معاون للشرطة العسكرية في ثكنة روبي ، وذلك قبل توقيفه سنة ١٩٤٥ . وها هو الآن يستعرض أمجاده كلها أمام المحكمة وهيئة المحلفين وجمهور الحضور ليوظفها ، وهو البارع ، في خدمته الذاتية ، علّها تساعد في البراءة . أجل ، كما قال ، لقد قتل العشرات . لكنه قتل من أجل القضية وفي سبيلها . والذين قتلهم كانوا خونة ، عملاء للغستابو. ولا غرابة ان بلغ عددهم ستين ، وربما أكثر؟

وهنا رد عليه الرئيس، رافضاً مناورته :

ـ كلا ، بل كانوا ابرياء استدرجتهم لسلبهم أموالهم بعد أن كنت تعدهم بإجتياز الحدود . ومعظم هؤلاء كانوا من المتمولين اليهود .

هل كان المتهم منخرطاً فعلاً في صفوف المقاومة ومناضلاً من أجل قضيتها ، أم كان محتالاً وعميلاً للمحتل النازي ؟ هذا هو السؤال الذي ستسعى المحكمة لاستجلاء جواب عنه في ذلك اليوم ، يوم ١٩ آذار مارس من عام ١٩٤٦ ، وهو اليوم الثاني للمحاكمة .

يؤكد المتهم أنه كان عضواً في مجموعة اسمها «فلاي توكس» . وعندما يتكلم عن المقاومة ، انما يفعل ذلك كممثل على المسرح . يحسب حساباً لكل ردة فعل للجمهور ويتكيف معها . لا يترك همسة الا ويحصيها . تراه حاضر البديهة متوقد الذهن . أنه متهم من نوع فريد ، نوع تحسب له المحكمة ألف حساب . وعندما سأله الرئيس ان يثبت أنه كان في مجموعة المقاومة فلاي توكس ، كما سماها ، بذكر بعض افرادها ، أجاب على الفور :

ـ لا ، لن أذكر أسماء . أتريدني أن أورط رفاقاً لي في تحقيقات ومآزق ؟ لن اعطي اسماء الا بعد أن ينظف البلد من أعوان بيثان والمتعاملين مع العدو .

ترى ، ألم يكن بتيو يقصد قضاة في هيئة المحكمة نفسها ؟ ربما . وها هو الرئيس يرفع ذراعيه استياء ، فيصرخ بتيو في قفصه في وجهه :

ـ لا ترفع ذراعيك .

ـ بل سأرفعهما عندما يحلولي ذلك .

ـ اذاً ، سنرفعهما كثيراً بعد قليل ! !

وظن الجميع أنهم في حلم .

ويكمل بتيو حديثه عن المقاومة ليقول :

ـ انتميت في البداية الى مجموعة بيار بروسليت . بعد ذلك ، شكلت تنظيماً خاصاً بي . هذا التنظيم حصر نشاطاته في تصفية المخبرين من عملاء الغستابو .

ـ وكيف كنتم تتصرفون معهم ؟

ـ الأمر في غاية البساطة . كنا نصرخ في وجه العميل : «الشرطة الألمانية ، اتبعنا ! » . ويتبعنا لنضعه في شاحنة تتبعنا على بعد أمتار . من هناك الى غابة مارلي أو سان جيرمان حيث نصرعه .

ـ لكنك قلت أن القتل كان يجري في بيتك في شارع لوسيور

ـ كان هذا يحصل عندما نكون على عجلة من أمرنا .

ويقف محامي الادعاء فيرون ، بثوبه الأسود الفضفاض ، فيبادره بتيو :

ـ اجلس يا أنت . اجلس يا محامي اليهود . أنت لا حق لك في الكلام . فيرد عليه

فيرون ، وهو المقاوم القديم ، بقسوة ويقول له :

- لن أسمح لك بتلويث سمعة المقاومة بحجة الدفاع عن جرائمك وتمتلىء القاعة بالتصفيق .

- انت عميل مزدوج يا فيرون .

- اسحب كلامك او اهشم وجهك .

ويتدخل الرئيس :

- كفى ، كفى .

ويواصل بتيو ليوضح قضية السفر والمسافرين :

- هناك من كنت أجعله يجتاز الحدود فعلاً . وهناك أيضاً من كان سفره لا يتجاوز شارع لوسيور. هؤلاء هم الخونة . ولا تنسوا ايها السادة ان الغستابو القى القبض عليّ وزجّني في السجن لشهور عدة . لقد أخضعوني لعمليات تعذيب فظيعة . وإذا كنت بينكم الآن واتمتع بقواي العقلية ، فذلك عائد الى ارادتي الصلبة . لقد أخلى الغستابو سبيلي لقاء مبلغ ١٠٠,٠٠٠ فرنكاً. وعندما دخلت بيتي بعد اخلاء سبيلي ، وجدت بقايا جثث فيه . ولا شك في أن رفاقي تركوها سهواً . . .

- وحفرة الكلس الحي ؟ والمرجل ؟

-رفاقي رأوا حرق الجثث تخلصاً منها .

- من هم هؤلاء الرفاق؟

- لن أبوح بأسمائهم . ان ذلك يؤدي الى زجهم معي في السجن بجرم المشاركة .

- واذا تعهدت لك بتبرئتهم ان لم يقتلوا سوى اعوان للغستابو؟

-اعرف هذه النغمة . ان لم يكن أنت الذي ستوقفهم ، فسيكون زميلك؟ . . . . وسيتم ذلك بعد اطلاق سراحي !

- اطلاق سراحك؟

- نعم ، سيدي الرئيس . لا ريب عندي في ذلك . على كل حال أنا واثق من عدالة وحكمة حضرات المحلفين .

حتى اللحظة ، كان بتيو يسيطر على الملعب بمناوراته الناجحة . لكن ذلك لن يطول . لقد اجريت التحريات والاتصالات بين باريس ولندن ، فلم يعثر على مجموعة مقاومة باسم فلاي توكس . هنا ، جاءت جولة الثأر. وسيخوضها المحامي العام فيرون :

- اذا كان المتهم قد عمل على رأس المجموعة فلاي توكس ، فهل له أن يشرح لنا كيف تستعمل المتفجرة؟

لم يجب بتيو، كعادته، فوراً بل تريث وغطى وجهه احمرار غير عادي:
ـ هذا موضوع لا يعالج على عجل وفي قاعة كالتي نحن فيها.
ويلاحظ محامي الدفاع، فلوريو، تلعثم موكله، فيتدخل:
ـ غريب هذا الطلب. هل نحن في مباراة دخول الى معهد البوليتكنيك؟
ـ يا سيدي، لكني أعلم علم اليقين أن هذا «المقاوم الصلب» لم يعرف في حياته ما هي المقاومة.

ويزيد بتيو ويرغي ويوصم من جديد فيرون بأنه محامي اليهود. تناقض طريف بين هذا الذي يعتبره المتهم وصمة ومجال شتم وبين ادعاته محاربة النازيين. ولا يلبث ان يقع في تناقض آخر:
ـ نعم. لقد قتلت ثلاثة وثلاثين عميلاً للألمان وثلاثين جندياً المانياً. وأني لأشعر باحترام أكثر بكثير من احترامي لموكلك.
ـ غريب! كيف تمكنت من اصطياد ثلاثين جندياً ألمانياً؟
ـ لا أعرف لماذا تطلب مني تفاصيل أعمال لا تشكل موضوع محاكمة لي. قال بتيو هذا وهو على يقين من التعب الذي أخذ من الرئيس كل مأخذ. لذا، ها هو يقول والرئيس يرفع الجلسة:
ـ لماذا؟ أنا لا زلت مستعداً للكلام.
ويأتي اليوم الثالث للمحاكمة، يوم ٢٠ آذار ـ مارس. في ذلك اليوم، كان الحضور قليلاً بشكل بارز، مع أن الجلسة كانت مخصصة لاستعراض ملابسات الجرائم، كل واحدة على حدة. لم يكن بتيو أثناء الاستجواب أقل ارتياحاً أحياناً وأقل ارتباكاً احياناً أخرى من ذي قبل. لكنه كان دائماً يجد الجواب عن السؤال. ويجده في أطار المقولة الخاصة بالمقاومة وبطولاته فيها. حتى أن اعترافاته بالقتل، كان يرددها بزهو. فهو «مناضل من أجل القضية، قضية تحرير الوطن من الاحتلال النازي».

وخير دليل على تأثيره على الحضور، هذا السيل من الناس يتسابق في أخذ توقيعه التذكاري اثناء استراحة المحكمة ولا يتركه الا بعد أن ينتزعه حراسه ويعيدوه الى عمق القفص.

يوم ٢٢ آذار مارس كان مخصصاً لمعاينة مكان عمل المتهم في شارع لوسيور. موكب مهيب من السيارات، تتقدمه الدراجات النارية، تحرك من قصر العدل الى المكان. وسط القضاة ورجال الشرطة، كان بتيو النجم المتألق. وعندما وصل الجميع الى البيت وتوغلوا في أقسامه، لم يجدوا جديداً خارج ما ذكر في محاضر الشرطة في التحقيقات الأولية. حتى أن

أحدهم قال، وهو خارج، ان الزيارة كانت مضيعة للوقت . .

وجاء يوم آخر من أيام هذه المحاكمة الطويلة التي يبدو أنها بدأت تتعب بتيو . في ذلك اليوم، ٢٥ آذار-مارس، جرى استجواب المتهم من قبل محامي احدى المدعيات بقتل زوجها وهي مدام اوشينوف :

- بتيو، قل لي لماذا احتجزت السيد أوشينوف في عيادتك لمدة ثلاثة أيام؟

- لأن عيادتي أنسب من بيتي حيث العائلة تعطل عليّ العمل الهادىء .

- جيد جداً . أنا معجب بذكائك!

- الذكاء يا سيدي قضية مقارنة .

وينهي الرئيس المساجلة بعد أن وصلت الى درجة التهازؤ، ويستدي مدام اوشينوف لتدلي بمعلوماتها عن الجريمة :

- ذات يوم من أيام سنة ١٩٤٢ ، أسر الدكتور بتيو في أذن زوجي أن لديه طريقة يمكن بواسطتها لليهود أن يعبروا الحدود الى الخارج، وتحديداً الى الأرجنتين، وذلك لقاء ٢٥٠٠٠ فرنك لم يتردد زوجي كثيراً، فهو مهدد بالتصفية من قبل النازيين في كل لحظة. صحيح ان المبلغ كبير جداً، لكن الحياة غالية، وهي تستحق التضحية .

وتتابع مدام اوشينوف :

في اليوم المحدد، يوم ٢ شباط- فبراير، كان على زوجي، حسب الاتفاق أن يتوجه الى عيادة الدكتور بتيو للتلقيح .

- للتلقيح ؟ هب بتيو صارخاً في وجه المرأة . أيحتاج هارب للأرجنتين الى شهادة تلقيح، والكل يعرف أن الأرجنتين لا تفرض مثل هذه الشهادة؟

لكن ذكر التلقيح أثار في رأس المحلفين فكرة استخدام هذه الوسيلة لتضليل ضحايا المتهم. فالذي كان يزرق في عروق الضحايا لم يكن الا السم القاتل .

وتتابع مدام أوشينوف

- بعد ذلك، وكان زوجي قد أخذ معه ما غلا ثمنه وخف حمله، بدأت اتلقى رسائل مكتوبة بخط مرتجف يشبه الى حد ما خط زوجي. ومنذ اربع سنوات، انقطعت اخباره .

بعد مدام اوشينوف، جاء دور الزوجين كادوريل اللذين أكدا قصة مشابهة جرت لهما مع الدكتور بتيو، كما أكدا قصة التلقيح . وترسخ الاعتقاد لدى المحلفين بتوسّل اللقاح المزعوم لتسميم الضحايا. هذان الزوجان انقذا نفسيهما بسبب ضخامة المبلغ المطلوب منهما لترحيلهما الى الأرجنتين، ٩٠,٠٠٠ الف فرنك، وكذلك بسبب ما لاحظاه في بتيو من سلوك لا يدعو للثقة .

وانتهت الجلسة لتبدأ بعد ذلك جلسة تالية، وفيها، استمعت المحكمة للطبيب الشرعي، الدكتور بول الذي قال:

- في العيادة، وجدت ما لا يقل عن عشر جثث، خمس منها لرجال والأخرى لنساء. لم أجد اثراً لرصاص أو كسر او اختناق أو تسميم أو طعن بسكين. كانت جميع هذه الجثث دون اعضاء تناسلية. والجدير بالملاحظة ان هذه الأعضاء التي انتزعت، انما انتزعت من قبل انسان خبير بجسم الانسان وتفاصيله. وهذا يذكرني بالجثث الثلاث عشرة التي وجدت في نهر السين منزوعة الأعضاء التناسلية. ويومها، قلت بأن هذا لا يمكن أن يكون الا من عمل طبيب.

ويتدخل محامي الدفاع:

- دكتور بول، اذا كنت تقصد بكلامك موكلي، فأني اؤكد لك أن الدكتور بتيو لم يقم بأي من أعمال التشريح أثناء دراسته الطب.

- استغرب ذلك. الدكتور بتيو يشرح جيداً.

- تقصد ان تقول «الفاعل يشرح جيداً». والفاعل ليس موكلي. ويبتسم الشاهد وينسحب. ويستدعى شاهد آخر، هو البروفسور بيادليافر، الذي جيء، به ليحدد تاريخ وفاة كل ضحية. لم يستطع تأكيد شيء من هذا. فالجثث وبقاياها احترقت بالكلس.

كذلك جيء بثلاثة من الاختصاصيين بالطب النفسي. وجميعهم أكدوا أن المتهم طبيعي وذو ذكاء حاد، كما أكدوا وجود ميل لديه للشر. وتدخل محامي الدفاع ليسأل احدهم:

- وشقيقة المتهم، هل هي ايضاً طبيعية؟

- أجل!

- لكن المؤسف يا سيدي أنه ليس للمتهم شقيقة.

وتنفجر القاعة بالضحك وينفخ المحامي صدره زهواً. لكن هذا الانتصار لم يدم طويلاً. لقد أكد خبراء الخطوط أن الرسائل التي ارسلها أوشينوف الى زوجته انما كتبت من قبله في لحظات اضطراب شديد. وهذا يدل على أن بتيو كان يجبر ضحاياه على كتابة مثل هذه الرسائل قبل تصفيتهم. وتستمر المحاكمة طويلة ومملة. وفي ٢٧ آذار- مارس، اليوم التاسع، بدأ الاستماع الى شركاء بتيو ومعاونيه ومنهم الممثلة المشهورة غريتا غاربو وموريس، شقيق بتيو، ومدام دريفوس. أقوال متضاربة حيناً ومتناغمة حيناً آخر.

ويأتي يوم ٣٠ آذار- مارس لتعقد الجلسة التالية في البدء، أمر الرئيس المباشر بفتح حقيبة موضوعة على الطاولة وباخراج قطعتي ثياب:

ـ بتيو ، هل تعرف هذا القميص وهذه القبعة ؟
ـ لم يأت دوري في الكلام !
ـ تكلم . آمرك بذلك .
ـ سأتكلم بعد أن ينتهي سائر الشهود من كلامهم .
ويعلق أحد المحامين :
ـ ذكي . تعطي لنفسك الوقت الكافي للتفكير .
ـ لا تقلق يا سيدي . فلن أهرب من هنا ! ولن اتكلم قبل مرور نصف ساعة .
ويضحك الحضور .

ولنعد الى قطعتي الثياب . انهما ، كما ادعت مدام برمبرغر في شهادتها ، وهي زوجة احدى الضحايا ، تخصان زوجها المغدور . لكن محامي الدفاع دحض اقوالها . فالقطعتان لم يحويا حرفي اسم وشهرة زوجها كما ذكرت . وهما لم تشتريا من المحل الذي ذكرته . وهكذا ، عاد هذا المحامي وزرع الشك في اذهان المحلفين كما فعل في الاتهامات الأخرى . أما بتيو ، فلم يفقد مداخلاته الظريفة ، كما لم يفقد سرعة بديهته .

وجاء دور شهود الدفاع ، أو الشهود الطيبين ، في اليوم الثالث عشر للمحاكمة . سيل من المدائح ملأ القاعة . مدائح لفضائل الدكتور من خلق حسن وتفان في العمل ونكران ذات في خدمة الآخرين وأخيراً ، تضحيات دون حساب في المقاومة . هذا اليوم كان ، بالفعل ، يوم بتيو .

لكن القاعة في الجلسة التالية ، وقد خصصت لشهود الادعاء ، امتلأت بالغيوم السوداء لفّت المتهم من كل جانب . وُصف بالاجرام ، بالاحتيال ، بالكذب ، بالعمالة . . وجاء المدعي العام يغلف كل هذا بطلب انزال أقسى العقوبات بهذا القاتل المحتال ، الذي لم يكن يوماً في المقاومة ، بل كان دائماً لصاً محترفاً يستدرج ضحاياه ليسلبهم ما يملكون من أموال وما لا يملكون من أرواح .

واستمر المدعي العام يكيل أقبح الصفات واشنع النعوت لذلك المتهم الجالس في قفصه يلعب ورقته الأخيرة . في ذلك الوقت ، بدأ بتيو ممتقع اللون ، مقطب الجبين . التفت حوله ورأى وجوها تنطق بالاستنكار والاستهوال . ولم يكمل المدعي العام مرافعته . فقد تأخر الوقت ورفع الرئيس الجلسة .

في اليوم التالي ، وابتداء من الساعة الواحدة بعد الظهر ، ساعة افتتاح الجلسة ، جاء المدعي العام يستكمل مرافعته ، التي لم تكن ، اليوم ، أرحم منها في الأمس . وعند الساعة الثالثة ، ختم بقوله : «فليتبع بتيو ضحاياه » .

والآن، جاء دور محامي الدفاع، فلوريو. بدأ المرافعة فور انتهاء المدعي العام لينتهي بعد ست ساعات وخمسين دقيقة. فماذا قال طوال هذا الوقت؟

لم يترك تفصيلاً الا ورد عليه. «مجزرة شارع لوسيور؟ اذا أردنا أن نفهمها، فلنعد قليلاً الى الأجواء السائدة في فرنسا ابان حرب التحرير. كانت أجواء قتل، أجواء اجرام. وموكلي اعترف بأنه قتل، وفي عيادته في شارع لوسيور. لكنه قتل من أجل قضيته هي، في الواقع، قضية وطن بأكمله. وبعد، الا نعير أهمية لمئتي شاهد توالوا في هذه القاعة ليشيدوا بفضائل الدكتور بتيو الخلقية والمهنية؟ ألم يعالج الكثيرين دون مقابل؟ ألم ينقذ حياة المئات، بل الآلاف باندفاع لا مثيل له؟ ان موكلي هو ضحية حملة صحفية مغرضة. اتهموه بقتل اليهود، هو الذي عذّب من قبل الغستابو، هو الذي ساهم في انقاذ الكثيرين من اليهود بتسهيل تهريبهم خارج الحدود».

وانتقل المحامي الى تفنيد وضع الضحايا، كل على حدة، فأقر بارتكاب موكله البعض منها بدافع الوطنية الصرفة. أما الباقون وعددهم ثمانية، فلا شيء يثبت تصفيتهم من قبله. «واعترافه بالبعض يثبت صحة نفيه للبعض الآخر».

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً، عندما انتهى محامي الدفاع من مرافعته، داعياً المحلفين، في جملة أخيرة، الى التمسك بالوقائع، وبالوقائع دون سواها.

بعد ذلك، طلب رئيس المحكمة من المتهم ما اذا كان لديه ما يضيفه. أجاب والاصفرار يلون بكلمة لا. لكنه ما لبث ان استدرك:

ـ سادتي اعضاء هيئة المحلفين انتم مواطنون فرنسيون. لقد قمت بتصفية عناصر من الغستابو. من هنا، أتمنى أن تبدأوا.

ودخلت هيئتا المحكمة والمحلفين الى غرفة المداولة. مكثتا ساعتين كاملتين كان عليهما فيهما أن تجيبا عن مئة وخمسة وثلاثين سؤالاً هي حصيلة النقاط المثارة طوال جلسات المحاكمة.

وقف الجميع واستقرت المحكمة على مقاعدها. أما بتيو، فقد كان نائماً ووجهه في راحتي يديه عندما اعلن الرئيس أن الاجابات عن الأسئلة كانت كلها «نعم». لقد اعتبر بتيو مذنباً في جميع الاتهامات التي حوكم بها.

وبينما كان الرئيس يكمل قراءة الحكم، وفيه أن بتيو سيعدم بالمقصلة، كان المسكين يلعب بأصابعه وكأن الأمر لا يعنيه. ترى، هل تعود على رؤية الموت ينزلق من عيون ضحاياه بحيث لم يعد يتأثر به؟ كان كل ما قاله، وبصوت منخفض وغير موجه لأحد:

ـ يجب أن أنتقم !

وفي ٢٥ أيار ـ مايو سنة ١٩٤٦ ، اسدل الستار عن قضية استغرق النظر فيها ست عشرة جلسة. نفذ حكم الاعدام في سجن الصحة في باريس. هناك، تقدم بتيـو نحو المقصلة دون وجل. وكانت آخر جملة قالها لجلاديه :

ـ ارجوكم ، لا تمعنوا النظر إلي. أخشى أن لا يكون المنظر جميلاً ، وأريد أن تحتفظوا مني بصورة حلوة .

رقباء لاروشيل الأربعة

في ٢١ آب- أوغسطس ١٨٢٢ ، وكان يوم أربعاء ، بدأت المحاكمة المنتظرة لخمسة وعشرين متهماً في ما سمي ب «مؤامرة لاروشيل». كان الحر شديداً . ومع ذلك ، فقد كان الحضور في الداخل وعلى رصيف القصر يتدافعون ليأخذ كل منهم مكاناً له .اثنا عشر من المتهمين كانوا يوصفون بالخطرين والباقي ،الأقل خطورة ، بالمساعدين . من بين الفريق الأول أربعة عرفوا ب «رقباء لاروشيل الأربعة» . وهم بوريس وبومبيه وغوبين ورواوكس .

ما أن ظهر المتهمون في قفص الإتهام ، حتى شهق الحضور مشدوهين لحداثة سنهم . وهذا صحيح . ذلك أن معدل هذه السن لم يكن يتجاوز الخامسة والعشرين . وكم كان التناقض بارزاً بين البقية من مسحة الحداثة البادية على وجوههم وبين الزي العسكري الذي ظهروا به .

استقرت هيئة المحكمة في صدر القاعة . وبدأ الكاتب بقراءة قرار الاتهام ، الذي نظمه المحامي العام دي مارشانجي .

بدأ كل شيء في عام ١٨٢٦ في الفرقة الخامسة والأربعين المتمركزة في باريس وسط الحي اللاتيني . هذه الفرقة ، مع كثير غيرها ، ظلت بونابرتية ، على الرغم من مرور ست سنوات على عودة الملكية . وكانت ، بحكم وجودها في حي الطلاب وبينهم ، على اتصال مستمر ووثيق بهم .

أول المتهمين هو الرقيب بوري الذي سجل الخطوة الأولى وهي حركة ثورية سرية مستوردة من ايطاليا ، حركة جمهورية في وجهها الأول ، بونابرتية في وجهها الثاني . كان هدف الحركة المعلن الإطاحة بلويس الثامن عشر والتخلص إلى الأبد من عائلة بوبون المالكة .

لم تكن الفرقة ٤٥ بمعظمها ، تحب عائلة البوربون . لذلك ، سهل على بوري تكوين

خلية فيها موالية للجمهورية . وكان لبوري في الخلية رفاق ثلاثة هم الرقباء بوميه وغوبين وراوكس والخلية هذه جزء من تنظيم الحركة الهرمي ، الذي يبدأ بها . ويعلو بعد ذلك إلى خلية مركزية فخلية عليا إلى أن يبلغ الخلية الأسمى. وسرى همس مفاده أن النواب الأحرار كانوا أعضاء في هذا المستوى من التنظيم .

في نهاية عام ١٨٢١ ، وضعت الحركة خطة لانقلاب عسكري يتولى تنفيذه الجنرال برتون . وبرتون هذا شخص كثير الكلام ، انفعالي وضعيف . وقد اختير، على مضض ، لهذه المهمة لسببين : الأول اخلاصه الجمهوري الأكيد ، والثاني عدم ايجاد سواه ليقبل بهذه المغامرة . وكانت مهمة الفرقة ٤٥ مركزية في هذا الانقلاب بسبب وجودها في باريس ، العاصمة ومركز الثقل السياسي والشعبي لنجاح عمل من هذا النوع .

لكن مع بداية عام ١٨٢٢ ، وبسبب نشاطاتها الهدامة وأفكارها المسممة ، نقلت الفرقة بكاملها إلى مدينة لاروشيل . وهذا ما جعل بعض التعديل في الخطة واجباً . والتعديل قضى بأن يتم الانقلاب والفرقة في طريقها إلى لاروشيل . وفعلاً ، وضعت ترتيبات التنسيق بين الجنرال برتون والرقيب بوري . غير أن بوري اختلف وهو في الطريق مع احد الحرس السويسريين ، مما اقتضى وضع حراسة مسلحة عليه لبقية طريقه إلى لاروشيل . كما أنه ، في بواتييه ، وكانت محطة للاستراحة ، أسرّ بالخطة إلى كولونيل متقاعد آواه ورفاقاً له في بيته ، فما كان من هذا الكولونيل إلا أن سارع إلى نقل الخبر الخطير الى الجنرال ديبينوا ، قائد المنطقة الغربية ، حيث مدينة لاروشيل .

في هذا الوقت ، بدأ الجنرال برتون تحركه . ففي ٢٤ شباط ـ فبراير سنة ١٨٢٢ ، استولى مع خمسين رجلاً ، على حامية توار المؤلفة من خمسة دركيين . لكنه لم يتلذذ بطعم هذا الانتصار . فقد استيقظ في اليوم التالي ليرى مدافع الملك موجهة إليه وإلى رجاله . هرب الجنرال على عجل ليصل إلى لاروشيل . ومن هذه المدينة ، قضى التعديل الطارىء للخطة أن تنطلق الحركة الانقلابية . وقد حدد يوم ١٧ آذار ـ مارس موعداً لهذا الانطلاق .

واستجد عنصر آخر على ساحة الخطة . لقد انضم إلى الثوار رقيب متحمس آخر ، غوبيون ، هذا الرجل لم يكن يؤمن بأنصاف الحلول . كان يزمع احراق الثكنة وذبح كل ضباطها . وكان من الصعوبة بمكان إقناعه بالتريث حتى الموعد المقرر .

مرّ يوم ١٧ ولم يحصل شيء . لقد هرب الجنرال برتون . هرب دون أن يكون لديه الوقت للبس بزته العسكرية . وعندما علم غوبيون ، ثار وذهب لتوه إلى رؤسائه ليكشف لهم كل شيء . وألقي القبض على الفرقة ٤٥ بكاملها . أما الجنرال الهارب ، فقد أوقف في

بواتييه حيث قدم للمحاكمة بعد أيام .

تلك هي القصة . قصة خطة مشبعة بالثغرات، بالأخطاء ، بالصبيانيات . وبكلمة مختصرة ، قصة خطة مضحكة .

لكن أحداً لم يخطر بباله أن يضحك يوم المحاكمة ، وقد أرادت الحكومة والبلاط أن تجري في باريس ، بهدف ارهاب المعارضة البونابرتية والجمهورية .

ويبدأ المدعي العام مرافعته واضعاً المؤامرة والمتآمرين في إطار حركة دولية تهدف إلى الإطاحة بالعروش وزرع الفوضى . انها كما قال ، متصلة بالفوضويين الايطاليين والثوريين الروس . وينتهي بطلب الاعدام للأربعة معاً . ان ما قاله المدعي العام أوقع الذعر في نفوس الحاضرين . خافوا من مرامي المؤامرة ومن اتصالاتها .

في اليوم التالي ، كان دور الاستماع إلى المتهمين . جيء بالمتهم الأول . بوميه ، شاب في الخامسة والعشرين . ولد في منطقة البيرنييه الجبلية . كان يتحدث بصوت واضح وكأنه يدافع ، ليس عن نفسه فحسب ، بل أيضاً عن رفاقه . عندما تليت أمامه اعترافاته التي أدلى بها أثناء التحقيق الأول ، أنكر وقال أن هذه الاعترافات انما أملاها عليه الجنرال ديبينوا بعد وعده له بالإنقاذ إن هو تبناها .

ثم جاء الرقيب الثاني بوري . عمره ٢٦ سنة . ولد في مقاطعة الأفيرون . وهو مدين بثقافته للمطالعة . وكرفيقه . أنكر كل شيء . أنكر انتماءه إلى الحركة ، كما أنكر أن يكون له شركاء .

والرقيب الثالث يدعى غوبين من النورماندي . وهذا أيضاً أنكر اعترافاته واتهم الجنرال ديبينوا بتلفيقها له .

وأخيراً جاء الرابع ، الرقيب راوكس وهو من أكس آن بروفانس ، جنوب فرنسا ، وقد كرر ما ادعاه رفاقه الثلاثة .

بعد الأربعة هؤلاء ، جاء غوبيون الذي وشى برفاقه . كان يجيب عن الأسئلة مرتبكاً والخجل من فعلته باد على وجهه وفي لهجته . لم يكن حاسماً في اتهاماته ، هذه المرة بل كان يحاول التخفيف من وطأة مسؤولية رفاقه .

وهكذا بدا الجميع في براءة التلامذة المذنبين الذين يحاولون إنكار ما فعلوه وما رموا أنفسهم فيه دون تقدير للعواقب .

حتى يوم الأربعاء ٥ أيلول ـ سبتمبر سنة ١٨٢٢ ، كانت المحكمة الناظرة في هذه

القضية قد عقدت أربع عشرة جلسة . لم يكن في كل ما قيل في هذه الجلسات ما يثير الاهتمام ، باستثناء مرافعة دي مارشانجي ، المدعي العام لكامل الامبراطورية . إنه شاعر وأديب وملكي لدرجة الهوس . بلغ حجم مرافعته محتوى مئة وست وتسعين صفحة مطبوعة ، طلب في نهايتها الإعدام للمتهمين الأربعة .

بعد ذلك ، جاء دور الدفاع ، وقد اتفق محاموه على طلب اعتبار موكليهم غير مذنبين لأنهم جميعاً لم يشرعوا في العمل الجرمي ، وإن كان بعضهم قد فكر فيه . والتفكير والنية لا يشكلان جرماً إن هما لم ينتقلا إلى حيز الممارسة والتنفيذ .

ويطلب دي مارشانجي الكلام ثانية خلافاً للعادة . وفي هذه المرة ، كما في المرة السابقة ، يتجاوز حدود موقعه ليتخذ من نفسه مدعياً شخصياً بل عدواً شخصياً ضد المتهمين الأربعة . ويتوجه إلى المحلفين ليؤثر على قناعاتهم من زاوية الضرب على وتر الاستقرار الوطني وسلامة المجتمع .

السادس من أيلول سبتمر عام ١٨٢٢ ، عقدت الجلسة الأخيرة في هذه المحاكمة الطويلة ، الجلسة السادسة عشرة . كان على المحلفين أن يقرروا ما إذا كان المتهمون مذنبين أم لا . بعد ثلاث ساعات من المداولة ، خرج المحلفون ليعلنوا الايجاب .

عم القاعة وجوم رهيب . وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل والشمعات المزروعة في أنحاء مختلفة من القاعة تقترب من اكتمال الذوبان .

لم تحصل لدى المتهمين أية ردة فعل انفعالية . لقد كانوا أبطالاً في صمتهم . هذا الصمت الذي أنقذ رؤساءهم الكبار في الحركة ومنهم لافاييت نفسه .

وأعيد المحكومون الأربعة إلى زنزاناتهم مكبلين بالسلاسل . وغادر دي مارشانجي القاعة بعد أن انتصر في الحصول على أربعة رؤوس لأناس في ريعان الشباب .

يوم السبت في ٢١ أيلول ـ سبتمبر هو اليوم الذي حدد لتنفيذ الحكم . لم ينفع الاستئناف ولم يفد طلب العفو من لويس الثامن عشر . ويروى أن الملك سأل المحامي الذي قدم إليه التماس العفو:

ـ في أية ساعة حدد التنفيذ؟

ـ في الساعة الخامسة من مساء هذا اليوم يا صاحب الجلالة .

ـ إذاً سأعفو عند الساعة السادسة . . . !

كانت باريس في غليان في ذلك اليوم الأول من أيام الخريف . كل شيء فيها غير

عادي . الشوارع ، الحركة . . . لماذا الاعدام؟ بل لماذا الاصرار عليه؟ أليس من الظلم قتل أربعة في ريعان شبابهم لذنب لم يباشروا به؟ ثم ، أين الكبار الذين أخفى المحكومون أسماءهم وفاءً بالعهد الذي قطعوه على انفسهم عند دخولهم الحركة ، وفيه عدم البوح بالرفاق؟ أين لافاييت ودوبون ومحامي بوري نفسه ، وهم من دفعوا هؤلاء الشباب الى مثل هذا المصير، دون أن يرحموا حماسهم واخلاصهم؟ كلمات معدودات من هؤلاء الذين سيموتون اليوم ويلقى القبض على العشرات ويساقون الى المحاكمة لينالوا مصير الأربعة . فهل ستنهار الصلابة ويقع من يقع في الفخ؟

تساؤلات واسئلة كانت تجول في اذهان الجماهير التي تجمعت في ساحة البلدية ، ساحة الاعدام المعهودة منذ قرون ، في تظاهرة وفاء ومحبة . ووسط الذهول والوجوم ، كان الناس يتوقعون حصول أمر ما ، معجزة ، بطولة ، ثورة تنزع المحكومين من على المنصة وتنقذهم من الموت . كان لا بد أن يحصل ذلك ، فهو الحل الأخير . ولماذا لا يحصل والحركة لها انصارها ولها قاعدتها؟ ثم ، هل يمكن تفسير صمت الكبار في الحركة بغير هذا الأمل؟

الساعة بلغت الرابعة وخمساً واربعين دقيقة . ها هي العربات الأربعة تشق كتل الجماهير المحتشدة ، وفي كل من هذه العربات محكوم محاط بحارسين ومساعد الجلاد . هنا يجب أن تحصل المعجزة والا . . .

وصل المحكومون الى المنصة وصعدوا . كان لباسهم الأبيض يضفي عليهم مسحة البراءة والملائكية ، الحكم سينفذ بدءاً بالأقل ذنباً . راوكس فغوبين فبوميه وصولاً الى روح المؤامرة بوري .

لم تتم المعجزة . لم يتحرك أحد . وقطع رأس راوكس ثم أعقبه الآخرون . كل ما فعله الثلاثة الأول أنهم ، وقبل اعطاء رؤوسهم الى الجلاد ، قبلوا الباقين . أما بوري ، ولم يبق له رفيق ، فقد قال قبل لحظة الموت :

ـ تذكروا أن ما يهدر اليوم هو دم رفاق لكم . . .

وعندما نزل الجلاد سانسون ، جلاد لويس السادس عشر ودانتون وروبسبيار ، من على المنصة ، كانت الساعة تنهي دقاتها الخمس . انتهى كل شيء الا الذكرى ، فهذه لا تغيب بل تتفاعل لتصنع الأساطير.

فيوليت نوزيار

لم تعقد محكمة جنايات باريس جلستها في ذلك اليوم، العاشر من تشرين الأول - اكتوبر من عام ١٩٣٤ لمتابعة النظر في قضية فيوليت نوزيار، بنت التاسعة عشرة سنة والمتهمة بقتل أبيها ومحاولة قتل أمها. فقد أعلن الرئيس رفع الجلسة منذ بدايتها حداداً على مصرع ملك يوغسلافيا، الكسندر الأول، ووزير خارجية فرنسا، لويس برتو، الذي حضر خصيصاً الى مرسيليا، يوم أمس، لاستقبال الضيف الكبير ورفع الجلسة هذا جاء في اطار اعلان الحكومة الفرنسية ذلك اليوم يوم حداد وطني. ولو لم يكن كذلك، لكان يوماً تاريخياً في سجلات القضاء، باعتبار ان فظاعة الجريمة وهولها يجعلان منها قضية بارزة تعيد للذاكرة قضية لاندرو وجرائمه الشهيرة.

منذ ما يقرب من عام، وكانت اذاً لم تبلغ الثامنة عشرة من عمرها وقبل اقترافها جريمتها بتقديم السم لأبويها، كانت هذه الفتاة تسحر الكثيرين بجمالها وانوثتها.

ولدت فيوليت من أب يعمل ميكانيكياً في شركة القطارات الحديدية. كان لامعاً في مهنته بحيث كان، وحده، المكلف بسوق قطار رئيس الجمهورية. لم يكن في العائلة الصغيرة ما يعكر صفو البيت الذي تسكنه في شارع مدغشقر في باريس. وكانت فيوليت، الولد الوحيد، الوحيد فعلاً، حتى في نوعه، تعيش محاطة بحنان وحب يحسدها عليهما الكثير من اقرانها.

ومع ذلك، فقد كانت تختنق تحت وطأة هذا الجو... في السادسة عشرة، دخلت لأول مرة عالم الرجال. ومنذ ذلك الحين، بدأت تتوغل فيه، وكانت لا تزال في بداية حياتها الدراسية في ليسيه فنلون. ولكي تستطيع العيش كما تريد وبالمستوى الذي صورته لرفيقاتها ورفاقها في الليسيه، كانت تعمل على تنمية مواردها الشحيحة نسبياً والتي كان أهلها يمدّونها بها لتحيا حياة طالبة ميسورة. والتنمية هذه كانت تمارسها بخروجها من الحي اللاتيني ومن جو الطلاب فيه، الى حيث السادة الميسورين في الطرف الآخر من نهر السين. وقد جلب لها

هذا الكثير من المال . لكنه جلب لها ايضاً مرض الزهري .

كيف السبيل لكشف ذلك المرض لأهلها ، وهم الواثقون فيها كل الثقة ؟ لقد اقنعت فيوليت طبيبها بأن يمنحها شهادة بأنها عذراء . وانطلاقاً من هنا ، اقنعت أهلها بأن مرضها وراثي .

وذات يوم من أيام شهر آذار- مارس في سنة ١٩٣٣ ، احضرت فيوليت الى أهلها دواء «من قبل الطبيب» وطلبت اليهم استعماله لتفادي العدوى . لكن محاولة التسميم هذه لم تثمر ، على الرغم من انصياع المساكين لعاطفة ابنتهم .

كان من الممكن أن تقف الأمور عند هذا الحد ، لو لم تتعرف فيوليت ، في حزيران -يونيو التالي ، على جان دابين ، الطالب في كلية الحقوق ذي العشرين ربيعاً . وبدأ بينهما غرام فعلي جامح كان الاثنان يلتقيان في أحد فنادق شارع فيكتور كوزان . ولما كان دابين لا يملك المال اللازم لمثل هذه النفقات ، فقد كانت فيوليت توفره له بطريقتها «الخاصة» . ودون علم من الشاب . وفي السابع عشر من الشهر ، قرر دابين قضاء العطلة الصيفية في بريتانيا ، وكان على فيوليت أن تلحق به طبعاً . ولكن كيف السبيل للتخلص من سلطة ابويها؟ لقد تعبت من الكذب وتلفيق الأعذار . فقررت التحرك جذرياً هذه المرة ، وفي ٢١ آب- أوغسطس ، أحضرت لأبويها «دواء» بشكل مسحوق أبيض في أكياس صغيرة وطلبت اليهما تجرعه ففعلا .

أمام قاضي التحقيق ، ذكرت فيوليت أن أباها كان يغتصبها منذ سن الثانية عشرة . أما عن أمها ، فقد ذكرت أنه لم يكن في نيتها قتلها .

دخلت المتهمة قفص قاعة المحكمة . كانت شاحبة الوجه مسحوقة . أول ما فعلته كان القاء نظرة ناحية الادعاء . لم تر أمها ، التي فضلت أن لا تكون في الجلسة الأولى . رأت محاميها ، بوائيل . وبدأ الرئيس الاستجواب :

- أعرف ان الكذب طبع فيك . كذبت على ابويك ، على اصدقائك ، على عشاقك ، وبدون مبرر في غالب الأحيان . واليوم ، هل في نيتك قول الحقيقة أمام المحكمة ؟

- أجل يا سيدي

كان صوتها منخفضاً ضعيفا . وكان يحتفظ ببعض من براءة السن وبعد أن استعرض الرئيس حياة المتهمة ، ابتداء من طفولتها السعيدة وسط أبوين عطوفين ، وانتهاء بانحرافاتها الأخلاقية المبكرة والغزيرة ، أراد معرفة المزيد فقاطعته فيوليت متوسلة أن يعفيها لكنه أصر قائلاً :

ـ كيف تطلبين اعفاءك من مزيد من التفاصيل ، هل تقرين بما ورد في قرار الاتهام؟

ـ نعم يا سيدي

ـ احكي اذاً ماذا فعلت في شهر آذار ـ مارس .

ومعروف أن الشهر هذا شهد أول محاولة لجريمة المتهمة . لقد بدأت جريمتها بتحضير المسحوق . كانت مصممة على القتل . وبعد أن تجرع الأبوان «الدواء» ، مطمئنين ، غطّا في نوم عميق مصحوب بشخير واضح وأنين دفين . في هذه الأثناء وربما للتضليل عن طريق اعتبار ان الموت حصل بالاختناق ، أحرقت فيوليت الستارة في غرفة نوم الأهل وسارعت تطلب رجال الاطفاء . لقد دلت ، سواء في الجرعة غير الكافية أو في الحريق غير الناجح ، أنها تحتاج الى خبرة اكبر ومراس أوسع . . . .

ويعود الرئيس الى اسئلته :

ـ هل كان في نيتك قتل ابويك بالسم؟

ـ نعم يا سيدي .

ويبدأ الرئيس باستجوابه حول ذلك اليوم ، يوم المحاولة الثانية في ٢١ آب ـ اغسطس .

مساء ذلك اليوم ، حضّرت المتهمة «الدواء» الخاص بعلاج مرض الزهري وقدمته الى أبويها اللذين تجرعانه مطمئنين واثقين . وبعد ساعات امضتها المجرمة في تفقد النتيجة ذهاباً وإياباً الى غرفة نوم الأهل ، غادرت البيت مرتاحة البال ومعها ثلاثة آلاف فرنك لم تجد سواها في كل البيت . مع الاشارة الى أنها كانت تطمح في اكثر منها بكثير .

غادرت البيت تهيم على وجهها في الشوارع وتعود في اليوم التالي لتجد أباها ميتاً وأمها في الغيبوبة . نزعت ملابس الأم ووضعتها بجانب الأب وفتحت إلغاز وركضت تخبر الجيران بأن ابويها انتحرا وبأنها وجدتها جثتين هامدتين عند دخولها البيت .

لم يصدّق رجال الشرطة الرواية . فقد كانت كمية الغاز المنتشرة في الغرفة غير كافية ، كما أن مظهر الأم الغائبة عن الوعي يدل على أنه من التسمم لا من تنشق الغاز . وعندما أحضرت فيوليت ، في اليوم التالي ، الى المستشفى بجانب امها ، تملكها الذعر لمرآها وركضت مغادرة المكان . وهذه الحركة كانت بمثابة توقيع منها على مستند الجريمة .

بعد خمسة أيام ، القي القبض عليها بواسطة رجل ضاجعته فتعرف عليها من خلال صورها المنشورة في جميع الصحف .

في المحكمة ، لم يكن الرئيس يرغب بمعرفة المعلومات عن كيفية حصول الجريمة . فهذه الأمور لم تعد تهمه بقدر ما تهمه معرفة أمور خلفية أخرى . وها هو يواصل استجوابه :

ـ وعندما رأيت أبويك يتجرعان « السم » ، ألم يخطر ببالك أن تسارعي وتمنعيهما من الوقوع في حفرة الموت ؟

ـ دعني ، دعني أرجوك !

قالت هذا وانهارت على الأرض . وبعد أن عاجلها طبيب قصر العدل بابرة مهدئة ، عادت الى رشدها وعاد الرئيس يسألها :

لماذا عاودت المحاولة في شهر آب ـ أ غسطس بعد المحاولة الأولى الفاشلة في شهر آذار ـ مارس الذي سبقه ؟

وهنا أيضاً ، شحب لونها وغابت عن الوعي ، مما استدعى تدخل الطبيب ثانية . وعندما عادت الى رشدها من جديد ، سأل الرئيس الطبيب عما اذا كان بالامكان متابعة الاستجواب فكان جوابه الموافقة .

ـ ايتها الفتاة ، حاولت جاهداً ان انتزع منك ما يمكن اعتباره أسباباً تخفيفية ، فلم تساعديني . اذا كان لديك ما تقولينه في هذا الأطار ، فتكلمي .

ـ سيدي الرئيس ، كل ما أطلبه هو الرحمة . كما أطلب العفو ، بصورة خاصة من أمي .

ورفعت الجلسة بعد الاستماع الى شهادة الطبيب ديرون ، الذي وصف الدواء لأبويها . ولم يكن في شهادته ما يمكن اعتباره مؤثراً في مجرى المحاكمة .

يوم الحادي عشر من تشرين الأول ـ اكتوبر سنة ١٩٣٤ ، كان اليوم الثاني للمحاكمة . منذ الصباح الباكر والناس يتدافعون ليحصلوا على مكان في قاعة المحكمة . فاليوم ستجري مقابلتان الأولى بين المتهمة وأمها والثانية بينها وبين عشيقها . كما أن بعضاً من الحضور جاء لتأييدها في عملها « التحرري الجريء » . أو لم يخصص لها السرياليون ديواناً بكامله نظم قصائده شعراء عديدون ، من بينهم بريتون وبيريه وايتوار ؟ أمر غريب . لكنه حصل !

عندما تقابلت فيوليت مع أمها ، وكان قد مضى على فراقهما أكثر من سنة ، يوم كانت الأم في غيبوبتها في المستشفى ، هرعت الى ركبتيها طالبة السماح . فكان جواب الأم ، وكأنه صوت قادم من خلف القبور :

ـ سأسامحك عندما تموتين .

وبدأ الرئيس استجواب الأم :

ـ سيدتي ، اطلب منك ان تقولي للسادة المحلفين لماذا اتخذت صفة الادعاء الشخصي بحق ابنتك؟

ـ لكي استجلي المشاركين في الجريمة وأصون ذكرى زوجي ، الذي كنت احبه والذي لا أسمح لأحد ، حتى ولو كان ابنتي ، أن يسيء اليه . انا لست حاقدة على هذه البنت التعيسة ، فهي لا شك فريسة شريك أو شركاء ، لا بد من كشفهم وانزال العقوبة الملائمة بحقهم .

كانت السيدة نوزيار تعني عشيق ابنتها دابين . فهي لم تكن تتصور أن هذه الابنة يمكنها أن تفعل ما فعلته لولا مساعدة وتشجيع هذا الشقي . لكنها نسيت ، وهي تحت وطأة الانفعال وتأثيره أن دابين كان يوم حصول الجريمة في بريتانيا وأن ابنتها، خلافاً لما يمكن أن تتصور ، هي المخططة والمنفذة الوحيدة لما حصل . وعندما سألها الرئيس عما اذا كانت تعتقد أن الدافع الى الجريمة هو رغبة البنت في الحصول على اموال ابويها ، اجابت بالايجاب ، ومدت ذراعيها الى ابنتها ، الجالسة في قفصها وقالت لها وهي تجهش بالبكاء :

لا أستطيع أن أنسى انك ابنتي ، لا أستطيع اما ما قلته عن ابيك ، فهو غير صحيح . حرام عليك أن تلوثي سمعته هكذا .

وهنا ، تفادياً لتفاقم الموقف العاطفي المتفاعل ، شكر الرئيس الأم وأذن لها بالانسحاب . وعند مرورها أمام المحلفين ، وقفت برهة وقالت لهم :

ـ الرحمة ! الرحمة لولدي !

وجاء دور الأطباء النفسيين . وقد أجمعوا كلهم ، وكان عددهم ثلاثة ، على أن فيوليت تتمتع بصحة عقلية جيدة . ولكن انانيتها وحبها للمغامرة والتمرد بالاضافة الى الكذب ، كلها عناصر أدت الى ارتكابها جريمتها البشعة . لذلك فهم يقررون اعتبارها مسؤولة مسؤولية كاملة عن أعمالها . أما عن الكذب ، فانهم لم يروا فيه حالة مرضية ، من النوع الذي يصاب به بعض الناس .

بعد شهادة الأطباء النفسيين ، استدعي العشيق دابين . وقف أمام المحكمة بلباسه العسكري ذلك أنه بعد تهديد الجامعة له بالطرد ، انخرط في الجيش . بدأ الرئيس اسئلته :

ـ تكلم عن علاقتك بالآنسة نوزيار .

ـ الحقيقة هي أنني لا زلت على الرغم مما حصل ، احفظ عنها ذكرى طيبة .

ـ ألا تشعر أنك مسؤول بعض الشيء بسبب دفعها على الأنفاق عليك؟

ـ ربما .

ـ كم كانت تنفق عليك؟

ـ أجرة الفندق بالاضافة الى مبلغ يومي يتراوح بين ٥٠ و ١٠٠ فرنك .

ـ ألا ترى ذلك مخجلاً؟

ويتدخل هنا المدعي العام ليبكّت الشاهد على الخسة التي جعلته يسمح لنفسه أن يعيش على حساب فتاة ضعيفة دافعاً اياها بصورة غير مباشرة الى ارتكابها جريمة بشعة لتحصل على المال اللازم للاحتفاظ بعشيقها . ويخرج دابين مشيعاً بنظرات الحضور المليئة بالاحتقار . وترفع الجلسة .

ويأتي اليوم الثالث والأخير للمحاكمة . وفيه ، كان الحضور أكثر كثافة من ذي قبل . ذلك أن هذه الجلسة ستشهد مرافعة المدعي العام ومرافعة الادعاء . أول المتكلمين كان محامي الادعاء ، الأستاذ بوانيل . لم يكن عنيفاً في اتهامه بل ، على العكس كانت كلماته العاطفية منسجمة كل الانسجام مع صوته المتهدج . وقد ظهر هذا بوضوح عندما كشف عن المحادثة التي جرت ، صباحاً بينه وبين الأم . قال :

ـ توسلت الي السيدة نوزيار أن لا أثقل على ابنتها في المرافعة . «قل لها أني أغفر لها كل ما سببته لي من أسى . أغفر لها كل شيء ، كل شيء ، حتى اتهاماتها المشينة لأبيها . . . . »

وسكت المحامي لحظة . ثم التفت الى المحلفين مخاطباً اياهم :

ان السيدة نوزيار تعلن أنها تنازلت عن ادعائها الشخصي . وهي تطلب منكم الرحمة بابنتها .

كان لخبر إسقاط الأم حقها ، وقع الدهشة على جميع الحاضرين في القاعة . لقد انتصرت الأمومة على الحقد ! ولم توفر هذه الدهشة المتهمة نفسها ، المسحوقة في قفصها .

وهنا ، جاء دور المدعي العام ، الذي وقف وسط وجوم الحاضرين ليلتفت إلى المحلفين ويقول لهم :

ـ أطلب منكم ، أيها السادة إنزال عقوبة الإعدام بتلك الفتاة الشقية ، التي لم تكتفِ بالقتل ، بل أمعنت بالتمثيل بضحيتها بافتراءات قلما يوجد من يحمل وزرها . وأضاف :

ـ لا أنكر أني عشت صراعاً مريراً بين واجبي وعاطفتي . وقد خرجت ، بنتيجة هذا الصراع ، مغلّباً الواجب والعقل معاً .

في هذه الأثناء ، كان قد أغمي على فيوليت . لكنها ، عندما استفاقت ، انتفضت في قفصها لتصرخ :

ـ يريدون موتي . لكنهم لن ينتصروا عليّ ! سأقتل نفسي ، سأقتل نفسي ،

وجاء دور محامي الدفاع ليفاجىء المحكمة بشاهد غير منتظر يدعى رونفلار ، وهو طالب في كلية الحقوق في العشرين من عمره وابن قنصل فرنسا في فرصوفيا . تقدم هذا الشاهد ليقول :

ـ جئت إلى هنا لأريح ضميري . منذ سنتين ، تعرفت على فيوليت كصديق ، وبعد فترة أسرّت إليّ باعترافات عن علاقتها بأبيها . وأؤكد أني لست الوحيد الذي سمع منها هذه الاعترافات . لذا ، أستغرب أن أحداً لم يجد في نفسه الجرأة ويسبقني لمثل شهادتي .

لقد أربكت هذه الشهادة رئيس المحكمة . أما المدعي العام ، فقد شكّ فيها .

والآن ، بدأ محامي الدفاع مرافعته مشدداً على أن الحالة النفسية لموكلته ، إنما كانت تشكل وضعاً مرضياً أدى إلى تضعضع في التوازن العقلي والعصبي للفتاة . إن هناك عنصرين أساسيين أديا إلى ذلك . الأول مرض الزهري الذي أصيبت به والذي يحدث اضطرابات نفسية خطيرة عند بلوغه مرحلة متقدمة . والثاني فترة المراهقة التي ، خلالها ، اقترفت الجريمة . وتساءل : «من منا لا يذكر هذه الفترة في حياته وما رافقها من أفكار سوداء ومشاعر مضطربة ؟» وخلص للتشكيك في صحة آراء الأطباء النفسيين الذين أدلوا بخبرتهم أمام المحكمة . وقد أيد شكّه هذا ما جاء من تناقض بشهادة أحدهم بمناسبة محاكمة الأختين بابين ، اللتين قتلتا مخدومتيهما واقتلعتا عيونهما . يومها أكد في تقريره أن الأختين سليمتان عقلياً ونفسياً . لكن الوقت لم يطل قبل أن تنقض الوقائع محتوى التقرير .

وعندما انتهى محامي المتهمة من مرافعته ، التفت الرئيس إلى فيوليت ، وسألها ما إذا كانت تود إضافة شيء آخر ، فأجابت بالنفي طالبة الغفران وشاكرة أمها .

ورفعت الجلسة للتداول . وبعد ساعة خرج المحلفون ليعلن أحدهم أن فيوليت اعتبرت مذنبة . وهذا يعني أنها ستعدم .

أعيدت المتهمة إلى القفص ليتلى عليها الحكم . كانت تقف متشنجة الأعصاب ، شاحبة الوجه ويقربها طبيب السجن . وما أن استمعت إلى الحكم حتى أصابتها نوبة هيستيرية وبدأت تزجر شاتمة المحلفين وناعتة إياهم بأقسى النعوت .

وكان لا بد من إدخالها بالقوة. بعد ذلك، ونتيجة لاستئناف الحكم، أصدرت محكمة الاستئناف على فيوليت حكماً مبرماً بالسجن المؤبد وعند إبلاغها الحكم من قبل المحامي، نصحها هذا بأن تكون سجينة مثالية، علها تستفيد من عفو خاص لحسن السلوك.

يوم عيد الميلاد، سنة ١٩٣٤، أصدر الرئيس البير لوبرون أمراً بنقل السجينة الى الألزاس. وهناك كانت أمها تأتي اليها كلما سنحت لها الفرصة. كما كانتا تتراسلان من وقت لآخر وفي احدى رسائلها، اعترفت فيوليت أنها كذبت عندما اتهمت أباها أمام المحكمة.

وفي ٦ آب- أوغسطس من عام ١٩٤٢، أصدر الرئيس بيان عفواً عن المحكومين بالسجن المؤبد، بحيث ينزل الحكم الى اثنتي عشرة سنة وهكذا، في ٢٨ آب- أوغسطس من عام ١٩٤٥، وكان قد مضى على فيوليت اثنتا عشرة سنة دون زيادة أو نقصان، خرجت من السجن لتجد خطيبها بانتظارها.

ومما زاد في حسن حظها، أن الجنرال ديغول أصدر أمراً بالغاء العقوبة الملازمة والتي كانت تقضي على المحكومين بالسجن المؤبد بعدم امكانية الاقامة طوال مدة عشرين سنة تلي تنفيذ الحكم أو العفو. وهكذا، استطاعت فيوليت أن تتزوج من خطيبها الذي كان ينتظرها على باب السجن، تم الزواج في شهر كانون الأول- ديسمبر عام ١٩٤٦. وبعد الزواج، عادت الى أمها بصحبة زوجها. ومنذ ذلك الحين، لم تفترق المرأتان الا عندما ماتت فيوليت، سنة ١٩٦٦، أثر اصابتها بسرطان العظم. وقد دفنت بالقرب من أبيها.

لكن المرأة التي ترقد الآن في ضريحها لم تعد مجرمة. لقد استمر محاميها بعناد في السعي لرد اعتبارها، فكان مثالاً للايمان والجلد. ولكن كيف تم ذلك.

في شهر آذار- مارس من سنة ١٩٦٣، أعيد الى قاتلة أبيها جميع حقوقها. حتى أن الحكم الصادر بحقها قد حذف من سجلها العدلي. وهذا التدبير كان وحيداً في تاريخ القضاء الفرنسي بالنسبة لمحكوم بالاعدام. لمَ هذا الوضع المميز؟ الواقع أن الجواب عن هذا السؤال لم يتوضح بشكل كاف في ملف القضية. قيل، ولو لم يذكر صراحة، أن الوالد كان سكيراً وأنه كان فعلاً يعتدي على ابنته مما وضعها، في تخلصها منه، في حالة من حالات الدفاع عن النفس. كما قيل أن سلوكها خلال فترة سجنها كان من المثالية بحيث أكسبها هذا التدبير المميز...

على كل حال، ليس من شك في أن فيوليت استطاعت، على الرغم من كل شيء، أن تكون زوجة مثالية وأماً متفانية. من يدري؟ ربما يعود الفضل الى ما عانته باكراً من متاعب الحياة، فجاءت المراحل التالية مصقولة الملمس، ناصعة البياض.

محاكمة سقراط

خمسمائة قاضٍ وقاضٍ جلسوا، الواحد بجانب الآخر، على المدرج ذي المقاعد الخشبية المغطاة بالحصر، وفي مواجهتهم، رئيس المحكمة محاطاً بكاتبه والحرس. وفي أسفل المدرج، وضع الصندوق الذي سيضع فيه القضاة احكامهم بعد انتهاء المحاكمة.

الجلسة علنية؛ ولا يسمح فيها لغير الرجال بالحضور. أما الطقس، فقد كان جميلاً، مما أدخل الارتياح الى نفوس الجميع وجعلهم يأملون بجلسة كاملة لا يربك مجراها مطر يهطل على الرؤوس أو برد يعطل تواصل الأفكار.

واذا بدا لنا أن انعقاد محكمة في الهواء الطلق أمر مستغرب بل وطريف، اليوم، فلنتذكر أننا في اثينا، في صباح من أصبحة ربيع عام ٣٩٩ قبل الميلاد.

اثينا هذه، التي قدمت الديمقراطية للعالم، تعيش فترة عصيبة، لقد هزمتها سبارطة في حرب دامت بينهما سبعاً وعشرين سنة، وفرضت عليها شروطاً قاسية. منها نظام «الثلاثين مستبداً» بقيادة أحد ابنائها، كريتياس، الذي تخلص منه الاثينيون منذ وقت ليس ببعيد.

في هذا الجو من القنوط الوطني. كثرت الاحقاد وتعددت حوادث تصفية الحسابات لكن العدالة ظلت تعمل. والقضاة في اثينا، وعددهم ستة آلاف، مواطنون متطوعون يجري اختيارهم سنوياً بشكل عشوائي. وهم يوزعون، بعد الاختيار، في اثنتي عشرة محكمة في كل واحدة منها خمسمائة قاضٍ وقاضٍ.

متهم اليوم شيخ ذو لحية بيضاء وثياب رثة. انه ابن النحات سوفرونيسك والقابلة فيلاريت، وهو الملقب بسقراط. لكن ما هي التهمة التي سيحاكم اليوم على أساسها؟ لقد اتهمه أحد المواطنين، ويدعى ميليتوس، بالكفر بالآلهة وبادخال شياطين جديدة الى المدينة وافساد الشبيبة. وهي تهمة تستحق عقوبة الموت.

من هو سقراط هذا؟ انه رجل بلغ السبعين من عمره، قبيح المنظر بعينيه الجاحظتين

وانفه الأفطس ووجهه الممتلىء ناهيك عن ثيابه المهملة والمكونة من معطف صوفي لا أزرار له ولا حزام . وفوق كل ذلك، فأنه لا يمشي الا حافي القدمين ، في الصيف كما في الشتاء .

ولد سقراط في أثينا عام ٤٦٩ ق . م . في عائلة تعمل في النحت . وعبثاً حاول أبواه تعليمه المهنة . كان لا يميل الا للحوار ومناقشة الآخرين حول مختلف المواضيع داعياً اياهم الى التفكير معه والتأمل . كان يجوب المدينة يتحدث الى المارة ويستوقف الشباب يفقههم في أمور الوجود وجوانب الحياة .

واثينا في ذلك العصر من الديمقراطية ، كانت تعج بالفلاسفة ورجال السياسة والأخلاق ، يسعى الناس اليهم لينقلوا عنهم أصول الفكر وكان هؤلاء يتقاضون عن تعليمهم اتعاباً باهظة في معظم الأحيان . أما سقراط ، فكان يرفض بيع فكره كان يعتبر أن الفلسفة ممارسة عضوية ويومية ، وأنها ، بالتالي ، نمط حياة .

وغني عن القول أن سقراط لم يكن مواطناً اثينياً كالآخرين . فهو لم يأبه لماديات الدنيا ، على الرغم من زواجه وانجابه ثلاثة أولاد بل كان دائم الزهد في ما يشغل الناس . وهذا ما جعله غامضاً ، بل وموضع سخرية في الكثير من الأحيان . غير أن سقراط لم يعدم وسيلة لتوضيح حقيقة أمره كان يرد على مسامع محاوريه أن حقيقة الهية تدفعه للتصرف وأن هذه الحقيقة يمكن أن لا تكون سوى ضميره القابع في اعماق نفسه .

تلك المشاعر وهذه الأفكار هي التي لم ترق للبعض ، وهي التي أوصلته لأن يمثل اليوم أمام المحكمة ، باعتبار أنه «يفسد الشبيبة ولا يؤمن بآلهة المدينة » .

في بدء الجلسة ، ولم يكن في نظام المحاكمات آنذاك ما يسمى اليوم بالأدعاء العام ، وقف المدعي الأول ميليتوس يتكلم عن مفاسد سقراط في المجتمع . وأعقبه مدعيان آخران . ليكون وأنيتوس وكلهم طلبوا الحكم بالاعدام على « العجوز الشرير» .

ولأنيتوس هذا مبرر آخر للادعاء على سقراط فقد كان ابنه تلميذا من تلاميذ الفيلسوف و «مضللاً به» وهذا ما يفسر انشغاله عن صنعة ابيه وهي الاتجار بالجلود . يضاف الى ذلك أن سقراط تهكم عليه مرة أمام الناس خلال مناقشة ظهر فيها الجاهل وحديث النعمة على قدر كبير من السخف .

ومن سوء طالع العجوز أيضاً ، أن كريتياس ، المستبد الدموي والعميل لسبارطة ، كان من بين تلاميذه ، في فترة من فترات حياته . واتخاذه كريتياس وآخرين غيره ممقوتين في مجتمعهم ، تلامذة له هو من قبيل انفتاحه على الجميع ودون النظر الى آرائهم السياسية والفلسفية أو الى نمط الحياة التي يعيشون .

واذا توخينا الاختصار، قلنا أن سقراط، بأفكاره ومناقشاته، بدأ يصبح شخصاً مزعجاً، ليس للسلطات فقط، بل للآباء الذين رأى بعضهم أبناءه يخرجون عن طاعته ويلحقون بالمعلم.

بعد انتهاء المدعين الثلاثة من كلامهم، جاء دور المتهم. ومن اجراءات المحاكمة الأثينية في ذلك العصر أن يتولى المتهم شخصياً الدفاع عن نفسه. واذا كان غير قادر، فان محترفاً يقوم بتلقينه الدفاع وتحفيظه اياه عن ظهر قلب. يجب أن يستغرق الوقت الذي استغرقه الادعاء لا أكثر.

بدأ سقراط دفاعه برد التهم ومن ثم، بالانتقال الى الهجوم، قال ان من يدعي العلم، من بين كل من ناقشت وحاورت، انما هم جهلة ولا يفقهون من العلم شيئاً. والحقيقة هي أني أعلم الناس. ذلك لأن الناس يعتقدون أنهم يعرفون شيئاً وهم، في الواقع، لا يعرفون أي شيء. أما أنا، فأني أعرف أني لا أعرف. وانتهى سقراط بتحذير القضاة من الحكم عليه بالموت. وأن فعلوا، فانهم لن يجدوا مثله وسيغرقهم الآله والأثينيين في سبات أبدي. أما اذا لم يفعلوا فسيعود الى نشر أفكاره كما فعل دائماً وكما أوحى له ضميره.

لم يستدر سقراط عطف القضاة كما يفعل عادة المتهمون الماثلون أمام مثل هذه المحكمة. لقد قال ما قاله وجلس دون أي انفعال. أما القضاة، فقد بدأوا ينزلون المدرج ليضع كل واحد منهم حكمه في الصندوق. هذا الاقتراع هو أولي. أنه ينحصر في تقرير تجريم أو عدم تجريم المتهم.

قضت نتيجة التصويت بتجريم سقراط بفارق بسيط في الأصوات: ٢٨١ صوتاً ضد ٢٢٠. ويقضي القانون الأثيني، في هذه الحال، أن يعيّن المتهم نفسه العقوبة التي يراها، هو، مناسبة.

وقف سقراط وأعلن أنه يرى أن تتعهده البريتانية! وتعالى الصخب وصياح الاستنكار من الحضور الذين رأوا في كلامه تهكماً وسخرية من هيئة المحكمة ومن كل الموجودين. ذلك لأن البريتانية مؤسسة اثينية تتعهد عظام الرجال وتتولى تأمين معيشتهم بشكل لائق وكريم.

ما أن سمع القضاة كلام سقراط، حتى قرروا أن يصوتوا بأنفسهم على نوع العقوبة ومستواها. نزلوا ثانية الى حيث الصندوق وصوتوا على أن يكون الحكم بالاعدام هو الجزاء الذي يجب أن يناله سقراط وذلك بأغلبية كبيرة.

لقد أوقع الرجل نفسه في التهلكة بعد أن كان يمكنه أن ينقذها بتصرف آخر أكد

للجميع أنه يسعى للموت بكل رغبة وحماس.

مضى شهر على صدور الحكم. أما طريقة التنفيذ فهي الأسهل من بين لائحة لا يخلو بعض بنودها من العنف: تجرع كمية من سم يحضّر خصيصاً للمناسبة. خلال هذا الشهر. جاءه كريتون، أحد تلامذته المخلصين، واقترح عليه أن يقبل الهرب من السجن، بعد أن يتدبر كريتون أمر رشوة الحراس، فرفض سقراط قائلاً بوجوب احترام العدالة وقوانينها، حتى ولو كانت هذه القوانين جائرة.

هذا الشهر الذي فصل بين صدور الحكم وتنفيذه، امضاه سقراط بهدوء أدهش المتصلين به من حراس ونزلاء. أما لماذا أبقي شهراً كاملاً ينتظر مصيره، فهذا يعود الى أن تنفيذ أحكام الأعدام لم يكن مسموحاً به في الشرائع الدينية آنذاك الا بعد عودة الكهنة من جزيرة ديلوس.

وفي اليوم التالي لهذه العودة، تجمهر تلامذته في السجن ووصلت زوجته. وما أن رأته والحراس يفكون أصفاده تمهيداً للاعدام، حتى أجهشت بالبكاء ونتفت شعرها ومزقت ثيابها:

- آه يا زوجي! هذه آخر مرة تتكلم وآخر مرة ترى فيها اصدقاءك!.. تأثر سقراط وطلب اليها أن تذهب. ثم التفت نحو اصدقائه وبدأ يحدثهم ويتناقش واياهم في مواضيع مختلفة في الفن والموت والروح... وبينما هو كذلك، إذ بالجلاد يقاطعه:

- لا تتحرك كثيراً يا سقراط، وإلا يفقد السم مفعوله وللمرة الأولى ينفعل سقراط ويقول للجلاد:

- لماذا لا تضع كمية مضاعفة؟ هذه مهنتك.

وعاد إلى التحدث مع تلامذته الذين لم يتمكنوا من إخفاء إعجابهم ودهشتهم. لقد استطاع هذا الانسان أن ينتصر على غرائزه وعلى مخاوفه. وعندما اقترب الوقت المخصص لتجرع السم، دخل سقراط غرفة مجاورة ليستحم وهو يقول:

- أريد أن أوفر على النساء تنظيف جثة ميت. طال الاستحمام والجلاد ينتظر على الباب. ولما خرج سقراط، اقترب منه الجلاد وفي يده كأس السم. قدمه إليه وقال له:

- سقراط أعرف أنك لن تشتمني كما يفعل الآخرون. أنت عاقل وتستطيع أن تتحمل قدرك.

- مرحى لك! هيا. ماذا علي أن افعل؟

ـ لا شيء سوى خطوات قليلة بعد التجرع . وعندما تشعر بثقل في ساقيك ، عليك أن تستلقي والباقي يتولاه السم نفسه .

وتناول سقراط الكأس وتجرعه دفعة واحدة بكل هدوء . لم يتمالك تلامذته مشاعرهم فانفجروا يجهشون بالبكاء مثيرين غضب المعلم :

ـ ماذا تفعلون؟ لقد أمرت زوجتي بالرحيل حتى لا أرى ما يشبه مظاهر الضعف هذه . أريد أن أموت بصمت الخشوع . فتمالكوا مشاعركم .

وصمت الجميع فوراً . بعدها ، استلقى سقراط كما أشار عليه جلاده . وجاء الجلاد يقيد رجليه ويقول له :

ـ هل تشعر بشيء؟

ـ كلا

وطفق الجلاد يشرح للحاضرين أن الموت يصل إلى القلب بعد ما تبلغ البرودة الرجلين والبطن .

وعندما شعر سقراط بهذه البرودة تصل إلى بطنه ، أشار إلى تلميذه المخلص كريتون بالاقتراب ليقول له بصوت ضعيف :

ـ كريتون ، في ذمتنا ديك لايسكولاب . ادفع له ثمنه دون نقاش .

ـ حاضر يا سيدي . هل تريد شيئاً آخر؟

لم يجب سقراط . لقد أغمضت عيناه . . .

« ديك لايسكولاب » إنها لا شك عبارة أراد بها سقراط التهكم على إله الطب . لم يوفر سخرياته على الآلهة ، حتى وهو على وشك أن يموت ! وما الموت بالنسبة له؟ أليس هو التحرر؟ أليس الشفاء من مرض هو الحياة ، كما كان يردد دائماً؟

هذه الجملة التي قالها سقراط قبل موته ، والتي تمثل التشاؤم الهادىء والساخر بأبرز معانيه ، كانت عبارة عن رسالة من أول رجل أعدم في التاريخ بسبب أفكاره .

ماري انطوانيت

لم يكن برداً عادياً ذاك الذي كان يلف مدينة باريس يوم الثاني عشر من شهر تشرين الأول- اكتوبر من عام ١٧٩٣. لذا، كانت ماري انطوانيت، ملكة فرنسا في يوم من الأيام، ترتجف في زنزانتها. لقد طلبت أكثر من مرة غطاء يدفىء جسمها المتداعي، لكن طلبها رفض بناءً على اوامر المدعي العام الثوري فوكييه.

خلف ستار يحجب عنها عيون حراسها، لبست السجينة قميص النوم واستلقت على فراشها الخشن. كم تغيرت هذه المرأة التي تألقت على عرش فرنسا طوال سنوات! كم أصبح لونها شاحباً وشعرها مهملاً! كم كبرت، هي التي لم تتجاوز الثماني والثلاثين! لقد حطمتها الاحداث، من موت زوجها، الى حرمانها من أولادها، الى سلسلة طويلة من المعاملات السيئة والمتعمدة. ناهيك عن فشل خطة كانت قد دبرت لهروبها من السجن.

لم يكن مضى على نومها أكثر من ساعتين حتى فتح باب الزنزانة بعنف وزمجر الحارس:

- ماري انطوانيت، الى المحاكمة.

فتذكرت أن اليوم ستبدأ محاكمتها. نهضت بسرعة ولبست ثوبها الآخر الوحيد وعندما دخلت القاعة، كان النور المنبعث من الشمعتين الوحيدتين يظهر وجه فوكييه وآخرين قليلين جاؤوا كمشاهدين. أجلست ماري انطوانيت قبالة فوكييه وكان البرد قد اشتد أكثر في هذا الوقت المتأخر من الليل.

وبدأ أرمان هيرمان، رئيس المحكمة الثورية، استجوابه للمتهمة:

- اسمك، سنك، مهنتك، بلدك ومحل اقامتك.

- كان اسمي ماري انطوانيت لورين من النمسا.

وسمعت في القاعة، التي كان ملوك فرنسا يعقدون جلسات محاكماتهم فيها، وشوشة وهمس حول عبارة «كان اسمي» لقد أفهمت الجميع أنها عرفت مصيرها وأنها،

بالتالي، لم تعد موجودة.

-هل كانت، لك قبل الثورة، علاقات سياسية مع ملك البوهيم والمجر، أخيك، من النوع المتعارض مع مصالح فرنسا العليا والمنسجم مع مصالحك الذاتية؟

- أنا متعلقة كل التعلق بفرنسا. ومتعلقة ايضاً بالعائلة التي تزوجت منها.

قالت ذلك بلهجة الاحتجاج. لكن احتجاجها هذا ليس الا شكلياً فالاتهام واثق من أن المتهمة لا تكشف الحقيقة. غير أن اثبات ذلك هو ما يفترض أن تتولاه هذه المحاكمة.

واستمر الرئيس في استجوابه متطرقاً الى تبديد المتهمة أموال الدولة على نزواتها وملذاتها الخاصة، لكن جوابها كان النفي المطلق.

- واتصالاتك مع الخارج لاجهاض الثورة وخنق الحريات؟

- غير صحيح!

-ألم تستخدمي عملاء سريين لأجراء مثل هذه الاتصالات؟

- أبداً!

- كفى، كفى! وهؤلاء الذين كنت ترأسين اجتماعاتهم لصياغة الرسائل الى دول أجنبية والى مجالس نوابها وحكوماتها؟

ومرة أخرى، تنكر الملكة باصرار، ولكن من دون أن تقنع المحكمة ان اخبار هذه الاجتماعات التي انتشرت لتضليل الشعب، انما هي مختلقة.. وقد اراد اصحابها اظهاري بأني أنا التي كنت وراء الملك في كل ما اتهم به من انحرافات.. وبأني متهافتة على العرش وعلى التسلط..

ويصل الرئيس الى نهاية استجوابه:

- هل تعتقدين أن الملوك ضرورة لسعادة الشعوب؟

- سعادة الشعوب لا يقررها افراد.

- اولست اسفة على عرش أضاعه ابنك بفضل وعي الشعب لحقوقه؟

- لا اسف على شيء أضاعه ابني طالما أن بلده سعيد.

وهنا، كان الليل قد قارب على الانتهاء، فأمر الرئيس برفع الجلسة. واعيدت الملكة الى زنزانتها.

بتاريخ ١٤ تشرين الأول- اكتوبر سنة ١٧٩٣، الساعة الثامنة صباحاً، عقدت الجلسة الثانية. كان الحضور كثيفاً. لقد جاؤوا لمشاهدة ارملة لويس كابيت، لويس السادس عشر سابقاً، في ثوبها الأسود البالي وهندامها المهمل. جلست المتهمة أمام هيئة

المحكمة خاصة أمام روح المحكمة وقلبها النابض، المدعي العام فوكييه، صاحب اكبر مجموعة من الرؤوس دفع بها رجل واحد الى المقصلة. اما المحلفون الذين اختارهم، هو فكانوا: عامل مطبعة وجراحا ومدعيا عاما سابقاً ومركيزا سابقا ومزينا وسكافاوعامل مقهى وصانع قبعات وموسيقياً ونجارين اثنين. وجميعهم تبدو على وجوههم امارات التصميم على عدم التساهل مع المتهمة.

افتتحت الجلسة بقراءة قرار الاتهام وهو عبارة عن لائحة طويلة من الأعمال التي، لو اجتمعت في شخص واحد، لجعلت منه انساناً فريداً لا مثيل له، بل لا وجود له: متسلطة، منحرفة حتى مع ابنها، جاسوسة، قاتلة...

بعد ذلك، بدأت قافلة الشهود. واولهم كان شخصاً يدعى لوكوينتر، وهو تاجر قماش سابق ونائب مالي في المجلس، بالاضافة الى كونه مساعد قائد الحرس الوطني لقصر فرساي. كانت شهادته صورة بشعة عن ممارسات القصر. وعندما التفت الرئيس الى المتهمة يسألها جوابها عمّا قاله لوكوينتر، اجابت بنفي التهم. وعن المبالغ التي اودعها اياها مراقبو المالية، أجابت بأنها لم تودع شيئاً، وبأن ما كانت تنفقه انما كان عبارة عن رواتب الحاشية الملحقة بها. كانت الأسئلة تطرح في جوّ من الحقد والتشفي منسجم مع مشاعر الحضور وأحاسيسهم.

الشاهد الثاني كان الصحفي الثوري ايبير. لقد تناول الملكة في افتراء قلما يجرؤ انسان على حياكته. قال انها كانت تمارس الجنس مع ابنها وبالاشتراك مع اخت زوجها. وأضاف ان الشاب نفسه اعترف له بذلك. ماذا كان يقصد ايبير هذا من فرية كتلك؟ هل كان يقصد ابعاد الشبهة عن نفسه، هو الذي يقال أنه تآمر، في وقت من الأوقات، لمصلحة الملكة؟ وامعاناً في ما حاك، أضاف ايبير أن الدافع لهذا العمل كان، بالاضافة الى اللذة، السيطرة على من سيتولى عرش فرنسا، وامتلاك مشاعره. وتسأل المسكينة لتجيب، بصوت يتفجر تقزّزاً، بأنها تجهل كل شيء عما يقوله الشاهد!

وينبري أحد المحلفين ليشير الى الرئاسة بأن المتهمة لم تجب عن تهمة ممارسة الحب مع ابنها. ويلتفت الرئيس الى المتهمة يطلب الجواب فتقف ماري انطوانيت:

ـ اذا كنت لم أجب، فذلك عائد الى أنّ الطبيعة نفسها ترفض تهمة كهذه موجهة ضد أم.

والتفتت الى الحضور، وفيهم نساء كن، للحظات، يرمينها بنظرات الحقد والضغينة، لترى فيهم جميعاً استنكار ما جاء على لسان الشاهد. وبذلك ارتد السهم الى أصحابه.

في اليوم التالي، وعلى الرغم من أن المحاكمة استمرت، يوم أمس، حتى ساعة متأخرة من الليل، فقد بدأت الجلسة عند الساعة التاسعة صباحاً. حضر الشاهد سيمون، وهو سكاف كلف بتعليم ابن الملكة بعد القاء القبض عليها. كانت شهادته معتدلة، مما أثار انفعال فوكييه، فانتقل الى الهجوم. أثار موضوع القسائم الموقعة من المتهمة، والتي وجدت لدى امين المال السابق.

ولما أنكرت الملكة توقيعها مثل هذه القسائم، جيء بشاهد اكد رؤيته لها تفعل. وكان يدلي بشهادته وكأنه يسمّع درساً سبق له أن درسه لالقائه أمام مصلحة. ولما كانت معلوماته مختلقة، فقد ذكر تاريخاً لقسيمة من القسائم الوهمية هذه هو ١٠ آب- اغسطس ١٧٩٢. مما أثار الملكة فهبت لتدحض مزاعمه قائلة انها، في ذلك التاريخ، كانت محتجزة مع زوجها الملك، في الجمعية الوطنية. وهكذا، انتصرت الملكة مرة أخرى على طابخي الافتراءات.

وتوضع على طاولة، أمام القضاة، صرة تبين عند فتحها أنها تحوي ذكريات صغيرة وغالية لأم وزوجة متفانية: خصلات شعر من ألوان مختلفة تعود الى زوجها وأولادها، ورقة كتب عليها بعض الأرقام من قبل أحد أولادها ساعة تعلمه درساً في الحساب.... ثم تغلق الصرة بعد استفسار الرئيس عن ماهية محتوياتها، وباغلاقها تغيب ذكريات..

والآن، جاء دور الشاهد دولاتور، وزير حرب لويس السادس عشر. في طريقه الى المنصة، مر دولاتور أمام الملكة وانحنى بكل احترام أمامها، ثم أكمل طريقه. سأله الرئيس:

- ألم تطلب المتهمة منك اعلامها عن وضع الجيش؟
- أجل!
- هل اوضحت لك الهدف من طلبها؟
- كلا.

والتفت الرئيس الى ماري انطوانيت:

- ألم يكن ذلك بهدف تمرير المعلومات العسكرية الى ملك بوهيميا والمجر؟
- كلا، فهذه المعلومات كانت علنية.
- لماذا اذاً اردت الحصول عليها؟
- لاعرف أية فرق عسكرية جرى الغاؤها.

يبدو هنا أن موقف المتهمة كان ضعيفاً وأن الاتهام عاد وثأر لنفسه عن نكساته السابقة.

ـ من أين أخذت المال اللازم لبناء قصر تريانون وتأثيثه ؟
ـ من صندوق خاص انشىء لهذا الغرض .
ـ لكن المبالغ التي انفقت كانت أكبر من اللازم بكثير .
ـ صحيح . وهذا كان نتيجة توسع غير مقصود في النفقات .

وانتقل الرئيس الى موضوع آخر :
ـ الم تكوني تقومين بتعيين الوزراء ؟
ـ كلا !
ـ ألم تكن عندك لائحة باسماء من ترغبين في اعطائهم المناصب الرفيعة في الدولة ؟
ـ كلا !
ـ ألم تهددي وزراء المالية لتجبريهم على اعطائك ما ترغبين به من أموال ؟
ـ كلا !
ـ ألم تطلبي من الوزير فرجان تحويل ستة ملايين الى اخيك ملك بوهيميا والمجر ؟
ـ كلا !

وأدخل شاهد يدعى فالازيه . وهو من نظم محضر الاتهام بحق لويس السادس عشر . لكنه اليوم مسجون بسبب نشاطه المعادي للثورة . أكد هذا الشاهد انه رأى ملفاً يحوي وثيقتين دامغتين : الأولى قسيمة بخمسة عشر أو عشرين الفاً ، والثانية رسالة يرجو وزير الحرب فيها الملك أن يطلع الملكة على خطة انتشار الجيش .

هنا بدا على فوكييه شعوره بالانتصار . وها هو يتابع باستعلاء :
ـ لقد ثبت الآن انك استثمرت سيطرتك على زوجك لتجعليه يفعل ما تريدين .
ـ الفرق شاسع بين النصح والغرض .
ـ كما أنك استثمرت ضعف زوجك لتملي عليه ارادتك الشريرة .
ـ زوجي لم يكن ضعيفاً كما يحلو لكم أن تصوروه .

انتهى الاستجواب وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل . هنا ، وقف فوكييه ليصب ، في مرافعة طويلة ، جام غضبه على القصر وأهله . قال اشياء كثيرة عن الفساد والعفن وخنق الحريات وكره الشعب . وأضاف اموراً اخرى تتعلق بسياسة التفريق في سبيل السيادة ، وعقد التحالفات والاتفاقات مع قوى اجنبية هي الآن عدوة الثورة وتحاربها . ويوجه فوكييه اصبعه نحو الملكة متهماً اياها بأنها وراء كل هذه المخازي ، ووراء المجازر التي حصلت ، منذ اربع سنوات ، في طول البلاد وعرضها ، والتي ذهب ضحيتها العديد من المواطنين .

وينهض المحامي لاغارد ليبدأ الدفاع . كانت مرافعته رائعة . لقد فند ودحض فيها كل المزاعم والافتراءات . ولم يكتف بذلك ، بل أضاف ان جزءا من الفضل يعود الى الملكة في حصول الشعب على حريته . وينهي هذا المحامي الشاب ساعتين امضاهما في مرافعته بطلب البراءة للمتهمة .

اغتاظ فوكييه ونهض ليطلب من الحرس القاء القبض على المحامي لأنه «أجاد في الدفاع عن القضية التي اوكل اليه أمر المرافعة فيها» وقد جاء هذا الاجراء مشيناً للعدالة ومثيراً للاستغراب في آن معاً .

بعد لاغارد ، وقف محام آخر للملكة ، ويدعى ترونسون ، للدفاع ، بعد زميله ، عنها . وعلى الرغم من المصير الذي لاقاه المحامي الأول ، فقد كانت مرافعته ، هي الأخرى ، عنيفة . لكنه ، ما أن انتهى ، حتى وجد نفسه وقد حل به ما حل بزميله . . .

الساعة بلغت الثانية بعد منتصف الليل . وهنا ، يقف الرئيس هيرمان ليلخص المناقشات ويطلب من المحلفين أن يأخذوا بالاعتبار في قرارهم حياة المتهمة بكاملها منذ ان اعتلت عرش فرنسا كزوجة للملك . ولم يغفل الرئيس ، في تلخيصه ، التركيز على الاتهامات البارزة ، لا سيما المتعلقة منها بتبذير الأموال والاتصال بدول أجنبية لضرب مصالح الوطن . بعد الانتهاء من مرافعة الرئيس ، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً ، دخل المحلفون غرفة المذاكرة .

دامت المذاكرة ساعة كاملة ، خرج بعدها المحلفون ليعلن الرئيس هيرمان أن القرار صدر باعتبار المتهمة مذنبة . ووقف عندها فوكييه منتصباً بكل صلف ليطلب الموت للملكة . وعندما طلب الرئيس من الملكة ان تقول ما عندها ، لم تكن لديها القوة لتجيب ، فهزت رأسها بالنفي .

دخلت ماري أنطوانيت زنزانتها خائرة القوى منهارة . وانتشر الخبر في كل انحاء البلاد . أما الاعدام ، فسيتم بعد ساعات قليلة في ساحة الجمهورية .

في الزنزانة ، كتبت رسالتين : الأولى قصيرة الى أولادها ودّعتهم فيها بكل اختصار قائلة : « يا إلهي ، ارحمني . عيناي جفتا من الدموع لتبكياكم . الوداع . الوداع ! . . » أما الثانية ، فكانت الى أخت زوجها ، اليزابيث ، قالت لها فيها : «حكمت بأن أموت ميتة مشرفة ، لا ميتة المجرمين المخزية . سأوافي أخاك البريء مثلي . آمل أن يمنحني الله الشجاعة التي منحه إياها في لحظاته الأخيرة . اطلب من ابني أن لا يسعى ابداً للثأر لأبيه او لموتنا ، نحن الاثنين . »

واستلقت ماري انطوانيت قليلاً على فراشها، ثم نهضت ورتبت شعرها بعض الشيء. بعدها، تقدمت منها مرافقتها روزالي وألحت عليها بتجرع قليل من الحساء فقبلت. كانت تائهة، شاحبة. سألت حارسها عمّا اذا كان الناس سيتركونها تصل الى حيث ستعدم دون أن يمزقوها أرباً، فطمأنها. وهنا، وبعد أن غيرت ثوبها الأسود بالآخر الأبيض، لون حداد الملوك، وأمام نظرات الحارس المخجلة، دخل الكاهن جيرار للاعتراف الأخير. رفضت في البدء الاعتراف لكاهن اقسم يمين الولاء للثورة. لكنها عادت وقبلت بعد أن اقنعها بالقبول. وقد كانت الجملة الوحيدة التي قالتها له هي:

ـ قل أن مصيري الذي سألقاه ما هو الا رحمة من الله.

دقت الساعة التاسعة وها هو رئيس المحكمة هيرمان يدخل زنزانة ماري انطوانيت، مصحوباً بقاضيين وكاتب ليقول لها:

ـ انتبهي. سنقرأ عليك الحكم.

ـ لا حاجة لذلك. أعرفه.

لكن الكاتب بدأ بالقراءة. وما أن انتهى حتى دخل الجلاد سانسون، الذي تولى قطع رأس الملك لويس السادس عشر منذ تسعة اشهر. بدا محرجاً، لكن رئيس المحكمة أمره بالبدء.

تقدم الجلاد وطلب من الملكة أن تمد يديها، فتراجعت وقالت:

ـ يا الهي. اتريد أن توثق يدي؟

ـ مضطر يا سيدتي.

ـ لكن يدي الملك لم توثقا.

لم يعر أحد انتباهه للملاحظة. وبعد ربط اليدين وراء الظهر، بدأ الجلاد بقص الشعر الطويل الذي كان، يوماً، بلون الذهب، لكنه اليوم ناصع البياض. بعد ذلك، وبسرعة، غطى الرأس بقبعة.

خرج الموكب من الزنزانة والجلاد يجر الملكة بحبل كما تجر الكلاب. في الخارج، رأت المسكينة العربة التي ستنقلها. انها عربة نفايات. هنا ايضاً تساءلت لماذا لم يضعوها في عربة مغطاة كما فعلوا مع الملك. لكنها استنتجت ان معاملة الملك يجب أن تختلف عن معاملة زوجته. ومرت ماري انطوانيت، وهي في هذه الحال، في شوارع من باريس كانت، في يوم من الأيام، تمر فيها متألقة.

كان الحشد كبيراً على طرفي الطرقات. ولم يوفر البعض ملكته السابقة من الشتائم.

أخيراً، وصلت ماري انطوانيت الى ساحة الثورة، حيث ترتفع المقصلة عالية فوق مستوى الرؤوس. وتعالت الأصوات لتختلط بقرع الأجراس ودقات الساعة الاثنتي عشرة. وصعدت المسكينة درجات المنصة بسرعة مذهلة. حتى أنها داست، وهي تصعد، على قدم الجلاد، واعتذرت منه.

مر الوقت بطيئاً بين وصول الملكة الى أعلى المنصة وربطها باللوح الخشبي وانزال المقصلة فوق رأسها. هذا الرأس الذي حمله أحد مساعدي الجلاد ليريه داميا الى الجمهور، أثار الحماس فتعالت الهتافات: «لتحي الجمهورية».

وعادت العربة، التي أوصلت ماري انطوانيت حية الى مصيرها، تحملها، هي نفسها، ميتة ومن جزأين دفنت على عجل في مقبرة لامادلين بالقرب من زوجها.

وكثرت بعد ذلك الرؤوس التي تدحرجت تحت المقصلة. كل ذلك والجيش الفرنسي، جيش الثورة، يخوض أعنف المعارك ضد الجيوش الأوروبية المتحالفة ضده.

وفي ذلك الصباح بالذات، صباح اعدام الملكة، سجل التاريخ انتصاراً ساحقاً بجيش الجمهورية على امراء النمسا. وهذا ما كانت ماري انطوانيت تصلي من أجل نقيضه. لكنه حصل. والتاريخ اقوى من التمنيات.

قضية كالاس

تبدأ القصة صباح يوم ١٤ تشرين الأول- اكتوبر من عام ١٧٦١ ، ساعة شهدت الطريق المؤدية الى بلدية مدينة تولوز الفرنسية القائد ديفيد بودريغ يسوق خمسة أشخاص ألقي القبض عليهم منذ قليل . هؤلاء الأشخاص هم جان كالاس وزوجته آن روز وابنهما بيار وآخران هما فرنسوا لافايس والخادمة جانيت.

منذ أربع ساعات فقط ، وجد مارك انطوان ، الابن البكر لجان كالاس ، مقتولا في دكان ابيه ، تاجر القماش .

ماذا سبق هذا «الحادث» المفجع ؟

في الساعة السابعة من مساء أمس ، ١٣ تشرين الأول- اكتوبر ، أغلق جان كالاس متجره وتوجه الى بيته لينضم ، على العشاء ، الى عائلته المكونة من زوجته وولديه . وكان عندهم ضيف هو الشاب فرنسوا لافايس . عند انتهاء العشاء ، توجه الجميع الى البهو، باستثناء جان مارك ، الذي كان يبدو شاحباً ومرتجفاً ، مما دفع الخادمة جانيت الى سؤاله :

ـ هل تشعر بالبرد يا سيدي ؟ لماذا لا تتغطّى ؟

ـ ـ كلا ، على العكس ، أشعر بأني احترق !

وفي الساعة التاسعة والنصف ، استأذن الضيف ، فرافقه بيار ، الابن الأصغر لجان كالاس ، وبيده قنديل . نزل الاثنان السلم وما أن وصلا الى الممر الذي يحاذي الدكان وينتهي الى الشارع ، حتى وجدا باب الدكان مفتوحاً . وهذا مستغرب في تلك الساعة . نظرا الى الداخل ، فإذا بهما يريان مارك -انطوان مقتولاً . هرع صاحب البيت والعدد القليل من المارة ليروا ما حصل . كما فتحت الخادمة شباكها لتصرخ :

ـ يا الهي ، لقد قتلوه .

في الدكان ، كان القتيل جاثياً على أكداس القماش . لم يكن عليه أي أثر لجرح . كل

ما وجده طالب من طلاب الجراحة أحضر الى المكان هو خط أسود يلف العنق . وهذا يثبت أن القتيل مات منتحراً ، خنقاً أو شنقاً . بعد ذلك ، وفي الساعة الحادية عشرة والنصف ، حضر قائد الشرطة ديفيد بودريغ ومعه أربعون من رجاله . وما أن رآهم المتجمهرون حتى تعالت أصوات تردد : «لقد قتلوه ! قتله هؤلاء الهوغنو ! »

والهوغنو هم الكاثوليك . أما جان كالاس ، فكان بروتستنتينيا لكنه معروف بتسامحه وبسعة صدره . حتى أن خادمته جانيت كانت كاتوليكية . ومنذ خمس وعشرين سنة ، وهي تعمل لدى عائلة كالاس دون أن ترى منهم أية مضايقة .

عام ١٧٣٢ ، ولد مارك ـ انطوان . ومنذ نعومة أظفاره ، أظهر ميلاً نحو الخطابة والمسرح . وهذا ما دفعه ، عام ١٧٥٩ ، عند نيله البكالوريا ، الى التوجه نحو كلية الحقوق . لكن باب الجامعة صدّ في وجهه : لم يكن مسموحاً لبروتستنتي آنذاك بالوصول الى المرحلة الجامعية .

هذه الصدمة جعلت مارك ـ انطوان في وضع نفسي متعب : ولا خلاص له من هذا الحائط المسدود الا باعتناق المذهب الكاتوليكي . ويشاع في الحي الذي تسكنه عائلته ، ومعظم سكانه كاتوليك ، أن الشاب كان ينوي اعتناق الكاتوليكية . لكن عائلته قتلته ، مفضلة له هذا المصير على أن يحقق ما صمم عليه . . . !

هذه الشائعة هي التي دفعت القائد بودريغ لأن يلقي القبض على العائلة بأكملها بما في ذلك الضيف والخادمة . وقد خالف بذلك كل الأصول القانونية التي تمنع القبض على شخص دون أذن بذلك .

عند استجواب الموقوفين ، أكدوا جميعهم أن مارك ـ انطوان لم يكن ينوي تغيير مذهبه الذي توارثه عن أسلافه . وعن الجريمة ، أكد الأب ، بادىء الأمر ، أن ابنه ذهب ضحية أشخاص دخلوا اليه من الشارع . لكن ليس هناك ما يثبت ذلك . فالدكان مغلق ولا أثر لكسر أو لخلع . وهذا ما يرجح أن الجناة ، انما قدموا من داخل البيت . غير أن الأب نفسه عاد ، في اليوم التالي ، ليتراجع عن أقواله تلك ، ويقول أن ابنه لم يقتل ، بل انتحر . ودعم كلامه بأن قال أنه ، عندما دخل الدكان ، بعد صراخ ابنه الثاني ، رأى القتيل معلقاً بحبل . وقد قام ، هو والأبن الآخر ، بقطع الحبل . ولكن ، بعد فوات الأوان . هذه الرواية ، عاد وأكدها أخ القتيل بشهادته . كما أكدها الآخرون . الأم والضيف والخادمة .

هذا التراجع أثلج صدر قائد الشرطة . لقد كذبوا جميعاً ، بعد أن رأوا أن رواية الجريمة على أساس تغيير المذهب لن يكتب لها النجاح . وهل يكذب بريء ؟ لكن لماذا كذبوا ؟

الأمر غاية بالبساطة . ففي عام ١٧٦١ ، عام وقائع هذه القضية ، كان الانتحار يشكل جرماً شائناً تعاقب عليه الجثة بأن تسحل في الشوارع ويبصق عليها المارة . لذلك ، فقد أراد أهل القتيل اخفاء الانتحار بادىء الأمر . لكنهم عادوا وكشفوه ، عندما رأوا أن روايتهم عن القتل لن تكون مقبولة من أحد .

في اليوم الثالث لحصول الحادث ، يوم ١٦ ، استدعي الجميع لتمثيل الجريمة . أثناء ذلك ، وجد أن الانتحار لم يكن ليتم الا اذا تمكن المنتحر من الصعود على كرسي ورفسه ليتدلى ويموت . هذا الكرسي لم يوجد . اذاً هل صحيح أن الموت حصل بسبب الانتحار؟ ألا يمكن ، كذلك ، أن يكون الكرسي قد اختفى من الدكان الذي ترك منذ الجريمة ، دون حراسة؟ ان الشرطة تؤكد أن الموت لم يكن بسبب الانتحار .

توالى الشهود ومعظمهم مدفوعون بالتعصب ضد البروتستنتية أو بالوعود المغدقة . وها هو أحدهم ، جان بيريس ، يؤكد أنه رأى الأب يقتل ابنه في الدكان في الساعة التاسعة والنصف من مساء حصول الموت . لكن بعض الشهود لم تأت شهادته متوافقة ورغبةبودريغ ، منهم شاهد أكد عدم نية القتيل على اعتناق مذهب غير مذهبه . حتى أن هذا الشاهد ذهب أبعد من ذلك عندما كشف أن مارك ـ انطوان كان ينوي الدخول في الاكليروس البروتستنتي والسفر الى جنيف لهذه الغاية . الأمر اذاً ليس ـ كما يريد أن يصوره بودريغ ، جريمة من الأهل لمنع ابنهم من اعتناق المذهب الكاتوليكي .

لكن بودريغ لم يلق سلاحه . لجأ الى اجراء آخر كان لا يزال سائداً آنذاك . ويقضي بأن يعلن في كل الكنائس ، وعلى مدى ثلاثة أسابيع ، أن مارك ـ انطوان كان ينوي ترك البروتستنتية واعتناق الكثلكة . وعلى من لديه معلومات بهذا الخصوص ، أن يتقدم ويدلي بها أمام الشرطة . وهنا ايضاً ، لم تثمر الخطوة ، ولم يتقدم أحد بأية معلومات .

انتقل بودريغ الى مرحلة أكثر تقدماً . عاد الى الأعلان في الكنائس ، ولكن مع تهديد كنسي بالحرم ، هذه المرة لكل من لديه معلومات ولا يدلي بها . وهنا ايضاً ، لم يتقدم أحد .

أخيراً ، ولما نفدت لديه كل الوسائل ، أمر بودريغ بأن يجرى لمارك ـ انطوان جناز كاتوليكي . وهذا يعني أن القتيل لم ينتحر وأن في الأمر جريمة . وقد رافق هذا الجناز دعاية ومديح لا مثيل لهما في تاريخ السلطة الأكليركية . أربعون كاهناً رفعوا النعش على الأكف وأوصلوه الى الكنيسة . وهناك ، رفعت لافتة بارزة كتب عليها بخط عريض : «الردة عن الهرطقة . امضاء : مارك ـ انطوان كالاس» ولم تتخلف أية من السلطات الرسمية في المدينة عن حضور المأتم . وهكذا ، صدر الحكم في قضية كالاس قبل محاكمته .

في العاشر من شهر تشرين الثاني- نوفمبر، طلب المدعي العام الملكي، ريكيه دي بونريبو، الاعدام حرقاً حتى الموت لكل من الأب والأم والأخ. كما طلب المؤبد لفرنسوا لافايس. والسجن خمس سنوات للخادمة جانيت.

وفي الثامن عشر من الشهر نفسه، أصدرت المحكمة حكماً منسجماً مع مطالب المدعي العام. وبعد مساع استئنافية حثيثة، عدّل الحكم بحيث أصبح يقضي بالاعدام بالمقصلة للأب وبالمؤبد للأم والأخ. أما الضيف والخادمة، فقد برئا.

لكن هذا الحكم، لا سيما الشق العائد للاعدام منه، لن يصبح نهائياً ما لم يقترن بتصديق البرلمان. وقد رأى البرلمان أن يصار الى تعريض الأب الى التعذيب، علّه يعترف. وعندها، يصدّق الحكم.

وهكذا، في العاشر من شهر آذار- مارس، سيق جان كالاس الى غرفة التعذيب. كان هناك بودريغ. وقد جاء لينتزع بالاكراه ما عجز عن الحصول عليه بالوسائل الأخرى مع تنوعها. وقبل أن يولي أمره الى الجلادين، سأله بودريغ، لآخر مرة سؤاله المعهود:

- هل صحيح أنك عشت في ظل الدين الجديد، الذي تدعي أنه المتطور، وأنك أنشأت أولادك عليه؟

- أجل

- هل صحيح أنك انبئت، صباح ١٣ تشرين الأول- أوكتوبر عام ١٧٩١، أن ابنك مارك- انطوان ينوي تغيير دينه.

- كلا. لم ينبئني أحد بذلك.

ويكمل بودرغ وكأنه لم يسمع الجواب:

- هل صحيح أنك صممت، منذ تلك اللحظة، على خنقه بالاشتراك مع زوجتك وابنك الآخر وخادمتك وضيفك السيد لافايس؟

وعلى الرغم من أن جان كالاس كان واثقاً من مصيره وأن الحكم عليه يعتبر صادراً مسبقاً، فقد أجاب بحزم وشجاعة نادرين:

- لم يكن ثمة أي تصميم من هذا النوع.

تجاه هذا الاصرار، أمر بودريغ الجلادين بالبدء. ويقضي هذا بشد الذراعين باتجاهين متعاكسين. وكان الشد يزداد كلما وجد المحقق أن الجواب ليس الجواب المرغوب أو أنه غير كاف. ويستأنف بودريغ الأسئلة:

ـ هل قمت بتنفيذ جريمتك وحدك أو بالتنسيق مع الآخرين؟
ـ لا أنا نفذت ولا الآخرون.
ـ أذكرك يا كالاس أن الحقيقة تخفف عنك الكثير من عذابك.
ـ أكرر أن ليس هناك جريمة وكلنا أبرياء.

واشتد العذاب واستمر التعذيب وكالاس لا يتزحزح عن موقفه. ولما كانت مراحل التعذيب قد استنفدت بكاملها دون نتيجة، فقد أمر بودريغ بحل وثاق المتهم. وهذا ما تفرضه القوانين في هذه المرحلة.

وسيق كالاس الى ساحة الكنيسة، حيث المقصلة، وسط جمهور غفير من الكاتوليك فقط. وكان طوال الطريق يتلقى الشتائم من الواقفين وممن هم في النوافذ دون أن يفقد هدوءه أو يحني رأسه. وأخيراً وصل الى المنصة. وقرىء على مسمعه نص الحكم، فلم يتهيب ولم يرهبه منظر المقصلة. واستمر في نفيه الجريمة. هنا، تقدم الجلاد منه، وبضربات من عصا حديدية، كسر أطرافه الأربعة. ثم ربط عنقه بقوة ليختنق طوال ساعتين اثنتين. هذا اذا لم يمت ميتة طبيعية خلال هذه المدة.

آخر ما قاله كالاس، وهو يحتضر، كان أمام الأب بورغ، الذي جاء ليستمع للاعتراف الاخير قال:

ـ لقد قلت الحقيقة. هل تعتقد بأن من الممكن أن يقدم أب على قتل ابنه؟ سأموت بريئاً. ولست آسفاً على حياة ستليها سعادة أبدية. كم أرثي لحال زوجتي وابني وخادمتي. وكم أرثي خاصة لحال المسكين السيد لافايس، الذي قاده سوء طالعه لهذا المأزق.

مرت الساعتان دون أن يموت المسكين. هنا، تقدم بودريغ وطرح عليه السؤال نفسه، فلم يجب، عندها، تقدم الجلاد وأجهز عليه ورمى بجثته في النار وسط هرج جمهور جاء ينفث حقده عليه.

مات جان كالاس بعد أن أنقذ بشجاعته الآخرين. ذلك أنه لو انصاع لأهوال التعذيب واعترف بجريمة لم يقترفها، لكان أدان كل المتهمين ولكانت اللعنة حلت بهم.

لكن قصة هذا البروتستنتي لم تنته فصولاً. لقد كان بين الجمهور الذي شهد التعذيب والاعدام تاجر مرسيلي يدعى أودبير. هذا الرجل هاله ما رأى وتيقن من أن في الأمر، بالاضافة الى خطأ عدلي، جريمة شائنة حركها تعصب ذميم. كان على أودبير هذا أن يسافر الى جنيف لأشغال خاصة. لكنه قبل أن يصل اليها، عرج على صديق له يسكن

بلدة فرناي ، بالقرب من الحدود السويسرية هذا الصديق هو فولتير.

استمع فولتير الى أوديبير. وطرح اسئلة وأثار استفسارات. بعد ذلك كتب الى اصدقاء له يستعلمهم الخبر. أخيراً، أرسل بطلب الأبن الأصغر لجان كالاس، والذي كان خارج تولوز عند وقوع الحادث لأخيه. وبعد أن أنهى استقصاءاته كلها، خرج هذا الفيلسوف المتحرر بنتيجة راسخة وهي أن الأمر يتجاوز كل الحدود ويصل الى الفضيحة.

وألقى فولتير بكامل ثقله في المعركة. جمع حوله عدداً من كبار رجال القانون وتولوا جميعاً مراجعة ملف الدعوى ابتداء من القاء القبض على عائلة كالاس حتى آخر لحظة من حياة رب العائلة. وقد وجدوا مخالفات وتجاوزات لا تفسير لها. اللهم الا الاصرار على الادانة، ولو جاءت هذه الادانة زوراً وبهتاناً. تساءلوا: لماذا أوقف الخمسة دون أمر بالتوقيف حسب الأصول؟ لماذا لم ينظم المحضر الأول في اليوم نفسه، بل أرجىء الى اليوم التالي؟ لماذا، أخيراً، أمر بودريغ باقامة مأتم كاتوليكي لمارك انطوان قبل أن تبت المحكمة بالدين الذي مات عليه؟

واذا كان ظاهر الحال أن فولتير يخوض معركة قضائية قانونية ليحق الحق ويدين المرتكبين، فأن الواقع هو أنه يرمي الى أبعد من ذلك. لقد أراد أن يجعل من قضية كالاس رمزاً. كتب الى كل من له اتصال بهم في اوروبا من ملوك وأمراء ووجهاء وعلماء. كتب اليهم يستصرخ ضمائرهم ويحثهم على اسماع اصواتهم حتى لا تتكرر مأساة ذلك البروتستنتي ويتلطخ جبين العدالة في فرنسا.

وسمعت كلمة فولتير. وفي الرابع من شهر حزيران- يونيو من عام ١٧٦٤، قبل تمييز الحكم. وفي التاسع من شهر آذار- مارس من عام ١٧٦٥، أي بعد ثلاث سنوات بالتمام والكمال من أرسال جان كالاس الى المقصلة، صدر الحكم من مجلس الملك برد اعتبار المسكين وبتبرئة جميع المحكومين الآخرين.

وأكثر من ذلك، فقد رأى الملك التعويض على السيدة كالاس عما لقيه زوجها وابنها الثاني من تعذيب، وعما لقيته هي من قهر وحرمان، فأمر بمنحها تعويضاً مالياً بلغ ثلاثين الفاً من أمواله الخاصة.

جرى كل هذا وقضاة البرلمان في تولوز مصرون على موقفهم من ادانة كالاس. لقد اعتبروا أن مجلس الملك لا يملك الصلاحية للنظر في قضية كهذه. لكن هذا التناقض وذاك الظلم لم يكونا سوى مقدمة تمهيدية للقادم من الأفق. بعد خمس وعشرين سنة على هذه القضية، انفجرت الثورة الفرنسية وانفجرت معها احقاد متراكمة خلفتها ممارسات ظالمة من أعداء العدالة والحق، هم صانعو الثورة الحقيقيون.

غالاي و ميريلي
المحتالان الظريفان

عاصفة من التصفيق والهتاف انفجرت عندما دخل المتهمان جان غالاي وفالنتين ميريلي قفص الاتهام ملوحين بأيديهما تحية للمحتشدين. كانا منفرجي الأسارير وسيمي الوجه والتعابير. هذا الجو من المودة والألفة يجمع بين حضور ومتهمين أعطى انطباعاً غير مألوف. لقد خيّل للبعض أنهم في مهرجان سينمائي وأن الناس جاءوا ليكونوا على مقربة من نجوم محببين.

حصل هذا في محكمة باريس بتاريخ ٢٧ شباط - فبراير من عام ١٩٠٦. ولكن من هما هذا المتهمان ولماذا هذه الشعبية العارمة؟ انهما ثنائي ظريف من المحتالين. وقد شغف الكثيرون في فرنسا بقصة حبهما كما شغفوا بأخبار هربهما ومن ثم القاء القبض عليهما وسوقهما للمحاكمة. واليوم، انتهى الظرف وابتدأ فصل جدي. فصل عليهما فيه ان يدافعا عن نفسيهما أمام تهمة اختلاس «٨٥٠,٠٠٠» فرنك من أحد المصارف. غير انه لا يبدو على وجهيهما علامات الاهتمام والقلق المألوفة في مثل هذه المواقف.

وقف غالاي في القفص بهي الطلعة. وقد زاد من بهائه شعر أشقر حريري وشاربان صغيران يكحلان بياض بشرته وحمرة خديه. أما فالنتين فكانت جميلة الوجه ممشوقة القد. ويظهر من وقفتها ونظرتها انها تعي امكانياتها كل الوعي. فهي قد تعودت صناعة الاغراء، ويبدو انها تنوي تصريف بضاعتها في سوق المحكمة على اوسع مدى واحسن وجه.

بدأت الجلسة عندما أمر الرئيس الشاب المتهم بالوقوف.. وقد حاول الرئيس ان يبدد جو الصخب والهرج السائد في القاعة، فجاءت لهجته حازمة على شيء من التكلف.

تحدث جان عن حياته، عن مغامراته وكأنه يحكي قصة طريفة لحياة انسان آخر. قال انه من عائلة كريمة وأن أباه كان ضابطاً في الشرطة.

هنا، لم يتمالك الحاضرون أنفسهم، فطفقوا يضحكون، بل ويقهقهون، مما دفع الرئيس الى استعمال مطرقته بحزم لاسكاتهم. التفت المتهم الى الناس وقال لهم:

ـ وأنا ، كنت مفتش أمن! لكني اصبحت بعد ذلك موظفاً في مصرف . موظف بسيط براتب سنوي قدره (٢٤٠٠) فرنك . شيء يدعو للرثاء أليس كذلك؟ هذا فيّ النهار. أما في الليل، أو منذ خروجي من المصرف، اتبدل فجأة لأصبح «البارون» ذا الزهرة على سترته. والنظارتين على عينيه. شيء مختلف تماماً عن الوضع في النهار! البارون دي لاغيرش. لقب كبير ويجلب الكثير من المعجبين والمعجبات، وكذلك في المساء، والبارون هذا لا يرتاد سوى ارقى المحلات؛ حلبات السباق، علب الليل، المسارح . . . وبرفقة الحسناء فالنتين التي يسيل لمرآها اللعاب! وآخر الليل، كنا نتعشى في أفخم المطاعم وهكذا، نهار بسيط وفقير، وليل باذخ وغني. صباحاً أنا المسكين جان غالاي، أما في المساء، فأنا البارون دي لاغيرش الذائع الصيت.

كان جان يتكلم وفالنتين، في القفص، تبتسم ابتسامة الرضى والدلع، وكأنها تعود بذاكرتها الى الليالي الحلوة والمغامرات اللذيذة التي عاشتها مع عشيقها الجميل، وبارونها الوسيم.

ويكمل البارون . .

ـ ويوم الخامس من أيار ـ مايو سنة ١٩٠٥! وكان يوماً جميلاً، دعوت صديقتي الفاتنة الى رحلة بحرية على متن اليخت الفخم كاتارينا. كانت رحلة من رحلات الأحلام . .

ويقاطعه الرئيس :

ـ لماذا على متن يخت وليس على متن باخرة؟

ـ سيدي، الفرق الشاسع بين أن تكون نجماً من أن تكون رقماً بين مئات!

ورفع يده ليلعب بشاربه وكأنه يقول: مساكين هؤلاء القضاة. انهم لا يعرفون كيف يعيشون! ويضحك الجمهور. ويهز الرئيس مطرقته، ويكمل جان كلامه :

ـ كان يقتضي نقل امتعتنا المؤلفة، بصورة خاصة، من اثنين وثلاثين ثوباً وست وعشرين قبعة لفالنتين . . . . أما أنا، فقد اكتفيت باثنتي عشرة بذلة . . ولم أنس تجهيزات طاقم اليخت. والخمور المتنوعة والمؤونة على اختلافها . . . . اخيراً، وفي ٣ آب أو اغسطس ١٩٠٥، انطلق كاتارينا من ميناء الهافر قاصداً لاس بالماس. آه، نسيت أن أقول لكم ان فالنتين اصطحبت معها خادمتها. أما أنا، فقد دعوت صديقاً لي، الدكتور كابلان، كما احضرت رجلاً تركياً لصنع القهوة.

كانت الرحلة رائعة حتى لاس بالماس. ولكن بعد ذلك، بدأت أجواؤها تتبدل. لقد

علمت من خلال الصحف ان الشرطة تلاحقني بسبب اختلاس (٨٥٠,٠٠٠) فرنك. مبلغ يساوي ٣٥٠ ضعفاً راتبي السنوي.

ويقاطعه الرئيس:

ـ اذاً، أنت لا تنكر القيام بالاختلاس؟

ـ ابداً، سيدي الرئيس. كيف انكر! المال، أنا أسخر منه! واذا كنت قد سرقت بعضاً منه، فهذا بدافع الحب.

ويغمز ملتفتاً الى فالنتين. ويصفق الجمهور. أما باقي المغامرة، فأليكموها:

ـ بعد لاس بالماس، أبحرنا الى باهيا، فإلى البرازيل . . ومنها، موقوفين الى فرنسا، حيث استقبلنا من قبل شعبنا الحبيب في بوردو بالهتافات الحلوة: يحيا غالاي، تحيا ميريلي، ويحيا الحب! . .

في الجلسة الثانية والتي عقدت في اليوم التالي، كان الحشد أكبر والحماس اعظم . . ويبدأ الرئيس استكمال استجوابه للمتهم:

ـ وكيف تمكنت من اختلاس المبلغ؟

ـ لاشيء أبسط من ذلك، سيدي الرئيس. آه! لو لم ننزل في باهيا. كانت ساعة شؤم. وتصور، سيدي، انهم عبثوا في اغراضي الخاصة في غيابي! وسرقوا (١٢٨,٠٠٠) فرنك. أيجوز ذلك؟

ويضحك الجمهور وكأنهم في مسرح. السارق المسروق! وعندما سأله الرئيس عن الدافع لارتكابه جريمته، أجاب:

ـ الحب يا سيدي، الحب . . .

انتهى استجواب جان ليبدأ استجواب فالنتين، ذات الصوت الموسيقي:

ـ أنا، لم يكن المال هو الذي يهمني. . كل ما كان يهمني هو ان أكون منسجمة مع من احب. وقد احببت الكثيرين. . . .

كانت تريد أن تقول ان عشاقها كثر. فهذه الفنانة المسرحية المغمورة، وجدت حقل شهرتها في الانتقال من رجل الى آخر، وقد نجحت في ذلك. ـ. . . . اعترف انني ارتبت في أمر الأموال الوفيرة التي وجدتها بحوزة جان. ولكن، ماذا تريد؟ هل يعقل أن أشي بمن أحب.

هنا ايضاً ، انفجر الحشد بالتصفيق ، وانتهزتها فالنتين فرصة لتلعب بعواطف الناس متوسلة دلعها وجمالها ، رأس مالها المعهود. ومما زاد في أعجاب الحاضرين بها ، ما قالته من أنها فضلت الاخلاص لحبيبها ، وبالتالي السجن ، على الخيانة ، والعيش الرغيد!

رفعت الجلسة لتعقد بعد قليل. وخلال هذا الوقت ، كانت التعليقات تدور حول الحب والجمال ومعانيهما. وما ان دخلت هيئة المحكمة ، حتى بدأ الاستماع الى الشهود ، الواحد تلو الآخر. لقد أجمعوا كلهم ، وفيهم الممثل والرسام وسواهما ، على أن فالنتين كانت رائعة في نطقها ، رائعة في معاملتها. حتى الشاذة ماري أودو ، وهي عشيقة لفالنتين فانها أكدت ، وهي تقسم ، براءة محبوبتها التي «لم تكن تهتم ابداً بالمال».

ووقف محامي المصرف ، محامي الادعاء ، ليقول ان المتهم يكذب ويحتال ليكسب عطف المحكمة واعجاب الناس. «انه ذكي حقاً ، لكن ذكاءه متجه ناحية شريرة».

بعد مرافعة الادعاء ، والذي لم تلق الا تصفيقاً هزيلاً ، جاء دور الدفاع :

ـ ايها السادة ؛ ألا ترون أننا في مسرح لنشاهد مهزلة قد تنتهي فجيعة ، لماذا لا يستفيد موكلي المسكين من معاملة العدالة الرحومة لكثيرين غيره ممن زلوا واختلسوا؟ أدعوكم الى ممارسة هذه الرحمة . . فموكلي يستحقها. كل ذنبه أنه أحب الحياة على طريقته. أليس من العدل ايجاد الاسباب التخفيفية لمن لم يكن راتبه السنوي يتجاوز (٢٤٠٠) فرنك في السنة ، بينما ينعم غيره في البذخ والترف؟ .

انتهت المرافعة ودخل المحلفون غرفة المذاكرة ليعودوا بعد ثلاثة ارباع الساعة فقط ويلفظوا حكمهم :

البراءة لفالنتين والسجن سبع سنوات مع الاشغال الشاقة لجان.

غادرت فالنتين المحكمة دون أن تنبس ببنت شفة . . ودخل جان سجنه بهدوء.

وهكذا انتهت قصة حب ، ربما قبل أن تبدأ. لكن فالنتين لم تنته من الاستفادة منها. لقد تعاقدت مع احدى المجلات لنشر قصة حبها مع جان في حلقات وتحت عنوان «ميريليا» فازدادت بذلك شهرة على شهرة.

فــش

يوم ٢٥ شباط من سنة ١٩٥٤، الساعة الخامسة والنصف مساءً، دخل شابان محل الصيرفي الكائن في شارع فيفيان في باريس. كان عمر الواحد منهما لا يتجاوز عشرين ربيعاً. ويبدو على ملامحهما مظهر الأناقة والتهذيب. فور دخولهما، حياهما صاحب المحل. فقد عرف احدهما، جاك فش، الذي سبق ان حضر أليه يوم أمس لتبديل عملة ورقية بأخرى ذهبية. كانت الكمية التي طلبها من الذهب تساوي عشرين مليون فرنك. وقد طلب من الصراف مهلة حتى الغد لاحضار الأوراق النقدية. . وها هو الآن يحضر مصحوباً بصديق له.

بعد أن انهى الصراف من عملية حسابية كان قد بدأ بها قبل دخول الشابين، رفع رأسه ليهتم بهما. وفجأة، ما كان من فشّ إلا أن شهر مسدساً في وجهه، في حين اختفى صاحبه من المحل كلمح البصر. .

ـ ماذا دهاك؟ هل جننت ؟

وبعد لحظة استجمع فيها هدوء اعصابه، أكمل الصراف:

ـ انت لا تزال شاباً . . . والحياة أمامك بكاملها . . . انصحك، لا ترتكب حماقة . . .

تردد الشاب بعض الوقت، وبدلاً من اطلاق النار على الصراف، ضربه على رأسه بقبضة المسدس، ثم قفز الى الداخل وضرب ضحيته ثانية وهرب.

بعد ثوان لم تتعد الخمس عشرة، استفاق الصراف وبدأ يصرخ: «النجدة»، تجمع المارة ودخل قسم منهم المحل. ولما لم يطل الوقت على استعادة الرجل وعليه، فقد تعرف من بين الداخلين الى محله على صديق فشّ الذي قدم معه منذ لحظات. ولم يتأخر لحظة عن الامساك به وهو يصرخ: «انه هو، انه هو!» أما فشّ نفسه، فقد اختفى.

خرج فش راكضاً من دكان الصراف، وانزلق في الشوارع الفرعية شاهراً مسدسه. رآه بعض المارة يدخل مبنى وينزل السلم المؤدي الى المستودع. في هذه الاثناء، كان أحد الشرطيين قد بدأ بتعقبه حتى وصل الى مدخل البناية وأراد النـزول وراء الشاب. لكن حارس البناية نصحه بالتريث لأن «المجرم لا بد وان يعود، فالمكان مسدود ولا منفذ له»، وفعلاً انتظر الشرطي، وما هي الا لحظات حتى خرج فش واطلق النار على الشرطي فأرداه قتيلاً وهرب. لحق به رجال الشرطة الذين كانوا قد اخطروا بالحادث، كما لحق به احد المارة. وبعد فترة غير قصيرة من المطاردة، تمكنوا من القاء القبض عليه بعد ان اصاب، بطلق ناري آخر، الرجل الذي شارك الشرطة باللحاق به . . وهكذا كانت الحصيلة قتيلاً وجريحين هما؛ الصراف والرجل.

لم يكن فش مضطرباً االبتة، قال للشرطي الممسك به بهدوء كلي:

- يجب احاطة زوجتي علماً بالأمر فهي تنتظرني.

بدأ ضابط الشرطة باستجواب الشاب الذي رافق فش الى دكان الصراف، فكانت اجاباته على الشكل التالي:

- بينما كان الصراف منشغلاً بإنهاء حساباته، فتح فش قطعة ملفوفة من القماش وأخرج مسدساً. خفت كثيراً وقلت له بصوت منخفض: «لا تكن مجنوناً» فافهمني بأنه مصمم على التوغل حتى النهاية. فما كان مني إلا أن هربت. وقد اخطرت الشرطي بأن صديقاً لي في طريقه لارتكاب حماقة. هرع الشرطي الى دكان الصـراف. وبعد ذلـك، تعرفون ماذا جرى.

في دكان الصراف، تمكن فش من ان يسرق (٠٠٠ , ٣٣٠) فرنك خلال بضع دقائق فقط أمضاها هناك . .

استمرت التحركات والاستقصاءات حول المتهم مدة ثلاث سنوات، تكونت خلالها لدى الجهات القضـائية معلومـات وافية. فهـو ربيب عائلة بـورجوازية، والده بلجيكي وصاحب مصرف. لكنه لم يستطع الاهتمام بتربية ابنه الوحيد بسبب اسفاره المتكررة. لذلك، كبر فش مع امه. لم يكن ناجحاً في دراسته، مما اضطر والدته الى نقله مرات عديدة من مدرسة الى أخرى، ولكن دون جدوى. أخيراً، عرض عليه ان يعمل في احد المصارف او أن يمارس مهنة ممثل تجاري. غـير أن جميع هـذه المحاولات بـاءت، هي الأخرى، بالفشل. وفي احدى رحلاته الى ستراسبورغ، تعرف الى فتاة من عائلة يهودية بورجوازية، انجب منها ولداً وتزوجها. وقد يكون هذا الزواج بداية مأساته. ذلك ان أبوي فش، وهما

معاديان جداً للسامية، لم يستطيعا تقبل زواج ابنهما من يهودية..

في شهر نيسان من سنة ١٩٥٧، بدأت محاكمة فش وشريكيه الاثنين: أبيه وصاحبه. وتجدر الاشارة الى أن الأب لم يكتف باهمال زوجته وابنه طوال حياته الزوجية، بل اصبح سكيراً. وعندما ذهب اليه جاك قبل ايام من الجريمة، لزيارته، أخذ منه مسدسه....

ـ سأل رئيس المحكمة الشاب جان في بداية المحاكمة؛

ـ لماذا تركت ستراسبورغ وتركت فيها زوجتك وابنك؟

لم يجب المتهم.. وبماذا يجيب؟ أيقول ان أمه كتبت له رسالة تحثه فيها على ترك زوجته، وان فعل، فانها ستعطيه مليون فرنك؟ أيقول انه أذعن للاغراء وحضر الى باريس بالقرب من أمه وملايينها، وأنه اشترى سيارة جميلة وراح يستعيد ذكرياته الباريسية مع أصدقاء الأمس؟

أيقول انه عاش مع هؤلاء الاصدقاء كذبات كبيرة ما لبث جاك أن صدقها بعد ان حاكها وكررها؟ لقد اوهم الآخرين انه غني وانه ينوي شراء باخرة يقطع بها المحيط وينطلق الى شواطىء العالم اجمع. لقد نسي، في حمّى هذه الأوهام، زوجته وابنه. نسي كل الناس. وامعاناً في الوهم، بل خجلاً من الرجوع الى الوراء والاعتراف بالحقيقة، توجه يوماً الى لاروشيل حيث استفسر عن اسعار البواخر. وهناك علم ان باخرة أحلامه تساوي مليونين من الفرنكات، لكن، ينبغي قبل البدء في الصنع، ان يدفع الشاري (٧٠٠,٠٠٠) فرنك كدفعة اولى على الحساب.

من هنا، وفي ٢٥ شباط ـ فبراير ١٩٥٤، بدأت قصة فش مع وقوعه في فخ الحقيقة، فكانت عمليته مع الصراف.

عاد الرئيس وسأله عن الدوافع التي تكمن وراء جريمته، خصوصاً وانها حصلت بعد ان وجد عملاً لائقاً عند حميه وان بوادر النجاح كانت بدأت بالظهور. فأجاب المتهم:

ـ كنت اشعر ان الجميع لا يثق بي. كانوا يسخرون مني ومن امكانياتي. كذلك كنت حائرا بين اهلي واهل زوجتي. لذلك، قررت الهروب!

ليس من شك في أن التصور والتصميم كانا في أساس جريمة جاك، والا، فكيف يمكن تفسير ذهابه الى حيث يسكن ابوه في دامبيار وأخذه مسدسه؟ وهذان التصور والتصميم، ألا يمكن أن يكونا نتيجة تخمر لمطامع لم تحقق، مطامع طوقت الفتى بحيث لم يعد يستطيع الافلات منها؟ ربما. ولنسمعه يشير الى شيء من هذا:

ـ لم أتمكن من التراجع. وعند الصراف، وضعت صديقي امام الأمر الواقع. لم أكن استطيع غير ذلك...

وهنا، نهض الصديق، وقال:

ـ سيدي الرئيس، قصة الباخرة لم تكن سوى مادة للتسلية. لم يتبادر لذهن احد أن الأمر سيصل الى العدوانية. لقد علمت قبل وقت قصير من الحادث ان جاك لا يملك شيئاً. لكني اعترف انني اردت ارضاء فضولي ومعرفة ما ستؤول اليه الكذبة. غير اني، عندما رأيت المسدس والمطرقة، ادركت فداحة اللعبة وهربت. ثم استدعيت الشرطة....

ويسأل الرئيس صديق فش:

ـ هل تربطك بفش صداقة متينة ؟

ـ نعم سيدي الرئيس. كنت أحبه بالرغم من تنبيه أبي لي.

ويسأل الرئيس فش نفسه:

ـ بعدما ضربت الصراف على رأسه، هل كنت مدركاً لما صنعت؟

ـ سيدي، كنت كالمجنون. يقولون انني كنت هادئاً. والحقيقة هي أنني كنت في حالة من اللاوعي، تماماً كمن يمشي في نومه. كنت مذعوراً. وعندما اطلقت النار على الشرطي، انما فعلت ذلك دون تصويب. لم أكن قادراً على القتل. لم أكن...

وبدأت قافلة الشهود. من هؤلاء اطباء نفسيون أكدوا جميعهم ان فش طبيعي وانه ليس سوى مجرم عرضي. أما رجال الشرطة الذين استدعوا للشهادة، فقد قالوا ان فش ليس من اصحاب السوابق وانه، عند استجوابه، تحدث عن كل شيء ودون كذب او خداع.

لكن الادعاء كان اقسى. لقد وصم فش بالاجرام، كما ضرب على وتر حساس وهو انه اقدم على قتل شرطي جاء ليمنعه من اقتراف جريمة. أما الرجل الذي ذهب اليه فش في لاروشيل ليستوضحه عن سعر باخرة يعبر بها المحيط، فقد أكد ان الشاب كان طبيعياً ولطيفاً وان شيئاً غير عادي لم يظهر منه.

ويعود الادعاء ثانية للتهجم والقذف، فينبري كاهن، صديق للعائلة ويقول للمحكمة:

ـ هل قيل لكم، أيها السادة، أن فش امضى، في فترة من الفترات، خمس سنوات في مدرسة داخلية دون ان يزوره ابواه فيها مرة واحدة؟

ثم يستدعى شاهد آخر هو الموسيقار بروير، صديق العائلة، ليقول:

ـ كم كان ممتعاً ان يستمع المرء الى الأب وهو يتحدث عن الموسيقى والشعر والرسم والأسفار! أما جاك، فكان ولداً محبوباً من الجميع. وأمه كانت متساهلة معه لدرجة الميوعة. كما لم يكن لها أية سلطة عليه.

ـ وأبوه ؟

ـ ابوه كان . . . كان يجمع كل المزايا الا انه لم يكن مربياً بالمعنى الصحيح.

لقد اعطى هذا الشاهد صورة الأب الذي كان يكتفي من ابوته بدفع نفقات ابنه من مأكل وملبس، وتعليم. أما الاعتناء العاطفي وما يستلزمه من مداراة ورعاية، فلم يكن وارداً عنده على الاطلاق. وهكذا كانت ايضاً علاقة الزوج بزوجته، هذه الزوجة التي لم تعرف طعم الحياة الزوجية الا لماماً. ولنذكر بالمناسبة هنا أن والدة المتهم توفيت اثناء محاكمة ابنها، ربما متأثرة بما جرى له وبما وقع فيه.

ويدخل الآن جورج فش ـ الأب، بناءً لدعوة الرئيس. يدخل وهو يترنح في معطفه الواسع الطويل وكأنه ثمل. وسرعان ما رد على سؤال الرئيس بصوت يكاد لا يسمع:

ـ مسكين ابني يا سيدي. انه سيء الحظ، علماً بأنه كان فتى لطيفاً ومحبوباً. الاطباء النفسيون؟ يمكنهم قول ما يريدون . . . . اما انا، فأعرف الحقيقة اكثر من اي انسان.

قال هذا وغادر المكان دون اذن من احد ودون أن يلتقي بنظراته مع ابنه الجالس في القفص والذي لم ينظر، هو الآخر، الى ابيه، حتى ليخيل ان كلاً منهما يخجل من الآخر. هذه اللحظات مع الأب كانت كافية لتكوين صورة واضحة عنه، ولاستنتاج الأجواء التي تربّى جاك فيها.

بعد الأب، جاءت زوجة المتهم لتدلي بشهادتها. . انها امرأة سمراء جميلة تشع بالنضارة والحيوية. قالت:

ـ انا اعرف جاك تمام المعرفة. كان لا يستطيع التمييز بين الخير والشر. كما لم يكن لديه امكانية التفريق بين الوهم والحقيقة، لم يلقنه ابوه معنى القيم والمثل. كيف يمكنه فعل ذلك وهو دائم الأسفار؟ لقد عاش جاك بالقرب من أمه وهو يحلم ويحلم. . واحلامه هي التي اوصلته الى هذه النهاية. اراد ان يعيش حالماً ولم يستطع الهبوط من علياء احلامه ويصل الى الأرض، حيث الواقع.

واضافت، بعد برهة من الصمت:

ـ ولم يكن سيئاً، حتى انه عندما تركني ليلتحق بأمه، اعطاني كل ما كـان لديـه، (٣٠٠,٠٠٠) فرنك، على الرغم من انني لم اطلب منه شيئاً.

وتغادر الزوجة الشابة القاعة ليأتي بعدها المحامي فلوريد، محامي زوجة الشرطي القتيل:

ـ سمعنا بعض الشهود يقول ان فش انتهى الى الاجرام لأنه عاش في بيئة ميسورة . . . هل تصدقون هذا؟ هل ان البحبوحة تؤدي الى الاجرام؟ اذا كان علينا ان نشعر بالشفقة على هذا التعيس، فاننا حتماً سنظلم الحقيقة والعدالة، كما سنظلم الآخرين ممن نشأوا في بيئات مختلفة. . .

واضاف :

ـ ولنعد الآن الى الجريمة. لقد اصاب فش الشرطي برصاصة في قلبه. يقولون انه لم يقصد القتل. وانا اقول العكس. والا فلماذا سرق مسدس أبيه قبل ايام من سطوه على دكان الصراف؟ ثم لماذا لم يستسلم بعد فعلته ويوفر على نفسه وعلى غيره جريمة بشعة؟ كل هذا يجعلني اؤكد ان فش صمم لارتكاب جرائمه. صمم ونفذ بهدوء وروية. فهو اذا قاتل مجرم وليس قاتلا عرضياً.

وجلس المحامي فلوريد ليحل محله محامي الدفاع بوديه:

ـ لا شك في أن موكلي قتل دون أن يعي ماذا يفعل. قتل لأنه فقد صوابه وسط زحمة التفاصيل الدقيقة غير المقصودة. صحيح ان هنالك ضحية برئية، لكن الصحيح أيضاً انه لا يجوز التضحية بضحية بريئة أخرى.

والتفت الى المحلفين :

ـ ان مقتل الشرطي حصل في جو ساخن من الذعر والفوضى. اما انتم، فانكم ستصدرون حكمكم بهدوء. فلا تدعوا فش يموت بحكم منكم ويكون موته قد تم في جو، أين منه جو الجريمة المقترفة؟

وانهى المحامي دفاعه. وهنا سأل الرئيس المتهمين اذا كان لديه ما يضيفه، فما كان منه الا ان تلعثم وسط انهمار الدموع بعبارات الندم والأسف. بعد ذلك، انسحب المحلفون وكامل هيئة المحكمة للتداول وتقرير مصير فش. وبعد ساعـات طويلة، خـرج الجميع وأعلنوا قرارهم، وعلى أساس هذا القرار، اصدرت المحكمة حكمها باعدام فش. أما المتهمان الآخران فقد برئا واطلق سراحهما.

كان للحكم وقع الصاعقة، فش، الذي لم يبلغ بعد السابعة والعشرين من عمره، سيعدم. لم ينبس احد من الحاضرين ببنت شفه. كل ما جرى، هو ان محامي الدفاع عانق المتهم بحنان وأسى. في حين كانت ارملة الشرطي تغادر قاعة المحكمة، وهي تمسح دموعها. فقد قتل زوجها يوم عيد ميلاده الخامس والثلاثين.

في الأول من شهر تشرين الأول ـ اكتوبر سنة ١٩٥٧، بعد ستة اشهر من صدور الحكم، نفذ حكم الاعدام بفش بواسطة المقصلة.

كان من الممكن ان ينزل حكم الاعدام، بأمر من رئيس الجمهورية كوتي، حتى درجة المؤبد، وقد سعى الكثيرون الى ذلك، لا سيما مؤيدو الغاء الاعدام من قانون العقوبات الفرنسي. لكن سلك الشرطة، وقد علم بالمساعي والضغوط، هدد بالاضراب في حال عدم اعدام فش. وتهيباً للموقف، وتحسباً للذيول، ترك الرئيس العدالة تأخذ مجراها، لكن اعدام فش ترك شعوراً بالمرارة في نفوس الذين حضروا المحاكمة وشاهدوا فش بسلوكه الهادىء البريء. وكذلك ترك شعوراً بالأسى في نفوس حراسه في السجن الذين لم يروا منه، خلال الفترة التي فصلت الحكم عن تنفيذه، سوى الدعة والتقى. حتى ان لحظة تنفيذ الحكم واللحظات الصعبة التي سبقته، اعطت احلى صورة عن شاب مشى الى الموت باذعان المؤمن والمصمم على التكفير.

وقد يكون جديراً بالذكر ان نقول ان المحكمة نفسها التي حكمت على فش بالاعدام لقتله شرطياً، حكمت على آخر في جريمة مماثلة تماماً بالسجن مدى الحياة. اليس هذا مدعاة للقول مع القائلين ان الحكم بالاعدام ما هو الا ورقة نصيب، وان عنصر الصدفة والحظ هذا يعطي حجة للداعين الى الغائه في قوانين بعض البلدان وهي، لحسن الحظ، تتناقص من سنة إلى سنة؟

أوسكار وايلد

في ذلك اليوم ، يوم الثالث من نيسان ـ ابريل من عام ١٨٩٥ ، كانت رائحة فضيحة تفوح في قصر العدل اللندني ، أولد بيلي : أوسكار وايلد يتهم ، أوسكار وايلد يقيم دعوى تشهير .

والمدعي عمره اثنتان واربعون سنة ، وهو أب لولدين . وهو ، فوق هذا ، شخصية المجتمع اللامعة . فاسمه على كل لسان وظرفه ممتع في أي لقاء . ناهيك عن أناقته التي تحتذى . أما مسرحيته . «الأهمية في أن تكون جدياً» فتلاقي نجاحاً منقطع النظير على مسرح سانت ـ جيمس في قلب لندن .

لكن الشائعات بدأت تبهت تألق هذه الشخصية . هذه الشائعات تقول أن اوسكار وايلد يمارس الشذوذ الجنسي . وهذا ما ليس بالأمر السهل في انكلترا آنذاك ، وفي عهد الملكة فيكتوريا بالذات . والسبب في هذا التشدد السلوكي لا يعود الى أن المجتمع الانكليزي متمسك بالفضيلة أكثر من سواه ، بل يعود الى أنه مجتمع يجب أن يعتقد بذلك . أما الشخص الذي يتهم أوسكار بالشذوذ فعلى قدر من المكانة الاجتماعية . انه اللورد جون دوغلاس ، مركيز كوينزبري الثامن .

والواقع أن الفضيحة بدأت تتخمر منذ كانون الثاني ـ يناير سنة ١٨٩١ ، عندما التقى وايلد بابن المركيز ، اللورد الفرد دوغلاس ، ذي الاثنين والعشرين ربيعاً ، ومنافس أوسكار على عرش الجمال والفتنة . ولم يطل الوقت حتى تكونت بين الاثنين صداقة متينة . لم يكونا يفترقان ، لا في الليل ولا في النهار . وترامى الى الأب بعض الهمسات عن علاقة شاذة بينهما فجهد ما بوسعه ليثني ابنه عن مصادقة اوسكار . لكنه كان يصطدم دائماً باصرار الابن والتعنت . وذات يوم ، وقعت في يدي الأب رسالة من اوسكار الى صديقه افقدته صوابه . وكانت هذه الرسالة واحدة من مجموعة وصلت صدفة الى بعض صغار المغنين . وسارع اوسكار الى استردادها منهم لقاء كثير من التوسل وقليل من المال . لكن هذه الرسالة

خرجت، كذلك صدفة، عن مثيلاتها ووصلت الى الأب. وما أن قرأ الأب الرسالة، حتى أسرع الى النادي الذي يتردد اليه أوسكار. ولما لم يجده، ترك له بطاقة مفتوحة كتب عليها: «الى اللواطي اوسكار وايلد» وهكذا، ببطاقته المفتوحة ومحتواها، اختار الأب الفضيحة المكشوفة.

لم يكن الابن على علاقة طيبة بالأب. وقد دفعه حقده لأن يقنع صديقه المتهم باقامة دعوى تشهير على والده. ولم يكن افضل من فرصة كهذه لحساد وايلد من التكتل ضده والنيل منه ومن سمعته. يضاف الى ذلك أن في يدي الأب ما يدين الشاب المتألق، دون كثير عناء. واختلطت الادوار منذ البداية بين «من يتهم من؟»

وقف الرجلان وجهاً لوجه في المحكمة: لورد كوينزبري، الصعلوك ذو الوجه المغطى بالنمش، واوسكار وايلد، الأنيق والساحر.

بدأت المحاكمة بمرافعة محامي المدعي. وقد قال فيها أن ما جاء في الرسالة من عبارات فسرها المركيز أنها تغزل بابنه، ما هو الا من قبيل التعابير الشعرية التي يمارس صنعتها موكله. فذكره «الشفاه الحمراء الرقيقة وتشبيهها بورق الزهرة»، وايراده عبارة «نشوة القبلات» و «الحب الأبدي» للصديق، ان دلت على شيء فانما تدل على شاعرية رقيقة وأحاسيس مرهفة لا يقدر على تصويرها الا شاعر فذ كأوسكار وايلد. وتساءل: أين الانحراف في هذا؟ أو ليس سوء النية هو ما يجب أن يحاكم المدعى عليه به؟ ثم عاد الى طريقة المركيز بالتشهير بموكله عندما قام بتسليم بطاقة مكشوفة الى حارس النادي وعليها اتهام متسرع وخطير يسيء الى سمعة الشاعر الكبير ومكانته الاجتماعية.

بعد مرافعة محامي المدعي، جاء دور محامي المدعى عليه. وهذه تبدأ، في القانون الانكليزي، بطرح الاسئلة على المدعي. هذه الاسئلة افتتحها المحامي باثارة قصة «دوريان غراي» التي كتبها اوسكار عن فنان يقع في غرام شاب يستخدمه في مشغله كنموذج للرسم. قال المحامي لأوسكار:

ـ لقد سبق وكتبت أنك لا تجد أن هناك كتاباً أخلاقياً وآخر غير أخلاقي. بل هناك كتاب جيد الكتابة وآخر غير ذلك. فهل ترى في قصة مفسدة للأخلاق كتاباً جيداً؟

ـ لا أفهم ماذا تقصد بقصة مفسدة.

ـ قصة «دوريان غراي» هي ما استوضح عنه.

هنا، أجاب أوسكار بترفع وهزء:

ـ هذا رأي الجهلة. وأنا لا أستطيع فهم آراء الجهلة.

احتوى المحامي الاهانة وأكمل :

ـ مشاعر الفنان ، بطل القصة ، تجعل الانسان العادي يعتقد بأنها نوع من الميل .

ـ ليس عندي أية فكرة عما يمكن أن يفكر به انسان عادي .

ـ هل حصل وشعرت بأحاسيس بطل قصتك؟

ـ لا . ان القصة من فعل الخيال .

ـ بطل قصتك يقول في القصة للشاب النموذج : «احببتك حتى الجنون» فهل احببت شاباً في حياتك حتى الجنون؟

ـ لم احب في حياتي سوى نفسي أنا .

وضجت القاعة بالضحك . هنا ، انتقل المحامي الى الرسالة :

ـ هل هذه رسالة عادية يا مستر وايلد؟

ـ كل ما اكتبه هو غير عادي . ولم أكن يوماً عادياً ولله الحمد . هل تريد اسئلة في أمور أخرى؟

أمور أخرى! فعلا هناك ما يستدعي السؤال : اتهامات المركيز ضد وايلد وكلها تتعلق بممارسة المتهم اللواط مع أناس كثيرين أعطى المدعى عليه لائحة باسمائهم .

ادوارد شيلي مثلاً . وهو عامل في دار النشر التي يتعامل معها وايلد ، والذي أمضى معه وايلد ليلة في فندق البرمال . سأله المحامي بشأنه :

ـ هل كان الأمر لا يعدو متعة فكرية؟

ـ بالنسبة اليه؟ أجل .

ـ هل ترى أن مصاحبتك فتى في الثامنة عشرة من عمره الى الفندق لليلة كاملة تعتبر أمراً طبيعياً؟

ـ حتماً .

واعترف وايلد أنه قدم لهذا الفتى أموالاً في مناسبات عدة . لكنه نفى أية علاقة شاذة معه .

وينتقل المحامي الى شخص آخر يدعى الفونس كونوي ، هذه المرة . والفونس هذا بائع صحف كان وايلد والفرد دوغلاس قد تعرفا عليه في أحد الحمامات العامة . وعندما سئل وايلد عن طبيعة علاقته بهذا الرجل ، أنكر أية علاقة غير طبيعية . لكنه اعترف

باهدائه ، في فترات متفاوتة ، علبة لحفظ السجائر وكتاباً وصورة له .

ولم يشر وايلد الى هدية ثمينة ليست من النوع الذي يقدم لشخص ذي علاقة سطحية عادية . وعندما أظهر المحامي الهدية ، وهي عبارة عن عصا انيقة ذات قبضة فضية ، ارتج على وايلد ، كما دهش الحاضرون . . وكانت دهشتهم أعظم عندما فاجأهم المحامي بأن وايلد اصطحب الشاب الى محل لبيع الملبوسات الجاهزة وألبسه كل جديد قبل أن يأخذه الى السهرة فالفندق . ومع ذلك ، أجاب وايلد بارتباك ظاهر ومكابرة :

ـ ـ لقد حجزت غرفتين وبهواً

ـ لكن الغرفتين متصلتان ، أليس كذلك؟

تنهد وايلد تعباً واحراجاً وقال :

ـ لم أعد أذكر .

وسرت في القاعة همهمة .

في اليوم التالي ، يوم الرابع من الشهر ، استؤنفت المحاكمة . بدأت الجلسة باستكمال محامي المركيز استجوابه وقد بدا وايلد أقل ترفعاً وأقل ثقة بالنفس من الأمس .

ـ هل تعرف الفرد تايلور ، الشاذ؟

ـ أعرفه لكنني لست صديقاً حميماً له .

ـ ألا تعرف أن الفرد هذا يسهّل لقاءات بين شبان ورجال متقدمين في السن .

ـ كلا . لا أعرف .

ـ ألا تعرف أنه مراقب من رجال الشرطة؟

ـ كلا .

ـ ألم يقدم لك شباناً .

ـ أجل .

ـ كم؟

ـ خمسة على ما اعتقد .

ـ هل حصل وأعطيتهم مالاً؟

ـ أجل مالاً وهدايا .

وتنبه وايلد للكارثة التي أحدثتها أجابته الأخيرة .

ـ وهم ، هل بادلوك الهدايا؟

ـ أ نا؟ كلا ، أبداً .
ـ هل كان ممن قدمهم تايلور لك شخص يدعى شارل باركر؟
ـ أجل .
ـ هل أصبح هذا الشخص ، فيما بعد ، صديقاً لك؟
ـ أجل .

ووايلد كان أيضاً على صداقة مع أخ لتايلور وكثيراً ما كان يدعو الاثنين على العشاء في المطاعم .

ـ هل كنت تعرف أن الفرد يعمل خادماً خاصاً وأن أخاه سائس خيل؟ وأية متعة كنت تجد في مصادقة هذه المستويات ودعوتهم للأكل معك؟

لقد أحس أوسكار وايلد أنه طعن في عنفوانه .

ـ أنا لا أجد غضاضة ، كما ترى أنت ، في معاشرة أشخاص من مستويات مختلفة . كما أني أحب أن أصادق الشباب . وهذا ، بالنسبة لي ، أكثر متعة من استجواباتك العدلية المملة .

وينطلق الضحك ، الضحك الأخير ، في القاعة . ويعود المحامي الى أسئلته :

ـ هل استطيع القول أن أي شاب ، ولو كان من المتشردين في الشوارع ، يعطيك هذه المتعة؟
ـ أحسنت الفهم .
ـ وهل تصطحبه الى بيتك؟
ـ اذا اقتضى الأمر ذلك؟

لقد اختار وايلد طريقة الاستفزاز للدفاع عن نفسه . وعندما سأله المحامي عن رأيه في توقيف الشرطة تايلور وباركر وهما بلباس نسائي يقفان أمام احدى الحانات ليلاً ، أجاب :

ـ لقد تأثرت لهذا الحادث وكتبت لتايلور . وهذا لم يؤثر أبداً على صداقتنا .

ويكشف المحامي أن اوسكار تغدى منذ أسبوع مع هذين الشاذين ، ويصعق المحلفون لهول ما سمعوه . كيف يحدث أن يبقى هذا الكاتب الكبير على علاقة مع أناس ثبت شذوذهم؟ ويشتد هول ما سمعوه عندما أكمل المحامي لائحة الشذاذ ممن تربطهم صداقة مع أوسكار . غير أن الضربة القاضية حصلت في التالي :

سأل المحامي وايلد عن فتى في السادسة عشرة كان يقوم بخدمة طاولته في المطعم، عندما كان يأكل عادة مع دوغلاس، وعما اذا حصل وقبّل الفتى، فأجاب وايلد بنزق:

ـ كلا، ابداً. كان قبيحاً جداً.

ـ ألأنه كان هكذا لم تقبله؟

ـ كلا... لم أقصد... سؤالك لا معنى له.

لكن الاضطراب كان جلياً على وجه أوسكار. حتى لتراءى للحاضرين أنه على وشك البكاء. لكن المحامي المنتصر واصل اسئلته:

ـ اذاً، لماذا قلت أن الفتى كان قبيحاً؟

ـ لا أعلم...

وأكمل متلعثما:

ـ لقد اهنتني وأثرت اعصابي بأسئلتك المتلاحقة. ومن لا يجيب بسطحيته في مثل هذه الحال؟

ـ اذاً، لقد اجبت بسطحية؟

ـ نعم.

لكن لقد فات الأوان وفهم الجميع أن اوسكار كان يقبل الفتى لو أنه جميلاً، اكتفى المحامي بهذا القدر من اسئلته. وجلس وهو يحس بأنه نجح في اعطاء المحكمة انطباعاً عن سلوك وايلد، وان لم يتمكن بعد من الاتيان بالاثبات القطعي. يبقى أن دعواه الخاصة بالتشهير قد تجاوزتها التفاصيل.

بعد محامي المركيز، جاء دور محامي وايلد. كانت مهمته صعبة بعد ما علق في الاذهان من خلال اسئلة محامي المركيز واجابات موكله. لذلك، قرر التوجه الى نقاط أخرى. لقد بدأ بقراءة الرسائل التي بعث بها مركيز كوينزبيري الى موكله عن علاقة هذا الأخير بابنه الفرد دوغلاس. وتوقع الجميع من المحكمة أن تستدعي الابن بناءً لطلب محامي وايلد، لما لشهادته من أهمية. خصوصاً وأنه على علاقة غير ودية بأبيه. وهذا ما قد يجعله يدحض كل ادعاءاته وبالتالي، يساهم في تبرئة صديقه وايلد. لكن المحامي لم يفعل وربما كان تصرفه هذا يهدف الى عدم جعل المحكمة ساحة لتصفية حسابات عائلية لكنه حتما افقد موكله فرصة ذهبية حاسمة هو بأشد الحاجة اليها.

في اليوم التالي، وكان آخر يوم للمحاكمة، كان محامي المركيز واثقاً من نفسه كل الثقة. لقد التفت الى المحلفين قائلا لهم:

ـ أيها السادة ، لقد حاول موكلي بكل الوسائل انقاذ ابنه من براثن انسان مفسد ، فلم يوفق . في هذه الحال ، ماذا يمكن لأب أن يفعل . اليس ما فعله ذلك الأب قليلاً اذا ما قيس بفظاعة جريمة وايلد . ثم ، ان بامكاني استدعاء شهود كثيرين ، ممن وردت اسماؤهم وممن لم ترد ، لتسمعوا منهم بأنفسكم مخازي هذا الرجل، فهل يمكن، والحالة هذه ، تجريم موكلي بالتشهير؟ هل من الممكن معاقبة البريء ، بل والمعتدى عليه ، وترك المجرم الحقيقي يسرح ويعيث في الأرض فساداً؟

مرافعة محامي المركيز هذه استمرت اكثر من ساعة أعلن بعدها الرئيس تعليق الجلسة . أما الحضور ، فقد تكونت لديهم قناعة عميقة بأن أوسكار وايلد يمارس اللواط بأبشع صوره ومع أحط الناس في المجتمع . عرف الجميع ذلك وتأكدوا منه . وكان على رأسهم محامي وايلد نفسه . ولما كان هذا المحامي يخشى أن يؤدي الاستمرار في القضية لا سيما لجهة استدعاء الشهود الذين هدد بهم محامي المركيز ، الى كشف حقائق أشد بشاعة ، فقد أقنع وايلد باسقاط دعواه . وهكذا كان . وخرج المركيز منتصراً أيما انتصار . لكن الأمور لم تنته عند هذا الحد. فما أن أعلن محامي وايلد اسقاط الدعوى وقدم بذلك طلباً خطياً الى المحكمة ، وما أن أعلنت المحكمة قبول الاسقاط وحفظ الملف ، حتى انبرى المركيز وأقام دعوى على الكاتب بالاستناد الى ملف الدعوى الأولى . ووقع وايلد من جديد في الفخ . وكان موجعاً هذه المرة . لم يمض وقت طويل حتى صدر الحكم . وقد قضى بالسجن لمدة سنتين مع الأشغال الشاقة لأوسكار وايلد وصديقه الفرد تايلور .

أمضى وايلد فترة حكمه في سجن ريدنغ جنوب انكلترا في ظروف صعبة للغاية . وكان ما فعله خلال هذه المدة أنه كتب رسالة الى اللورد الفرد دوغلاس ، اعتبرت أجمل ما كتب في حياته . وعند خروجه من السجن في أيار ـ مايو عام ١٨٩٧ ، وجد أن الكل يعزف عنه ، هو من كان نجم المجتمعات الراقية والمتألق فيها . هو من كان يسعى الى التقرب منه اعظم الرجال وأجمل السيدات . وهذا ليس بمستغرب في انكلترا الملكة فيكتوريا .

ولما وجد نفسه منبوذاً في مجتمعه الى هذا الحد ، ضاقت الدنيا في وجهه فلجأ الى فرنسا باسم مستعار ، سيبستيان ملموث . وهناك ، كتب أحلى الأشعار «رقصة سجن ريدنغ».

وفي ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر من عام ١٩٠٠ ، مات أوسكار وايلد في فندق صغير في شارع الفنون الجميلة بباريس ، عن عمر لم يتجاوز السادسة والأربعين . وبذلك انهى حياة بدأت بخلاف ما انتهت اليه .

قضية لافارج

في الثالث من شهر أيلول- سبتمبر من سنة ١٨٤٠ ، بدأت محاكمة مدام لافارج أمام محكمة تول وبحضور حشد كبير من الناس أتوا ليشاهدوا المرأة ذات الأربعة والعشرين ربيعاً والمتهمة بقتل زوجها شارل عن طريق دس السم له .

بدأت الجلسة بسؤال رئيس المحكمة التقليدي وأجابت المتهمة :

- اسمي ماري كابيل . . .

وترددت لحظة ثم تابعت :

- زوجة لافارج .

هنا تكمن القصة ، في هذا التردد . ذلك أن ماري كابيل لم تقبل يوماً بمحض أرادتها أن تكون مدام لافارج .

- ومهنتك؟

- أعيش من أملاكي .

أملاك! جواب غريب . الكل يعرف أن ماري ، بنت أحد الضباط في جيش نابليون ، لم تكن يوماً ذات ثروة عقارية . لقد نشأت في عائلة بورجوازية تعهدتها بعد موت أبيها واهمال أمها لها . في هذا الجو ، عاشت ماري مع أحلامها في أن ترى نفسها يوماً من اولئك الموسرين ذوي الجاه العريض . حلمت في الزواج من فتى ينسيها ما عانته من حياة مغمورة ، وهي التي تعتقد أنها حفيدة فيليب ، ابن عم لويس السادس عشر .

وذات يوم من عام ١٨٣٩ ، التقت ماري بشارل لافارج . وكان هذا اللقاء بداية مأساة وشقاء لكل منهما . وشارل هذا كان يحلم ، هو الآخر بزواج دسم يجلب له الثراء والجاه ويدعم عمله في الحدادة التي امتهنها . وهكذا تلاقت رغبتان . وبدا للوهلة الأولى أن الأحلام تتحقق . غير أن التكاذب بدأ منذ اللحظة الأولى . قالت له أنها تملك ثروة عقارية كبيرة . وقال لها ، بدوره ، انه يملك قصراً . واثمر التكاذب هذا زواجاً بني على الخداع .

بعد ان رسم رئيس المحكمة صورة على شيء من البريق للزوج، ترك الكلام للمتهمة :

ـ اعتذر، سيدي الرئيس. لم يكن شارل على الصورة التي قدمت. فمنذ اليوم الأول من زواجنا، وكنت عائدة من باريس الى اورليان، اكتشفت ان القصر الذي ادعى أن شارل يملكه لم يكن سوى بيت حقير، بيت متصدع، بارد ومليء بالجرذ والحشرات. يضاف الى ذلك أن فيه أمه التي لم تستقبلني بارتياح. فقد كنت، بالنسبة لها، متعجرفة وبعيدة.

هالني ما رأيت. فكتبت الى زوجي الذي كان سيوافيني الى قصره بعد أيام أني كذبت عليه واني، خلافاً للواقع، كنت أحبّ شاباً آخر التقيته صدفة في اورليان. وقد هددته بالانتحار بتناول سم الأرسنيك، انذي ادعيت أني اقتني كمية منه، ان هو لم يحررني من هذا الزواج المقيت.

وسكتت ماري. كان لمأساتها هذه أثر عميق في نفوس الحاضرين، أثر لم يستطع المدعي العام، ديكو، في مرافعته أن يزيله. قال المدعي العام :

ـ لم تجد المتهمة، لتحقيق أحلامها في الثراء والظهور، الا حلاً واحداً هو أن تتخلص من زوجها ـ لذا، وضعت خططاً محكمة. أوهمت زوجها لفترة أنها بدأت تهيم بحبه الى أن منحها كل ما يملك. بعد ذلك، أرسلت له، وكان في باريس، قالباً من الحلوى عربون «وفاء» لصنيعه. وما أن ذاق المسكين قطعة من القالب، حتى بدأ يتلوى من الألم. ويحمل المسكين الى أقرب مستشفى. وهناك، استمرت ماري باعطائه جرعات متكررة وموزونة من السم. ولم يمض خمسة عشر يوماً الا وكان قد فارق الحياة.

وعن سؤال عن سبب ارسال قالب الحلوى الى زوجها الذي لا تحب، مرفقاً بصورة لها، أجابت المتهمة أن الأمر يدعو فعلاً الى السخرية. لكنها لا تعرف لماذا تصرفت على هذا الشكل. هذا الجواب لم يقنع احداً.

بقي أن تثبت المحكمة أن شارل مات بالسم وأن هذا السم قد دس لـه من قبل زوجته. هذا الموضوع أتى على ذكره احد الشهود، حيث قال أن معدة الميت حلّلت بعد أن كانت قد حفظت فترة في درج أحد القضاة. وهذا قد يكون من شأنه أن يفسد نتائج التحليل وبالتالي، أن يكون لصالح المتهمة.

ويدخل الطبيبان ألباي وماسنا للادلاء بشهادتيهما العلميتين. لقد أكدا وجود الأرسنيك في معدة شارل وكذلك في الحليب الذي كانت زوجته تقدمه له. ومما قالاه، لاثبات اقوالهما، أن الأرسنيك يحدث ترسبات صفراء اذا ما عولج بالهيدروجين المكبرت.

وهذا ما رأياه اثر الاختبار .

كان الطبيبان حاسمين في الصاق التهمة بماري . وعندما همّابالخروج من القاعة بعد انتهاء شهادتيهما ، عاجلهما محامي الدفاع ، بابيه ، بالسؤال التالي :

ـ هل سبق وسمعتما بالدكتور اورفيلا ؟

ـ طبعاً نعرفه . ومن لا يعرف هذه العبقرية في الكيمياء والطب الشرعي ، هذا الرائد في علم السموم ؟

ـ هل وقفتم على أعماله ؟

ـبالطبع .

ـ أية أعمال ، تلك التي نشرها منذ عشرين سنة ، أم الجديدة ؟

هنا ، ارتج على الطبيبين ، فعاجلهما المحامي بابيه بسؤال آخر : :

ـ ما رأيكما باختراع جيمس مارش وبجهازه الخاص باكتشاف وجود الأرسنيك ؟

ويصمت الطبيبان مرتبكين ومدللين على جهلهما بجيمس هذا وعلى عدم سماعهما باسمه .

ـ لقد ذهبت ، أيها المحترمان ، الى الدكتور اورفيلا لاستيضاحه عن موضوع التسميم والسموم ، وهاكما ما قاله لي : « هذا الترسب الأصفر ، الذي يظن البعض انه دليل على وجود الأرسنيك ، لا يعني في الحقيقة شيئاً . ذلك أنه يمكن أن يتكون دون وجود الأرسنيك . »

ويتوجه المحامي الى رئيس المحكمة :

ـ سيدي الرئيس ، يقتضي استدعاء اورفيلا والاستماع اليه .

لكن المدعي العام لم ير ضرورة لذلك . فالأطباء والكيميائيون المحليون يمكنهم أن يتولوا المهمة بأنفسهم . وأمام اصرار المدعي العام على عدم وجودة ضرورة لاستدعاء أورفيلا من باريس ، واصرار محامي الدفاع على احضاره ، كان على المحكمة أن تبت . وقد فعلت لصالح رأي المدعي العام .

يوم الرابع من الشهر يوم المحاكمة الثاني ، كان اول الشهود مدير احد الاسطبلات ، السيد لسبيناس . لقد أشاد، هذا الشاهد بشخصية شارل وحسن تصرفه . كما أشاد، بصورة خاصة ، بنعومة سلوكه مع السيدات ، مناقضاً بذلك صورة الحداد الجاف ، الذي لا يأتلف تعوده على معالجة الحديد مع ما كان يفترض ان يتصرف به تجاه زوجته الرقيقة المشاعر والنحيلة الجسم . فضلاً عن أن الشاهد لم ينس أن يشير الى ما يملكه شارل من عقارات كمصنعه وقصره لكنه لم يذكر أن المصنع مغلق منذ سنة ، وأن ما يسميه قصراً

والذي سبق وصفه ، ليس الا بيتاً مخيفا لا يصلح لسكن فتاة رقيقة تعزف على البيانو وتكتب بنفس أدبي رفيع . كما أنه نسيّ أن يذكر أن الدائنين ما انفكوا يلاحقون شارل وأمه ، تلك الأم التي كانت تقوم بالانفاق على البيت بمن فيه . وقد استمرت على هذه الحال حتى بعد زواج ابنها .

في الخامس من شهر، ايلول ـ سبتمبر، كانت المحكمة لا تزال تنتظر وصول تقرير الخبراء . وكسباً للوقت ، بدأت الجلسة بالاستماع الى شهادة الأم . فماذا قالت هذه المفجوعة بابنها؟ بل ماذا كان ينتظر أن تقول؟ قصت حكاية ليلة العرس وكيف أن ابنها بكى وهو يتوسل الى عروسه ان تفتح له الباب . ولما فتحت له بعد طول انتظار وانتحاب ، ركع أمامها يستعطفها ، وهي تستعلي عليه طالبة الطلاق من زواج لم يتم . وهذا ما سبب له ، بعد قليل ، نوبة صرع ، وهو مرض اظهر استعداداً له منذ فترة طويلة .

وانتقلت مدام لافارج الى الحديث عن قالب الحلوى وكيف أنها رأت ابنها شاحباً بعد أكله منه ويتلوى كالأفعى . وفيما كانت الأم تتمادى في استدرار عطف الحضور ، اذ بتقرير يصل . وقد أكد فيه الدكتور دوبوا أنه لم يلاحظ في معدة الميت أي اثر للأرسينيك .

ودوى تصفيق حار ملأ القاعة . لا أثر للأرسينيك . اذاً ، ماري بريئة وسيطلق سراحها . لكن المؤسف أن المسكينة أمضت ثمانية أشهر في الحبس الاحتياطي .

رفعت الجلسة لتعود للانعقاد بعد قليل . هنا ، وأمام دهشة الجميع ، وقف المدعي العام ليقول انه قرأ آراء أورفيلا حول التسمم وعلم منها أن عدم وجود الأرسنيك في المعدة يثبت شيئاً . لذلك ، يجب البحث عنه في مكان آخر من الجسم ، في الكبد مثلاً . ونبشت جثة شارل أمام حشد كبير ورغم احتجاج محامي الدفاع ، وفي قاعة المحكمة بالذات ، بدأ الخبراء بالفحص والتحليل . كانت الروائح التي انبعثت من أجزاء الجثة المقطعة تملأ الجو بنتنها . لكن هذا لم يثن الفضوليين الكثيرين من البقاء والمراقبة .

في هذه الأثناء ، استدعت المحكمة شاهداً آخر هو الآنسة برون . لقد كانت هذه الشابة تعيش في طابق من البيت الذي كان شارل يسكنه . وذات يوم ، بينما كانت في زيارة جارها المريض مرض الموت ، رأت زوجته ماري تحضر له كأساً من النبيذ ، وقد وضعت فيه ملعقة صغيرة من مسحوق أبيض وطفقت تحركه محدثة صوتاً واضحاً ورتيباً . وعندما قدمته الى زوجها وشرب منه ، قال لها أنه محرق ، فلم تجب ماري .

هنا ، خرجت ماري عن صمتها وصرخت من قفصها :

ـ لم يكن عندي أي نوع من المسحوق .

هل كانت هذه الانتفاضة دليلا على كذبة أم دليلاً على براءة مطعونة بافتراء؟
ويسأل أحد المحلفين :
ـيتحدثون كثيراً عن مسحوق لقتل الجرذان في بيت شارل ، فهل كان في البيت كثير من الجرذان؟
وتنبري الأم لتجيب :
ـ كلا . لا يوجد فيه سوى قليل من الفئران . وهذه الفئران تبقى في الطابق الأرضي ولم يحصل أن صعدت الى فوق .

انتهى الخبراء من التحليل واعلنوا ، مرة اخرى ، انهم لم يعثروا على أثر للأرسينيك في كبد شارل .

وتدوّي عاصفة تصفيق أخرى في أرجاء القاعة . ويقف محامي ماري ليعلن وعيناه مغرورقتان بالدموع :
ـ تأكد للجميع أن ماري بريئة وأن المحاكمة كلها ليست سوى نتيجة سوء تفاهم .

بعد أن هدأت عاصفة التصفيق وسكت الجميع عن التهاني والاعجاب ، وقف المدعي العام ليطلب ، بهدوء تام ، ولكن بثقة ، احضار السوائل التي كانت ماري تحضرها لزوجها المريض والأوعية التي كانت تستخدمها لتقديمها له . ولم ير محامي الدفاع ، الواثق من النتيجة ، أية غضاضة في ذلك ، بل قال دون تردد ، على الرغم من أن فحصاً سابقاً كان قد أظهر وجود الأرسينيك فيها :
ـلم لا ؟
وعلقت المحكمة المناقشات والمرافعات ليعاد الى فحص السوائل والأوعية . وبعد الظهر ، كان الطبيب الخبير دوبوا يقف أمام القوس ليعلن أنه وجد في ما فحص نسبة عالية من الأرسينيك تكفي لقتل عشر رجال .

فعل كلام الخبير هذا فعل القنبلة المتفجرة . وحاول انصار ماري الاحتجاج . لكن المدعي العام وقف ليقول بحزم اسكت الجميع :
ـ هذه التجربة تظهر أهمية المثابرة والصبر في خدمة العدالة .
ان ماري هي التي قتلت زوجها !
ويعود الصخب الى القاعة . ويتساءل الجميع : إذا كانت السوائل والأوعية تحوي مادة الأرسينيك ، وإذا كان شارل قد شرب من هذه المادة ، فأين اختفت في الجسم؟
للأجابة عن هذا السؤال ، لا بد من الاستعانة بالدكتور اورفيلا . فهو صاحب طريقة التحليل التي طبقها الخبراء ، وهو ، بالتالي ، المؤهل اكثر من سواه لأعطاء التوضيح

المطلوب .

لم يكن بد لمحامي الدفاع من الموافقة . أو ليس ، هو ، صاحب الفكرة في الأساس؟ ثم أن اورفيلا صديقه . وهو الذي ، في المرة الأولى ، كشف أخطاء التحليل وأشار عليه بتكراره حسب طريقته . فلا شك اذاً بأن «أمير علم السموم» ، كما كان يسمونه ، سيثبت براءة ماري لافارج . . . .

في ١٣ أيلول ـ سبتمبر من تلك السنة ، ١٨٤٠ ، وصل من باريس ماتيو جوزيف بونافنتور أورفيلا ، عميد كلية الطب في باريس ومعه فريق عمله . ومنذ وصولهم ، انكبوا على العمل . وبعد يومين من الانهماك المتواصل ، انجزوا مهمتهم ، وهاهم في قاعة المحكمة . ماري لافارج ترتجف . . . من البرد أو . . . . من الخوف . كما أن لونها اشتد شحوباً . أما الحاضرون ، كل الحاضرين ، فقد تقلّصت اعصابهم عند مرأى أورفيلا ورفاقه يدخلون القاعة لاعطاء النتيجة .

وبدأ العالم بقراءة تقريره وهو مكون من صفحات عدة مرصوصة الكتابة . وقد أشاع جواً من الاستغراب والدهشة منذ الكلمات الأولى :

ـ في نيتي أن أثبت : أولاً أن جثة شارل لافارج تحوي مادة الأرسينيك ، ثانياً أن هذه المادة لم تأت من المواد المساعدة التي استخدمناها في التحليل ، كما لم تأت من التراب الذي كان يحيط بالجثة مدة وجودها في القبر ، ثالثاً وأخيراً أن السم الذي وجدناه لم يتأت عن عناصر طبيعية يتكون منها جسم الانسان .

وهكذا ، لم يكن العالم قد بدأ فعلاً في صلب التقرير ، حتى عرف الجميع النتيجة . وتهاوى محامي الدفاع على مقعده . لقد حكم صديقه على موكلته بالموت المحتم .

أما ماري ، فقد كانت تستمع الى صوت اورفيلا ، وهو يتلو التقرير ، بهدوء الأموات . ولم يكن يشوش رنة هذه القراءة سوى صفير الريح حيناً وزمجرة الرعد في الخارج حيناً اخر .

أنهى اورفيلا تقريره بالجملة التالية :

ـ أما لماذا لم يكتشف بعض ممن سبقني من الزملاء وجودالأرسينيك في جسم شارل ، فهذا عائد ، بكل بساطة ، الى أنهم قاموا بالتحليل على نار قوية تسببت في تبخير السم . بينما كان من اللازم ان يجري التحليل على نار اخف .

لم يكن وقع النتيجة هذه بالأمر السهل ، حتى على جمهور الحاضرين . لكن ما قيل قيل . وهنا يلتفت رئيس المحكمة الى أورفيلا ليسأله :

ـ هل أن كمية السم المعطاة للمغدور كافية ، بنظرك ، لاعتبار المحكمة أن في الأمر احتمالا لوجود جريمة القتل بالسم؟

ـ الحقيقة أنه يقتضي أخذ الظروف التي أحاطت بالتسميم بالاعتبار. كما يقتضي الأخذ بالاعتبار علامات المرض وشراء السم المتكرر ووجود الارسينيك في السوائل التي قدمت للمغدور.

ثم خلص اورفيلا بسخرية :

ـ وهكذا فان باستطاعتك تبين الجواب عن سؤالك بسهولة.

الأمر واضح ، على الرغم من أن اورفيلا ليس مؤهلاً للقول ما اذا كانت ماري هي التي قتلت زوجها بالسم ، فهذا عائد للمحكمة . لكن ما قاله كان كافياً لأن يرجح الكفة في أذهان المحلفين.

وتبرز هنا مفاجأة اخرى عندما ينبري محامي ماري الثاني ، الأستاذ لاشو ، والذي يقال أنه كان مغرماً بموكلته . ينبري ليطلب اجراء اختبار آخر ، من راسباي ، هذه المرة ، وهو عالم من علماء الأنسجة ، ومعروف ايضاً بنشاطاته السياسية ، باعتباره أحد ابرز قادة الحزب الجمهوري المناوىء للملكية آنذاك.

كانت ضربة المحامي لاشو ضربة معلم . فمن أجدر من راسباي لهذه المهمة التي سيجد فيها فرصة للنيل من اورفيلا ، الملكي الملتزم؟

لكن راسباي في باريس . واستدعاؤه من هناك يتطلب وقتاً ليس بقصير ، سيما وأننا لم ننس أننا في سنة ١٨٤٠ . غير أن المحامي لاشو المتيّم تبرع بمهمة استدعاء الخبير بنفسه . من تول الى باريس ، استغرقت رحلته وقتاً قياسياً : أربعة أيام فقط . وما أن عرض الأمر على راسباي حتى رحب هذا به واعتبره فرصة ذهبية جاءته على طبق من فضة . وسرعان ما وعد صاحبه بموافاته الى تول.

واستؤنفت المحاكمة بعد انقطاع قصير . وزيادة في الاسراع ، فقد احضرت ماري على حمالة بسبب وعكة صحية ألمّت بها في هذه الأثناء . وبدأ المدعي العام ديكو مرافعة انصبت قذائف على رأس المتهمة . وقبل ان ينتهي ، توجه الى من تستلقي في القفص وقال لها :

ـ أنت دون سواك من سمم شارل . لن تقولي أن أمه هي التي فعلت ذلك . وان قلته فستنتزعين من قلوب المحلفين ما يمكن أن يكون قد بقي فيها من الرحمة بك.

لقد عجل ديكو بمرافعته لأنه أراد أن ينجز مهمته قبل وصول راسباي . وبانتظار هذا الخبير ، الذي تأخر لطول الطريق ، لم يجد المحامي بداً من الرد على المدعي العام ، سيما وأن

مرافعته قد أحدثت تأثيراً عميقاً ليس في مصلحة المتهمة .

ومما قاله المحامي استدراراً لعاطفة المحلفين وعطفهم ، كذلك دحضاً لرأي أورفيلا . وقد تساءل بهذا الصدد : ألم يقل اورفيلا نفسه أن الجسم البشري يحوي ، بشكل طبيعي ، مادة الأرسينيك ؟ ثم أو ليس من التسرع بمكان الركون الى نتائج علم لم يبلغ بعد مرحلة متقدمة ، علم لا تزال الشكوك تدور حوله ؟ من يدري ما اذا كان سيأتي يوم ينقض هذا العلم ما توصل اليه حالياً ؟ كان شارل لافارج محاطاً بالخصوم والحساد . وفي هذا ، كان المحامي يقصد عامل شارل ، دنيس ، ذا السمعة السيئة . كما أن المغدور كان غارقاً بالديون وفاشلاً في حياته وزواجه ، فلماذا لا يكون قد انتحر بملء ارادته ؟

وينهي المحامي مرافعته بالتوجه الى المتهمة :

ـ تشجعي ، فأملي كبير بأن العناية الالهية لن تتخلى عنك .

فتقف ماري شاحبة ومرتجفة لتقول للمحلّفين :

ـ أنا بريئة . اقسم لكم أني بريئة .

هذه الجملة كانت كافية لاجهاش الكثير من الحضور بالبكاء .

ودخل المحلفون غرفة المذاكرة ليخرجوا منها بعد ساعة ويعلنوا تجريم ماري ، ولكن مع أسباب تخفيفية . وانتظر رئيس المحكمة نصف ساعة ، ريثما تستفيق المتهمة المريضة من غيبوبتها ، ليقرأ نص الحكم : الأشغال الشاقة المؤبدة مع المثول أمام الجمهور في ساحة تول الرئيسية .

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة ليلاً عندما انتهى رئيس المحكمة من قراءة الحكم ، وعندما كان راسباي يدخل القاعة وهو يلهث من أتعاب سفر طويل . لقد حضر راسباي بعد فوات الأوان . . .

أمضت ماري في السجن عشر سنوات ماتت في نهايتها بعد أن سطرت مؤلفات عدة ، اعتبرت من افضل ما كتب . لكن موتها لم ينه قضيتها فصولاً . عام ١٩٥٤ ، اثبت البروفسور ديروبير وجود الأرسينيك في الأنسجة البشرية . وعام ١٩٧٨ ، عاد كل من العالمين ديديه وسوفي الى قضية ماري لافارج وانسجما مع موقف الاتهام . أخيراً ، وفي عام ١٩٨٠ ، بعد مئة وأربعين سنة ، خلصت اكاديمية الطب الى أن ماري كانت بريئة . ألم يصرخ راسباي ، عام ١٨٤٠ : «ليحم الله براءة تأكيدات الكيمياء» ؟

ومؤخراً ، لوحظ بعض الأزهار على ضريح ماري ، التي ترقد في مقبرة اورنولاك . وهذا ، ان دل على شيء ، فعلى أن هناك من لا يزال يشعر بأن قضية ماري هي قضية مأساة علم لم يكن قد نضج يوم اعتمد عليه لاصدار حكم .

قضية سلانسكي

براغ في ٢٠ تشرين الثاني- نوفمبر سنة ١٩٥٢ . اليوم ، تبدأ آخر محاكمة من سلسلة محاكمات سياسية هزّت العالم الشيوعي بأكمله . في البدء ، كانت محاكمات لازيو راجك في المجر ، وتريشو كوستوف في بلغاريا . هذان الرجلان ، وهما من قادة الحزب الشيوعي في بلديهما ، حكما بالاعدام ونفذ فيهما الحكم في شتاء عام ١٩٤٩ . ثم تلا ذلك توقيف الأمين العام للحزب الشيوعي البولوني ، فلاديسلاف غومولكا ، في تموز- يوليو سنة ١٩٥١ ، وبعده محاكمات موسكو. أما محاكمة اليوم ، فالمتهم فيها هو رودولف سلانسكي ، السكرتير العام السابق للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي ونائب رئيس الوزراء .

ويمثل أمام المحكمة ، مع سلانسكي ، ثلاثة عشر متهماً آخر كانوا كلهم ، قبل احالتهم على المحاكمة ، في رأس هرم الحزب ، أو هرم الدولة ، باعتبار أن التسميتين مترادفتان . من هم جميع هؤلاء؟ أنهم : بدريش غمندر ، رئيس قسم العلاقات الدولية في الحزب ، لودفك فريجكا ، المستشار الاقتصادي لرئيس الجمهورية كليمنت غوتوالد ، جوزيف فرانك ، الأمين العام المساعد للحزب ، فلاديمير كليمنتيس ، وزير الشؤون الخارجية ، بدريش ريسن ، مساعد وزير الدفاع الوطني ، كاريل سڤاب ، مساعد وزير الأمن أو ، بتعبير آخر ، الشرطة السياسية ، أرتون لندن وفافرو هاجدو ، مساعدان سابقان لوزير الشؤون الخارجية ، ايفزن لوفل ورودولف مارغوليوس ، مساعدان لوزير التجارة الخارجية ، أوتوفيشل مساعد وزير المالية ، أوتوسلنغ ، أمين سر اقليمي للحزب ، وأخيراً اندريه سيمون ، رئيس تحرير صحيفة الحزب رود برافو .

أما سلانسكي ، فقد كان لمدة ثلاث سنوات سيد البلاد الفعلي غير المنازع .

هؤلاء جميعاً وجهت اليهم تهم واحدة : التجسس لحساب الامبرياليين الاميركان ، التآمر ضد الدولة ، تقويض قواعد نظام الديمقراطية الشعبية ، اعاقة بناء الاشتراكية ، تخريب الاقتصاد الوطني ، اضعاف قدرات الدفاع ، وأخيراً ، السعي لابعاد تشيكوسلوفاكيا

عن حليفها الأخوي ،.الاتحاد السوفياتي . أما اذا أردنا التعبير عن التهم بالاختصار، فاننا نوجزها بالكلمة المركبة التالية : التروتسكية- التيتوية- الصهيونية ، بالأضافة الى القومية البورجوازية والعداء للشعب التشيكوسلوفاكي .

والواقع أن جميع من هم ماثلون اليوم للمحاكمة ، انما هم من انصار ستالين المتحمسين الذين كانوا ، لفترة طويلة ، وراء آلة الارهاب في بلدهم . وها هي اليوم تبتلعهم ، كما ابتلعت الكثيرين من قبلهم .

واذا تساءلنا عن الاسباب الخفية الكامنة وراء مجزرة القادة هذه ، لجاءنا الجواب بأن ستالين لم يكن يقبل ، بأي حال من الأحوال ، أن تتكرر صورة تيتو في المعسكر الاشتراكي . لذلك ، قرر أن يتخلص من كل من يرى فيه ، ولو وهماً، ميلاً نحو الاستقلالية في الدول التي تدور في فلك الاتحاد السوفياتي .

من أجل هذا الغرض ، لم يكن ستالين يستبعد أي مؤشر فسواء كان لأحدهم نشاط سياسي سابق في بلد غربي ، أو اشتراك في الحرب الاسبانية ضمن الفرق الدولية ، أو عمل في اطار المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي ، أو حتى كان أسيراً في معسكرات الاعتقال النازية ، فهو عميل للامبريالية .

ليس هذا فقط ، بل كان أي اتصال بعناصر من اليسار الغربي غير الشيوعي يكفي لالقاء تهمة التيتوية أو التروتسكية .

أخيراً . فأن أحد عشر من المتهمين كانوا يهوداً . وهذا لم يكن محض صدفة . لقد ذهب عداء ستالين للسامية الى الصاق تهمة الصهيونية والتجسس لحساب اسرائيل بهؤلاء .

وهذه الاتهامات وتلك التي وردت سابقاً ، ليست متناقضة فحسب ، بل هي ايضاً لا تستند الى أي عنصر حسي يمكن أن يشكل اثباتاً لها . فهل من شك في أن المتهمين هم من المخلصين للنظام؟ حتى المحكمة ، التي شكلت لمحاكمتهم ، هل يتبادر لذهن عضو فيها أي ريب في ذلك؟ لكن الواقع هو أنه لا بد من ايجاد كبش محرقة لما تعانيه الكتلة الشيوعية من توترات داخلية ، وكذلك ما تعانيه تشيكوسلوفاكيا بالذات من صعوبات اقتصادية . والحنكة تقضي بالضرب في الرأس ، لكي تأتي الحجة أقوى ويكون ، بالتالي ، امتصاص النقمة أفضل .

أما سير القضية ، فلا ينتظر أن يحوي أية مفاجأة ، شأنه في ذلك شأن كل ما جرى في محاكمات مماثلة سابقة . ويعرف الجميع أن اعترافات المتهمين طبعت باتقان قبل الاستجواب ، وأن هؤلاء سيكررونها ، شاؤوا أم أبوا . كيف لا وقد فقدوا كل ارادة ذاتية

لديهم نتيجة ما عانوا من ألوان التعذيب وفنونه. فضلاً عن ان هذه الارادة لا بد، مع وجودها أو وجود بقايا منها، من أن تتعطل، فالخوف شديد وردة الفعل عنيفة.

الساعة التاسعة صباحاً، بدأت المحاكمة ودخل المتهمون الى القاعة الخاصة بالمحاكمات في سجن بانكراك. يبدو أن كل شيء قد تمت تهيئته باتقان. كيف لا ووقائع الجلسات ستذاع على الهواء؟ لذلك كان المدعوون للحضور من النخبة المميزة قادة وعمالاً. هؤلاء، وقد ناهز عددهم ثلاثمئة، أعطوا الانطباع، في جلستهم وترتيب مقاعدهم، أن المكان مسرح من الدرجة الأولى وأن الاقبال فيه على المسرحية كبير.

وبدأ الرئيس، الدكتور نوفاك، بسؤال المتهمين، بكل رصانة وجدية، عما اذا كان لديهم أي اعتراض أو ملاحظة عن تطبيق المهل الواردة في القانون. وبرصانة وجدية اكبر، لفتهم الى أن حق الدفاع عن أنفسهم سيؤمن لهم دون أي عائق وبالطريقة التي يريدون....

بعد ذلك، أعطى الرئيس الكلام الى المدعي العام، أورفاليك، الذي وقف ليقرأ على مسمع من الجميع، في المحكمة وخارجها، قرار الاتهام. وبعد ثلاث ساعات كاملة من القراءة الرتيبة، رفعت الجلسة للراحة.

بعد انتهاء فترة الراحة، طلب الرئيس من المتهم الرئيسي، سلانسكي، أن يتكلم. وسلانسكي، ذو الواحدة والخمسين سنة، كان، لمدة طويلة، أول شخصية في تشيكوسلوفاكيا. وكانت موسكو تعتبره ـ رجل الثقة لدى ستالين. ولا غرابة في ذلك، فسلانسكي كان زعيم المقاومة التشيكية طوال الحرب. وعندما أصبحت البلاد ديمقراطية شعبية، صعد هذا الرجل ليمثل مركز السكرتير العام للحزب وبهذا اصبح لا يقل أهمية عن رئيس الجمهورية كليمنت غوتوالد.

تكلم سلانسكي بما كان ينتظره الجميع. لم يترك تهمة الصقت به الا واعترف بها. صحيح أنه كان دائماً عدواً للحزب الشيوعي. صحيح أنه كان دائماً على علاقة بدوائر التجسس الفرنسية والانكليزية والأميركية وبالأوساط الرأسمالية بشكل عام. صحيح أنه كان دائماً محاطاً، حتى في تشيكوسلوفاكيا، بعناصر قومية. أخيراً، أقر الزعيم السابق للحزب أنه زرع عملاء له في المراكز الحساسة في كل من الجيش والشرطة والاقتصاد بهدف قلب نظام الديمقراطية الشعبية والعودة بالبلاد الى المعسكر الغربي. كل هذا لأنه لم يتمكن من التخلص من « عقليته البورجوازية ».

على الرغم من أن سلانسكي كان تلميذاً شاطراً في القاء ما لقّن، فقد تلكأ في بعض

الأحيان . كان يتوقف . وكان صوته يخفت أو يرتجف . حتى أن الرئيس نوفاك اضطر مرات عدة لأن يدعوه، بشيء من القسوة ، لأن يتابع اعترافاته . وكان المسكين يذعن في كل مرة ، الى أن أفرغ كامل الجعبة .

كانت «مفيدة» تلك المعلومات التي كشف النقاب عنها في هذه الاعترافات ، ابتداءً من علاقاته بالرأسماليين الانكليز والاميركيين منذ أن كان على رأس المقاومة التشيكية، وانتهاء بالتخريب الذي مارسه ضد الاقتصاد عن طريق اعاقة تعبئة اليد العاملة وتنمية التجارة الخارجية ، مروراً بكشف النقاب عن عشرات من «الشركاء» وكلهم من قدامى النازيين ومجرمي الحرب واعداء الاتحاد السوفياتي . ولكي يعطي بعض النكهة للاختلاقات التي ذكر ، أضاف أنه كان ينوي التخلص من رئيس الجمهورية نفسه . لذلك ، فقد أوكل شؤونه الصحية الذاتية الى طبيب خاص هو الماسوني هاجوفيك . ماسوني ! اذاً عدو النظام .

دامت اعترافات سلانسكي ثلاث ساعات متواصلة . ثلاث ساعات من سرد منسق ومدروس ، لا بد أن حفظه استغرق وقتاً ليس بالقصير.

وانتقلت المحكمة الى سماع أقوال كل من بدريش غمندر ، الرئيس السابق لقسم العلاقات الدولية في الحزب أو بتعبير آخر ، ضابط الارتباط مع موسكو ، وفلاديمير كليمنتس ، الوزير السابق للشؤون الخارجية .

وفي ٢٣ تشرين الثاني- نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، دعي أرتور لندن ، المساعد السابق لوزير الشؤون الخارجية ، للادلاء بأقواله . ويبلغ ارتور سبعاً وثلاثين سنة امضاها في خدمة القضية . انه مثال الثوري المحترف المثالي ومثال الحزبي المتفاني . كان لا يزال في الرابعة عشرة من عمره عندما انخرط في صفوف «الشبيبة الشيوعية»، التي ما لبث أن أصبح سكرتيراً اقليمياً لها . وفي عام ١٩٣٤ ، لجأ الى موسكو بعد مرات من السجن في تشيكوسلوفاكيا . . وعام ١٩٣٦ ، ذهب الى اسبانيا ليحارب فيها في صفوف «الألوية الدولية». وبعد مغادرة اسبانيا عند سقوط كاتالونيا ، انضم الى المقاومة الفرنسية سنة ١٩٤٠ . بعد ذلك ، وعقب الحرب ، رجع الى بلاده وبدأ يرتفع في صفوف الحزب بسرعة مذهلة . وما أن حلت سنة ١٩٤٩ ، حتى عين نائباً لوزير الشؤون الخارجية . هذا الرجل هو من تجري محاكمته بتهمة التجسس والخيانة العظمى . . .

ويسأله الرئيس :

- هل فهمت ما تضمنه قرار الاتهام؟

- نعم .

لقد فهم وأقر أنـه ارتكب جرم الانتماء الى «مركـز التآمـر ضد الـدولة» المـمثـل بسلانسكي . ويردف المتهم قائلاً :

ـ أقر أنني قمت بترتيب اتصالات سلانسكي التجسسيـة مع العميـل الانكليزي زيلياكوس مستخدماً من أجل ذلك البريد الديبلوماسي .

وزيلياكوس هذا هو نائب عمالي انكليزي من الجناح اليساري المتطرف . وبهـذه الصفة ، كانت تربطه صداقات بكثير من الشيوعيين ومنهم ستالين نفسه . لكن هذا المتشيع المعروف بدأ ، منذ سنوات ، يعمل لفكرة استقلالية اكبر للاحزاب الشيوعية تجاه موسكو . وهذا ما سبب له العداء ولقب «جاسوس» من قبل موسكو والدائرين في فلكها .

ويتابع ارتو لندن فيقول :

ـ من جهة أخرى ، كنت ، أنا بالذات ، على اتصالات تجسسية بنويل فيلد . وقصة نويل فيلد شبيهة بقصة زيلياكوس . غير أن أمره كان موضع ارتياب الأوساط الشيوعية في موسكو ، اذ كانت تظن أنه ، وهو الشيوعي الاميركي المتحمس ، ليس سوى عميل لبلاده تستخدمه ، من دون أن يدري ، لمآرب مرسومة من قبل أجهزة الاستخبارات فيها . . . .

وهنا يسأل المدعي العام أورفاليك المتهم :

ـ ما الذي دفعك لأن تعمل كعدو لجمهورية تشيكوسلوفاكيا الشعبية ؟

ـ السبب هو أنني نشأت في بيئة بورجوازية . وهذا ما أبقى الجماهير العمالية بعيدة عن مشاعري ، وما جعلني كذلك لا أفكر الا في أنانيتي ومصالحي الشخصية .

وأضاف أن اقامته أحدى عشرة سنة في الغرب جعلت منه انساناً بعيداً عن بلده وغريباً عن طموحات شعبها . ونذكر أن سنوات الاقامة تلك امضاها المتهم في اسبـانيا وفرنسا وموسكو بالاضافة الى أسره في معسكر للموت . كما أضاف أنه خلال وجوده في فرنسا في بداية الأربعينات ، توغل في علاقات مع مجموعة من التروتسكيين ممن حاربوا في اسبانيا . ومن غريب «الصدف» أن جميع المتهمين والماثلين اليوم أمام المحكمة هم أعضاء في هـذه المجموعـة ، التي كانت بقيـادة سلانسكي . وهـذا يعني أن تهمـة أخـرى وهي التروتسكية ، اضيفت الى تهم سلانسكي السابقة .

وختم لندن أقواله بذكر اسماء المتهمين الآخرين بـوصفهم شركـاء له في العمـالة والخيانة .

ويتقدم متهم آخر ، كاريل زفاب ، نائب وزير الأمن ، ليؤكد أن أرتور لندن هـو

يهودي بورجوازي ومتعاون مع الجاسوس الأميركي فيلد. وليقول ايضاً ان سلانسكي كان على علم بذلك عندما عينه في منصبه بوزارة الشؤون الخارجية.

ثم يأتي متهم لم يرد اسمه في لائحة من يحاكمون اليوم. هذا المتهم، ويدعى زافودسكي، هو المساعد السابق لزفاب. جاء ليشهد ضد رئيسه مؤكداً أنه كان، هو، متآمراً مع زفاب، الذي كان، بدوره متآمرا مع سلانسكي وهكذا... حتى الشعور بالتقيؤ.

لكن هذا الشعور لم يصل الى الحضور. فهؤلاء تم اختيارهم ممن لديهم المناعة الكافية ضد التقيؤ ومضايقاته. ولا ضرر من الاشارة الى أن من بين الحضور قادة لأحزاب شيوعية أجنبية. لكن صحفياً غربياً واحداً لم يسمح له بالدخول.

أما عائلات المتهمين وذووهم، فلم يبلغوا موعد الجلسة. لذلك كان بامكانهم الاستماع الى الوقائع من خلال المذياع. وهذا التدبير فاق حتى تدابير محاكمات موسكو لما قبل الحرب.

لكن ما فائدة كل هذه الاحتياطات والسيناريو سيحترم من جميع المتهمين؟ الم يقر هؤلاء بالجرائم المنسوبة اليهم دون أية زيادة أو نقصان في ما أملي عليهم وأمضوا الليالي في حفظه؟ ألم يمر كل شيء على ما يرام، باستثناء الحادث الذي حصل مع أحدهم المدعو ازفن لوبل، نائب وزير التجارة السابق؟ لقد أسقط المدعي العام سهواً فقرة من قرار اتهامه، وهو يقرؤه امام المحكمة، فما كان من هذا المتهم الا أن سارع وصوب الخطأ، وذلك ليأتي الرد، فيما بعد، مطابقاً لعناصر الاتهام!

حادث آخر مؤسف. بينما كان المتهم أوتو سلينغ يدلي باعترافاته، ولما كان جسمه قد نحل بعد أشهر من السجن القاسي، فقد هبط سرواله الى الأرض وانفجرت ضحكة مكبوتة من الحضور كانت الانفراج الوحيد طوال أسبوع من الضواغط الخانقة.

وتأتي مرافعة المدعي العام، التي لا بد وأن تستمر ساعات. ويخيم التهيب على الجميع. هذه المرافعة لم تكتف بسرد التهم وتفنيدها، بل تضمنت تأكيداً على مسؤولية المتهمين عما وصلت اليه الحالة الاقتصادية في البلاد من سوء. ولم تنس أن تشير الى العدد الكبير من البرقيات التي يعد فيها عمال تشيكوسلوفاكيا بمضاعفة الجهود لتخليص البلاد من ذيول ما ارتكبه الخونة المارقون، عملاء الامبريالية. وأضاف أورفاليك:

- لم يكن من السهل الوصول الى فضح هؤلاء الخونة. فقد كانوا في رأس السلطة والمؤتمنين على مقدرات البلد. لكن سلطانهم هذا لم يتمكن من السيطرة على قلب الحزب

وعقله . هذا الحزب العزيز على شعبنا العامل ، هذا الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي وعلى رأسه الرئيس غوتوالد ، استطاع ، في الوقت المناسب ، أن يسحق هذه العصابة من الخارجين . وفي ذلك هزيمة نكراء للامبرياليين الاميركان وانتصار جديد لمعسكر السلم والديمقراطية .

وانتهى المدعي العام بطلب انزال أقصى العقوبات بالزمرة المجرمة . ولم ينس أن يتوجه الى القضاة بصوت يتهدج عاطفة وشاعرية :

- ايها المواطنون القضاة ، ليأت حكمكم خالياً من أية رحمة . لينزل على رؤوس هؤلاء الماثلين أمامكم كقبضة من حديد . ليكن كالنار التي تحرق ، حتى الجذور ، شجرة الخيانة المتعفنة . وليكن أخيراً ناقوساً يرن في طول بلدنا العزيز وعرضه بغية تحقيق انتصارات جديدة في مسيرة الارتقاء نحو شمس الاشتراكية !

ويأتي بعد ذلك رتل من محامي الدفاع ، محام لكل منهم . وترتسم صورة لمحاكمات القرون الوسطى ، يوم كان الدفاع يثقل التهم على رؤوس من يدافع عنهم . لم يخرج واحد من محامي المتهمين عن هذه القاعدة .

وعندما جاءت مرحلة سؤال المتهمين ، واحداً واحداً ، عما اذا كان لديهم ما يضيفونه ، وقد انتهى محاموهم من الدفاع عنهم ، كان جواب الجميع واحداً وبعبارات متشابهة . لقد كرروا اعترافاتهم والصقوا بأنفسهم مرة أخرى ، ابشع التهم . كانت أصواتهم كأصوات الموتى . لقد كانوا واعين مصيرهم كل الوعي .

صباح ٢٧ تشرين الثاني- نوفمبر من العام ١٩٥٢ ، لم يكن من الصعب ايقاظ المتهمين في زنزاناتهم في سجن بانكراك ببراغ . فاليوم موعد اصدار الأحكام . وما أن دخلوا قاعة المحكمة ، حتى بدأت قراءة الحكم . كانت المقدمة طويلة ، ولم تترك مادة من قانون العقوبات لها علاقة بالتهم المنسوبة الا وتضمنتها . أخيراً ، وصلت الفقرة الحكمية :

١ - الاعدام للمتهمين رودولف سلانسكي وبدريش غمندر ولودفيك فردجكا وفلاديمير كليمنتس وبدريش ريسن وكاريل زفاب ورودولف مورغوليوس وأوتو فيشل وأوتو سلينغ واندريه سيمون .

٢ - السجن المؤبد للمتهمين أرتور لندن وفافرو هادجو وأزفن لوبل مع طرفة جميلة وهي أن المدة التي امضاها هؤلاء في التوقيف الاحتياطي تنزل من مدة الحكم المؤبد . . .

وعلى الرغم من أن اختيار الحضور كان مدروساً ، فقد سرت همهمة استفظاع في القاعة .

بعد ستة أيام ، نفذت احكام الاعدام . شنق الأحد عشر وأحرقت جثثهم ووضع الرماد في كيس للبطاطا تمهيداً لذره في أحد الحقول .

غير أن العاملين اللذين كلفا بهذه المهمة ، افرغا الكيس في الطريق المغطى بالجليد .

بقي تفصيل بسيط . لقد كتب كل من المتهمين قبل اعدامه ، باستثناء سلانسكي ، رسالة الى ذويه وأخرى الى الرئيس غوتوالد . وفي كل هذه الرسائل ، أكد المساكين براءتهم من كل ما ألصق بهم من تهم .

لم تنشر هذه الرسائل الا بعد خمس عشرة سنة ، ابان ربيع براغ عام ١٩٦٨ ، يوم أعيد اعتبار ضحايا المحاكمات الستالينية برمتهم .

ولنتذكر أن الجيش الأحمر اجتاح ، في ما بعد ، الأراضي التشيكية ، وتحديداً في ٢٥ آب ـ اغسطس من العام نفسه ، عام ١٩٦٨ .

كوربيه وعمود الفاندوم

في ١٩ آب- أغسطس سنة ١٨٧١ ، افتتحت في فرساي محاكمة ثمانية عشر رئيس كومون ، بينهم رجل في الواحدة والخمسين من عمره ، القي القبض عليه وهو مختبىء في قبو . ومعروف ان الكومونات تنظيمات ثورية جمهورية واجهت صدامات عنيفة في آذار - مارس ١٨٧١

هذا الرجل هو الرسام غوستاف كـوربيه ، المولود في أرونـان في مقاطعـة الجورا الفرنسية عام ١٨١٩ . كان كوربيه ذا قامة منتصبة ، مفتول العضلات ، كثيف الشعر ، أسوده . نقول «كان» لأنه لم يعد هكذا بعد شهرين ونصف من السجن القاسي . حتى ليروى أنه حاول ، خلال هذه الفترة ، الانتحار في زنزانته .

وهو واحد من ٤٦٨٣٥ رجلاً سيحاكمون'ما بين تموز-يوليو من سنة ١٨٧١ الى نهاية سنة ١٨٧٥ بتهمة الاشتراك في نظام الكومونات والحوادث العنيفة والدامية التي طبعت هذا النظام .

افتتح رئيس المحكمة ، الكولونيل ميرلان ، الجلسة بسؤال المتهمين الثمانية عشـر عن هويتهم ، كما هو التقليد . بعدها ، التفت الى كوربيه وسأله :

-لماذا ا انضممت الى المتمردين في ٢٠ نيسان- ابريل سنة ١٨٧١ ؟

- لأكون قريباً منهم وأتمكن من منعهم من ارتكاب حماقات محتملة . ولست مسؤولا ، في حال من الأحوال ، عما ارتكب قبل اشتراكي أنا ، أي قبل ٢٦ نيسان- ابريل وبعد ١٢ أيار - مايو .

ويقاطعه الرئيس ليشير الى مسؤوليته عن بعض التصرفات المؤسفة ، ذلك أنه ، منذ دخول الجيش النظامي العاصمة باريس ، اختبأ في قبو يملكه أحد التجار من المتعاملين مع أصدقائه . ولم يغب عن أحد داخل القاعة ، أن المقصود بهذه الأشارة هو حريق قصري

التويلري والباليه- رويال وكذلك حريق ديوان المحاسبة من قبل أنصار نظام الكومونات، هؤلاء الذين بدلوا العلم المثلث الألوان بالعلم الأحمر وأعادوا تبني التقويم الثوري، كما أزالوا أو خططوا لازالة كل الرموز الامبراطورية، باستثناء قبر نابوليون وقوس النصر في ساحة النجمة.

والتهمة الرئيسية التي سيق كوربيه الى المحكمة بسببها، هي أنه شوهد وهو يقلب عمود الفاندوم الذي اعتبره المتمردون رمزاً بغيضاً، بصورة خاصة، لأنه يحمل في أعلاه تمثالاً لنابوليون..

أجل، أن ملف الاتهام يتضمن أن كوربيه قام شخصياً بقلب هذا العمود المرتفع وسط ساحة الفاندوم، وأنه، بالاضافة الى كونه عضواً في الكومون، فهو رئيس لجنة الفنانين والمولج مبدئياً بالمحافظة على التراث.

ويجيب كوربيه رداً على التهمة:

-كلا. لست أنا الذي عمل على هدم العمود. أنا اقترحت على اللجنة نقل العمود الى حيث ضريح نابوليون ووضعه بجانب الضريح. أما اذا توصلتم الى اثبات أني أنا الفاعل، فأنا على استعداد لأن أعيده الى موقعه وأعيد عليه «تمثالكم» على نفقتي الخاصة!

كلام كوبيه هذا جاء سطحياً ومتهوراً. صحيح أن هذا الرسام كان غنياً، لكن ثروته لم تمنعه من الانضمام بحماس لحركة التمرد. ودراسة عابرة لشخصيته تدل على أنه ساذج. الم يكن يعرف دائماً عن نفسه بعبارة «الفنان الاشتراكي»؟ وسذاجته هذه لم تمكن رأسه من احتمال أو حمل المهام والألقاب التي حصل عليها، والتي جعلت منه ما يشبه وزير الفنون الجميلة في الكومون التي ينتمي اليها. يتضح ذلك في رسالة وجهها الى أبويه في ٣٠ نيسان- ابريل سنة ١٨٧١، يوم كان مع المتمردين المحتلين لباريس، وقد قال لهما فيها: «أن يومي يبدأ بفطور الصباح. يعقب ذلك جلوس على كرسي الرئاسة يستمر اثنتي عشرة ساعة، أشعر بعدها بأن رأسي اصبح، كالتفاحة المسلوقة.... وعلى الرغم من ذلك، فباريس فردوس حقيقي: لاشرطة، لا حماقات، لا أعمال اعتباطية، لا منازعات. باريس تنظم نفسها بنفسها، تماماً كأنها تتقدم على دواليب كراجة. وهذا ما كان يجب أن يحصل منذ زمن طويل. انها لمتعة حقاً...».

هذه الرسالة تشكل واحداً من مستندات ملف القضية. وهي لن تكون عنصراً مخففاً بنظر عسكريي المحكمة والعسكريين بشكل عام. حتى محامي كوربيه، الاستاذ لاشو المعروف بعدم ميله لنظام الكومونات، فانه لم يـر في ملف موكله مـا يشجع عـلى تسلم

القضية . كيف لا وللموكل مواقف معادية للجيش لا بد وأن يثيرها الشهود ، كما لا بد وأن يبرزها المدعي العام في مرافعته . ومنهم من سيرى فيها مادة دسمة لإيغار الصدور واخفاء جو من التشدد تقع مفاعيله على رأس المتهم المسكين .

ويعود رئيس المحكمة الى الكلام ويقرأ ، بصوت مدو ، لائحة الاتهامات :

ـ سيد كوربيه ، أنت متهم :

١ ـ بالاشتراك في مؤامرة لتغيير الحكومة وتحريض المواطنين على حمل السلاح ضد بعضهم البعض .

٢ ـ باغتصاب وظائف عامة لا يعود أمر توليها اليك .

٣ ـ بالمساهمة في تحطيم نصب عام ، اعني به نصب الفاندوم .

لم يلصق الرئيس تهمة تحطيم عمود الفاندوم بكاملها بالمتهم ، بل اكتفى باتهامه بالاشتراك عن طريق مساعدة الآخرين . ومعروف أن تهمة كاملة من هذا النوع تنتهي بالمتهم ، بنظر العسكريين ، الى الحكم بالاعدام ، لأن فيها مساسا بالتراث .

بعد سماع لائحة الاتهام ، وقف كوربيه ليقول :

ـ اكرر اقوالي التي دونتها لدى قاضي التحقيق . وهذه الأقوال تدل على أني أمرت بنقل جميع الروائع الفنية المبعثرة في عهد الامبراطورية الى باريس . وقد عينت حراساً أمام كل متحف . ولو لم أنقل اللوحات القيمة من قصر التويلري الى متحف اللوفر ، لكان جزء كبير من تراثنا الفني الوطني طعمة للنار .

هذه الحقائق يعرفها الكولونيل ميرلان ويقرّ بها . لكنه يريد أن يصل في استجوابه الى صلب الموضوع . يريد أن يصل الى أن كوربيه ، بانخراطه في الكومون في ٢٦ نيسان ـ ابريل عام ١٨٧١ ، يكون قد قبل تبني افكار هذا التنظيم التمردي .

ويعود رئيس المحكمة الى الكلام :

ـ ماذا فعل كوربيه بالوظائف التي تولاها ابان حركة التمرد ؟ لقد ألقى ارضاً عمود فاندوم . هذا العمود الذي يعتبر رمزاً لعظمة جنودنا وتضحياتهم . . . . وهل تعرفون ، أيها السادة ، ماذا قال عنه المتهم ؟ قال أنه يجعل منا سخرية أمام الآخرين ، بل يجعل من فرنسا كلها سخرية ، وأنه يقتضي محوه من الوجود ومحو أسماء الشوارع التي تذكرنا بانتصارات كل من نابوليون الأول ونابوليون الثاني .

وينتقل الكولونيل ميرلان الى القول بأن المتهم سبق وقرأ على الناس نص رسالتين وجههما الى العسكريين والفنانين البروسيين ودعاهم فيهما الى مغادرة فرنسا واعلان حياد الألزاس واللورين . كما دعاهم الى تذويب حديد المدافع في كل من المانيا وفرنسا ليصنعوا

منه نصباً يرمز الى تلاحم الشعبين الأبدي . على أن يرفع هذا النصب في ساحة الفاندوم مكان النصب الذي شارك في تحطيمه .

لم يكتف الكولونيل ميرلان بهذا القدر من الهجوم ، بل أثار حادثة اخرى هي اعلان الفنان نص مرسوم مؤرخ في ١٢ نيسان ـ ابريل سنة ١٨٧١ . جاء فيه :

« نظراً لما يمثله عمود ساحة الفاندوم من بربرية وعنف وانتصار خادع ، ولما كان هذا العمود يشكل برهاناً على العسكرية وبالتالي ، على انكار لحقوق الشعوب ، كما يشكل مساساً مستمراً بكرامة المنهزمين وطعناً للمبدأ الثالث من المبادىء الجمهورية العظيمة ، وهو الأخوة ، فقد قررت كومون باريس تهديمه » .

هذا المرسوم كان دون توقيع . لكن الجميع يعتقد انه من صنع كوربيه . غير أن كوربيه ثار لسمعه وقال :

ـ مستحيل ! لم أكن عضواً في الكومون الا في الفترة بين ٢٦ نيسان ـ ابريل و١٢ ايار ـ مايو سنة ١٨٧١ . لكن هذا لا يمنع من أن أعلن رأيي في عمود الفاندوم وهو أنه لا يحوي أية قيمة فنية وأنه شعار النظام الامبراطوري والاستبداد . . . .

ويقاطعه الكولونيل ميرلان :

ـ إن محضر اجتماع الكومون المؤرخ في ٢٧ نيسان ـ ابريل يتضمن طلب كوربيه هدم العمود واستبداله بأخر يمثل الثورة .

ـ خطأ ! لم أذكر في المحضر أموراً كهذه .

ـ في هذه الحالة ، يستحسن طلب التصحيح .

ـ ما الفائدة . . .

والآن جاء دور الشهود . بعض من هؤلاء دخل في تفاصيل عملية تحطيم العمود ، بحيث اعطى الصورة الحقيقية للتنفيذ ، تماماً كما لو كان يتم فعلاً أمام السامعين . وقد أكد احدهم ، وهو حارس لاحدى البنايات ، انه رأى كوربيه يصعد بنفسه بسترته الداكنة اللون ويضرب المعول الأول في عملية الهدم . لكن كوربيه ينتفض ويرد :

ـ ليس عندي سترة داكنة . ثم ، كيف رأيتني أصعد على سلم وأنا من أنا بجسمه الضخم ؟

لكن الحارس يعود ويؤكد شهادته .

أما شهود الدفاع ، فكلهم اكدوا ان كوربيه ما فتىء يعمل على تهدئة الانفعالات داخل الكومون وأنه عمل ما بوسعه للمحافظة على ثروات المتاحف . اليس هو من صفّح

قوس النصر ومتحف اللوفر وغيرهما من الأبنية التراثية خوفاً عليها من ضربات المتحاربين؟

غير أن هذه الشهادات لم تؤثر على موقف المدعي العام . وها هو يقف ليوجه اللوم الى المتهم لعدم دفاعه عن نصب يمثل عظمة الجيوش الفرنسية وانتصاراتها . وكذلك ليلومه على الانضمام الى الكومون ضد الشرعية وجيشها .

بعد المدعي العام ، جاء محامي الدفاع لقد أشاد هذا بعبقرية كوربيه الفنية واخلاصه للوطن . ومما قاله أن موكله لم يدخل حكومة الكومون بعد اضطرابات آذار ـ مارس ١٨٧١ الا لأن الآخرين قدروا فيه فنه الرفيع ، فدعوه اليها . فهذا اذاً ليس بسياسي محترف . واذا كان قد دخل حكومة غير شرعية ، فانه دخلها بعد تشكيلها ولم يساهم ، بشكل من الأشكال ، في الحرب الأهلية التي سبقت هذا التشكيل واعقبته . ولا ننس الدور المعتدل والمهدىء الذي لعبه هذا الفنان ضمن الحكومة نفسها وما كان له من أثر فعال في تجنيب البلاد الكثير من الويلات . تبقى قضية عمود الفاندوم . وأنا اقدر مشاعركم حيال هذا الرمز . لكن موكلي ذهب ضحية افتراءات رخيصة . لم يكن يريد تهشيم العمود والتمثال فوقه . بل اراد نقله الى حيث ضريح نابليون ، الى الانفاليد . يضاف الى ذلك ان كوربيه لم يكن عضواً في الكومون عندما اتخذ قرار هدم العمود . هذا التفصيل هام وحاسم . وعليه اطالب بتبرئته .

لكن الحكم صدر بسجن كوربيه ثمانية اشهر . وكان ذلك في الثاني من شهر أيلول ـ سبتمبر ١٨٧١ . صحيح ان ثمانية أشهر لم تكن بالمدة القصيرة والسهلة في زنزانة منفردة ، لكن هذه المدة لا تعود بالشيء الذي يذكر اذا ما قيست بالاحكام الأخرى التي صدرت بحق الآخرين من المتهمين بقضية العمود : الاعدام للبعض والسجن المؤبد للبعض الآخر . ويبدو أن مساهمة كوربيه الفعلية في المحافظة على التراث الفني في كثير من المتاحف ساهمت كثيراً في تخفيف الحكم عليه .

في اليوم التالي لصدور الحكم ، كتب كوربيه رسالة الى أهل بيته اكد فيها عدم اشتراكه في عملية العمود . وفي سجنه ، سمح له باحضار عدة الرسم . وقد انتج في زنزانته افضل لوحاته . لكن احد المسؤولين الأمنيين ، الجنرال فالنتين ، منعه من رسم باريس كما يراها من شباك زنزانته . فما كان من كوربيه الى أن بدأ يرسم على جدران الزنزانة . هذا المنع أثر فيه كثيراً وجعله يعيش في حزن عميق مستمر .

وبعد ثلاثة اشهر من السجن ، نقل كوربيه الى المستشفى لاجراء عملية جراحية له . وقد كان هذا الانتقال بمثابة تجدد لآماله في الحياة .

وفي الثاني من آذار ـ مارس ١٨٧٢ ، خرج من السجن بعد أن دفع ٦٨٥٠ فرنكاً عن المدة المتبقية له وكذلك عن المدات المتبقية لرفاقه في التهمة . وعندما دخل مشغله ، لاحظ ان محتوياته سرقت بماوتقدرب ١٥٠,٠٠٠ فرنك. لم تكفه هذه الضربات التي حلت به، بل ان لوحاته وجميع اعماله الفنية لم تلق من يشتريها من الجهات الرسمية ، وذلك بقرار من لجنة التحكيم التابعة للصالون الكبير. وقد علقت الصحافة الحكومية على هـذا القرار بقولها : « يقتضي ، من الآن فصاعداً ، اعتبار كوربيه في عداد الأموات» . وكتب أحد الصحفيين في ذلك قائلاً : «لقد تحول الصالون الكبير الى محكمة عسكرية . »

في سنة ١٨٧٣ اصدرت الجمعية العمومية ، بناء لاقتراح قدمه ماك ماهون ، قراراً يقضي باعادة بناء عمود الفاندوم ووضع تمثال نابوليون الأول في أعلاه وكان هناك من تقدم باقتراح يقضي بتحميل كوربيه ورفاقه نفقات هـذه الأشغال. لكن الاقتراح لم يأخذ طريقه ، انما ، ولأسباب أمنية ، اصدر وزير المال ، وهو بونابرتي ، امراً بمصادرة لوحات وممتلكات كوربيه ، وكذلك حسابه في البنك . تجاه هذه الاجراءات التعسفية ، وخوفاً من أن يرى كوربيه نفسه في حالة افلاس ، غادر فرنسا ولجأ الى سويسرا يستقر فيها على ضفاف بحيرة ليمان .

بعد ذلك ، عادت الدولة واقامت الدعوى على كوربيه بدفع تكاليف اعادة بناء العمود لعدم ملاءمة رفاقه المشتركين في هدمه .

وقد أصبح الحكم بذلك مبرماً ، في ٢٦ حزيران ـ يونيو سنة ١٨٧٤ .

وفي ٢٤ كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٨٧٦ ، وبعد أن فقد كوربيه أمله في دعم اصدقائه ومعارفه مادياً ، كتب الى والده يقول له : «لم ار واحداً من اصدقائي في فرنسا يتحرك لمساعدتي . كل واحد منهم يرتجف كورقة على شجرة» .

وفي شهر كانون الثاني ـ يناير من سنة ١٨٧٧ ، قدمت الدولة كشفاً بحسابها على كوربيه . وقد بلغ / ٣٢٣٠٩١ فرنكاً ، أي ما يعادل اربعة ملايين فرنكاً في يومنا هذا . ولتسديد دينه ، باعت الدولة بالمزاد العلني ما تبقى من ممتلكات كوربيه . وهذا ما زاد في تعاسة المسكين فمات في آخر من سنة ١٨٧٧ .

وفي موته ، كتب جول فاليس : لقد سمع قلب شعب ينبض كطلقات من مدفع . »

كامبي، القاتل من غير اسم

في ذلك اليوم، يوم الجمعة ٢١ آذار- مارس من عام ١٨٨٤، اختلطت، في قصر العدل في باريس، ألوان قبعات علية القوم الزاهية بمعاطف المحامين السوداء. وقد جاءوا كلهم ليكونوا في محاكمة بطل القضية، كامبي، اللغز الذي يتحدى العدالة منذ شهور. والجريمة التي يحاكم بها هذا الرجل فظيعة وتافهة في آن معاً.

في ١٠ آب اغسطس سنة ١٨٨٣، طرق شخص مجهول باب بيت المحامي ديكرو دي سيكس، الذي يسكن مع أخته في شارع ريفار. وعندما فتح له، طلب التحدث مع أخ الخادمة. ولما كانت هذه غائبة عن البيت آنئذٍ، عاد المجهول بعد ربع ساعة. تحدث لحظة مع أخت المحامي، وفجأة، أخرج من داخل معطفه مطرقة وضرب بها رأس المسكينة ضربات عدة. وعندما أسرع أخوها لنجدتها، عاجله المجهول بضربات من مطرقته كسرت جمجمته، وعاد الى الاخت ليذبحها. سمع البواب الصراخ، فأسرع الى ابلاغ الشرطة التي لم تتأخر بالقبض على المجرم. أما الحصيلة فكانت موت المحامي وفقدان أخته ذاكرتها.

والأكثر غرابة هو أن هذا المجرم لم يفصح عن اسمه الحقيقي. لقد صرح، ساعة القبض عليه، بأن اسمه ميشال كامبي. لكنه ما لبث أن أضاف بأنه لن يفصح أبداً عن اسمه الحقيقي. وقد أصر فعلاً على ذلك. قيل أنه قد يكون مستخدم الحلاق في سيدي بالعباس، أو كاهناً متخفياً من مرسيليا، أو جندياً من جنود البابا، لكن، وحتى مثوله أمام المحكمة، لم يكن اسم هذا القاتل المجهول قد عرف

افتتح رئيس الجلسة بسؤال المتهم:

- اسمك؟

- كامبي

- سنك؟

ـ ٣٣ سنة

ـ مهنتك؟

ـ لا أعرف .

ـ عنوانك؟

ـ لا أعرف .

لم تكن اجابات كامبي مستغربة . فقد ظل يردّدها طوال الأشهر الثمانية التي مرت وهو رهن التحقيق .

واستمر الرئيس في استجوابه :

ـ لقد انهلت ضرباً بمطرقتك على رأس الآنسة ديكرو دي سيكس ، فوقعت وهي تطلق صرخات رهيبة .

ـ صرخة واحدة .

قال هذا بكل هدوء . لكن القاعة بمن فيها ارتجفت لفظاعة الفعل وكذلك لمرأى كامبي المرعب بوجهه الأصفر وذقنه الوسخة ونظرته المتوحشة .

ـ لم تكن الخادمة قد عادت الى البيت ساعة عودتك أنت بعد ربع ساعة في المرة الأولى . لحسن حظها ، اليس كذلك .

وكان حوار قد دار بين الخادمة والمجرم أثناء التحقيق في مقابلة بينهما وقد جاء فيه أن الخادمة قالت له : «كان من الأفضل لو قتلتني أنا بدلاً من مخدوميّ المسكينين» فرد عليها كامبي وهو يبتسم : «آه لو كنت حاضرة وقتئذٍ ، لا أقول . . . . »

وعن سؤال الرئيس أجاب :

ـ ذلك لأثبت أنها ليست شريكتي في ما عملت . ما زال عندي بقية من أخلاق ألا ترى؟

ويذكره القاضي انه شوهد ، عشية وقوع الجريمة ، يحوم حول بيت الضحيتين بصحبة شخص آخر ، فيرد كامبي :

ـ هراء . لذيك ثمانية عشر شاهداً . ثمانية عشر مخطئاً

ـ لكن الآنسة ديكرو دي سيكس ليست في حالة تسمح لها بالادلاء بأقوالها في المحكمة . ولو استطاعت ، لما أخطأت .

ـ ربما ، من يدري !

ـ هيا دعنا ننتهي من هذا الغموض . ألم يجدك رجال الشرطة في غرفة الخادمة مختبئاً في الأغطية ؟

ـ أجل . ولكني سلمت نفسي حتى لا أجهد أحداً بالتفتيش عني .

وسرت ضحكة في القاعة ، عاد بعدها الرئيس الى اسئلته :

ـ لماذا قتلت هذين العجوزين . أمن أجل سرقتهما؟

ـ كلا .

ـ انتقاماً؟

ـ محتمل

ـ كامبي . يحسن بك أن توضح الدافع الى جريمتك دون لف ولا دوران .

ـ ابداً!

ـ اعترفت أثناء التحقيق أنك كنت تريد سرقتهما .

ـ لأضلل التحقيق .

ويتنهد الرئيس تنهد المتضايق قبل أن يكمل :

ـ واضح أنك كنت تنوي السطو عليهما ، سيما وأن السيد ديكرو دي سيكس كان على مظهر من الغنى وكان يكثر من أعمال البر .

ـ صحيح . كان يتلقى تبرعات ليوزعها على المحتاجين .

وسرت هنا في القاعة موجة من الاستياء والاستنكار . ما هذا الصلف؟ ويزداد انفعال الرئيس من هذا المتهم الوقح . ويكمل استجوابه له :

ـ هل كنت تعرف السيد ديكرو دي سيكس قبل الجريمة ؟

ـ نعم

ـ كيف ؟

ـ هذا أمر يتعلق بي .

ـ هل كنت تعرف نمط حياته ؟

ـ أكثر من قاضي التحقيق نفسه .

ـ مسكنه .

ـ جيداً .

ـ هل سبق وأحسن اليك ؟

ـ ابداً .

ـ هل أساء اليك؟

ـ ممكن .
ـ كامبي ، من أنت؟
ـ مجهول .

حوار غريب لا مثيل له في المحاكمات .

ـ هيا كامبي ، هل لك عائلة؟
ـ نعم ، ومن أجلها أخفي هويتي .

ﻫﻪ ! هذا بعض التقدم . على الأقل ، يظهر أن لهذا الرجل شيئا ما أو أحداً ما يود اخفاءه . أو أنه يريد اخفاء شخصيته عن أحد . ولكن السؤال لا يزال : من هو كامبي ؟ لقد ظن الرئيس هنا أن بصيصاً من نور قد ظهر ، فيكمل :

ـ هل أنت فرنسي ؟
ـ ممكن .

عاد كامبي وأغلق على نفسه المنافذ .

ـ لقد قلت أنك كنت مهرباً في اسبانيا وجندياً في ايطاليا .
ـ من جملة أكاذيب . .
ـ يحمل جسمك آثار جرح من سيف ، فهل تبارزت مع أحد؟
ـ ممكن .
ـ كامبي . لا شك أن لك أباً وأماً . وربما أخوة وأخوات ، باعتبار أنه سبق لك وأشرت الى أولادهم .
ـ أجل . وأنا حريص على سمعتهم . بامكانكم اعدامي . انما لن تنالوا من سمعة عائلتي .

ويجلس كامبي متعباً وتعيساً . هذا الرجل المجرم ، يحوي في قلبه شعوراً نبيلاً نحو عائلته .

بعد هذا الاستجواب العقيم ، لم يجد رئيس المحكمة بدأ من الانتقال الى سماع الشهود . وأولهم كان رئيس الشرطة ماسيه ، الذي اعترف بعجز تحرياته عن كشف هوية كامبي ، باستثناء تكهن واحد ، وهو أن كامبي ربما كان ، في فترة من الفترات ، بحاراً ، لترديده عبارات يستعملها رجال هذه المهنة . ويتقدم محامي الدفاع لسؤال الشاهد :

ـ لقد ذكر موكلي أنه كان يعرف السيد ديكرو دي سيكس فهل عثر بين أوراقه على ما يثبت ذلك؟

ـ كلا . لم يعثر على شيء من هذا .
ـ ما رأيك في البنت بيشون ، خادمة المغدورين ؟
ـ كانت ذات سلوك غريب . كما أنها حملت مرة بالحرام ، وقد عطفت عليها الآنسة ديكرو دي سيكس وآوتها . لكنها لم تنفك على الالتقاء برجال .

ويلتفت المحامي الى الخادمة ، الحاضرة في المحكمة ويسألها :

ـ كنت غائبة عن البيت أثناء ارتكاب الجريمة . اليس كذلك؟
ـ أجل . ذهبت أنزه ابني في حديقة الكوكسمبورغ .
ـ هل سبق ورأيت كامبي ؟
ـ طبعاً . رأيته في البيت .

غريب لم تذكر بيشون ذلك في التحقيق الأولي . وها هي تتابع :

ـ جاء مرة وتقابل مع السيد ديكرو دي سيكس وأعطاه ورقة عليها طابع . ولما سألت معلمتي أخاها عنه ، أجابها أنه يعرف عائلته .

سرت همهمة في القاعة . وسمع كامبي يقول : «هذا ممكن » .

وهب المدعي العام يسأل الخادمة :

ـ هل كان كامبي يعرفك؟
ـ كلا .
ـ لكنه عندما جاء لأول مرة الى بيت مخدوميك ، سأل عن أخيك اليس كذلك؟
ـ لا أعرف .
ـ كامبي كان يعرف أنك خارج البيت . كيف عرف ذلك؟
ـ لا أدري .

قالت ذلك بانفعال . في حين بادر كامبي الى القول من داخل قفصه :

ـ لقد أجابت هذه المرأة عن هذه الأسئلة تماماً كما تجيب الآن؟

هذا ليس صحيحاً ، فلماذا يعطي كامبي انطباعاً بأنه يحاول حمايتها من الانزلاق؟ ماذا بينهما؟ لا يزال الجواب واحداً من ألغاز هذه المحاكمة .

ويستدعى أخ الخادمة الذي أكد أنه لا يعرف كامبي . وكان الصدق بادياً في لهجته . ثم توالى الشهود الآخرون وجميعهم أكدوا رؤيتهم لكامبي يحوم مع شخص آخر حول منزل المغدورين فمن هو هذا الشخص؟

أحد الشهود أكد أنه يعرف شكله ان هو عرض عليه . لكن اسمه، لا يزال مجهولاً. بعد فشل جميع محاولات التعرف على هوية كامبي ، ورفيقه، وقف المدعي العام يطلب اعتبار المتهم مجرماً وقاتلاً بهدف السرقة . وطلب انزال عقوبة الاعدام فيه .

بعد انتهاء المدعي العام من مرافعته ، وقف محامي الدفاع ليقول أن موكله ينتمي الى عائلة نبيلة يتمنى أي «منا» التقرب منها . وأضاف ، أمام دهشة الجميع واستغرابهم :

ـ أنا ملزم بسر المهنة . واليوم ، جاءتني سيدة مجتمع تقول لي أن كامبي هو ابنها ، وأن لها ابنا آخر هو ضابط في الجيش . ولو أفصح كامبي عن هويته للطخ شرف العائلة وخاصة مقام أخيه . عند ذلك فان أخاه سوف يطلق النار على نفسه .

لهذا ، ظل كامبي محتفظاً بسر اسمه . أما لماذا قتل ، فلا يزال الأمر سراً وربما سيظل هكذا الى الأبد .

انتهت المحاكمة وصدر الحكم بالاعدام . وفي ٣٠ نيسان ـ ابريل من عام ١٨٨٤ ، نفذ الحكم وانطوى الى الأبد سر لم يكشف اللثام عنه .

نزوة شباب

لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية ، تشهد المحاكم الفرنسية محاكمة شابين في مقتبل العمر ككلود بانكوني وبرنار بيتي . كان ذلك في ٧ أيار ـ مايو من عام ١٩٥١ في مدينة ميلون . أكثر من خمسمائة بينهم كتاب ومفكرون وفنانون ، جاؤوا ليشهدوا المحاكمة ، مدفوعين بالفضول ربما ، ولكن ايضاً بشعور مميّز لم يكونوا ليشعروا به لو أن المتهمين في سن أكبر .

والقصة بدأت منذ ثلاث سنوات ، في شهر كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٩٤٨ ، وداخل زمرة من مراهقين كلهم تلاميذ في مدرسة جورج ساند الخاصة ، باستثناء فتاة واحدة ، نيكول ، التي تركت هذه المدرسة لتلتحق باخرى . لكن تركها للمدرسة تلك لم يؤثر على علاقتها بالزمرة ، هذه العلاقة التي ظلت على حالها كما في السابق ، بل ربما أقوى .

عام ١٩٤٨ لم يكن يبعد عن نهاية الحرب العالمية أكثر من ثلاث سنوات والمدة هذه لم تكن كافية لتمحو من الأذهان ، لا سيما أذهان المراهقين ، امثال أعضاء الزمرة ، قصص الحرب والمقاومة والاحتلال . وهي قصص بطولية تحاكي في بعض الأحيان ، السير الأسطورية . وقد كان ألان غويادير ، رئيس الزمرة والتلميذ المتفوق في صفه ، واحداً ممن حشيت رؤوسهم بالقصص تلك . ومما زاد في تأثره هذا بالاختلاقات البطولية كونه مبتلى بداء نفسي خطير هو داء الكذب . فمرة يوهم رفاقه أنه عميل سري ، وأخرى أنه تاجر أسلحة ، وثالثة أنه معشوق من اميركية ثرية . وهذا ما كان يجعل منه انساناً محسوداً من أقرانه وقد دفعتهم مشاعرهم نحوه الى أن يتحدوه وأن يقتلوه . . . هكذا بكل بساطة . لكن هذا التحدي مر عابراً في حديث سطحي بينهم ولم يترك أي أثر في نفس أي منهم ، باستثناء واحد منهم ، بانكوني كلود بانكوني .

وبانكوني هذا كان أديب الزمرة وشاعرها . صحيح أنه كان ذكياً ، لكنه لم يصل الى درجة التألق الذي كان يتمتع به غويادير . وعنصرَ المنافسة هذا لم يكن الوحيد بين الشابين ،

لقد كانت هناك ايضاً نيكول، بنت الخامسة عشرة، صديقة غرازياني، أحد أفراد الزمرة، بل وخطيبته العذرية كما كان يحلو للآخرين قوله. فنيكول، على الرغم من علاقتها المميزة بغرازياني، كانت لا توفر فرصة الا وتوزع فيها ظرفها الطفولي بين المتنافسين اللدودين.

أجل كان بانكوني يغار من غويادير. وقد اشتدت غيرته عندما سمع هذاالكذاب يتحدث عن نيته بخطف نيكول والسفر بها الى كندا. الى أن كانت صدفة مؤسفة فجرت المأساة.

برنار بيتي، أحد عناصر الزمرة، هو ابن لمفتش في الشرطة، ذات يوم، وعلى حين غرة من أبيه، سرق له سلاحه وأعطاه الى بانكوني. عندما أصبح السلاح في يد هذا الأخير، وجد نفسه في الفخ ولم يكن من «اللائق» أن يتراجع عن تنفيذ ما أطلق منذ أيام. والا، فسيكون جباناً في نظر بيتي.

مرت الأيام متسارعة وبانكوني يخطط فيها للتنفيذ ويوم الخميس، ٩ كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١٩٤٨، اقترح على رفيقه غويادير نزهة في غابة مالنو. كانت نيكول على علم بما سيحدث. ولما كانت فكرة «القتل من أجلها» قد راقت لها، فقد اشتركت في الجريمة بأن جعلت غويادير يكتب لها رسالة يعلن لها فيها عن نيته بمغادرة البلاد الى كندا. ولما كان غويادير ساذجاً وكذوباً في آن معاً، فأنه لم يكن عصياً على كتابة الرسالة المقترحة من نيكول. أما سبب سعي نيكول الى هذه الرسالة، فهو تضليل التحقيق في اختفاء غويادير المسكين.

ماذا حصل في غابة مالنو؟ لا أحد يعرف على وجه التحديد. كل ما عرف هو أن بانكوني أطلق رصاصة في ظهر رفيقه وعاد مذعوراً مما رأى وفعل، من غير أن يعرف ما اذا كانت الرصاصة قاتلة أم لا.

لم يمت غويادير على الفور، بل نقله أحد سائقي الشاحنات الى مستشفى لانيي حيث فارق الحياة بعد أن استجوبه رجال الشرطة. والغريب أنه لم يبح في استجوابه باسم قاتله. كل ما قاله هو أنه كان على موعد مع رفيقه بيتي وأنه لم يجده في المكان المحدد.

لذلك، توجه التحقيق في البدء نحو بيتي. لكن بانكوني لم يتح الوقت للمفتش، والد برنار بيتي، لأن يلاحق المجرم. فقد حضر اليه هذا ليودعه سلاح الجريمة ويعترف له بما حصل. أما برنار فقد أصر على انكار اية صلة له بالجريمة. وهذا الموقف كان مدعاة استغراب ودهشة أمام المحكمة. بدا بانكوني فتى بريئاً وتلميذاً ذا نفحة أدبية لم يكذب. اعترف بأنه كان يغار من غويادير. لم يكن يغار من غرازياني لأن علاقة هذا الأخير بنيكول كانت بريئة وعذرية. أما غويادير، فقد كان يحاول التغرير بنيكول عن طريق افساد افكارها

بقصصه البطولية الخيالية، وذلك بهدف السيطرة عليها وكسر قلب غرازياني المتعلق بها .

أما الصورة التي برزت عن برنار بيتي في المحكمة، فكانت مختلفة . لقد بدا ماكراً وعصبياً . أنكر اية علاقة له بالجريمة، باستثناء تقديم السلاح لرفيقه . أما عن مشاعره وسط الزمرة، فقد اعترف بأنه، هو وبانكوني، وكلاهما ابنا موظفين صغيرين، كانا يحسان بالنقص تجاه رفاقهما الأغنى، لا سيما غويادير، الذي كثيراً ما كان يتباهى بآلاف الدولارات التي كان يدعي امتلاكها .

عند افتتاح الجلسة في اليوم التالي، بدأ الرئيس باستكمال استجواب بيتي . وقد ظهر أنه ينوي استجلاء الدافع وراء سرقة الفتى لسلاح ابيه الأميري واعطائه الى رفيقه :

- هل كنت تعرف نية بانكوني في قتل غويادير؟
- أجل .
- هل كنت تكره غويادير؟
- لقد شتمني مرة أمام الزمرة وعيرني بفقري .

وينتقل القاضي الى استجواب بانكوني، الذي أراد أن يمثل دور الفارس ذي القلب الكبير، حين قال :

- أنا المسؤول عن كل ما جرى . واذا كنت قد ذكرت اثناء التحقيق أن بيتي ونيكول كانا على علم بنواياي، فذلك كان من قبيل اغاظتهما . والواقع أنهما لم يكونا على علم بشيء .

وأضاف أنه، هو أيضاً، لم يكن يعرف ماذا كان سيحصل في غابة مالنو . غير أن ادعاءاته هذه لم تنطل على أحد . ذلك أن التحضير للجريمة واضح في كل ما سبقها من تحركات، ابتداءً من اقتناء السلاح وانتهاء بالنزهة المدبرة، مروراً بالمتعة التي شعرت بها نيكول من علمها أن أحداً سيقتل من أجلها . لقد كان بيتي يحب نيكول . وهذا ما جعله عاجزاً عن تحمل فكرة اغواء غويادير لها . ألم يفكر باستمالة نيكول عندما حاول استئجار سيارة يتباهى بها أمامها؟ ولما لم يكن لديه المال الكافي لذلك، أبرز لها وثيقة طلب الاستئجار، وثيقة الطلب فقط . الواقع المؤلم هو أن هذا الفتى العاشق لم يكن متكافئ الفرص والامكانيات وغريمه القادر والمتعالي .

ويأتي دور الشهود ليعطوا صورة عن اهمال الشرطة والمستشفى . لقد تأخر الشرطي، الذي تسلم المغدور من سائق الشاحنة، في الاتصال بأقرب مستشفى ونقل المصاب اليه بحجة أنه اجرى استجواباً فورياً له لاستجلاء الوقائع . كما تأخر في ابلاغ ذويه، مع أنه

حصل من الفتى على عنوانهم ورقم هاتفهم . وفي المستشفى ، لم يتم الاتصال بالجراح بالسرعة المطلوبة في مثل هذه الحالات . وبكلمة مختصرة ، كان هذا اليوم يوم اللوم والاهمال ، يوم لا ينفع لوم ولا تبكيت .

في اليوم التالي ، ١١ أيار- مايو ، بدأت المحكمة بالاستماع الى الشاهد والد بيتي ، لقد حاول هذا الشرطي الذي اشيع عنه أنه وجه التحقيق الأولي لمصلحة ابنه ، أن يبرىء هذا الابن من أي ذنب . وساعده في ذلك تكاتف زملائه ، رفاق السلاح والناصرين لبعضهم البعض في الشدة . ألم يذكر أحد عناصر الزمرة أن الشرطة أوصت له بطمس حقيقة اتفاق الزمرة على قتل غويادير ، ذات يوم ؟ وها هو شاهد ثان من الزمرة ، بيرو ، يذكر أنه اضطر الى دخول المستشفى نتيجة لارهاق الشرطة له في استجوابها اياه وفرض اقوال عليه ، لم يكن ليدونها في المحضر لولا جو الارهاب والسيطرة الذي وضع فيه . وأضاف أن أحد مفتشي الشرطة جاءه ، في اليوم التالي ، الى المستشفى ليلاطفه وينصحه بعدم كشف أجواء التحقيق أمام أحد . ويكمل بيرو شهادته بتأكيد الاتفاق والتصميم على قتل غويادير بين بانكوني وبيتي .

أما الشهود الآخرون فقد ركزوا بمعظمهم ، على صورة المغدور المقيتة ، صورة من جعل رفاقه يكرهونه ويحقدون عليه . لم يكن يوفر أحداً من ادعاءاته ومغالاته . كان يظهر لهم وكأنه يتحداهم في ساحة لم يكونوا على مستواه فيها . وهذا ما كلفه ، بالنتيجة ، حياته .

حتى مدام لارو ، معلمة غويادير لمادة اللغة الانكليزية ، لم توفره في رسم الصورة اياها . لقد ذكرت كيف اتهم رفاقه بالغباء عندما سألته عن سبب توغله في الأكاذيب المثيرة للأعصاب يغرق بها رفاقه .

وانتهى ذلك اليوم بالاستماع الى شهادة والد نيكول . نيكول التي لم تظهر حتى الساعة في المحكمة ، مع أنها في قلب القضية . أو لم يقترف بانكوني جريمة قتل لاغوائها ؟

لقد دلل هذا الوالد ، من خلال ما أدلى به ، أنه مثال للأب الغائب عن كل ما يجب عمله تجاه ابنته . لا يعرف أين تذهب ولا يسأل عمن تعاشر . وأمها ليست بأكثر انتباها . ويبدو أن ذوي الزمرة بكاملها يتشابهوُن وهذين الأبوين النموذجيين .

في ١٥ أيار- مايو ، استدعيت نيكول كشاهد لا كشريك في الجريمة . ذلك أنها في حال ثبوت اشتراكها ، ستحاكم في محكمة للأحداث . وبدأت شهادتها بسرد مراحل حياتها وكيف أنها كثيراً ما كانت تفضل معاشرة الفتيان :

- كنت معجبة بغويادير . وأحب في الوقت نفسه بانكوني وغرازياني . وذات يوم ،

عرض علي غويادير أن نسافر معاً الى كندا . قبلت الفكرة لأني سمعت أشياء حلوة عن مونتريال . بانكوني لم يكن يريد هذا الرحيل . كان يحبني ويريدني له وحده .

وتكمل نيكول :

- أما عن نية بانكوني ، فلم أكن على علم بها . واذا كنت ذكرت خلاف ذلك في التحقيق لدى الشرطة ، فلأنهم هددوني .

وينهض بانكوني ليقول في قفصه :

- صحيح ، لم تكن تعرف ، اني سأقتل غويادير . انها بريئة وقد كذبت أمامكم ، أيها السادة ، عندما قلت العكس .

ويلتفت نحو والد غويادير ليقول له :

- اغفر لي يا سيدي . وانهار يبكي وتبعته نيكول في البكاء ، هي الأخرى . وكان مشهداً مؤثراً أن يرى الحضور ولدين يبكيان بهذه البراءة .

في اليوم التالي ، استمرت المحاكمة وكان لمحامي الادعاء ان يرافع . أظهر فظاعة الجريمة وكيف أن الدافع لها كان المال . لقد أغرى غويادير ، بنظره ، رفاقه بالتآمر ضده وبالتالي بدفعهم نحو الجريمة . وأنهى الادعاء المرافقة بطلب انزال اقصى العقوبات بالفاعلين والمشاركين .

لم يكن محامي الادعاء موفقاً في قوله أن دافع الجريمة هو المال . ذلك أن بانكوني ونيكول ، وربما الآخرون ، فكروا بكل شيء الا بالمال .

ويأتي في اليوم التالي ، دور محامي الدفاع ، الذي اعتبر أن فعل بانكوني انما يدخل في اطار الجرائم العاطفية . فهذا الكورسيكي لم يستطع رؤية من يحبها تفلت من بين يديه الى يدي فتى مغرور وكذوب . أراد انقاذ حبه وشرفه ، كما أراد انقاذ من يحب . وانتهى المحامي بطلب الرحمة من المحلفين .

أما محامي برنار بيتي ، فقد طالب بابراء موكله . هكذا وبكل بساطة . وقد استغرقت مرافعته خمس ساعات متواصلة ، التفت الرئيس في نهايتها الى المتهمين الأثنين ليطرح عليهما السؤال التقليدي وهو ما اذا كان لديهما ما يضيفانه . ولما جاء الجواب سلباً ، غادر المحلفون قاعة المحكمة للمذاكرة . وبعد خمسين دقيقة فقط ، كان الرئيس يلفظ الحكم ، السجن عشر سنوات لبانكوني وخمس لبرنار بيتي . أما نيكول ، فقد أصدرت محكمة الأحداث فيما بعد الحكم عليها بالسجن لمدة ثلاث سنوات .

ونهاية القصة هي أن بانكوني ونيكول عادا والتقيا بعد انتهاء مدة حكمهما ليتزوجا ويؤسسا عائلة سعيدة .

أنطوان برتيه
جوليان سوريل الحقيقي

على الرغم من البرد القارس الذي كان يلفح مدينة غرينوبل الفرنسية في ذلك اليوم من أواسط أيام كانون الأول - ديسمبر ١٨٢٧، فقد اكتظ الجمهور أمام قصر العدل هناك وكلهم رغبة في مشاهدة محاكمة انطوان برتيه، المتهم بقتل زوجة مخدومه في الكنيسة اثناء القداس، والأمر الذي كان يجهله الجميع، هو أن هذه الجريمة ستكون في يوم من الأيام، أساساً لواحدة من اعظم روايات الأدب الفرنسي، «الأحمر والأسود» للكاتب الشهير ستاندال.

نعم، هذا المتهم النحيل الشاحب، الماثل امام المحكمة في قفصه، هو بطل الرواية جوليان سوريل. كما ان المغدورة، مدام ميشو، هي مدام رينال، بطلة الرواية.

ولد المتهم في قرية برانغ في ٤ آذار - مارس ١٨٠١ وسط عائلة كثيرة العدد، فقيرة، لكنها حسنة السمعة. منذ نعومة أظفاره، كان يبدو هادئاً ورزيناً. وهذا ما دفع كاهن القرية، ميشو، لأن يهتم بتعليمه اللاتينية. بعد ذلك، استقر الرأي على أن يتوجه انطوان نحو سلك الكهنوت. وكان هذا مدعاة لفرح العائلة، وابتهاجها، لم لا والكهنوت، في ذلك العصر، كان يتيح المجال للتألق الاجتماعي، وهو ما تفتقر اليه العائلة بوضعها الحالي؟ في سنة ١٨١٩، وكان أنطوان في الثامنة عشرة، أدخل دير غرينوبل. مكث هناك ثلاث سنوات، أعتلت خلالها صحته فغادر ليدخل عام ١٨٢٣، في خدمة السيد لويس ميشو، أحد أقرباء الكاهن.

ولويس ميشو هذا ثري وملاك بالاضافة الى انه مختار القرية وبيته اجمل بيت في برانغ. أما انطوان، فقد دخل في خدمته بصفته معلماً لأولاده. لكنه، ولكثرة ما كان يتردد عند العائلة لتعليم اولادها، ما لبث ان وقع في غرام أمهم الجميلة ذات الثلاثة وثلاثين ربيعاً. وبعد سنة، ترك انطوان بيت ميشو ليلتحق مرة اخرى بدير بيلي في بيزنسون. ترك، ربما لأن علاقته بسيدة البيت اكتشفت وبدأ اللغط يدور حولها. غير انه لم يمكث طويلاً في

هذا الدير لعدم توافر«الاستعدادات» اللازمة لديه ليكون رجل دين، كما ذكر في حينه.

ويبدو ان التاريخ اعاد نفسه. بعد تركه دير بيلي، دخل انطوان بـرتبه في خـدمة الكونت دي بار كمعلم لأولاده، ومرة اخرى يعيش مغامرة داخل البيت، انما مـع ابنة صاحبه، هنرييت.

افتضح امر انطوان عندما حملت هنرييت منه. وقد تم الاتفاق بينه وبين الكونت على الزواج من الابنة العشيقة. وبعد أن كاد هذا الزواج، الموفق بنظر انطوان بسبب الفروقات الاجتماعية بينه وبين عائلة الكونت، ان يتم، اذ بأخبار تصل الى اذني الكونت عن سوء سمعة العريس، فيعدل عن رأيه. من الذي اوصل الى الكونت اخباراً سيئة عن انطوان؟ لا بد، بنظر هذا الاخير، ان يكون هذا الواشي مدام ميشو، عشيقته السابقة، التي لا يزال يحبها، والتي تعيش مغامرة جديدة مع معلم اولادها الجديد، جاكين، واحد رفاق انطوان في دير غرنوبل.

تفاعلت مشاعر انطوان السلبية نحو عشيقته الاولى. كان يعتقد أنها تزمـع افساد حياته. كتب اليها الرسالة تلو الرسالة يهددها فيها بالكف عن مضايقته وتشويه سمعته. الى أن كان يوم الأحد ٢٢ تموز ـ يوليو ١٨٢٧.

في ذلك اليوم تعقب الجاني عشيقته. وعندما رآها تدخل الكنيسة، لحق بها وجلس وراءها. وما أن بدأت الجوقة بالترتيل، حتى اخرج مسدساً واطلق النار عليها. خرت على الأرض مضرجة بدمائها. أما هو، فقد أخرج مسدساً آخر واطلق النار منه على نفسه محطماً فكه. لم يمت احد من الاثنين وقد كان هذا في حد ذاته معجزة.

تلك هي الوقائع، أما الدوافع، فهي مزيج من الحب الفاشل والطموح المحطم وربما اشياء اخرى سنرى ما اذا كانت المحاكمة ستظهرها.

في بداية الجلسة، وقف المدعي العام يفند مخازي المتهم ابتداء من عـلاقاتـه غير الشرعية في بيوت أمنه أصحابها على دخولها، وانتهاءً بجريمته البشعة تجاه معشوقته وتجاه نفسه. طوال مرافعة المدعي العام، لم ينبس الجاني ببنت شفة. ظل صامتاً في شحوبـه ونحوله. ولما جاء دور شهود الاثبات، تبين ان مدام ميشو لم تحضر بسبب عدم تمكنها من مغادرة فراشها. فقد كانت لا تزال تعاني من جروحها. وهكذا بدأت المحاكمة بخيبة امل لدى الحضور. منهم لم يأتوا الا ليشاهدوا المقابلة بين العاشقين.

بعد ذلك ، سأل الرئيس المتهم :

ـ منذ متى صممت على قتل مدام ميشو ؟

ـ منذ بداية شهر تموز ـ يوليو ، عندما توجهت الى ليون لشراء المسدسين. لكني ظللت حتى آخر لحظة متردداً بين فكرة الانتحار وفكرة قتل مدام ميشو قبل الانتحار.

ـ ألم تشعر بالزوغان وأنت في طريقك الى برانغ لتنفيذ مخططك؟

ـ أجل يا سيدي، لقد اضعت طريقي كما شعرت باختلال في نظري.

وعندما جلست خلف مدام ميشو، كنت كما في حلم، كذلك، وفي لحظة من اللحظات احسست برغبة في الانتحار، دون أي شعور آخر. غير اني تذكرت بعدها ان مدام ميشو ستكون لعشيق آخر، جاكين، ان هي ظلت على قيد الحياة، فوجهت المسدس نحوها واطلقت النار على ظهرها.

ـ ألم تشعر بوخز في ضميرك بعد اقترافك الجرم؟

ـ أجل، كان أول ما فكرت به هو الاستفسار عن مدام ميشو. حتى اني على استعداد لاعطائها بقية ايامي اذا كان هذا يساعد في شفائها.

ويبدو ان انطوان اثر في الحضور. لقد ظهر انه نادم فعلاً. ومما زاد في هذا الانطباع، تأكيد الدكتور مورين، الذي قام بمعالجة الضحية والجاني من جروحهما اثر الحادث.

وخيم الصمت في القاعة عندما استدعي السيد ميشو للشهادة. وتساءل الجميع في قرارة انفسهم عما سيكون جوابه عن السؤال الخاص بسلوك زوجته مع المتهم.

بدأ الشاهد بإعطاء لمحة عن الفترة التي دعا فيها السيد برتيه لتعليم اولاده. في البداية، كان كل شيء على ما يرام. الى ان كان يوم اعلن فيه المتهم عن نيته بترك عمله ليلتحق بأحد الأديرة. وهنا يكمل الشاهد على الشكل التالي:

ـ اثر ذلك، اخبرتني زوجتي ان هذا الرجل حاول اغواءها، ضغطت على نفسي ولم افاتح برتيه بالامر وفضلت انتظار رحيله الذي تم في تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٨٢٣.

وعاد الحاضرون الى التساؤل فيما بينهم: لماذا أسرت السيدة ميشو الى زوجها بعلاقتها ببرتيه وهو الجاهل لتلك العلاقة؟ لماذا قرر برتيه ترك عشيقته والذهاب لاكمال دروسه في الدير؟ هل ان طموحه تغلب على رغبته؟ ثم، ماذا بقي من هذا الغرام ليكون، كما ادعى، المحرك والدافع للجريمة؟

تساؤلات تضاعفت بمعرفة الجميع ايضاً ان المتهم عاد الى بيت ميشو بعد فترة من مغادرته له. وعندما وجد معلماً آخر يحتل مكانه امام الأولاد و، ربما، في قلب السيدة ميشو،

ارسل لها كتب التهديد. وقد افشت أمر هذه الكتب الى زوجها الذي منع العاشق من دخول بيته. وهنا يبرز تساؤل قد يكون الأخير. لماذا عاد المتهم الى رسائله التهديدية بعد ان كان قد انقطع عنها اثر تهديد الزوج له، وكذلك بعد ان كان قد اصبح على علاقة بهنرييت، المرشحة، في وقت من الأوقات، للزواج منه؟

ما أن انتهى السيد ميشو من شهادته، حتى وقف المتهم ليصيح في داخل قفصه:

- لا شيء أكذب من هذه الشهادة! وأؤكد انني لم انقطع عن العلاقة بعشيقتي. حتى انها حذرتني يوماً بأن لا أغالي بمراسلتها من الدير لأن احدى الخادمات عرفت بالأمر وابلغته الى زوجها.

وهنا يشير السيد ميشو برأسه نافياً هذه المزاعم. فمن يا ترى نصدق؟ ويكمل برتيه أمام المحكمة:

- وذات يوم، صممت على الاعتراف فكتبت للسيد ميشو رسالة كاشفته فيها بتفاصيل علاقتي بزوجته.

ويسأله الرئيس هنا حول علاقته بهنرييت فيجيب:

- علاقتي بهنرييت كانت علاقة شريفة. كيف لا وأنا معلم بسيط في مواجهة بنت كونت كبير؟

لكن هذه العلاقة الشريفة لم تمنع الفتاة من ان تصبح حاملاً ومن ان يطرد الكونت المعلم من بيته، لدرجة انه لم يتح له المجال لحمل حقيبته التي كانت تحوي رسائل مدام ميشو.

وتوالى الشهود ومنهم الأب فيال، الذي حل محل برتيه ككاهن لقرية برانغ، والذي لم يدل بما يمكن اعتباره مهماً. أما الشاهد الأهم في هذه القافلة فهي مدام مارينيي، صديقة المغدورة. قالت ان المتهم بعث اليها برسالة طلب فيها منها التوسط لدى مدام ميشو لتعود اليه وتترك المدرس الجديد، والا فانه قد ينتحر. ثم جاءها يوماً الى بيتها وقال لها انه سيذهب الى ليون ليشتري مسدساً يقتل به عشيقته يوم الأحد لكن الأحد مر ولم ينفذ برتيه ما ازمع عليه. وعندما سأله المدعي العام عن سبب تأجيل القتل، قال له ان السيد ميشو وعده بإيجاد عمل له كمدرس لدى عائلة في القرية وكان ينتظر تنفيذ الوعد. غريب! يريد أن يقتل ويؤجل ذلك اسبوعاً الى ما بعد الاستفادة من زوج القتيل!

ما أن انتهت مدام مارينيي، من شهادتها حتى كانت الساعة قد دقت الثانية بعد الظهر. عندها، رفع الرئيس الجلسة.

وحوالي الرابعة من بعد ظهر اليوم نفسه، وقف المدعي العام ليرافع. كانت مرافعته قصيرة، ركز فيها على سبق التصور والتصميم. ثم انهى كلامه بالطلب الى المحلفين انزال أقصى العقوبة واشدها.

بعد ذلك ، جاء دور الدفاع. ولم يكن المحامي هو الذي تكلم، بل المتهم نفسه. استعرض، على ورقة كان قد قام بتحضيرها في زنزانته، للمرحلة الأولى من حياته، كانت صحته معتلة ولم يتمكن من امتهان عمل ابيه الحداد. لذلك، وبعد معاناة مادية ونفسية، توجه نحو التعليم. لم يتعود أن يهتم به أحد، الى أن أحس باهتمام مدام ميشو. كانت جميلة وجذابة. هذه المرحلة ايقظت في داخل الشاب مشاعر حلوة لم يحسّ بها من قبل. واشتد تعلق كل واحد منهما بالآخر. كانا لا ينفكان يتبادلان اطراف الحديث في جوّ من الانسجام في البدء، انقلب فيما بعد الى غرام جامح. لقد اقسمت له على صليب معلق على الحائط بأن لا تخونه. لكنها . . . خانته. وكان هذا الحنث باليمين بداية نهايتها.

استمع الجميع بصمت مطبق الى برتيه يقص التفاصيل. وقد أحسوا ان تصميمه على الانتقام كان يتخمر ويكبر يوماً بعد يوم. كما أحسوا انه لا يشعر بأي ندم على فعلته. وقد تأكدهذا الاحساس في بقية القصة. لم يكن هذا العاشق ليستطيع تحمل وجود غريم له، المعلم الجديد لأولاد مدام ميشو. يضاف الى ذلك ان الابواب اوصدت في وجهه. فالدير الجديد لم يقبل به. والعودة الى اهله الفقراء مستحيلة. ما العمل؟ الانتقام ممن أقسمت على الاخلاص ولم تخلص. ولما كان قسمها على الصليب، فقد كان اختيار الكنيسة مكاناً للانتقام هو ما يجب ان يكون.

وانتهى المتهم متعباً ليقف محاميه ويجد له العذر بالضياع والزوغان. لم ينكر أن موكله اقترف الجريمة. لكنه حاول ايجاد الأسباب التخفيفية له من خلال عذابه وضعفه البشري. ولعل تصميمه على الانتحار مباشرة بعد اطلاق النار على معشوقته، خير دليل على انهيار مقاومته، ولم يكتف المحامي بطلب الرحمة، بل توصل الى ان يطلب البراءة الكلية الى موكله.

لم تطل المذاكرة. خرج المحلفون ليعلنوا على وجوههم قبل افواههم حكم الاعدام، الذي سمعه برتيه بصمت وشحوب.

الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر يوم ٢٢ شباط ـ فبراير من عام ١٨٢٨ ، أي بعد شهرين من صدور الحكم، اقتيد برتيه الى ساحة غرينيت في غرنوبل، حيث انتصبت المقصلة. وما هي الا لحظات اعقبت وصوله الى الساحة وصعوده المنصة، حتى كان رأسه يتدحرج مضرجاً بدماء غزيرة قانية.

أعدم برتيه وظل السؤال التالي دون جواب: هل كانت مدام ميشو على علاقة بمعلم أولادها؟ بعد شفائها من جروحها، لم تعش هذه المرأة أكثر من ثلاث سنوات تلت موت برتيه. ماتت في شهر تشرين الأول ـ اكتوبر سنة ١٨٣١.

مات برتيه تاركاً ابنه التي ولدته الآنسة كوردون، ابنة الكونت. جرت الولادة في سرية تامة. هذا الولد شب ليصبح فيما بعد «الأب كميل». وقد نجح الابن في أن يصبح راهباً كبوشياً، حيث لم يتمكن الأب من ذلك.

غورغولوف

من الحوادث التي سجلها التاريخ المعاصر، تلك التي وقعت يوم السادس من شهر أيار ـ مايو في عام ١٩٣٢ في فندق سالومون دي روتشيلد في باريس. وصل رئيس جمهورية فرنسا بول دومير في ذلك اليوم الى الفندق محاطاً ببعض أركان الدولة ليفتتح المزاد السنوي لعصبة الكتاب المحاربين. وما أن وصل الى البهو، وسط حشد من المصورين، حتى سمع المصور طلقة رصاصة اخترقت الأسماع. لم تكن هذه الرصاصة صائبة. لكن الثانية ثم الثالثة اخترقتا تباعاً منطقة الأذن اليسرى للرئيس والابط. ولما هرع الحرس للامساك بالجاني، كانت رصاصة رابعة تنطلق لتمزق ذراع أحد الكتاب، كلود فارير.

نقل الرئيس على الفور الى المستشفى، حيث لم يتمكن من مقاومة جروحه القاتلة. أما الجاني فهو لاجىء روسي يدعى غورغولوف. وعندما أحضر أمام مدير الشرطة للتحقيق، كان يدندن لحناً من بلاده وهو يردِّد: «كم أنا مرتاح الآن . . . عملت هذا من أجل بلدي. كان على فرنسا عدم الاعتراف بالبولشفيك».

بعد شهرين ونصف من الحادث، واثر انتهاء التحقيقات الاولية، التأمت المحكمة في ٢٥ تموز ـ يوليو للنظر في القضية. بدأت الجلسة بقراءة قرار الاتهام . . . ومن ثم وقف محامي الدفاع ليقول ان موكله لا يتمتع بكامل قواه العقلية، ولذلك، فهو يطلب عرضه على ثلاثة اطباء اختصاصيين بالأمراض العقلية. لكن طلبه رفض. عندها، وقف المتهم في قفصه ليصرخ:

ـ اطالب بالعدالة . . .

ويرد رئيس المحكمة عليه قائلاً :

ـ ستنالها بعد قليل.

ويبدأ الرئيس بسرد مراحل حياة غورغولوف من خلال معلومات تجمعت بواسطة مختلف دوائر الشرطة في بعض بلدان اوروبا.

عمر المتهم سبع وثلاثون سنة وهو ابن فلاح قوقازي. عام ١٩١٤، اشترك في الحرب وجرح جرحاً بليغاً في رأسه ترك لديه ذيولاً سيئة. لكن هذه الذيول لم تحل دون دراسته الطب ودون زواجه فيما بعد. في هذه المرحلة، كان يعيش في روستوف. وهناك، شغل منصب رئيس مكتب الشرطة السياسية المحلية، التشيكا، وقد اصبحت شرطة النظام الشيوعي الجديد بعد انتصار ثورة اوكتوبر ومجيء الشيوعيين الى الحكم. بعد فترة ولاسباب لم تتوضح، فرّ غورغولوف الى بولونيا واستقر في فرصوفيا، حيث تزوج ثانية من ابنة احد الحلاقين التشيكوسلوفاكيين. اثر هذا الزواج، غادر مع عروسه الى براغ، واستقر فيها تسع سنوات لم تكن حياته فيها على ما يرام. خلال هذه الفترة، أسس حزباً سياسياً مناوئاً للشيوعية لدرجة الفاشستية، سماه الحزب الأخضر تيمناً بخضرة الطبيعة، كما أوضح خلال تحقيقات الشرطة معه. وفي خضم انشغالاته الحزبية والسياسية، تزوج مرة ثالثة. عام ١٩٣٠، اتهم بممارسة الطب بشكل غير شرعي وبالقيام بعمليات اجهاض غير قانونية، فغادر تشيكوسلوفاكيا الى فرنسا، حيث تزوج من رابعة هي ابنة احد التجار السويسريين. والعروس الجديدة تملك بعض المال. هذا المال مكنها وزوجها من الانتقال الى موناكو. لكن سرعان ما بدد غورغولوف مال زوجته في اللعب وكذلك في الانفاق على نشر كتاباته الثورية.

وما أن حل شهر أيار ـ مايو عام ١٩٣٢، حتى كان الزوجان مفلسين بشكل كامل. هنا، ترك غورغولوف زوجته ليسافر الى باريس، حيث اشترى مسدسين، وعندما القي القبض عليه اثر اغتياله الرئيس، وجد في حوزته دفتر كتب عليه بخط يده: «مذكرات الدكتور غورغولوف، رئيس الحزب الفاشستي الجمهوري الروسي، والذي قتل رئيس جمهورية فرنسا . . . وهذا يعني ان سبق التصور والتصميم متوافر في الجريمة. ولكن هل يجب هذا العنصر امكانية وجود الجنون؟ هذا ما ستحاول المحكمة استجلاءه في خلال مراحل سير المحاكمة.

بينما كان الرئيس يتكلم ، كان غورغولوف لا يفتأ، بين الحين والآخر، يهز رأسه مبدياً عدم الموافقة. كان يبدو في القفص وكأنه بطل من أبطال المصارعة في فترة استراحة بين جولة واخرى. هذا الانطباع يبرزه جسمه الضخم وتقاطيع وجهه.

ويبدأ الرئيس بالتحدث عن الضحية. رجل في الخامسة والسبعين من عمره امضاها بشكل مثالي. سأل المتهم:

ـ لماذا قتلته وانت تعرف انه قدم اربعة من اولاده، لا من اجل فرنسا وحدها، بل من اجل قضية الانسان في العالم اجمع. ومنه روسيا، بلدك الذي تدعي محبته؟

ـ انا لم اقتل بول دومير. أنا قتلت رئيس الجمهورية. والأمر يختلف.

ـ لكنه ليس هو الذي يرسم سياسة فرنسا، بل الذي يرسمها هو مجلس الورزاء...

يبدو أن المتهم لم يفهم المقصود بهذه التفرقة. ولما لم يعد لرئيس المحكمة من اسئلة يطرحها عليه، فقد انتهز المتهم الفرصة لينطلق في شروحات وتبريرات لعمله، قال:

ـ لم انتم أبداً الى التشيكا. أما في تشيكوسلوفاكيا، فقد كنت في جحيم. كان الجميع شيوعيين..

وقد أحاطوني بمؤامراتهم ودسائسهم. عندها، فكرت ان فرنسا هي البلد الوحيد الذي يمكنني من ان أمارس نشاطي الرامي الى محاربة البولشفيك وطردهم من بلدي. لكن أملي خاب. فقد رفضت السلطات هنا منحي صفة المواطنية الفرنسية!.

ويتوقف لحظة ليستمر بحماس أكبر:

ـ ان اطلاق النار على الرئيس دومير هو بمثابة الاحتجاج المتفجر من مئة مليون فلاح روسي. لقد قتلتم افكاري، ايها السادة، فاقتلوني انا. لا هم. أنا الآن لست سوى جثة. لقد انصعت لأوامر الحاكم الذي يكمن في داخلي والذي قال لي: «ضحّ بنفسك يا بول، تنقذ شعب روسيا!».

خلال حديث غورغولوف هذا، كان الانطباع انه لن يسكت قبل مرور ساعات. لكنه سرعان ما سكت وجلس، وتطلع الحضور بعضهم الى البعض الآخر مستفسرين سلوك هذا الرجل ومتسائلين عما اذا كان به مس من جنون او طرف من خبل.

وتبدأ الجلسة الثانية في اليوم التالي، يوم ٢٦ تموز ـ يوليو سنة ١٩٣٢، بالاستماع الى شهادة مدير الشرطة الذي القى القبض على الجاني اثر حصول الحادث. بدأ برسم صورة التفاصيل. لكنه ما لبث أن انحرف عن خطه كشاهد ليبدي رأيه الشخصي بالمتهم مؤكداً انه ليس مجنوناً. بل يمثل دور المجنون. وعندما احتج محامي الدفاع، طمأنه الرئيس قائلاً ان على الشاهد ان يذكر ما يعرف ويحتفظ بآرائه الشخصية.

ويتوالى الشهود وجميعهم لم يأتوا بجديد. الى أن جاء دور الشاهد الروسي لازاريف، الذي سبق واعطى التحقيق معلومات عن المتهم خلال فترة ترؤسه للتشيكا، يوم كان في روستوف.

وهكذا يؤكد لازاريف انتماء غورغولوف الى الحزب الشيوعي، في حين لم يفتأ يدعي محاربة الشيوعية. كما يذكر كيف وقع في أيدي هذا المتهم واعوانه من الشرطة السياسية!

عندما جرح وادخل المستشفى اثر معركة اشترك فيها مع الجيش الابيض ضد البولشفيك واضاف :

ـ لقد أحرقوا قدمّي بالشمعة وغرزوا الابر في اصابعي . والرجل الجالس في القفص أمامكم كان شاهداً على كل هذا!

ويسأله الرئيس :

ـ هل كان اسمه يومذاك غورغولوف ؟

ـ كلا ، كانوا يدعونه في روستوف الرفيق مانفال. أعرفه جيداً. انه هو، هو الذي واصل تعذيبي مدة سبعة اشهر. انت لا يمكنك يا سيدي ان تتخيل كيف يكون الارهاب الاحمر.

وينتفض غورغولوف مزمجراً :

ـ هذا الرجل يكذب . كم قبض حتى يتلفظ بهذه الافتراءات؟ أنا لم أنتم في حياتي الى التشيكا. أطالب بمحاكمته بجرم الشهادة الكاذبة .

ثم يأتي شاهد آخر، هو ايضاً روسي أبيض ويدعى كوزوسكي . لقد أكد هذا بدوره معاناته التعذيب الفظيع على يد غورغولوف. وعندما وقف هذا الأخير محتجاً ونافياً، أمره الرئيس بالسكوت.

من يمكن ان يكون هذا الرجل؟ مجنون، أم عميل شيوعي؟ هذا ما ستحاول المحكمة معرفته من خلال الاختصاصيين في الأمراض العقلية. لقد ادلى هؤلاء، الواحد تلو الآخر، بمعلوماتهم التي تفيد بأن المتهم يشكو من بعض الخلل في التوازن العقلي والاستواء الشخصي . لكنهم أجمعوا على أنه مسؤول عن أعماله. وبعد الانتهاء من الادلاء بهذه المعلومات العلمية، كانت الجلسة قد استمرت خمس ساعات، فرفعها الرئيس لتعقد في اليوم التالي.

في ذلك اليوم، بدأت الجلسة في جو مضغوط. لقد كان الحضور يحسون في قرارة انفسهم ان حبل المشنقة يلتف حول عنق الرجل. والأمل الضعيف الوحيد في الانقاذ هو اقتناع المحلفين بالجنون.

أول شاهد مثل يومذاك كان صاحب المقهى الذي امضى فيه غورغولوف ساعات طويلة قبل مغادرته له لاقتراف جريمته. لقد ذكر هذا الشاهد ان المتهم شرب حتى ثمل، وطريقة شربه كانت عصبية، لدرجة انه لفت انظار الحاضرين من زبائن ومستخدمين.

أما الشاهد الثاني فكان أخا زوجة المتهم. لقد أكد هـذا ان صهره رجـل مستقيم ودمث لكن قراءاته، كما ذكرت زوجته، كانت كثيراً ما تبلبل افكاره.

والشاهد الثالث كانت زوجة المتهم. هذه المرأة لم تستطع الادلاء بشهادتها من فرط انفعالها وتأثرها. وما ان انسحبت وهي تجهش بالبكاء، حتى وقف المدعي العام يصب اتهاماته على غورغولوف وينعته بأبشع النعوت:

ـ ليس صحيحاً ان الجاني كان يزمع الموت بعد قتل ضحيته. لو كان هذا مرماه لما استحوذ على مسدسين محشوين حتى النهاية، ولما حاول الافلات من الناس ومن الحرس. لذلك، فهو يستحق الاعدام.

بعد المدعي العام، وقف محامي الدفاع ليفاجىء المحكمة بتقرير طبي اعطي للمتهم منذ اربع سنوات في تشيكوسلوفاكيا، وفيه يتبين انه مصاب بمرض السيفليس. وهذا المرض الزهري شأنه، في مرحلة من مراحله، ان يحدث خللاً عقلياً أكيداً.

اذاً، غورغولوف لا يتمتع بقواه العقلية. بقي على المحامي ان يدحض فكرة سبق التصور والتصميم هنا. ربط المحامي بين نية المتهم التخلص من فكرة القتل وبين شربه في المقهى حتى السكر الشديد. أليس هذا دليلاً على أن المتهم لم يكن يريد تنفيذ ما «فكر» به وان الأمر لم يعـد كونه نية عابرة؟

وبمرافعة محامي الدفاع، انتهت المحاكمة، ودخل المحلفون غرفة المذاكرة ليخرجوا منها بعد عشرين دقيقة فقط ومعهم حكم الاعدام.

في السجن، وقبل ان يعدم، كتب غورغولوف بغزارة، كتب الى رئيس الحكومة والى ملك انكلترا والى زوجته التي افرحته جداً عندما زفـت له انها حامل. اوصاها ان تربي ابنها على زعامة حزب الخضر. كما اوصى محاميه ان ينشىء الابن على كره البولشفيك.

ويوم ١٤ أيلول ـ سبتمبر من عام ١٩٣٢، نفذ الحكم. والمؤلم في هذا التنفيذ هو ان رقبة غورغولوف الضخمة لم تدخل في كوة المقصلة، مما استلزم ادخالها بالقوة. وهذا ما جعل اللحظة السابقة لهبوط فأس المقصلة رهيبة. مات غورغولوف. مات وهو يصرخ: «واروسياه».

غاري باورز

كان يوم ١٧ آب ـ أغسطس من سنة ١٩٦٠ يوماً مشهوداً في موسكو. فقد تجمع فيه ما يزيد عن الف وخمسمائة شخصية تحت قبة قاعة بيت النقابات ليشهدوا محاكمة مثيرة تتولاها المحكمة العسكرية العليا لاتحاد الجمهورية الاشتراكية السوفياتية والمسماة ايضاً محكمة التعايش السلمي والتجسس بين القوى العظمى.

في أول ايار ـ مايو، قبل ما يقرب من ثلاثة اشهر ونصف، اسقطت الدفاعات الجوية السوفياتية طائرة حربية اميركية كانت تحلق فوق اراضي الاتحاد السوفياتية. الطائرة من طراز يو ٢ وهي مختصة بالتجسس على ارتفاع شاهق. لقد تحطمت الطائرة، لكن قائدها نجا وهبط بمظلته في احد الكولخوزات، حيث احتجزه الاهالي وسلموه للسلطة.

آنذاك، اعلنت الولايات المتحدة الاميركية ان طائرتها ضلت طريقها. لكنها ما لبثت ان اعترفت بان الغاية من هذا التحليق هي مراقبة الأراضي السوفياتية من الجو وعلى وجه التحديد، كشف المراكز العسكرية فيها. وكان نتيجة ذلك ان انفجرت ازمة سياسية حادة بين البلدين اعادتها الى اجواء الحرب الباردة لسنوات ما بعد الحرب. كما ان القمة التي كانت ستجمع ايزنهاور وما كملن وخروتشيف قد نسفت.

في هذه الاجواء ستجري محاكمة الطيار. والغريب ان الاتحاد السوفياتي على غير عادته في مثل هذه الحلات، فتح كل مضخاته الدعائية بان جعل المحاكمة علنية وفي تلك القاعة الضخمة في بيت النقابات وامعاناً في الخط الدعائي سمح لعائلة المتهم بان تحضر وقد خصصت لها اماكن في الطابق العلوي في القاعة.

جلس فرانك باورز في القفص، كان يبدو وسيماً وممتلئاً بالشباب والصحة. اما رأسه الكبير والمضغوط فلم يكن يعطي الانطباع عن ذكاء حاد، او عبقرية خاصة.

بعد عرض طويل لتصرفات قادة البيت الأبيض «الرعناء» ضد الاتحاد السوفياتي

ومساعيه الحثيثة من اجل السلام، انتقل قرار الاتهام الى المتهم نفسه. ذكر القرار ان غاري باورز تطوع في الجيش عام ١٩٥٠ وفي عام ١٩٥٦ وقع الاختيار عليه ليقوم بمهمات خاصة على طائرات من نوع خاص تحت امرة عقيد يدعى شلتون. في ٢٧ نيسان ـ ابريل في سنة ١٩٦٠ وصل الى باكستان حيث انطلق منها ليحلق فوق حدود الاتحاد السوفياتي وكان عليه ان يهبط في بودو في النرويج بعد ان يكون قد قام بتصوير عدد من المطارات ومحطات الرادار الروسية.

عندما وصل الرئيس الى هذه النقطة من القرار، التفت المدعي العام نحو المتهم ودار بينهما الحوار التالي:

ـ متهم باورز، هل ادركت الاتهامات الموجهة ضدك؟

ـ نعم

ـ هل تعترف بذنبك؟

ـ نعم

ـ هل كنت تعرف بعد ان وصلت الى باكستان ان عليك ان تحلق فوق اراضي الاتحاد السوفياتي.

ـ لا. لم أكن اعرف.

ـ الطائرة يو ٢، ما هي؟

ـ انها طائرة خاصة بالتحليق على ارتفاعات شاهقة.

ـ هل هي طائرة حربية؟

ـ لا أستطيع ان أقول ما اذا كانت حربية ام لا كل ما اعرفه هو انها تستعمل للاستكشاف في الاجواء المرتفعة.

ـ انت تنتمي الى وحدة عسكرية. اليس كذلك؟

ـ وحدتي التي انتمي اليها يتولاها عسكريون، لكن فيها كثير من المدنيي.

ـ هل كانت طائرتك تحمل اشارات مميزة؟

ـ لم ألاحظ شيئاً من هذا.

ـ لماذا لا تحمل مثل هذه الاشارات؟

ـ لست متأكداً من انها لا تحمل.

ـ ذكرت في التحقيق ان عدم وجود اشارات على الطائرة ربما كان لاخفاء هويتها.

ـ لا أذكر ما اذا كنت قد قلت ذلك.

ـ هل امرك الكولونيل شلتون بعدم الهبوط في مطار سوفياتي اذا ما طرأ عطل في طائرتك؟
ـ اجل لقد أمرني بذلك.

بعد ذلك، بدأ المدعي العام هجوماً صاعقاً على شلتون الذي «اقترن» اسمه بكثير من أعمال التجسس والتخريب ضد الاتحاد السوفياتي، وأمام خرائط فتحت امام باورز، بدأ هذا يعطي الايضاحات عن مهمته فوق الاراضي السوفياتية مبيناً المواقع التي امر من قبل رؤسائه بتصويرها. وسأله المدعي العام:

ـ هل تعطينا اسماء رؤسائك؟
ـ اجهل اسماء معظمهم وكذلك صفاتهم.
ـ كيف كنت تشعر وانت فوق أراضينا؟
ـ كنت احس بأن أعصابي مشدودة.
ـ لماذا؟
ـ لمجرد تفكيري بأني فوق أراضي الاتحاد السوفياتي. كنت اقول في نفسي ليتني لا أكرر هذا.
ـ هل تعترف بان عملك هو عمل تجسسي؟
ـ اعتقد.

الساعة قاربت الثانية بعد الظهر. هنا رفعت الجلسة لتستأنف بعد ثلاث ساعات بمرافعة محامي الدفاع. وهذا المحامي هو سوفياتي ويدعى غرينيف. ذلك ان الحكومة السوفياتية رفضت ان يتولى الدفاع محام اميركي.

جهد غرينيف وفي الحدود المرسومة له بابراز ان موكله جندي يقوم بتنفيذ أوامر رؤسائه. وسؤاله الأول انطلق من هذا الاطار:

ـ هل ترك لك الخيار في المهمة التي أوكلت اليك؟
ـ كلا. لقد صدرت الأوامر لي. وكان علي أن أنفذ.
ـ هل كان باستطاعتك ان ترفض؟
ـ لا أبداً.
ـ عندما احاط بك الفلاحون عند هبوطك، هل عاملوك معاملة حسنة؟
ـ كنت طوال وجودي معهم، اعامل بشكل جيد.
ـ وبعد ذلك، في السجن، هل تعرضت للتعذيب؟
ـ كلا. علماً بأني كنت في فترة من الفترات، اخشى ان اتعرض لبعض التعذيب لكن هذا الوهم سرعان ما تبدد.

وجلس المحامي ليبدأ رئيس المحكمة بالكلام:

ـ هل كنت تدرك ان تحليقك فوق اراضي الاتحاد السوفياتي كان من شأنه نسف القمة المزمع عقدها بين رئيسي بلدينا؟

لم يجب باورز. لقد فوجيء بالسؤال. كذلك فانه لم يسبق له ان ربط بين الأمرين. وطرح عليه الرئيس سؤالا آخر:

ـ هل تعتقد انك بعملك هذا قد أديت خدمة لبلدك؟
ـ كلا.
ـ هل انت نادم؟
ـ اجل. كثيراً. فقد أدركت كم كنت سيئاً بمساهمتي في توتير الاجواء العالمية.

لقد احسن باورز صنعاً باعطائه مثل هذه الاجابات. وبذلك كان متهما مثالياً يستطيع كيف يتجنب «المعسكر الخاص» والاهوال التي يعانيها عادة نزلاؤه في الاتحاد السوفياتي. ان فهمه لما اوصي له به انقذه من سوء المصير.

اليوم الثاني للمحاكمة خصص لسماع الشهود. وهؤلاء يتألفون بصورة خاصة من خبراء عسكريين ومن فلاحين ممن احتجزوا باورز عند هبوطه في احد الكولخوزات. في تلك الساعة عثر مع باورز على ٧٥٠٠ روبل وعلى دولارات وليرات ذهبية نابوليونية. كذلك عثر معه على ساعات وثماني خواتم ذهبية.

التفت المدعي العام الى المتهم وقال له بلهجة قاسية:

ـ هذه الاشياء كانت مخصصة لافساد من كان من الممكن ان يحتجزوك. لم يحتج المتهم. كان الأمر واضحاً ولا يقبل النقاش. والى جانب ما ذكر من اشياء كان مع المتهم بعض الطلقات من نوع الذخيرة المحرقة وبوصلات وعلم اميركي طبع عليه باربع عشرة لغة: «ساعدوني لكي انجو. ولكم مكافأة قيمة» كما كان معه خنجر ومسدس وحقنة مسمومة للانتحار اذا ما لزم الأمر. لكن باورز لم ينتحر بل فضل الهبوط من علو احد عشر الف قدم في حقل قمح في الكولخوز المذكور وسط فلاحين احاطوا به ثم احاطوه بعنايتهم.

وبدأ الحديث عن الطائرة. هنا، لم يعط المتهم معلومات تذكر عنها. قال انه يجهل تفاصيلها الفنية.

وفي اليوم الثالث للمحاكمة، يوم ١٩ آب ـ اغسطس ١٩٦٠، كان على المحكمة ان تصدر حكمها. كيف سيكون هذا الحكم؟ هل يكون رحوما فيبرهن الاتحاد السوفياتي على

نيته بالاستمرار في سياسة المرنـة والتفاهم، ام يأتي قاسيا فيستفزّ الحرب الباردة بما فيها في تشنج ومخاطر؟

ما ان فتحت الجلسة حتى وقف المدعي العام ليلقي مرافعة لم تترك ستراً في الطبيعة العدائية للامبريالية الاميركية المسؤولة عن «الجريمة القبيحة» التي قام بتنفيذها باورز والتفت نحو المتهم ليقول:

ـ اما هذا الجالس امامكم في قفصه، فهو ليس جاسوساً بسيطاً فحسب بل هو مجرم انشىء ليكون كذلك. ان عائلة باورز هي من انبتت مجرمين قد يكونون اول من يلقي القنابل النووية فوق رؤوس الشعوب المسالمة، ايها الرفاق القضاة، ان حكمكم هو الذي سيقرر مصير الانسانية. ليكن أذاً انذاراً قاسياً لكل من تسول له نفسه اللعب في قضية السلام والتآمر على كرامة الاتحاد السوفياتي. كان علي ان اطلب تطبيق احكام المادة الثانية الخاصة بالجرائم ضد الدولة. غير ان الصدق في ندم المتهم يجعلني اطلب ابدال هذا الحكم بالسجن لمدة خمس عشرة سنة!

صفق الحاضرون لمرافعة المدعي العام تماماً كما لو كانوا في مسرح. ثم جاء دور محامي الدفاع وهو رجل رقيق المظهر، مميز السلوك، في الستين من عمره. بدأ هذا المحامي قائلاً:

ـ لا شك ان مهمتي صعبة. فالجريمة شنعاء. لكن باورز يا رفاقي القضاة ليس وحده المجرم فهناك رؤساؤه الاميركيون. هؤلاء من يجب ان يكونوا هنا اليوم ليحاكموا على ما ينوون اقترافه من جرائم في حق الانسانية جمعاء.

وأكمل قائلاً:

ـ كان بامكان باورز ان يضغط على زرين فيحطم طائرته ويقتل نفسه. لكنه لم يفعل وبفضل هذا فان سر السياسة العدائية الاميركية انكشف.

ترى، هل كان المحامي يريد زرع الشك في اذهان الحاضرين عن عدم اخلاصه لقضية بلاده؟ لا أحد يدري. وها هو يضيف:

ـ كان باروز صادقاً وشريفاً طوال التحقيق. لا اعرف ما اذا قال الحقيقة بكاملها لكني اعرف ان ما قاله صحيح. ايها الرفاق القضاة اؤكد ان تغييرات كثيرة حصلت داخل باورز منذ اللحظة التي وطئت قدماه ارض الاتحاد السوفياتيي لقد أقر انه ضلل. هذا الشاب تربى في عائلة كثيرة العدد من العمال البسطاء.. وكالملايين من الشباب الاميركيين نشأ في جو عبادة الدولار. ان المجتمع الرأسمالي يجعل للمال المكانة الأولى فيه. فمن اجل المال يهدر الشرف ويضحى بالحقيقة. تأكدوا يا رفاقي القضاة ان الحاجة الى المال هي التي

دفعت باروز نحو الهاوية. واذا أردتم اعادته الى اصالته الانسانية ما عليكم الا ان تنتزعوا منه هاجس الدولار.

واضاف المحامي في النهاية بلهجة المفشي لسر من الاسرار:

ـ لقد قال لي باورز: «انا اعرف انني سأحاكم في بلادي امام محكمة اخرى. لكني أشك في أنني سأعود إليها» .

هل حقا قال ذلك؟ وهل في نيته «اختيار الحرية» في. . الاتحاد السوفياتي؟

ويسأل رئيس المحكمة المتهم عما اذا كان لديه ما يضيفه فيقف باورز وفي يده ورقة ويبدأ بقراءتها:

ـ انا مدرك اني اقترفت جريمة نكراء وأني استحق العقاب. كل ما أطلبه هو ان تؤخذ الظروف التي دفعتني الى هنا بالاعتبار وان لا تبلغ حكومتي ما أدليت به من معلومات اثناء التحقيق وفي المحاكمة انا افهم انكم تعتبروني عدوا، لكني اعترف بصدق اني اشعر بالمودة تجاه الشعب الروسي، اخيراً اشكركم جميعاً لاصغائكم الي.

وجلس باورز وسط صمت ثقيل ولم يخف الصحفيون الغربيون عند بلوغهم تفاصيل المحاكمة امتعاضهم من تعقل باورز الزائد، وكانوا يتساءلون دائما عما اذا كان ما ادلى به المتهم في قاعة المحكمة يعكس بشكل صحيح افكاره ومكنوناته.

رفعت الجلسة لاصدار الحكم كان حكماً رحوماً ومعقولاً :

عشر سنوات سجن منها ثلاث في سجن حقيقي، والسبعة الباقية في معسكر عمل في مكان ما في جمهورية روسيا البيضاء.

الحكم قاس بالنسبة لرجل. لكنه ليس كذلك بنظر الأزمة الدولية التي فجرها عمل باورز. واذا ما تمعنا قليلا بمجريات الامور ونتائجها رأينا ان باورز لم يكن سوى حجر صغير في لعبة الشطرنج القائمة على قدم وساق بين اميركا والاتحاد السوفياتي.

لم يدم احتجاز باورز اكثر من سنتين. ففي سنة ١٩٦٢، اعيد الى الولايات المتحدة في عملية تبادل اجريت لصالحه وصالح الكولونيل رودلف ابيل الذي اتهم في نيويورك بالتجسس لمصلحة الاتحاد السوفياتي في نيويورك قبل بضع سنوات.

ساحرة جنيف

دخلت الساحرة ميشلين شودرون قاعة المحكمة في جنيف في ذلك اليوم الرابع من شهر اذار ـ مارس عام ١٦٥٢ وهي لا تدري ماذا تفعل ولا أين تدخل كانت نظراتها زائغة وشعرها مشعثاً، لم تكن جنيف في تلك الحقبة لتتقبل السحر والسحرة. فقد كانت الحياة فيها متزمتة لدرجة ان ابتسامة بسيطة اثناء القداس قد تودي بصاحبها الى المحاكمة.

وما ان استقر الجميع على مقاعدهم حتى سأل رئيس المحكمة المتهمة:

ـ لماذا انت سجينة؟

كان صوت الرئيس مهيباً ومخيفاً. وكانت المسكينة ترتجف من الذعر. ترى ما الذي أتى بها الى هنا؟ ماذا جاءت تلك الفتاة تعمل في مواجهة قضاة قساة كالذين يجلسون امامها؟

ـ انا سجينة طوعاً للعدالة.

انها هنا، مع ان رجال الشرطة الذين فتشوا كوخها لم يعثروا على ما يمكن ان يكون دليلاً على ممارستها السحر كالمساحيق والشحوم والسموم وما الى ذلك. ويستكمل الرئيس في اسئلته:

ـ ألم تعملي كغسالة لدى بيرنيت بنت اليزابيت روايوم منذ اربع سنوات؟

ـ منذ خمس سنوات على وجه التحديد.

ـ اولم تتخاصمي معها؟

ـ كلا

ـ الم يسبق لك أن سمعت اصوات العفاريت وهي تسكن جسم هذه الفتاة؟

ـ كلا. كلا لم اسمع شيئا.

ـ ألم تعودي ذات مساء الى منزل اهل الفتاة الساعة الثامنة بحجة جلب الغسيل؟

ـ نعم. هذا صحيح.

ـ ومنذ عودتك ـذه والفتاة تشبه الموتى في جمودها وصمتها . .

ـ لا!

وبدأ رئيس المحكمة يقص حكاية غريبة مفادها ان سكان البيت والموجـودين فيه آنذاك توسلوا الغسالة ان تطرد العفاريت من جسد بيريت، وانهم بعد ان سمعوا العفاريت تطلب الخبز والسمن والملح ثمن خروجها من جسد الفتاة، طفقوا يصلون. عندها، انقضت الغسالة على رقبة الفتاة في عناق شديد وبدأت تتحدث مع العفاريت بالايطالية .

الحكاية غريبة ومع ذلك لم يكن بوسع المحكمة والحضور ان يصدقوا خلافها. اما الغسالة فمسيكنة حقاً. ان كل جواب تعطيه للمحكمة مع بساطته وصدقه يغرقها في تفسيرات وتأويلات تصب كلها في نطاق اتهامها بالسحر والشعوذة الم يكن انتقالها من بيت لآخر كغسالة ذريعة لاصطياد ضحايا لها؟ ألم تصب المدعوة اليزابيت فالين بالمرض بعد ان أكلت الباسلاء مع «الساحرة» ثم، ألم يكن ما اعطته لاحـداهن من خبز وسمن وفـول لتحضر بها حساءً الا بهدف تحضير حساء مسحور؟

ومما زاد الطين بلة شهـادات الشهود ومعـظمهم نساء من الجيـران والصديقـات فالخلافات البسيطة والعابرة التي كانت تبرز بينهن وبين المتهمة من وقت لآخر، انقلبت الى مواقف درامية في المحكمة ومما لا شك فيه هو انهن لم يكن يدركن ان شهاداتهن قد تودي بها الى نار موقد الاعدام . لقد أكد الجميع أن مآسي الحي، انما تعود اسبابها الى سحر هذه الساحرة. ولما كان كل بيت يعايش بين جدرانه مشكلة في المشاكل في بنت عنست او طفل مرض او زوج خان فان الغضب كله انصب على رأس «المسبب» وتلك هي الكارثة بعينها .

لكن المحكمة بالرغم من «تأكيدات» الشهود ارادت التوغل في اقامة العدل فأمرت بتعيين خبيرين من اشهر جراحي العصر ليكشفا على جسم الفتاة ويريا ما اذا كان هناك جزء منه او مساحة صغيرة لا تتأثر بالألم. ذلك ان وجود مثل هذه الاجزاء في جسم من الأجسام هو الدليل المقنع بوجود عفاريت يسكنون هذا الجسم .

وبدأ الاختبار المؤلم. جردت الفتاة من كل ثيابها . وتقدم منها الطبيبان وبيد كل منهما ابرة طويلة بدآ يغرسانها في الجسد العاري والمسكينة تتلوى من الآلام . والدماء تسيل غزيرة وقانية الى ان وصل احدهما الى نقطة لا تبعد كثيرا من النهد الايمن هناك لاحظ بقعة داكنة صغيرة غرس فيها ابرته والمسكينة تصرخ وعندما سحبها لم يلاحظ ان الدم سال عندها التفت التفاته المنتصر ليؤكد ان المكان هو مأوى العفاريت اجل والا لسال الدم كما حصل في الاجزاء الاخرى من الجسد .

مرة اخرى ارادت المحكمة ان تطمئن الى يقينها فعينت خبراء آخرين: خمسة دفعة واحدة. ومرة اخرى ايضا تعرضت الفتاة لابر اكثر عددا واشد ايلاما فالجروح من الابرتين الأولين لم تكن قد شفيت بعد. اما النتيجة فكانت ان تلك البقعة الصغيرة الداكنة التي لا يسيل الدم منها ليست دليلاً على ان المتهمة ساحرة هذا التناقض بين الخبرتين دفعتا المحكمة الى اللجوء الى خبرة ثالثة.

في الخبرة الثالثة اكتشف جهابذة الطب ان الشفة العليا والساق اليمنى تحويان بقعتين سوداوين مساحة كل منهما مساحة حبة العدس، وان هاتين البقعتين لا تتألمان ولا يسيل منهما الدم.

وبغية اراحة الضمير فقد كررت التجربة مرات عديدة ولما كانت النتيجة ثابتة فقد جزم هؤلاء الخبراء ان المتهمة ساحرة وان جسدها لا بد وان يكون مأوى لعفاريت وشياطين هم أداتها لما سببته من مآس لأهالي الحي .

وقد تأكد للجميع ذلك بعد ما قام الخبراء كلهم بزيارة الضحية بيرنيت التي وجدوها تتلوى على الأرض وتصرخ ان ميشلين معلمتها، لذلك لم يعد يبقى سوى أن تلفظ المحكمة الحكم ، لكن ميشلين لا زالت تنكر . في هذه الحال لا بد من اللجوء الى الطريقة التقليدية التي أثمرت في الحالات المماثلة : تعريض المتهمة للتعذيب وهذا سيؤدي الى الاعتراف .

ويوم الثلاثين من آذار ـ مارس سنة ١٦٥٢ ، كان يوم التعذيب، جيء بالمتهمة من زنزانتها واجلست على كرسي خشبي . كان التعب باديا على وجهها المتورم من ثقوب الابر وكان جسدها مليئاً بالقروح التي سببتها تجارب الخبراء . .

وقبل المباشرة بالمرحلة الأولى من مراحل التعذيب الرهيب، حاول القاضي استخلاص الاعتراف بالحسنى فلم يفلح ، كانت ميشلين مصرة على الانكار. كيف لا وهي لم تكن تعرف كنه التهمة الموجهة ضدها؟ ألم تكن تعيش منذ شهر خلا في بيتها مرتاحة البال ومكتفية بما تكسبه من عملها كغسالة في البيوت؟

وجاء الجلاد وربط يديها بحبل متصل بالسقف. بعد ذلك شد الحبل فارتفع الجسد ببطء. وما ان وصل الى فوق ولامس السقف اليدين حتى افلته الجلاد فهبطت المسكينة وارتطم جسمها بالارض. وتكررت العملية الى ان «اعترفت» بانه سبق لها ان شاهدت شبحاً يمر امامها بينما كانت تتمشى ذات يوم في غابة بالقرب من جنيف . هذا الشبح هو الذي طبع على جسدها البقعتين الداكنتين على الشفة والساق. هذا مطابق لما تصوره القاضي والجلاد وهذا ما «أقرت» به المعذبة . كما أقرت بأمور كثيرة لم تعد تعرف ماذا تقول ولا بماذا

تتناقض. لقد فقدت كل رقابة ذاتية. وكانت اعترافاتها تتكاثر كلما هبط بها الحبل من فوق..

وبعد ثلاثة ايام متتالية من التعذيب والاعترافات والاعترافات المضادة لم يكن من هاجس لدى المسكينة الا ان تنتهي بسرعة. كان هذا توسلها الوحيد لجلادها وللقاضي الواقف امامها.

وفي ٣ نيسان - ابريل صدر الحكم: الاعدام شنقاً وخنقاً. ورحمة بالمجرمة فقد رأى القضاة ان يكتفي بذلك وان لا يحرق الجسد حياً بل بعدالموت. هذا الحكم نفذ في السادس من الشهر.

وماتت ميشلين مخنوقة من قبل الجلاد، ماتت وموتها هذا لم يضع حدا لمرض بعض الأولاد وعته بعض النساء.. لكن ميشلين كانت آخر ساحرة تعدم في مدينة جنيف فقد تغيرت بعدها العقوبات والغي الاعدام لمن كان يتهم بالسحر.

فوكيه

في ١٤ تشرين الثاني نوفمبر من عـام ١٦٦٤ ، افتتحت في باريس المحـاكمة التي اعتبرت، في ما بعد، ، محاكمة العصر من دون منازع . كان المتهم في تلك المحاكمة فوكيه، الشخصية الهامة التي كانت، لفترة طويلة، على كل شفه وكل لسان .

ولد فوكيه عام ١٦١٥ في بـاريس من عائلة نبيلة مقـربة من البـلاط. ومنذ عـام ١٦٤٨، اصبح على علاقة وثيقة بمازارين، الرجل القوي في بداية عهد لويس الرابع عشر، الملك اليانع . هذه العلاقة توطدت عندما أقرض الدولة المبالغ اللازمة لتحسين اوضاعها المالية . ولما كان واسع الثراء، فقد استطاع كذلك شراء منصب المدعي العام في برلمـان باريس. وفي الخامسة والثلاثين، أصبح وزيراً للمال في بلاط لويس الرابع عشر.

ومنذ ذلك الحين، فرض فوكيه وجوده في الحياة العامة كرجل مال بارع وكرجل دولة مجدد. طوّر الصناعة والبحرية بواسطة امواله الخاصة التي لم يكن يبخل باقراضها للدولة . صحيح أن بعضَ اللغط كان يحيط به، من وقت لآخر، حول طرقه في جمع وانماء ثروته، لكن هذا لم يكن يخرج عن المألوف في مجتمع البلاط المشحون بالتباغض والتحاسد . وفضلاً عن مشاريعه العمرانية المتعددة، كان فوكيه يحمي اشهر الفنانـين والأدباء امثـال موليـير ولافونتين وسواهما .

في ٩ آذار ـ مارس من عام ١٦٦١، مات مازارين، وكـان الملك قد بلغ الثـالثة والعشرين من عمره. وبموت هذا الكاردينال القادر، أزيل الحاجز الصلب الذي كان يفصل بين الملك وشؤون المملكة . منذ ذلك الوقت ، قرر الملك الحكم بنفسه. وكان فوكيه أولى ضحاياه .

ومما ساعد على ذلك ما أحس به لويس الرابع عشر من ريبة وحذر عقب وليمة أقامها فوكيه على شرفه في ١٧ آبـ أغسطس في حديقة قصره . في هذا الحفل، رأى الملك ما سلبه

لبه. بذخ وثراء لم يشهد مثلهما في حياته. لقد سكب الأكل في أوعية من الذهب الخالص. كما كانت الملاعق والسكاكين والشوك كذلك ايضاً. أما حدائق القصر، فقد حولها كبار فناني العصر الذين استقدمهم فوكيه، الى جنات قل مثيلها.

وهكذا، وبعد أن حفر فوكيه بوليمته هذه حفرته بنفسه دون أن يدري، أرسل الملك اليه الفارس داركانيان، رئيس فرسان المملكة، لألقاء القبض عليه. وقد تم ذلك في الخامس من شهر أيلول- سبتمبر من السنة نفسها، سنة ١٦٦١. هذا هو منطق الأمور الذي لم يتنبه اليه فوكيه، على الرغم مما يتمتع به من حدة في الذكاء وبعد في النظر. ألم يكن يجدر به أن يعي أن تمكّن لويس الرابع عشر من استلام زمام الأمور لا بد وأن يمر بتحطيمه، هو الرجل القوي ذو النفوذالمزروع،بواسطة أعوانه، في كل زاوية من زوايا المملكة؟

جرت الأمور، كما ينبغي، بسرعة مذهلة. وضعت الحراسة المشددة على أملاك فوكيه في باريس وخارجها. والرجل الذي تولى التنفيذ بكل دقائقه هو كولبير الذي كان، في وقت من الأوقات، مساعد فوكيه المقرب، والذي اختار الآن ان يلعب ورقة الملك.

بدأت الحملة بمصادرة جميع الأوراق والمستندات التي يملكها فوكيه في قصوره وخزاناته، بعد أن الغي منصب المال واستعيض عنه بمجلس من خمسة ترأسه كولبير نفسه. هذه الأوراق والمستندات فرزت بمعرفة الملك وكولبير. اتلف منها ما يمكن أن يمسّ أحدهما وابقي على الأخرى، لا سيما تلك الخاصة بخطة المقاومة في حال تعرض فوكيه لأية مؤامرة، وكذلك بخطط تحصين قصوره وممتلكاته.

وفي ١٥ تشرين الثاني- نوفمبر، صدرت ارادة ملكية بتشكيل هيئة استثنائية لاستقصاء المخالفات المالية المرتكبة منذ سنة ١٦٣٥. وواضح ان المقصود بذلك هو فوكيه نفسه.

طالت التحقيقات وتوسعت. وكان فوكيه خلالها ينقل من سجن الى سجن، الى ان استقر به المقام في حزيران- يونيو عام ١٦٦٣ في الباستيل. أما محور التهم، فكان التآمر على الملك. وهذه التهمة اشد التهم خطورة في ذلك العصر.

أمام هذا المد من الحقائق والأكاذيب، لم يبق فوكيه دون تحرك. كتب الى أعوانه واصدقائه يفضح مرامي كولبير ويكشف مخالفات مالية ارتكبها صديقه السابق اللدود. ولم يبخل أحد بمديد العون اليه، خاصة من تولى حمايتهم ورعايتهم من فنانين وأدباء.

في ١٤ تشرين الثاني- نوفمبر سنة ١٦٦٤، بدأت الجلسة الأولى في سلسلة جلسات المحاكمة. أما هيئة المحكمة فقد تشكلت من رجال اشتهروا بالعداء لفوكيه والحقد عليه.

ومنذ البداية، اتضح ان سير المحاكمة ليس طبيعياً. ذلك ان الرئيس اعطى الكلام للمدعي العام قبل أن يدعى المتهم الى القاعة. ولم يوفر هذا تهمة تتعلق بالاساءة الى الملك الا وألصقها به. وفي النهاية، طلب انزال عقوبة الاعدام شنقاً وخنقاً وبالزامه برد كل املاكه وأمواله الى الملك، «صاحب» الحق الأساسي بها.

وهكذا تم كل شيء قبل أن يبدأ. وبينما المتهم لا يزال غائباً عن محاكمته، وقف الرئيس ليثير قضية رسائل وجدت في قصر المتهم وهي مكتوبة اليه من سيدات ربطته بهن علاقات غرامية. لكن الرئيس لم يظهر الرسائل بناءً لأمر من الملك حرصاً على سمعة صاحبات الرسائل. هذه اللفتة الكبرى الكريمة من صاحب الجلالة كانت موضع ترحيب واستحسان من الحضور. وهنا أدخل المتهم قاعة المحكمة.

مشى فوكيه حتى مقعده بخطى ثابتة كانت كل ما بقي له من جاه بعد ثلاث سنوات من الاحتجاز. في طريقه مر أمام رئيس المحكمة وسائر القضاة وحياهم. لكن احداً لم يرد التحية، مع أنهم جميعاً كانوا من اصدقائه او من التابعين له.

أول طلب توجه به الرئيس الى فوكيه كان القسم قبل الكلام . غير أن المفاجأة التي لم يتوقعها أحد هي أن المتهم رفض ان يقسم اليمين قائلاً:

ـليس علي أن أقسم، فلدي حصانة المنصب ومكانة القضاء لخمس وعشرين سنة. لذلك اعتبر نفسي معفى من هذا النوع من الالتزام الشكلي.

قال هذا وبدأ بحديث طويل تخلله طعن بصلاحية المحكمة. ذلك انه، بوصفه قاضياً، يقتضي محاكمته أمام برلمان باريس نفسه. ثم انتقل الى الهجوم. وكان هجومه صاعقاً. لم لا؟ اليس هو ذاته من كان، لسنوات طوال، مهاب اللسان، مهاب القدر؟

أمام هذا الهجوم الصاعق، وأمام المأزق الذي وضع المتهم المحكمة فيه، لجهة الصلاحية، بدا الارتباك ظاهراً على وجوه الجميع. وهنا رفع الرئيس الجلسة للمداولة. وعندما خرج القضاة ، عاد الرئيس وطلب من المتهم حلف اليمين. فلما اصر على الرفض ثانية، تجاوزت المحكمة الطلب وتابعت المحاكمة. وكان السؤال التالي هو:

ـ في الأوراق التي صادرناها من قصرك، وثيقة تدل على أنك تقاضيت مبلغ ١٢٠,٠٠٠ ليرة من حساب ضريبة الملح تحت اسم مستعار هو سيمون لونوار. . .

وكان الرئيس سيكمل السؤال، عندما قاطعه أحد المستشارين لافتاً نظره الى انه لم يأخذ افادة المتهم عن هويته و. . . صحيح . لقد سها عن بال الرئيس هذا الأمر، مع أنه قاضي قضاة فرنسا والرجل الثاني فيها بعد الملك. وبناءً لطلبه، رد المتهم بلهجة لا تخلو من

بعض التهكم:

ـ اسمي نيقولا فوكيه، مركيز بيل- ايل، فيكونت فو. . .

بعد الانتهاء من هذا التعريف، رد المتهم على السؤال الأول قائلاً:

ـ نعم. لقد تقاضيت هذا المبلغ من أصل ضريبة الملح ايفاء لسلفة كنت قدمتها للدولة قيمتها ٢٠٠,٠٠٠ ليرة. والعملية تمت بمعرفة مازارين قبل موته. لقد أمرني هو بذلك. وأمره، كما تعرفون، كأمر جلالته، لا يناقش.

قد يكون الجواب صحيحاً، فالمتهم كثيراً ما أقرض الدولة. ولكن كيف السبيل الى التأكد ومازارين مات، ومعظم المستندات الاثباتية والتي هي لصالح فوكيه قد اتلفت من قبل الملك وكولبير؟ لقد ذكر المتهم أن كولبير على علم بالعملية. ولكن من يجرؤ على طلب شهادته، بل من يجرؤ، بالتالي، على اغضاب الملك؟ لهذا السبب، وربما لأسباب أخرى، تجاوزت المحكمة هذه النقطة.

هذا اليوم الأول من المحاكمة مر لصالح المتهم. لقد بدا واضحاً على وجوه القضاة ان النقاط التي سجلها فوكيه طوال الساعات الثلاث التي استغرقتها الجلسة كانت مفحمة ومركزة. كما بدا أن رئيس المحكمة، الذي لا يفقه الكثيرمن الأمور المالية، قد ارتبك اكثر من مرة لدى اثارة مثل هذه الأمور. وكان في كل مرة يتظاهر بالفهم والاستيعاب من غير أن يوهم الأخرين بنجاح تمويهه.

بعد ثلاثة اسابيع، بدت المحاكمة وكأنها تتعثر. فمرة علقت الجلسات بسبب موت أم الملك. ومرة اخرى بسبب موت احد قضاة المحكمة. ولم تنطل الحيلة على أحد. لقد فهم الجميع أن القضية تدور في الارتباك أمام متهم يعرف كيف يدافع عن نفسه، وكيف يفند النقاط الهامة نقطة نقطة ويوضح خفايا الأمور قبل ظواهرها. كان خطيراً وخطراً. لذلك، كان الخوف من استمرار المحاكمة يدق قلوب الجميع ويجعلها تزيد في ضرباتها.

وفي هذه اللعبة، لم يكن الرئيس بالشخص الذي يحسد. كان زائغاً في متاهات الضرائب بأنواعها المختلفة، من الضريبة على الذهب الى الضريبة على الخمور، الى الرسوم والى الجعالات بأنواعها المتنوعة والمعقدة، حتى أن المتهم كثيراً ما كان يبدو، وهو يدافع عن نفسه في هذا المضمار، وكأنه استاذ يلقي درساً لتلاميذ فاغري الأفواه أمامه.

مثال على نقطة مالية أثارها الرئيس: ضريبة الذهب وهي عبارة عن مبلغ يدفعه كل من يحمل لقباً الى خزينة الملك. ويبدو أن فوكيه أخذ لنفسه جزءاً من هذه الضريبة. هذا الوضوح جعل الرئيس مرتاحاً في اتهامه. لكنه سرعان ما لمس جهله عندما واجهه المتهم بأن

ما تقاضاه من هذه الضريبة كان تسديداً لما أقرضه للدولة يوم كانت هذه بأشد الحاجة الى المال لتسليح جيشها خلال حصار فالنسين. هذا المال، مال فوكيه نفسه، هو الذي انقذ جيش فرنسا وبالتالي، عرش ملكها. أما أن يكون الإيفاء قد صدر باسم مستعار، فهذا أمر مألوف. أولم يمارس رئيس المحكمة نفسه هذه الطريقة بمناسبات عدة، كما رد عليه المتهم؟

ادرك الملك أن الأمور تسير لمصلحة فوكيه. لذا، استدعى رئيس المحكمة ليوبخه غاضباً وليأمره بانهاء كل شيء قبل الميلاد. هنا، انطلق الرئيس بسرعة مذهلة وخوف شديد، متجاوزاً كل النقاط التي يمكن أن تطيل المحاكمة. وها هو في الجلسة، التي اعقبت الدرس العسير، يسرع في اثارة الاتهامات، الواحد تلو الآخر، من غير سؤال يذكر ومن دون توقف غير مفيد.

وجاء يوم الرابع من كانون الأول- ديسمبر ١٦٦٤. في هذا اليوم، انهت المحكمة النقطة الخاصة باختلاس اموال الدولة لتثير نقطة ثانية هي الأخطر: التعرض لشخص الملك، لقد بدا على الجميع يوم ذاك أن رأس فوكيه في الميزان. لذلك فان اقل خطأ يرتكبه في اجاباته قد يكلفه غالياً.

بدأ الرئيس بقراءة رسالة يحرض فيها المتهم انصاراً له على عمل ما بوسعهم ليطلقوا سراحه، اذا ما اعتقل. كما يذكر فيها كيف جعل من قصره قلعة حصينة. ولدى سؤال الرئيس، أجاب فوكيه:

- هذه ليست سوى تخيلات راودتني في لحظات يأس كنت فيها على خلاف مع مازارين. أما عن الانتفاضة المزعومة، فهذا ليس بالأمر الجدي. وفي مطلق الأحوال، هذا الأمر لم يكن موجهاً ضد الملك، انما وضعني فيه مازارين لما كنت اخشى من ازدواجية وخبث. ثم، اليس هذا المستند مجرد مشروع؟ فهل يجوز اعتماد مشروع هو عبارة عن مسودة؟ وهل يجوز اعتبار امر ما جريمة قبل ان يصل الى مرحلة التنفيذ؟

- أليس الأزماع على سلوك هذه الطرق جريمة ضد الدولة؟

هنا، انفجر فوكيه، وللمرة الأولى، غاضباً ومزمجراً. ترى، هل تصنّع هذا الغضب ليمثل الثأر لوطنيته ولاخلاصه، بعد أن أحس حبل المشنقة أو شفرة المقصلة تقترب من عنقه؟ لقد قال:

- الجريمة ضد الدولة، ايها السادة، تكون بتجنيد الناس وتسليحهم ضدها هل حصل شيء من هذا؟ كلا. هل حصل أن تهاونت، كما فعل غيري، وسلمت مواقع هامة للاعداء.

هذا التلميح، كان المتهم يقصد به صهر رئيس المحكمة، الضابط الذي قام بتسليم جسر نانت الى الاسبان. وبعد التلميح، انتقل الى التوضيح:

- انه كولبير، يوغر صدر الملك ضدي ليستأثر برضى جلالته. يريد تحطيم دولة بكاملها من خلال تحطيمي . . .

عندما وصل فوكيه الى هذا القدر من الانفعال، حاول الرئيس تحويل الانظار فانتقل الى اثارة نقطة تتعلق ببذخ المتهم عندما كان وزيراً للمال. فأجاب هذا قائلاً:

- أؤكد، سيدي، أنني لم انفق ليرة واحدة في غير طريقها، سواء كان ذلك من الأموال العائدة للمملكة او من أموالي الشخصية أو أموال زوجتي. واذا أردتم البرهان، فاني على استعداد تام له.

لكن الرئيس لم يطلب اي برهان. لقد أمر برفع الجلسة، التي اعتبرت جلسة النصر لفوكيه واصدقائه من حضور وحتى من قضاة ممن لا يتعاطفون كل التعاطف مع كولبير. لكن الجميع لا زال يضع يده على قلبه، فالملك وكولبير لم يقولا بعد كلمتهما.

ومرت اربعة ايام قضاها القضاة في كتابة تقاريرهم. وابرزها تقرير القاضي اومرسون الذي كتبه في «الاعتكاف والصلاة».

وفي اليوم الخامس، بدىء بقراءة التقرير. قراءة استمرت ثلاثة ايام. ومن خلال هذا التقرير، تبين أن كاتبه يتمتع بموضوعية وعدالة قلما توافرت بهذا القدر في انسان اخر. لقد دحض الاتهامات المزعومة الخاصة باختلاس الأموال العمومية، على الرغم من ثبوت بعض الاهمال والمخالفات التي تعزى بمعظمها الى مازارين. اما عن الاسراف، فقد أقر التقرير بها ذاكراً أنها بسبب الغنى الفاحش، الذي لا يمكن أن يتكون بطرق « مشروعة » بكليتها.

بعد ذلك، ينتقل التقرير الى التهمة الرئيسية الثالثة وهي التآمر على شخص الملك. هنا، لم يكن التقرير عنيفاً. لقد اعترف بان خطة تحصين قصر المتهم قد تخفي نية خبيثة، لكنه عاد وذكر ان القضية لم تصل الى مرحلة بداية التنفيذ. وهذا ما لا يوجب العقاب. وختم التقرير بما يلي:

- هل سيبرأ المتهم من كل ما ذكر؟ قطعاً لا. هناك مخالفات وانحرافات. هذا ما لا ريب فيه. لذلك اقترح نفي المتهم من البلاد حتى آخر حياته ومصادرة كل ما يملك لصالح الملك والمملكة.

والواقع أن هذه العقوبة جاءت متناقضة مع ما جاء في الجزء الأخير من التقرير، هذا

الجزء الذي يوحي ببراءة المتهم مما نسب اليه . ومع ذلك ، فقد جاء الاقتراح لطمة لادارة الملك : الذي لم يكن يرغب بأقل من الموت .

لكن التقرير هذا هو واحد من اثنين وعشرين تقريراً لاثنين وعشرين قاضياً هم هيئة المحكمة . وتوالت الأيام وتوالت معها قراءة التقارير . هنا يبدو الخليط واضحاً ، منهم من يرى النفي ومنهم من يرى الاعدام . والاعدام أنواع ، فيه الشنق وفيه الخنق وفيه قطع الرأس بالمقصلة .

أمام هذه الدوامة ، كان فوكيه الرجل الهادىء والانسان الرصين . كان يعيش في زنزانته عيشة الراهب المتنسك . ولم يكن يبدو أن مصيره ما زال يهمه بالشكل الذي يستحق .

يوم ١٦ كانون الأول ـ ديسمبر ، كان يوم فرز الأصوات . استدعي القضاة واحداً واحداً . اثنا عشر قاضياً تمكنوا ، في ذلك اليوم ، من الأدلاء بأصواتهم . وقد جاءت النتيجة ستة مع النفي وستة مع الاعدام . ونودي على القاضي بونسيه ، عميل كولبير . غير أن المفاجأة هي أن هذا القاضي لم يدل بصوته في كفة الموت ، كما هو منتظر ، بل طلب تأجيل تصويته الى الغد . وهذا يعني ان عليه ان يتشاور مع سيده كولبير وربما مع الملك نفسه .

في اليوم الثاني ، كان بونسيه أول المقترعين . وجاء اقتراعه لموت المتهم . ثم توالى سائر القضاة . والنتيجة النهائية جاءت كالتالي :

ثلاثة عشر صوتاً مع النفي ، وتسعة مع الموت . لقد انقذ رأس فوكيه . وما أن وصل الخبر الى خارج القاعة حيث الجماهير تحتشد ، حتى سرت موجة من الفرح والهرج قلما شهدت مثيلاً لها محاكمة أخرى .

لكن قضية فوكيه لم تنته فصولاً . لقد غضب الملك للنتيجة . ولأول مرة في تاريخ فرنسا ، يتدخل رئيس الدولة لزيادة العقوبة على محكوم . لقد رفض لويس الرابع عشر اطلاق سراح فوكيه وتركه يعيش بقية أيامه خارج المملكة ، لأن ذلك «يشكل خطرا كبيراً ، باعتبار ان فوكيه يعرف اسراراً خطيرة عن الدولة ، ولا يجوز ان يترك مع أسراره يسرح في الخارج دون حسيب او رقيب» .

وبأمر من الملك ، نقل السجين الى قلعة بينيرول تحت حراسة مشددة . وهناك لم يكن يسمح له بالاتصال باحد ، أو الكتابة لأحد . كانت التعليمات الملكية غاية في التشدد حتى أن بعضاً من حراس السجن أعدم أو سجن لأنه خالف التعليمات وتحدث معه .

هذا الوضع ظل على هذا النحو خمس عشرة سنة . ففي عام ١٦٧٩ ، وبناءً على توسل

الكثيرين والحاح ملك انكلترا نفسه، قبل لويس الرابع عشر أن تأتي زوجة فوكيه وابنته -لتسكنا بجواره. لكن هذه المتعة لم تطل. فقد مات فوكيه في ٢٣ آذار ـ مارس عام ١٦٨٠ عن عمر يناهز الخامسة والستين.

كان الرهان الوحيد الذي انتظر فوكيه تحقيقه خلال سنوات سجنه هو موت الملك. لكن الرهان لم يتحقق. بل على العكس، لقد دام حكم لويس الرابع عشر أطول فترة في تاريخ ملوك فرنسا ـ ليس هذا فحسب، بل أن هذا الملك عاش بعد موت فوكيه مدة تجاوزت خمساً وثلاثين سنة.

تروبمان

في ٢٠ أيلول- سبتمبر من عام ١٨٦٩ ، وبينما كان أحد الفلاحين في بانتين ، وهي ضاحية من ضواحي باريس ، يتمشى في حقله ، اكتشف نتوءاً بين ثلمين . أحضر معوله وبدأ يضرب به ليرى ، منظراً صعقه وأفقده صوابه . اكتشف جثث ستة لأشخاص قتلوا طعناً بسكاكين وضرباً بمعاول أو خنقاً . هذه الجثث تعود لامرأة في الأربعين واربعة أولاد في الخامسة والثامنة والعاشرة والثالثة عشرة . ويبدو أن المرأة كانت حاملاً وقد انتزع مولودها من أحشائها وقتل .

هذه الجريمة الجماعية الفظيعة هزت ضمير الفرنسيين في زوايا فرنسا الأربع . حتى أنهم نسوا همومهم في توتر حدودهم مع بروسيا وفي تهديدات الحرب وراحوا زرافات ووحداناً يتفحصون المكان ويشمون فيه رائحة الموت .

وبدأت الشرطة في بحث حثيث عن الجاني. وبعد أن حددت هوية المغدورين وهم مدام كينك وأولادها الخمسة ، أخذت في الاستماع الى الشهود ، وقد اتضح انهم كثر. من بين هؤلاء الشهود سائق عربة ذكر أنه نقل في عربته مساء الحادث ، المرأة وأولادها مع شاب في العشرين من عمره يتحدث بلهجة الزاسية . هذا الشاب أوقفه في سهل بانتين ، وراح مع الأم وابنيها الأصغرين في عمق الحقل ليعود ، بعد حوالي ربع ساعة ، ويأخذ الأولاد الباقين ويغيب معهم في الحقل بعد أن دفع للسائق ودعاه للرحيل .

وكانت صدفة انقذت سمعة الشرطة في وقت كانت فيه تلك السمعة موضع اتهامات تلوكها كل الألسن . فبعد يومين من اكتشاف الجريمة ، أوقف شرطيان شاباً وطلبا منه ابراز اوراقه . تلعثم الشاب بعض الشيء بلهجة ألزاسية . هنا ، خطر لأحد الشرطيين أن يسأله عما اذا مر منذ يومين في حقل بانتين . ما أن تلفظ الشرطي باسم الحقل ، حتى بدا الاضطراب على وجه الشاب وركض هارباً وألقى بنفسه في مياه النهر . ولما كان يجهل السباحة ، فقد أوشك على الغرق . لكن رجال الشرطة انقذوه في اللحظة الأخيرة .

جان باتيست ترويمان ، وهو اسم الشاب ، لم يكن يزيد عمره على العشرين سنة . عندما القي القبض عليه ، وجدت رسائل في حوزته موقعة من زوج الضحية المتواري ، جان كينك . وبين عشية وضحاها ، أصبح اسم ترويمان على كل لسان . كانوا يذكرونه بكراهية لم يبلغها في فرنسا بيسمارك نفسه .

ذكر ترويمان ، في بداية التحقيقات ، أن الأب جان كينك وابنه غوستاف هما اللذان نفذا المجزرة . في حين أن دوره اقتصر على اصطحاب الجميع الى مكان الجريمة ومشاهدتها . لكن الوقائع سرعان ما اظهرت كذبه . ففي ٢٦ أيلول- سبتمبر ، اكتشفت جثة غوستاف مطمورة على بعد مئات من الامتار من حقل بانتين . وقد تبين أنه قتل بالوسائل التي قتل بها اخوته واخته . ولماجوبه ترويمان بهذه الواقعة ، انهارت مكائده واعترف بأنه الفاعل الوحيد للمجزرة بكاملها .

أول الضحايا كان الأب . تعرف عليه ترويمان منذ فترة وعرض عليه صفقة رابحة . وكان القاسم المشترك بينهما انتماؤهما الألزاسي . صدق كينك عرض مواطنه واصطحبه الى الالزاس للقيام بالصفقة . لكنه لم يصل فقد قتله رفيقه في الطريق عندما قدم له نبيذاً مسموماً . وتبين أن الدافع الى الجريمة هو السرقة .

بعد ذلك ، كتب ترويمان الى زوجة المغدور رسالة بلسان زوجها طلب منها فيها ارسال شيك بقيمة/ ٥,٥٠٠/ فرنك . لبت الزوجة مضمون الرسالة . لكن المحتال لم يتمكن من قبض قيمة الشيك بسبب الارتياب الذي أبداه موظف المصرف آنذاك ، كتب ترويمان رسالة الى غوستاف ، الأبن البكر للمغدور ، بلسان أبيه ايضاً ، طلب منه فيها الحضور الى باريس . وقد كان هدف ترويمان الاستعانة به لقبض قيمة الشيك ولما لم يصل الى غرضه بسبب ارتياب الموظف نفسه ، قتل الولد وكتب الى امه يطلب منها ، بلسان زوجها ايضاً ، الحضور الى باريس مع بقية اولادها . لقد انزلق ترويمان في الحلقة الجهنمية التي كان لا بد ، بنظره ، من الانزلاق فيها لاخفاء جريمتيه بجرائم أخرى تغلق الحلقة عن طريق قتل سائر أفراد عائلة كينك . وعلى هذا الأساس ، نفذ مجزرته ليل ١٩ـ ٢٠ ايلول- سبتمبر عام ١٨٦٩ .

في قاعة المحكمة حيث ستبدأ محاكمة المجرم ، غصت المقاعد بالحضور ومنهم شخصيات سياسية وأدبية فرنسية وأجنبية .

وفي الساعة العاشرة والربع ، التأمت هيئة المحكمة . وكان محامو الدفاع ومحامو الادعاء قد احتلوا أماكنهم . ولم يبق الا ادخال المتهم . أما أدوات الجريمة أو الجرائم ، فقد

كانت معروضة على طاولة : المعول والرفش ، خمس سكاكين ، بالاضافة الى احشاء الأب المغدور موضوعة في علبة ، وثلاث صرر من الثياب ملوثة بالوحل والدم . كل هذا كاف لأن يغني عن الكلام عن فظاعة ما اقترف .

في تمام الساعة الحادية عشرة الا خمس دقائق ، أمر رئيس المحكمة بادخال المتهم . وكم كانت دهشة الجميع كبيرة عندما شاهدوا شاباً في مقتبل العمر ، نحيل الجسم طري العود ، يعلو شفتيه شاربان خفيفان . بدلاً من أن يروا من يمكن أن يكون عليه رجل تجرأ على تنفيذ مجزرة بهذه الفظاعة

وبعد أن أمر الرئيس المتهم بالوقوف ، أشار الى عمره الذي بلغ العشرين منذ أيام وبعد ذلك ، بدأ باعطاء لمحة عن مراحل حياته الأولى : طفولة طبيعية ودراسة ناجحة مع رغبة بالمال لا حدود لها . وعند اقترابه من العشرين ، أرسله أبوه الى باريس أولاً ، ثم الى روبيه ليفصل في شراء آلات له . وهناك ، في روبيه ، تعرف الشاب المراهق الى عائلة كينك ، التي وجد فيها ضالته في الحصول على الثروة التي لم يكن قد وصل اليها بعد .

ويسأله الرئيس .

ـ هل كنت تعرف أن المغدور ميسور، وهل تعترف بأنك نويت استغلاله؟

ـ نعم .

ـ بعد أن وضعت خطتك لتحطيم هذه العائلة ، قل لماذا قبل جان كينك أن يأتي معك الى الألزاس ؟

ـ قبل لكي نشترك معاً في اصدار نقود مزورة . كانت غايته جمع ثروة كبيرة بهذه الوسيلة .

ـ لا تسيء الى ذكرى ضحيتك . لقد كان المغدور انساناً شريفاً .

ـ أنت لا تعرفه يا سيدي .

وبدأ المتهم يعطي التفاصيل عن قتله الأب ، وذلك بناء لطلب الرئيس :

ـ كان الجو حاراً ، وطلب كينك أن يطفىء ظمأه بشيء من النبيذ ، عندها ، قدم له شريك لي في الجريمة زجاجة من النبيذ ، ما ان شرب منها حتى وقع على الأرض جثة هامدة . لم أدرك في البداية ما حدث . لكن شريكي أوضح لي أنه وضع في الزجاجة كمية من الحامض البروسي ذي الفعالية الشديدة .

ـ ومن دفن الجثة ؟

ـ شركائي .

- «شريكي»، «شركائي»، لم يفتأ ترويمان يضع هؤلاء في الواجهة طوال سرده وقائع جريمته. لكن أحداً لم يتعرف الى هؤلاء «الشركاء».

- لكنك ذكرت اثناء التحقيق أنك أنت الذي قام بتنفيذ الجريمة.

- صحيح، قلت هذا. لكني كنت أكذب.

- ومن هم شركاؤك؟

- لا يمكنني البوح باسمائهم،على العدالة أن تبحث عنهم وتجدهم.

نمط غريب في الدفاع، ربما انسجم مع حداثة سن المتهم، الذي لم يتعد العشرين من عمره. هذا النمط لم يقف عنده رئيس المحكمة. وها هو يتابع استجوابه :

- وبعد اختفاء الأب والأبن البكر، ذهبت في ١٩ أيلول- سبتمبر الى محل المدعو بيلانجر لشراء معول ورفش بثمانية فرنكات ونصف. هل تقر بهذه الواقعة.

- أجل. لقد كان بيلانجر هذا أحد شركائي في الجريمة. وهو الذي أشار علي بشراء ما اشتريت.

- ولماذا الرفش والمعول، أليس لحفر القبر ودفن الضحايا؟

- أجل.

- عند الساعة الحادية عشرة، توجهت الى المحطة لاصطحاب السيدة كينك. ماذا قلت لها وقتذاك؟

- قلت لها، بكل بساطة، أني سأخذها الى حيث زوجها ينتظرها وذهبنا الى بانتين. وهناك، انقض اثنان من شركائي عليها وعلى اثنين من أولادها، بينما انقض الاثنان الآخران على الولدين الباقيين. وما هي الا لحظات حتى كان الجميع جثثاً هامدة.

- وأنت، ماذا كنت تفعل في هذا الوقت؟

- لا شيء.

- لقد اعترفت بغير ذلك في التحقيق. قلت أنك قتلت بنفسك الأربعة، الأم وأولادها الثلاثة.

- هذا غير صحيح.

- أنا أنقل اعترافاتك بحرفيتها.

وهنا، صرخ ترويمان بانفعال :

- لا أريد التكلم، اذا كنتم لا تصدقونني، فحاكموني من غير أن أكون حاضراً أمامكم.

ولم يعد ترويمان يجيب عن اسئلة الرئيس، مما دفع هذا الأخير الى أن يأمر بالبدء

بسماع الشهود . وكان الشاهد الأول سائق العربة التي نقلت المغدورين الى بانتين . قال :

ـ كان السيد تروبمان يجلس في العربة بجانب السيدة كينك واثنين من أولادها . أما الولدان الآخران ، فكانا يجلسان قبالتهم .

وسأله الرئيس :

ـ ألم تسمع شيئاً من كل ما حدث؟

ـ كلا ، كانت الرياح تعصف بقوة . وكنت اتحادث مع الأولاد الثلاثة عندما عاد تروبمان ليقول لهم : «تعالوا يا أولادي تعالوا ، لقد تقرر أن نبقى هنا » .

ويلتفت الرئيس نحو المتهم ليقول له :

ـ هل تسمع ؟ تنوي قتل هؤلاء الأبرياء وتقول لهم «يا أولادي» الا تشعر بالخزي من نفسك؟

ويمتقع لون تروبمان للمرة الأولى ويجيب بصوت مرتجف :

ـ صحيح .

ويأتي الرئيس الى سؤاله الأخير للشاهد :

ـ أي طريق سلك تروبمان والأولاد الثلاثة؟

ـ الطريق نفسه الذي سلكه في المرة الأولى مع الأم .

كانت الساعة قد قاربت السادسة مساء . والجمهور ما زال مشدوداً الى المقاعد منذ الساعة الثانية عشرة ظهراً وهنا ، رفع الرئيس الجلسة .

تميز اليوم الثاني للمحاكمة بشهادة الدكتور بيرجرون ، الطبيب الشرعي الذي قام بتشريح جثث الضحايا الست . وقد طرح الرئيس عليه السؤال الذي يجول في أذهان الجميع والمتعلق بتمكن هذا المخلوق النحيل من قتل ضحاياه دون أدنى مقاومة :

ـ هل تعتقد ، يا دكتور ، أن شخصاً واحداً يمكنه أن يرتكب هذه الجرائم مجتمعة؟

ـ ليس لي أن أدخل في التكهنات ، انما يكفي الرجوع الى الجروح التي اصيبت بها الضحايا لنعرف ما يلي : كانت السكين الأداة الوحيدة للجريمة ، الدفعة الأولى في المجزرة لم تدم أكثر من أربع أو خمس دقائق . أجهز المتهم على الأم وابنها البالغ سنتين من عمره ، في حين لم يجد الولد الثاني الوقت للدفاع عن نفسه . أما الدفعة الثانية ، فقد قضي عليها ، بالرفش للولد الأول وبالخنق للولدين الآخرين .

وهنا، انتصب ترويمان في قفصه ليقول للشاهد :

ـ وتعتقد أن الولدين الآخيرين كانا من الغباء بحيث انتظرا دورهما دون الاتيان بأية حركة !

ـ كلا . لقد حاولا الأفلات . واثر ذلك، انقضضت عليهما وخنقتهما .

تجدر الأشارة الى أن الدفاع وزع على الحضور كراساً من حوالي تسع عشرة صفحة تدور كلها حول نقطة واحدة وهي أن ترويمان مصاب بمرض عقلي وأنه لم يكن في حالة طبيعية عندما قام بتنفيذ مجزرته . علماً بأن المحكمة لم تطرح هذا السؤال في أي من مراحل المحاكمة .

وتقترب قضية ترويمان من نهايتها . ويقف المدعي العام ليرافع ومما قاله :

ـ لقد اعترف هذا المجرم الخطير بكل ما اقترف من بشاعة . قتل عائلة بكاملها دون رحمة ودون تردد . ويأتي اليوم ليدعي وجود شركاء . هؤلاء الشركاء، الذين لم يرهم أحد، ليسوا في الواقع، الا من نسج خياله . لكل هذا، أطلب انزال أقسى عقوبة فيه .

وسرت قشعريرة في المحكمة . لقد كان المدعي العام واضحاً بقدر ما كان عنيفاً وجازماً .

بعده، وقف محامي الدفاع . وتسمّرت العيون عليه . ترى، ماذا عساه يقول وبماذا عساه يدافع؟ بدأ دفاعه بالسؤال والتساؤل عن هذا الذي يقف أمام الجميع في القفص . هل هو انسان . أم هو شيطان؟ هل قام بكل ما قام به وحده، أم اشترك معه آخرون، ثم، لماذا لا تقف المحكمة عند هذه النقطة وتأمر باستقصاء حول هؤلاء الشركاء؟

وانتهى المحامي دون أن يتمكن من النفاد الى وجدان الحضور وتحريك مشاعرهم . بعد ذلك، وقد كانت الساعة تقترب من التاسعة مساءً . اختلت هيئة المخلفين للتداول . وما هي الا دقائق لم تتعد نصف ساعة، حتى خرج الجميع ليعلن الناطق باسمهم أن ترويمان مذنب وأنه لا يتمتع بأي من الأسباب التخفيفية . أما هيئة المحكمة، فلم تحتج، هي الأخرى، لأكثر من خمس دقائق لصياغة الحكم بالأعدام .

استمع ترويمان الى الحكم دون أي انفعال . وعندما سأله الرئيس عما اذا كان لديه ما يضيفه للدفاع عن نفسه، أجاب مع هزة كتف لا مبالية :

ـ لا، لا شيء!

واختفى بين حارسيه عائداً الى السجن .

وفي ١٩ كانون الثاني يناير من عام ١٨٧٠ ، بعد أربعة أشهر ، يوماً بيوم ، من تنفيذه مجزرته ، وعلى الرغم من البرد القارس الذي كان يلفح المدينة وقتذاك ، بدأ الناس يفدون ، منذ الساعة الثالثة فجراً ، ليشهدوا نهاية الطاغية .

في هذه الساعة المبكرة ، دخل كل من مدير الأمن والكاهن ومدير السجن زنزانة تروبمان . كان شاحباً وهزيلاً وعندما سأله مدير الأمن عما اذا كان يقر بجريمته أجاب :

ـ لا . لم أقتل انهم شركائي .
ـ ومن هم هؤلاء الشركاء؟
ـ لا ، لا أستطيع .!

وأشار مدير السجن الى مساعدي الجلاد باخراج السجين الى الباحة في البداية ، مشى تروبمان بخطى ثابتة الى أن وصل الى المنصة حيث المقصلة وصعد . لكنه ما أن رأى رأسه يدخل تحت الشفرة المرفوعة ، حتى انتفض وكانت مقاومة عنيفة لم يتوقعها أحد من هذا الهزيل الشاحب.استمر يقاوم الى أن انتهى به الأمر للاذعان . وما هي الا لحظات حتى كان رأسه يتدحرج متضرجاً بدم غزير .

مات تروبمان ولم تمت قضيته في رأس مدير الشرطة الفرنسية ، كلود ، الذي قام ، هو ، بالقاء القبض عليه عقب المجزرة . كان هناك تساؤل واحد يدور في رأسه . هل يعقل أن يقوم شاب في التاسعة عشرة من عمره بكل هذه الفظائع دون أن يكون وراء ذلك سرمن لوثة عقلية أو عمالة تجسسية خارجية؟ لماذا لم تقف المحكمة عند طلب المتهم نقله الى الألزاس لاحضار دفتر صغير دوّن فيه أسماء شركائه؟ ترى ، هل خشيت ، كما أدعت ، أن يهرب؟ أم تراها خشيت أن تنقلب القضية لتأخذ طابعاً تجسسياً قد يضرم النار في العلاقة المتوترة بين فرنسا وبروسيا؟ ثغرات وثغرات تركتها المحكمة مفتوحة ولم تسارع الى تداركها أو التوقف أمامها . ذلك أن من غير المعقول أن يؤدي طمع بقبض شيك لا تتعدى قيمته خمسة آلاف وخمسمائة فرنك الى مثل هذه المجزرة .

هنا يكمن السر .

ساعي بريد مدينة ليون

كان القلق بادياً على وجه مدير مركز بريد ميلون في منتصف ليل ٢٨ نيسان ـ ابريل عام ١٧٩٦ . فقد تأخرت العربة التي تنقل البريد في الطريق بين باريس وليون ساعتين، وعندما توجه مدير مركز ميلون ليتفقدها رأى ما تقشعر له الابدان: العربة مقلوبة وفارغة، وبالقرب منها ساعي البريد اكسكو فون ومساعده الحوذي اودبير مقتـولين بـطعنات من سكين وسيف.

الى جانب الجثتين وجد مهماز فضي مكسور، كما وجدت عشرة صناديق فارغة وهكذا فان الهدف من الجريمة واضح: لقد كانت الصناديق هذه تحوي كميات ضخمة من الأموال مخصصة لترسل الى جيش نابوليون بونابرت في ايطاليا.

وتوالى الشهود. احدهم، وهو حوذي، التقى في الطريق أربعة فرسان وذلك قبل ثلاث ساعات من وقوع الحادث واخر تاجر جلود أرانب، اكد انه التقى هو أيضاً الفرسان الأربعة في الطريق نفسه، والمواطن شامبو، وهو صاحب حانة تقع في محطة على الطريق الذي تسلكه عربة البريد، استقبل في حانته أربعة فرسان غرباء بالاضافة الى اثنين آخرين انضما اليهم فيما بعد انهم اذا ستة. بل سبعة، اذا ما اخذنا في الاعتبار شخصاً صعد الى العربة في الطريق بعد ان مثل دور الراكب ودفع الاجر، وهو في الواقع ليس سوى شريك لرفاقه المذكورين.

سار التحقيق بسرعة مذهلة. فمنذ اليوم التالي للجريمة، علمت الشرطة ان شخصاً يدعى ايتيان كوريول وهو تاجر باع اربعة خيول من رجل باريسي. اوقف ايتيان هذا كما اوقف معه اثنان من رفاقه بروير وريشار بينما اطلق سراح رابع بعد ان حجزت الشرطة اوراقه الخاصة.

امام قاضي التحقيق، انكر كوريول علاقته بالجريمة لكن انكـاره لم ينف التصاق المجرم به. . . وبعد مضي خمسة عشر يوماً حدث امرغريب، فقد توجه «غينو» الشخص

الذي سبق واطلق سراحه الى مكتب قاضي التحقيق ليستعيد اوراقه وقد اصطحب معه صديقا يدعى ليزورك وهو جندي سابق عمره ثلاث وثلاثون سنة واب لولدين في الغرفة الملاصقة لمكتب المحقق، كانت سيدتان تنتظران بدعوة من المحقق للادلاء بشهادتيهما امامه وما ان رأت هاتان السيدتان كوريول ورفيقه حتى عرفتا فيهما اثنين من الفرسان الاربعة الذين دخلوا حانة شامبو قبل وقوع الجريمة. ذلك ان السيدتين تعملان خادمتين في الحانة.

ولما أسرعتا الى المحقق لابلاغه بالأمر ولدى سؤال الرجلين ذكر ليزورك ان غينو صديق طفولته وانه اصطحبه الى مكتب المحقق ليقدم له خدمة كما انه اعترف بانه يعرف احد الموقوفين، المدعو ريشار. وعلى الرغم من انكاره اية علاقة له بالجريمة فقد امر المحقق بتوقيفه مع غينو. بعد ذلك بفترة اوقف شخص آخر مشتبه به ويدعى ديفيد برنار.

اما اللغز الذي حير التحقيق حتى اللحظة فهو ليزورك، والسؤال هو: لماذا القى هذا الرجل بنفسه طواعية بين أنياب الذئب بحضوره الى مكتب المحقق دون ان يستدعيه أحد؟

يوم الثاني من شهر آب سنة ١٧٩٦، وكان يوماً شديد الحرارة، بدأت المحاكمة. لم يكن الحضور كثيفاً. ربما بسبب القيظ. ادخل المتهمون الستة كوريول، ريشار، بروير، برنار، غينو وليزورك وكان السؤال الأول الى ليزورك:

- ليزورك، انهض.. اين امضيت ليلة ٢٧ الى ٢٨ من شهر نيسان - ابريل؟
- في بيتي.
- لقد تأكد للمحكمة انك لم تكن في بيتك تلك الليلة.
- وانا أؤكد اني لم أغادر البيت في ذلك الوقت.
- لماذا توجهت الى مكتب المحقق مع غينو؟
- التقيته صدفة على الجسر الجديد. ومشيت معه فهو ابن قريبي. لقد ذكر لي ان اوراقه محجوزة هناك وانه ذاهب لاستعادتها.
- وكيف حصل ان اوقفت؟
- لا ادري.
- هيا ليزورك. لقد شوهدت تتعشى مع غيرو وكوريول. كما شوهدت في مكان وقوع الجريمة ساعة وقوعها فما هو تفسيرك لكل ذلك؟
- لا تفسير لدي. الشهود مخطئون، علماً بان من تعرف الي او بالاحرى من تهيأ له انه عرفني لم يتعد الاربعة من اصل ستة عشر شاهداً.

لم يكترث الرئيس لهذا الرد. ذلك ان اجماع اربعة يكفي. وبعد استجواب قصير لسائر المتهمين رفعت الجلسة لتعود الى الانعقاد بعد الظهر.

الجلسة الثانية بدأت بالاستماع الى الشاهد جان دي لافولي وهو عامل اسطبل. طلب منه الرئيس ان يدل على من يعرف من مجموعة المتهمين فتقدم واشار إلى كوريول قائلاً:

ـ اعرف هذا.

ـ والآخرون؟

ـ وهذا أيضاً.

واشار إلى ليزورك مضيفاً:

ـ انه هو اول من وصل الى قرية مونجرون حوالي الساعة الواحدة والنصف وهنا انتفض ليزورك من على مقعده ليقول بانفعال:

ـ هذا الرجل مخطىء لم احضر ابدا الى مونجرون اقسم انني لم احضر. لكن الرئيس لم يأبه للاعتراض بل استمر في احضار الشهود والاستماع اليهم وها هي ماري سوتون احدى السيدتين اللتين كانتا في الغرفة المجاورة لمكتب المحقق تقول:

ـ اعرف جيدا هذا، مشيرة الى كوريول. وهذا ايضا، مشيرة الى ليزورك، وهذا، مشيرة الى جينو.

ـ وهل تعرفين الثلاثة الآخرين؟

ـ كلا.. لم يسبق لي ان رأيتهم.

وتقدم شاهد آخر صاحب الحانة ليقول انه استقبل اربعة من المتهمين ومنهم ليزورك الذي كان مهمازه مكسورا وقد طلب من زوجة صاحب الحانة خيطا لاصلاحه.

لكن ليزورك اصر هذه المرة ايضا انه لم يسبق له ان داس ارض الحانة او رأى صاحبها.

واستدعي الشاهد جوزيف لوغران وهو صائغ وقد بدأ شهادته بقوله:

ـ جاءني ليزورك الى المحل يوم وقوع الجريمة الساعة التاسعة والنصف ولم يغادر الا عند الساعة الواحدة بعد الظهر.

ـ كيف تثبت انه جاء يوم الجريمة يوم ٢٨ نيسان ـ ابريل؟

ـ في ذلك اليوم، دونت في سجل المحل انني طلبت ثمانية ازواج من الأقراط من الصائغ ادينوف لكي لا انسى ايفاد ثمنها له.

ـ ابن هو هذا السجل؟
ـ لدى محامي الدفاع.

وهنا طلب الرئيس السجل. ولما رآه وجد ان التاريخ مطموس ومصحح ان التاريخ الحقيقي المدون اصلا في السجل هو يوم ٢٩ وليس ٢٨ كما يدعي الشاهد وهذا يعني ان الشاهد زور في التاريخ ليساعد المتهم على تضليل المحكمة.

هنا، وقف المدعي العام وطلب توقيف الشاهد لادلائه بمعلومات كاذبة في طريق تحريف التاريخ. وقد أوقف لوغران فعلاً.

وتوالى شهود آخرون ذكروا هم أيضاً ان ليزورك كان في باريس يوم الثامن والعشرين يوم وقوع الجريمة لكنهم كلهم اتهموا بالكذب والتضليل.

وجاء اليوم الثالث. في ذلك اليوم كان جميع الشهود الذين احضروا يجمعون على ان المتهم غينو كان يوم الجريمة في باريس وقد كانوا جازمين في اقوالهم حتى خُيّل للحاضرين ان هذا المتهم افلت من قبضة الاتهام وان سراحه لا بد ان يطلق.

هنا، استدعي الرئيس الشاهد لوغران ثانية حضر هذا ويداه في الاصفاد. سأله الرئيس:

ـ هل تصر على اقوالك بالامس؟
ـ كلا يا سيدي لقد اعتمدت في أقوالي على سجلي لكن سجلي مزور ولا علاقة كما لا علم لي بهذا التزوير.

والتفت الرئيس الى ليزورك ليسأله:

ـ هل لديك ما تقوله؟

ـ كل ما اريد قوله هو ان لا تؤخذ شهادة لوغران في الاعتبار.

هذا الجو الذي خلقته شهادة لوغران وضع محامي ليزورك امام صعوبات جمة في الدفاع عن موكله. وقف هذا المحامي ليقول ان من شهد انه رأى ليزورك يوم وقوع الجريمة في مكان وقوعها لا بد انه اخطأ والدليل هو ان احدى السيدتين قالت انها رأت غينو في حين اثبت شهود آخرون ان غينو كان في باريس واذا كانت هذه السيدة قد أخطأت في غينو فلماذا لا تخطيء في ليزورك؟

بعد الاستماع الى محامي الدفاع، دخل المحلفون للمداولة واصدار القرار. ثلاثة من المتهمين كوريول وليزورك وبرنار ادينوا بارتكاب جريمة قتل ساعي البريد ومساعده وبسرقة

المال. المتهم الرابع ريشار ادين باخفاء المسروقات اما المتهمان الباقيان فقد اطلق سراحهما.

وصدر الحكم باعدام الثلاثة وحبس الرابع اربعا وعشرين سنة.

وما ان انتهت قراءة الحكم حتى اغمي على زوجة ليزورك في حين صرخ هذا قائلاً:

ـ سيأتي يوم تظهر فيه براءتي وعندها سيتفجر دمي فوق رؤوس المحلفين الذين أدانوني.

وهم الحضور بالخروج عندما وقف كوريول ليعلن بصوت عال:

ـ ليزورك وبرنار بريئان كل ما فعله برنار هو انه اعارني الخيول. اما ليزورك فلم يساهم في الجريمة لا من قريب ولا من بعيد.

واحس الجميع بهول التصريح. عادوا الى الجلوس. لكن الرئيس اعلن اختتام المحاكمة فانسحب كل الحاضرين.

غير ان كوريول اصر على أعترافه وكتب رسالة بذلك وجهها من سجنه الى السلطات القضائية قال في هذه الرسالة:

«الجناة الحقيقيون هم دوبوك وفيدال وروسي ولابورد، والمهماز الذي وجد مكسوراً هو مهماز دوبوك وليس مهماز ليزورك».

هذه الرسالة احدثت ضجة في اوساط قصر العدل. حتى ان قاضي التحقيق نفسه اهتم للموضوع وهذا ما دفع مجلس الخمسمائة مجلس النواب آنذاك الى وضع يده على القضية وقد كلف ثلاثا من اعضائه بفتح تحقيق جديد فيها لكن هذا التحقيق لم يأت بجديد.

وفي ٣٠ تشرين الاول ـ اكتوبر سنة ١٧٩٦ اقتيد ليزورك وبرنار وكوريول الى الساحة المعهودة لمثل هذه المناسبات، ساحة الغريف. كان الثلاثة في مستوى رباطة الجأش المطلوبة من الرجال لكن كوريول لم يتوقف طوال الطريق عن الصراخ:

ـ انا مذنب لكن ليزورك بريء.

لكن صرخاته ذهبت في مهب الريح بعد لحظات كانت ثلاثة رؤوس تتدحرج الواحد تلو الآخر تحت شفرة المقصلة.

وفي شتاء سنة ١٨٠١، وكان البرد القارس يلفح المدينة افتتحت في فرساي محاكمة دوبوك الذي ذكر كوريول منذ اربع سنوات ونصف انه احد منفذي الجريمة والذي القي القبض عليه لاقترافه جرائم متعددة منها جريمة حقيبة بريد ليون.

كيف تم القاء القبض على دبوك هذا؟

بعد عشرة اشهر من جريمة حقيبة البريد القي القبض في مرسيليا على شخص يدعى دوروشا وقد تبين من اعترافاته امام قاضي التحقيق انه اشترك في عملية السطو على الأموال وقتل ساعي البريد ومساعده مع كل من كوريول وفيدال وروسي هؤلاء هم الذين سماهم كوريول عقب صدور الحكم باعدامه اما ليزورك فقد اجاب دوروشا ، عندما سأله القاضي عن معلوماته عنه ، بقوله :

ـ لم يسبق لي ان سمعت بهذا الاسم .

هنا، بدأ القضاة يطرحون على انفسهم سؤالا مقلقاً لضمائرهم: ألم يكن من المناسب والعدل في ان يتوقفوا امام اعترافات كوريول وبتريشوا في الاصرار على اعدام ليزورك؟

في ٦ نيسان ـ ابريل صدر الحكم باعدام دوروشا وفي ٩ آب ـ اغسطس نفذ الحكم وبهذا بلغ عدد الرؤوس في هذه الجريمة اربعة .

واستمرت الشرطة في تحقيقاتها وها هي توقف المتهم فيدال. وفي الثاني من شهر كانون الاول ـ ديسمبر من عام ١٧٩٨ كان رأسه يتدحرج هو الآخر تحت شفرة المقصلة وبذلك اصبح عدد الرؤوس خمسة .

والآن أتى دوردوبوك . في المحكمة اكثر من عشرين شاهدا اكدوا ان دوبوك ليس المجرم باستثناء امرأة واحدة . هؤلاء الشهود توالوا على استعراض دوبوك بعد ان أمرت المحكمة بوضع طاسة من الشعر المستعار الاشقر على رأسه باعتبار ان الشخص الذي شوهد انذاك والذي قيل انه ليزورك كان اشقر الشعر وخوفاً من ان يكون دوبوك قد غير من شكله بوضع شعر مستعار للتضليل .

لكن، وعلى الرغم من رجحان شهود النفي ، فقد كان رأس دوبوك السادس في هذه القضية .

وظلت قضية ليزورك تشغل النفوس وتشغل الضمائر في آن واحد ففي الفترة بين سنة ١٨٠٦ و ١٨٥٤ نظرت محكمة التمييز في خمسة عشر تحقيقاً في الموضوع . وعام ١٨٦٨ طلبت ابنة المحكوم اجراء التحقيق السادس عشر،هذا الطلب ردته المحكمة متخذة موقفاً نهائيا في تجريم ليزورك وهو يقضي بتثبيت الحكم وحفظ الملف .

وبعد ايام قليلة عثر على الابنة جثة هامدة طافية على سطح مياه نهر السين في باريس .

واقل ما يمكن قوله في هذه القضية هو ان ليزورك قسم القضاة والباحثين والمؤرخين بين مدين ومبرىء. بقي ان نشير الى استغراب يدور حول عدم اخذ احد في الاعتبار صراخ كوريول المتكرر ببراءة ليزورك سيما وان مصلحته في اعترافه هذا منتفية بعد ان حكم وقبل تنفيذ الحكم بلحظات.

كلمة اخيرة نسوقها بمناسبة هذه القضية «الطويلة» وهي ان تظل، على الرغم من خطأ مفترض، للعدالة قوتها وللقضية المحكمة رسوخها.

محاكمة المسيح

كانت الشمس تشرق خجولة على مدينة القدس صبيحة ذلك اليوم الرابع عشر من شهر نيسان حسب التسمية في التقويم العبري من العام ٣٠ للميلاد. وكانت المدينة ذات المئة والخمسين ألف ساكن تعج بالناس يتزاحمون في أزقتها الضيقة. صحيح ان ضخامة القدس لم تكن لتقاس بضخامة الاسكندرية وروما في ذلك الحين. لكن الصحيح ايضا هو ان هذه المدينة كانت الأعظم في جميع انحاء يهودا المقاطعة التي يحكمها منذ العام السادس للميلاد، ممثل لامبراطور روما مطلق الصلاحية. واليوم ولأربع سنوات خلت هذا الحاكم هو بونس بيلات.

امس، اوقف رجل في القدس، وها هو اليوم يدخل قاعة «الحجارة المصقولة» مقر المحكمة اليهودية العليا. كان يلبس ثوبا صوفيا لا يأتلف في اناقته مع مظهر وجهه المتعب، المغطى بلحية كثة والمحاط بشعر مسترسل. هذا الرجل يدعى يسوع الناصرة، ويطلقون عليه اسماً آخر هو يسوع المسيح. عمره ثلاث وثلاثون سنة، فقد ولد في السنة الرابعة السابقة للعصر الذي سيحمل اسمه فيما بعد.

عندما القي القبض عليه كان مع تلامذته على جبل الزيتون فمن هو؟ هل هو نبي ام هو واحد من هؤلاء المتنسكين الذين كانت يهودا تعج بهم في تلك الحقبة المضطربة؟ بالنسبة لرجال الدين والفريسيين المتشددين والمحافظين كان يسوع يبدو وكأنه خطر حقيقي عليهم وعلى تزمتهم. وقد ايقنوا من ذلك عندما سمعوه يبشر بأفكاره الجديدة منذ دخوله القدس، يوم الاحد الماضي فقد احدث تبشيره هذا ضجة في صفوف الشعب ناهيك عن الاثر الذي احدثته المعجزات التي قام بها امامهم والتي بهرت عيونهم واستحوذت على البابهم. كل هذا جعل الطبقة الدينية توجس خيفة منه كما نظر اليه ممثل الامبراطور نظرة فيها الكثير من عدم الارتياح سيما وانه تعب من القضاء على انتفاضات دينية دموية متلاحقة.

لهذا كله، القي القبض على الرجل، وقد ساعد في ذلك احد مرافقيه، يوضاس،

الذي دل على مكان وجوده في أعالي جبل الزيتون.

قاعة الحجارة المصقولة حيث ستجري محاكمة يسوع جزء من «معبد القدس» وهذا المعبد لا يمكن ان يكون له مثيل حسب المفاهيم اليهودية، ذلك ان الله الواحد الأحد لا يكون له سوى معبد هو الآخر واحد احد.

وهذا المعبد بني على انقاض معبد سليمان الذي هدم على يد نبوخذ نصر وقد امر ببنائه هيرود الكبير عام ٢٠ قبل المسيح واستغرق هذا البناء خمسين سنة كان طوالها عشرة الاف عامل والف رجل دين يعملون لانجازه اما رجال الذين فقد تولوا بناء الاماكن الأكثر قداسة وذلك لعدم جواز ولوج سواهم هذه الأماكن.

ولم يكن بناء المعبد قد اكتمل في ذلك اليوم من شهر نيسان من العام الثلاثين للميلاد. لكن هيكله العام والمهيب كان قد انجز بطوله البالغ ٢٢٥ متراً واعمدته الرخامية وسقوفه المذهبة اما موقعه فمطل على المدينة بكاملها بل هو مدينة بذاته.

استقر القضاة السبعون كل في مقعده وعلى رأسهم كبير الكهنة محاطاً بحماة العدالة اسماعيل واليعازر وشيمون وجوناثان. الى جانب كل هؤلاء وعلى مسافة جلس وجهاء القدس وخلفهم جلس الكتاب.

كان المدعي الرئيسي كبير الكهنة نفسه، ولم يكن في نظام المحاكمات آنذاك ما يشبه حاليا مركز المدعي العام. ففي يهودا كما في كل دول ذلك العصر كان كل مواطن مؤهلا للقيام بهذا الدور واذا ما أصدرت المحكمة العليا حكما بالإعدام وهذا ما كان يتمناه كبير الكهنة ليسوع فان هذا الحكم لا يصبح نافذا الا بعد اقترانه بامر تنفيذي من ممثل الامبراطور الروماني.

في هذا الجو المهيب كان الشهود يتلعثمون ويتناقضون. اما المتهم فلم يكن كما يبدو يشعر بحاجة للدفاع عن نفسه.

ويتقدم شاهدان ليؤكدا الواحد تلو الآخر انهما سمعا المسيح يقول:

ـ اهدموا هذا المعبد وانا كفيل ببناء آخر ودونما حاجة لسواعد رجال.

هذا الاتهام الخطير كاف لاصدار اقسى الأحكام. هل حرض يسوع مواطنيه فعلا على هدم المعبد؟

ويأمر كبير الكهنة من يسوع تقديم ايضاحات حول الاتهام:

ـ هل لديك جواب عن هذا؟

الواقع ان يسوع لم يقل ما ذكره الشاهدان، كل ما قاله هو: «اذا هدمتم المعبد فسأتولى

اعادة بنائه» وجلي ان الاختلاف بين القولين بين. لكن المسيح فضل السكوت.

هنا بدأ الانفعال على رئيس الكهنة فبادر موجها كلامه الى المتهم:

ـ اطلب اليك باسم الاله الحي القيوم ان تقول ما اذا كنت المسيح ابن الله.

وتكلم يسوع للمرة الاولى ليقول:

ـ نعم. انا كذلك. منذ اللحظة سترون ابن الانسان يجلس على يمين العظمة الالهية. وما ان سمع هذا الجواب حتى هب الرئيس منفعلا، ومزق ثيابه بحركة مسرحية وهو يصرخ:

ـ مساس بالذات الالهية!

او نحتاج الى دليل آخر؟ لقد سمعتم بآذانكم ما قاله المتهم.

فما رأيكم؟

وجمع القضاة على جواب واحد:

ـ انه يستحق الموت.

وهكذا لفظ الحكم منذ بدء المحاكمة. لكن الأمر، مع ذلك يحتاج الى حكم رسمي تتوافر فيه شكلياته. يضاف ان قضاة المحكمة العليا لا يملكون السلطة لاعطاء حكم الاعدام قوة التنفيذ فهذا من صلاحية الممثل الروماني وحده لذا فقد قررت المحكمة تسليم المحكوم فورا الى ممثل الامبراطور بونس بيلات.

وامر هذا الممثل غريب. فهو ذو طبع ظنين ومتساهل اجمالاً. انه مستعد لتقبل في الآراء وكل ما يطرح امامه من افكار شريطة ان لا تعكر صفو الأمن. يضاف الى ذلك، وهذا ربما الأخطر، انه يأخذ بآخر رأي يطرح أمامه.

وبكلمة مختصرة كان بيلات يمثل عقلية الطبقة العليا في روما. لم يكن يفهم الشيء الكثير عن الشعب اليهودي الذي يحكمه وعن عاداته وديانته حتى انه لم يكن يسكن القدس الصاخبة لقد اختار اقامته بعيدا على شاطىء البحر. ولم يكن يأتي الى القدس الا اذا اضطرب حبل الأمن او في المناسبات الدينية البارزة، وعيد الفصح هو الذي أتى به في تلك الليلة الى القدس.

احضر يسوع الى القصر حيث كان بيلات وفي الطريق واكبه عدد من الناس جلهم من انصار الكهنة بالاضافة الى حرّاس المعبد والكتبة.

ووقف بيلات في باب قصره يسأل رئيس الكهنة:

ـ ما هي التهمة المنسوبة الى هذا الرجل؟

واجاب المواكبون من الناس:

- انه يحرض امتنا على الثورة. انه يمنعنا من دفع الضرائب للقيصر ويقول انه يسوع الرب. .

لم يكن هذا الاتهام الاخير هو الذي يشغل بال بيلات بل الاتهامان الاولان. . ومع ذلك فقد رأى في المسيح الهدوء والايمان بأجلى مظاهرهما مما دفعه لسؤاله:

- امتك وكبار كهنتك سلموك لي. فماذا صنعت؟

- مملكتي ليست من هذا العالم، ولو كانت كذلك لرأيت حراسي يحاربون من اجل ان لا أسلم لك.

- اذا انت ملك؟

- انت تقول انني ملك انا ولدت لهذا وأتيت الى هذا العالم من اجل هذا: ان اكون شاهداً على الحقيقة.

- ما هي الحقيقة؟

لم يجب يسوع كان الحوار بينهما اشبه بحوار الطرشان. . ذلك لنشأتهما من عالمين مختلفين. وخرج بيلات الى المدخل ليقول للناس المتجمعين:

- لا ارى مبرراً كافياً للحكم على هذا الرجل.

وتعالت الاحتجاجات وسط صخب وفوضى شديدين وعندما رأى بيلات ان الناس غير راضين عن اطلاق سراح المسيح خرج بحيلة وقال لهم:

- لما كان المتهم من الجليل - فان الأولى بمحاكمته هو الحاكم المحلي لمقاطعته.

ووصل المسيح امام حاكم الجليل. وسأله هذا ان يجترح امامه معجزة ولما لم يمتثل امر بابعاده عنه دون ان يقرر شيئاً بشأنه.

وعاد يسوع من حيث أتى، عاد الى سلطة بيلات الذي احتار بأمره، ولما كانت هناك عادة شائعة تقضي بان يطلق الحاكم سراح سجين واحد ليلة الفصح يختاره الناس مجتمعين فقد أحضر يسوع امامهم واحضر معه باراباس وهو مجرم قاتل وسألهم ان يعينوا من من الاثنين يودون اطلاق سراحه، فجاء الجواب بالاجماع:

- باراباس، نريد باراباس.

وتجاهل بيلات رغبة الجماهير ليسألهم ثانية:

- ما رأيكم لو اطلقنا سراح يسوع بعد تعذيبه؟

فجاءه الجواب صاعقاً:
ـ ليصلب! . . . ليصلب!

ما الذي يجري؟ هذه الجماهير التي كانت تتبع يسوعاً بكل حماس وخشوع يوم الاحد الماضي، ماذا دهاها لتطالب اليوم بصلبه؟

الواقع ان ذلك قد يكون نتيجة سوء تصرف من بيلات نفسه. لقد أراد انقاذ المتهم بعد ان لمس فيه البراءة لكنه اظهره وكأنه احد المحتمين بالرومان وممثلهم وهذا ما دفع الجماهير مشحونين بعفويتهم المناوئة للحكم الروماني الى ان يقفوا ضده. يضاف الى ذلك ان السجين الآخر بارباراس كان مشاغباً وهذا ما اعطاه حظوة خاصة لدى الواقفين في باب القصر.

ولا ننس الاثر الذي مارسه الكهنة على الناس وهم من هم في عدائهم للمسيح، او لم يحكموا عليه بالموت في بدء محاكمته؟ ثم ان منطق الجماهير يقود بالطبيعة الى مثل هذه النتائج. ذلك ان تحريك عواطف الناس سلباً ام ايجاباً لا يتطلب اكثر من ايحاء يحمله بعض المدسوسين من عملاء لسلطة او لرغبة.

وحاول بيلات مرة اخرى واخيرة انقاذ الرجل. عاد ليظهر ثانية على عتبة القصر وبجانبه المسيح متوجاً بالشوك. علّ هذا المنظر يستدر عطف الجماهير ويمتص تعطشهم للانتقام. وقف بيلات وقال:

ـ ها هو الرجل!

لكن الصرخات تعالت، أكثر عنفاً:

ـ الصلب! الصلب!

وعاد بيلات يسألهم:

ـ أأصلب ملككم؟

وجاء رد صاعق:

ـ لا ملك لنا سوى قيصر!

هنا، ما كان من بيلات الا ان قال كلمته المشهورة، وهو يغسل يديه:

ـ ما أنا بمسؤول عن هذا الدم!

والبقية من القصة يعرفها الماضي، كما يعرفها الحاضر، انها ملك التاريخ، ملك الحضارة وملك كل منا.

دانتون

لنعد الى الثاني من شهر نيسان- ابريل من سنة ١٧٩٤، وبالتحديد، الى قاعة «الحرية» في قصر العدل في باريس. في ذلك اليوم، بدأت محاكمة «زمرة الخمسة عشر مشبوهاً»، أو بتعبير مألوف آخر «الخمسة عشر متراخياً»، كما كان يحلو للبعض تسميتهم، نتيجة لتعبهم من رؤية الدماء تتفجر من الاعناق تحت مقصلة الثورة الفرنسية. من بين هؤلاء، وأبرزهم كان ديمولين ودانتون.

وما احتشد هذا الجمهور الغفير في قاعة المحكمة، الا ليرى ويسمع دانتون، ذاك الرجل الضخم، ذا المنكبين العريضين والوجه الساحر القبيح. ويتساءل اصدقاؤه في ما بينهم عن طبيعة التهمة الموجهة اليه والتي اوصلته الى حيث هو اليوم، فيحارون بالجواب. كل ما يعرفونه هو أن مثلهم الأعلى في قوة الشخصية وصلابة الوطنية هو اليوم وجهاً لوجه أمام القاضي هيرمان ومستشاريه الأربعة.

بجانب هؤلاء، جلس المدعي العام فوكييه. وقبالتهم جميعاً، استقر المحلفون السبعة، الذين اختيروا من بين المتحمسين لخط روبسبيار الثوري ونهجه. أما القاعة، فقد احتل واجهتها اعلانان، الأول تضمن الدستور، والثاني شرعة حقوق الانسان.

افتتح الرئيس الجلسة في جو متشنج تسببت الأحداث والظروف في خلقه. فمعلوم أن فرنسا كانت تحارب، في ذاك الربيع من عام ١٧٩٤، نصف أوروبا كما أن الحرب الأهلية في مقاطعة فاندي كانت على أشدها. وهذا ما حدا بروبسبيار الى تجميع كل السلطات في يديه الحديديتين. لم يكن هذا الرجل، في تلك الحقبة يريد أن يصطدم بأية معارضة. لقد تخلص من جناح هيبير المتطرف. والآن، لم يعد باقيا عليه سوى التخلص من دانتون وزمرته.

هذه النية برزت لدى روبسبيار بشكل واضح في خطاب له في الجمعية التأسيسية

حيث قال: «ان أعداء الشعب الفرنسي فريقان، الأول يدفعنا صوب الضعف، والثاني نحو التطرف» لقد تخلص من فريق التطرف، فريق هيبير، وها هو اليوم يتحفز للاجهاز على «زمرة التراخي» المتمثلة بدانتون وأصدقائه.

لم يكن يتبادر لذهن دانتون أن أحداً يمكن أن يجرؤ ويتحداه بالشكل الذي حصل. كان متربعاً على قاعدة عريضة من الشعبية العارمة. ثم، أوليس هو من ساهم في انقاذ فرنسا ابان اجتياح عام ١٧٩٢، عندما القى خطبته الملهبة للمشاعر والتي نادى فيها الشعب للاقدام «ثم الاقدام، ثم الاقدام».... ؟

لكن روبسبيار تجرأ وألقى القبض عليه وعلى مؤيديه. ولم يكتف بذلك، بل أقحمه، على مقاعد المتهمين في المحكمة، بعدد من المتهمين بتهم مختلفة، أقلها الرشوة وشراء الضمائر والتلاعب في اسعار الأسهم. فما هي علاقة دانتون بهؤلاء؟ لا شيء طبعاً لكن السلطات الثورية أرادت بهذا اظهار دانتون ورفاقه وكأنهم بمستوى المتهمين الآخرين، وذلك امعاناً بأبهات بريقهم وتمهيداً، بالتالي، للانقضاض عليهم وافتراسهم.

يوم أمس أوقف دانتون ورفاقه وأودعوا قصر اللوكسمبورغ الذي تحول الى سجن، شأنه شأن الكثير من القصور الأخرى في ذلك الربيع من عام ١٧٩٤. والأمر لا يعود مستغرباً اذا ما علمنا أن عدد السجناء السياسيين بلغ آنذاك اكثر من سبعة آلاف في باريس وحدها. فور وصوله الى القصر، السجن، أخضع لاستجواب أولي شكلي. في هذا الاستجواب، سئل عما اذا تآمر ضد الجمهورية، فأجاب، والبريق يشع من عينيه، بأنه كان جمهورياً في عهود الاستبداد، وسيموت هكذا على الرغم من كل شيء. وعن سؤال عن تسمية محام له ،أجاب باستعلاء بأنه هو سيكون محامي نفسه.

وتبدأ المحاكمة ويلتفت رئيس المحكمة نحو دانتون، فينبري هذا الأخير ليجيب الرئيس بصوت أشبه بالصراخ، عن سؤاله الذي لم يتفوه به بعد:

- اسمي جورج جاك دانتون، عمري ٣٤ سنة، محل ولادتي أرسيس، محام، نائب في الجمعية الوطنية، محل اقامتي باريس. أما بعد الآن، فسأسكن في العدم، سيكون اسمي في البانتيون مع العظماء، وسينحني الشعب أمام رأسي، نعم، رأسي المفصول بالمقصلة!

ودبت قشعريرة في الحاضرين. كيف لا ودانتون هو ذاك الخطيب المفوه، الذي، ان تكلم، ارتجت لصوته القاعات والساحات؟

بعد ذلك، بدأ كاتب المحكمة بقراءة قرار الاتهام وقد استهله بالمتهمين الآخرين،

الذين يحاكمون بالفساد والرشوة . وعندما وصل الى دانتون ورفيقه البارز الآخر ديمولين ، قال أنهما ليسا أقل ذنباً وارتكاباً من هؤلاء الذين سبق ذكرهم .

الى هنا فقط ، ويرفع الرئيس الجلسة وسط احتجاج المتهمين واستغراب الحضور، الذين أحسوا ، للمرة الأولى ، ببعض الارتياب . فمحكمة الثورة ، وهي آلة العدالة الرهيبة ، التي تحكم وتنفذ احكامها خلال أربع وعشرين ساعة ، لا أكثر، كانت ، حتى اللحظة ، تحكم بالأعدام . فهل ستذهب ، هذه المرة ، الى هذا الحد؟ هل ستذهب مع دانتون القوي ومن خلال تهمة هشة ، كعادتها ، حتى فصل الرأس ودحرجته كما تدحرجت مئات الرؤوس الأخرى؟

وجاء اليوم التالي ، وسيق دانتون من زنزانته الى القفص ، وهو يهدد ويتوعد . دخل القاعة ليرى مفاجأة غير منتظرة : الجنرال وسترمان اضيف الى قافلة المتهمين . وها هو يجلس معهم كتفاً بكتف . أمر يدعو للعجب . اليس الجنرال وسترمان ، ذلك الثوري حتى العروق ، هو الذي أبلى البلاء الحسن في حرب فاندي الأهلية ، وأعطى للثورة أكاليل الغار فيها؟ ما ذنبه ليحشر مع المحشورين في ذلك اليوم؟ ذنبه هو أنه صديق لدانتون . فهو اذاً واحد من زمرته وعلى هذا ، يجب أن يحاكم وربما أن . . .

وقف الجنرال ليقول باعتزاز واستياء عميقين :

ـ اطلب من المحكمة أن تسمح لي بنزع كل ملابسي ليرى الشعب الجروح السبعة التي اصبت بها دفاعاً عن الثورة . ستة من هذه الجروح هي من الجهة الأمامية من جسمي ، وواحدة فقط من الخلف ثم ما هي التهمة الموجهة الي؟

ويقف دانتون منتفضاً ليقول ، هو الآخر :

ـ لو يسمح لي بالكلام ، وأنا واثق أني سأربككم ، أيها السادة . اذا كان الشعب الفرنسي لا يزال كما أعرف ، فسأكون أنا من يطالب بالعفو عنكم والرحمة بكم !

لقد فرض دانتون بكلامه هذا على المحكمة الجو المنتظر منذ البداية . لكن المحكمة ، قصداً أو من غير قصد ، تجاوزت ما قيل واستدعت الشاهد الوحيد في مجلس النواب ، النائب كامبون . جاء هذا النائب ليدلي بما لديه بشأن الفساد ، موضوع تهمة المتهمين الآخرين ، لكن ، ما علاقة دانتون ورفاقه بهؤلاء؟ هذا ما لم يتطرق اليه الشاهد . ولدى سؤاله عن هذه النقطة من قبل دانتون نفسه ، ابتسم ولم يجب . هنا ، ثار دانتون وطلب أن تستمع المحكمة الى شهادات بعض من اعضاء المجلس عدّد أسماءهم . غير أن المحكمة ، وقد رأت نفسها محرجة بالطلب ، أجابت بأنها ستحيل رغبة المتهم الى المجلس نفسه للنظر

فيه. بعد ذلك، بدأ الاستجواب. أول سؤال وجهته الى دانتون كان يتعلق باتهامه بكتم حقيقة خائن للثورة دوموريز. فأجاب دانتون:

ـ ان الاتهامات التي يلفقها البعض ضدي ما هي الا افتراءات مردودة. أين هم هؤلاء المفترون؟ أين هم؟ ليظهروا ان كانت لديهم الجرأة. رأسي، ها هو، أيها السادة، أصنعه بتصرفكم. ولن أتأخر عن التخلص منه، اذا كان ذلك في مصلحة الوطن.

وأكمل مخاطباً الرئيس:

ـ لقد حاربت ميرابو الذي خان، كما خان دوموريز. أجهضت كل مشاريعه، كلما كنت أرى ضرراً عاماً فيها.

عذراً أيها السادة اذا كنت اتكلم بانفعال. أنا أعرف أن الهدوء دليل على البراءة. لكن انفعالي ليس سوى نتيجة لثورتي على الظلم، على الافتراء.. وأي موقف ينتظر من ثوري مثلي يجد نفسه مكاني؟

هذه الكلمات والذكريات التي «يثيرها» المتهم كانت كافية لالهاب مشاعر الحاضرين. ودانتون يعرف أثر كلامه على المسامع. لذلك، فقد توجه الى الشعب في كل مواقفه. وها هو اليوم يفعل الشيء نفسه. ولا أخال أحداً يظن أنه مخطىء، الم يقلب هذا الشعب الملك والملكية؟ ألم يمزق أعداءه وأعداء الثورة دون هوادة؟ هذا الشعب تراه اليوم يصفق لما قاله دانتون. ويضطر الرئيس لفرض النظام، وعلى وجهه ملامح الامتعاض بارزة. وللتخلص من المأزق، التفت الى المتهم وقال له:

ـ دانتون، يبدو لي أنك تعبت. سأعطيك الكلام حتى ترتاح.

وينفجر دانتون والحاضرون محتجين صاخبين. الواقع أن أحداً لم يكن متعباً، اللهم الا الرئيس نفسه.. من سماع ما لا يرضيه.

ولكن على الرغم من الاحتجاجات، رفعت الجلسة. وبرفعها، وضع حد لموقف كان يمكن أن يتفاعل نحو الأسوأ.

وبدأت الجلسة الثالثة في اليوم التالي. وفي بدئها، وقف دانتون ليسأل ما اذا كان الشهود الذين طلب ان تسمع شهاداتهم قد استدعوا لهذا الغرض من مجلس النواب. ارتبك الرئيس، فبادر فوكييه، المدعي العام، فوراً الى انقاذه قائلاً:

ـ ان استدعاءهم، وهم نواب، يستلزم اذناً من لجنة السلامة العامة وهذا ما نحن في انتظاره. وانفجر دانتون ساخطاً ومتهماً روبسبيار، زعيم الثورة في تلك الآونة،

بالأنحراف. كما اتهم المحاكمة بالمهزلة. واختلط الحابل بالنابل داخل القاعة. ولم تهدأ الأصوات الا بعد أن أعلن فوكييه، بصوت مرتفع ومنفعل، أنه سيكتب فوراً الى المجلس للوقوف على رأيه بهذا الصدد. ويدأ فوكييه فعلاً بتسطير الرسالة، فيما كانت المحاكمة تستمر. وفور الانتهاء من كتابتها، حملها ساع الى المجلس.

وما هي الا ساعة حتى عاد الساعي بالجواب. تسلمه فوكييه مضطرباً. لكن اضطرابه ما لبث ان تبدد لتحل محله ابتسامة المنتصر لقد جاء في الرسالة أن المجلس يفوض الى المحكمة صلاحية اتخاذ ما تراه من اجراءات. وفي حال المساس بكرامة المحكمة أو بسير عملها من قبل المتهمين أو من قبل بعضهم، تكليفها اتخاذ اقسى الاجراءات بحقهم، وعلى الفور.

جاء جواب المجلس كالصاعقة على رؤوس الجميع، باستثناء خصوم دانتون. وعندما وقف هذا الأخير، بعد أن صحا من أثر الصدمة، ليصرخ متهماً ومتوعداً، رفع الرئيس الجلسة. وانصرف الجميع في جو مكفهر، أين منه أجواء الجلسات السابقة الصاخبة!

وجاء اليوم الرابع والأخير لتبدأ فيه الجلسة عند الساعة العاشرة صباحاً ويقف دانتون ليسأل السؤال اياه:

- أين الشهود الذين طلبت أن تستمع اليهم المحكمة؟

فيجيبه فوكييه، بثقة هذه المرة، بعدم لزوم الاستماع اليهم. واضاف ملتفتاً نحو المحلفين:

- اذا كنتم قد اكتفيتم بما توافر لديكم من المعطيات عن القضية، فأن بامكانكم الاختلاء لاصدار القرار.

وانفجر دانتون:

- هذا استبداد، هذا اغتيال للعدالة. وفروا علينا محاكمتكم أيها القتلة ارسلونا فوراً الى المقصلة!

ولم يكن فوكييه يتمنى أكثر من ذلك. لماذا لا ينتهز الفرصة ويطبق ما فوضه به المجلس عند المساس بكرامة العدالة. وها هو يلتفت نحو الرئيس ليقول له بهدوء المصمم:

- سيدي الرئيس، اطلب طرد المتهم من القاعة لاهانته المحكمة.

فما كان من الرئيس، الا أن نفذ الطلب بكل صلف وأمر باخراج المتهمين، كل

المتهمين ، واعادتهم الى السجن . وتم انتزاع المساكين من على مقاعدهم في القفص على الرغم من اعتراضهم ومقاومتهم . وهكذا ، ستصدر الأحكام غيابياً .

داخل غرفة المذاكرة ، لم يكن من السهل على المحلفين الاجابة بنعم عن كل أسئلة الرئيس . فالأمر يتعلق هذه المرة بدانتون . لكن الرئيس والمدعي العام وسائر اعضاء المحكمة أرخوا بكل ثقلهم ونجحوا . صحيح أن القرار كان صعباً . لكنه صدر أخيراً وبالشكل الذي أراده خصوم دانتون .

عن جميع الأسئلة ، جاء القرار بالايجاب دانتون ورفاقه كلهم سيعدمون بعد دقائق ، أخرج المتهمون الى القاعة للاستماع الى الحكم . وقبل أن يبدأ الكاتب بالقراءة ، بادره دانتون قائلاً :

ـ لا لزوم لذلك . الأفضل ان تقودونا مباشرة الى المقصلة . لا أريد أن أسمع حكمكم ، بل أريد أن أبصق عليه .

ولما كانت أحكام المحكمة الثورية تنفذ خلال مهلة أقصاها أربع وعشرون ساعة من صدورها ، فقد كان يوم صدور الحكم على دانتون ورفاقه يوم تنفيذه أيضاً . وتاريخ هذا اليوم كان السادس عشر من شهر جرمينال ، حسب تقويم الثورة ، في السنة الثانية ، والموافق للخامس من شهر نيسان ـ ابريل من عام ١٧٩٤ .

وفي الساعة الرابعة من بعد الظهر ، كانت عربتان تخرجان من قصر العدل متوجهتين الى ساحة الثورة . على الطريق ، كان الناس يحتشدون بكثافة . وقد أراد رفاق دانتون استنهاض هممهم ، فصرخ من داخل عربته :

ـ أنا رسول الحرية . لا تتركوني أموت . النجدة !

لكن أحداً لم يتحرك ، أما دانتون ، فقد قال للمستنجد :

ـ اهدأ . انهم أنذال . .

تابع الموكب سيره حتى وصل الى الساحة ، حيث المقصلة ، كان الحكم يقضي بأن يعدم دانتون بعد رفاقه . أربعة عشر رأساً تدحرجت أمامه . وعندما جاء دوره ، صعد الدرج دائساً على دماء رفاقه . ولما وصل ، التفت الى جلاده وقال له بهدوئه وقوة شخصيته المعهودين :

ـ اعرض رأسي على الشعب فهو يستحق أن يعرض !

هذا الشعب ، الذي قال عنه دانتون أثناء محاكمته أنه سيمزق أعداءه ، لم يخب الظن به ، فقبل مرور ثلاثة أشهر على ذلك اليوم الذي تدحرج فيه رأس دانتون ، أعدم روبسبيار كان ذلك في ٢٨ تموز ـ يوليو سنة ١٧٩٤ .

كاهن أوروف

في ٢٤ كانون الثاني- يناير سنة ١٩٥٨، وتحت ثلج كثيف يغطي مدينة نانسي الفرنسية، افتتحت محاكمة كاهن أوروف. في قفص الاتهام، حيث أدخل محاطاً بشرطيين اثنين، وقف المتهم نحيلاً، غائر العينين وفي يده صليب. وعن سؤال رئيس المحكمة التقليدي، أجاب بصوت متهدج:

- اسمي دينوابيه، غي، عمري سبع وثلاثون سنة، كاهن، أسكن في أوروف أوروف! من كان يظن أن هذه القرية الصغيرة، القابعة في أقاصي مقاطعة اللورين، ستدخل التاريخ في يوم من الأيام؟

عام ١٩٥٠، وصل غي الى أوروف ليكون كاهنها. ومنذ وصوله. خلق في القرية جواً من الحيوية بفضل النشاطات المختلفة التي تبناها ودعا الناس الى ممارستها. فمن مسرح الى سياحة الى سينما، كان هذا الكاهن العصري والنشيط يتنقّل. حتى أنه توصل الى اقناع الكثيرات من بنات القرية بمرافقته في رحلات سياحية الى الكوت دازور، جنوب فرنسا، في مجموعات كان يتولى هو تنظيمها وقيادتها.

هذه المجموعات، وهنا بيت القصيد، كانت حقلاً خصباً لمغامرات الكاهن العاطفية. حتى أن احدى فتيات القرية حملت منه، مما اضطره الى ارسالها الى الجنوب لتضع طفلها هناك. وعند عودتها، ذكرت لسكان قريتها أن الطفل مات عند الوضع. وكثر اللغط حول سلوك هذا الدخيل. لكن صاحبنا كان من البلاغة والفصاحة بحيث لم يكن يعدم وسيلة لاقناع الناس ببراءته. وهذا ما حصل بالفعل عندما استدعاه رئيسه لاستيضاحه عن الشائعات المتكاثرة حوله. وقد انتهى الأمر الى طمس الفضيحة مع الفتاة المذكورة انما لفترة محدودة.

وعام ١٩٥٦، حصلت مع الكاهن قصة مماثلة والفتاة هذه المرة، تدعى ريجين فالي.

عمرها ثماني عشرة سنة . جميلة وممتلئة . وقع الكاهن في غرامها بعد ما كان يتردد على أهلها كصديق للعائلة . ولم تكن الفتاة بعيدة بمشاعرها هي الأخرى ، عن التجاوب ، سيما وأن للكاهن الشاب حديثاً يدخل بسحره الى أعماق القلوب . وفي منتصف العام ، اعلنت لأهلها أنها حامل . لكنها ، خلافاً للأولى ، رفضت التخلص من المولود ، كما رفضت الافصاح عن اسم الأب .

كان القلق يستبد بالكاهن كلما اقترب موعد الوضع . ومما أثار الدهشة والاستغراب لدى الدوائر المختصة ، أنه طلب رخصة لاقتناء سلاح حربي . وقد علل ذلك ، في ما بعد ، بأنه كان ينوي الانتحار . غير أنه عدل عن تصميمه لأن «الانتحار جريمة لا تغتفر» خصوصاً اذا ما اقترفت من قبل كاهن .

لكنه فعل ما هو أفظع . ففي الثالث من شهر كانون الأول ـ ديسمبر من السنة نفسها ، تواعد مع الفتاة على اللقاء في طرف القرية . جاءت المسكينة وركبت معه في السيارة ، بناءً لطلبه . وبعد أن سار بها مسافة اصبح بعدها خارج القرية ، أوقف سيارته وعرض على الفتاة أن تتمشي معه . ضحكت للفكرة ونزلت من السيارة وبدأت تتمشى . أمرها بالعودة فضحكت ظناً منها أنه يمازحها . عندها ، ما كان منه الا أن شهر مسدسه وعاجلها بطلق ناري في رقبتها كان كافياً للقضاء عليها . لم يكتفِ بذلك ، بل وضع أذنه على بطنها عله «يطمئن» على من فيه . وعندما سمع نبضات قلب صغير ، استل من جيبه سكيناً فتح بها بطن الجثة وانتزع المولود حياً . انتزع ابنته وانقض عليها طعناً ، وعلى وجهها تشويهاً . وبعد أن تأكد من اتمام مهمته رمى بالجثتين في خندق على طرف الطريق وصعد الى سيارته وقفل راجعاً الى القرية . بقي أن نقول أنه لم ينس ، وهو الكاهن ، أن يعّمد الطفلة قبل الشروع بقتلها .

تأخرت الفتاة حتى ساعة متأخرة من الليل ، مما أقلق أهلها وجعلهم يسارعون الى «صديق العائلة» لمساعدتهم في البحث عنها . والحق أن الكاهن لم يبخل على هؤلاء بالخدمة . خرج واياهم في البحث عنها . وبعد وقت طويل ، ها هو «يهتدي» الى المكان ويبادر ، قبل غيره ، بالبكاء والانتحاب . . . وسط الصلوات والدعاء بالهام أهلها ، والهامه هو، الصبر والسلوان . . .

أما الكنيسة ، فلم تتخل عن ابنها «الزائغ» . لقد طمأنه كاهن السجن عشية المحاكمة قائلاً له : «سيكون لنا محلفون مناسبون» . كما أن كاهن نانسي كتب اليه يقول : سأبقى أباً لك وأباركك . كما اقبلك في غمرة حزنك» يضاف الى ذلك ، ما بذلته الكنيسة من مساع حثيثة لأن تجري المحاكمة بالسرعة القصوى والسرية المطلقة .

ويبدأ استجواب المتهم :

ـ لقد سبق ونصحك أحد زملائك بالاعتراف بفعلتك أمام رئيسك ، وكذلك بخلع ثوبك الكهنوتي . ربما، لو عملت بنصيحته لتغير الوضع بعض الشيء . .

ـ صحيح . لكني لا استطيع الافصاح عن سبب عدم سلوك هذا الطريق .

ـ عندما علمت بأن ريجين حامل ، ألم تفكر بالحل الذي اخترته في المرة المماثلة السابقة؟

ـ لم يكن هذا ممكناً يا سيدي . فقد رفضت ريجين فكرة الاجهاض .

ـ ماذا نويت عند ئذٍ؟

ـ فكرت بالرحيل . اتصلت بالسلطات العسكرية وسعيت لديها لأصبح مظلياً في سلاح الطيران .

ـ ألم تفكر باصطحاب ريجين معك؟

ـ الحق أقول ، انني فكرت بالرحيل وحدي .

وعاد الرئيس ليثير ظروف الجريمة وكيف أن الجاني صمم على قتل عشيقته وطفلها بمسدس هيأه مسبقاً . كما أثار قضية التمثيل بالجثتين بعد اقتراف جرم القتل . وكان جواب الجاني أنه لم يعرف ماذا صنع ، وأنه اليوم غيره في تلك اللحظة .

لم تكن الساعة قد أشارت الى الثانية عشرة ظهراً عندما انتهى الاستجواب . وبدأ الاستماع الى الشهود .

الشاهد الأول كان والدة المغدورة . كانت كلماتهاتقطر حزناً وأسى قالت أنها كانت على استعداد لاستقبال مولود ابنتها بكل سرور ، وأنها كانت ستربيّه كما يربىّ الأحرار .

هنا ، رد كاهن أوروف على هذه العاطفة بابداء أسفه واظهارندمه .بعد ذلك، أعلن الرئيس سرية الجلسة . في هذه السرية ، جرى الاستماع الى الأطباء النفسيين الذين أكدوا ، جميعاً، أن المتهم يتمتع بكامل قواه العقلية . وفي هذه السرية ايضاً، رافع محامي الاتهام . وكانت آخر جملة قالها في مرافعته :

ـ لا أدري ما اذا كان الله سيكون رحوماً بك ، أنت الذي سبق وادعيت خدمته . أما أنا ، فلا علم لي الا بعدالة البشر ، وهذه العدالة لن ترحمك .

ووقف بعد ذلك محامي الدفاع ليخاطب المحلفين ضارباً على وتر عواطفهم الكاثوليكية . ذلك أن هؤلاء اختيروا من بين المؤمنين . بعد أن استبعد منهم من كان يشك بكاثوليكيته . لقد قال في جملة ما قاله :

ـ يا اله المؤمنين ، اهبط من عليائك واستقر في هذه القاعة وفي قلوب المحلفين . قل لهم أن حق الحيـاة وارادة المـوت ملكـك وحـدك . وأنتم يـا من ستتحملون أصعب المسؤوليات ، ليكن حكمكم مبرئاً لكم من المثول بسببه أمام الله يوم الحساب الكبير .

ويسأل الرئيس المتهم عما اذا كان لديه ما يضيفه فيجيب وفي صوته نبرة الواعظ وعلى وجهه شحوب المرهق :

ـ أقر بجرائمي . لكن كيف حصل ذلك ؟ لا أعرف . لذلك اطلب الغفران من الله ومن عائلة من قتلت . كما أطلب الصفح من الكنيسة التي تعيش اليوم ساعات مفجعة بسببي . غير أني سأبقى كاهناً وسأمثل أمام خالقي بهذه الصفة . أما أنتم يا من تمثلون الله على الأرض ، فالرحمة منكم أطلب .

وخيم سكون ثقيل على القاعة . سكون شامل لم تعكره همسة . والصحيح هو أن الجاني ظل كاهناً كاتوليكياً . فهذه الصفة لا تزول الا بانكار التعاليم وفقد الايمان . أنه كاهن مجرم . لكنه ، بنظر الكنيسة ما زال كاهناً ، بكل ما في الكلمة من معنى .

مضى على المحاكمة يومان . وهذه المدة ، لا أطول منها ، هي التي تقررت لانهاء المحاكمة . كانت الساعة تدق الثانية عشرة والربع عندما اختلت هيئة المحلفين في غرفة المذاكرة . وبعد ساعة ونصف الساعة ، خرج هؤلاء بقرار ادانة ، انما مع أسباب تخفيفية . ووقف رئيس المحكمة ليعلن الحكم بالأشغال الشاقـة المؤبدة وبـالعطل والضـرر لعائلة الفقيدة .

لم يعجب هذا الحكم الحضور في قاعة المحكمة . وقد بدا عدم الارتياح هذا بالهمس وتطور الى انفعال وغضب . حتى أن حرس المحكمة اضطروا الى نقل السجين في سيارة خاصة ومن باب خلفي .

عشرون سنة أمضاها كاهن أوروف متنقلاً من سجن الى آخر ، لا سيما في سان ـ مالو حيث كان يعمل كأمين للمكتبة . بعد هذه المدة ، ونظراً لحسن سلوكه اطلق سراحه ليلتحق بأحد الأديرة ويمضي فيه بقية أيام حياته .

مركيز نايف

يوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول من عام ١٨٩٥ التأمت محكمة بورج للنظر في قضية مركيز نايف.

بدت القضية بالفعل منذ خمسة عشر شهرا عندما ارسلت زوجة المركيز رسالة الى النيابة العامة تتهم فيها زوجها بقتل ابنها بهدف طمس مطالبة الابن منها كشف نسبه من والدته وكذلك بهدف الحصول على ثروة هذا الولد المقدرة بستين الف فرنك سبق وخصه بها جداه لأمه، اماكيف انجبت المركيزة ابنها فقد تم ذلك نتيجة نزوة عابرة مع البستاني الذي كان يعمل عند ابويها وقبل زواجها من المركيز.

ولم تكتف المركيزة بكشف الجريمة والمجرم بل الحت بالمطالبة بالقبض على المركيز بالسرعة التي لا تسمح له بالهرب من قبضة العدالة.

القي القبض على المركيز ودامت التحقيقات خمسة عشر شهراً قبل ان تبدأ المحاكمة.

عندما انجبت المركيزة ولدها وقد سمي ايبوليت فينالدو خصه ابواها كما اسلفنا بمبلغ ستين الف فرنك وأوكلا امره الى مربية في مدينة اورليان ثم بدآ المساعي لايجاد زوج لابنتهما اللعوب هذا الزوج كان المركيز الماثل اليوم في قفص الأتهام وقد تم الزواج عام ١٨٧٥ اي قبل ما يقرب من عشرين سنة من تاريخ وقوع الجريمة.

ومركيز نايف هو ايضا ابن سفاح. لكن لقب الشرف الذي يحمله جعل منه الشخص المناسب للابنة الغنية اما حصيلة هذا الزواج فقد كانت في طوال سنواته ثلاثة أولاد صبيين وبنتا وربما كان الهاجس في ان لا ينكشف امام هؤلاء الأولاد وجود « نصف اخ » لهم عنصرا من العناصر الدافعة الى الجريمة.

عندما بلغ ايبوليت الثانية عشرة من عمره قرر المركيز وزوجته نقله من بيت مربيته في اورليان الى احد الاديرة ليبدأ تحضيره للرهبنة وهناك علم ان له اما لكن احدا لم يكشف له

ان امه ليست سوى هذه المركيزة التي انتزعته من كنف مربيته الحنون.

لم يجد الولد السعادة في الدير،كان يحلم باستمرار بالرجوع الى اورليان حتى انه هرب مرة من الدير وغاب عنه ثلاثة ايام اعيد بعدها بواسطة رجال الشرطة وعندما علم المركيز بالأمر جاء بنفسه ليأخذه من الدير وينقله الى ايطاليا دون اعلام احد وفي ايطاليا وضع الولد الذي اعطي صفة ابن المركيز كما اعطي اسما آخر هو مارتين في مدينة سورنتو وهي المدينة التي امضى فيها المركيز وعروسه شهر العسل عند زواجهما منذ سنوات طوال.

هناك في سورنتو، في العاشر من شهر تشرين الثاني من عام ١٨٨٥ اختفى ايبوليت ليشاهد في اليوم التالي جثة هامدة محطمة على الصخور فوق شاطىء البحر.

سعت الشرطة الايطالية لمعرفة الشخص الذي رافق الولد الى سورنتو، بغية الامساك بطرف الخيط الرابط للجريمة لكن جهودها باءت بالفشل وعندما عجزت نهائياً عن ذلك احالت ملف القضية للحفظ.

وغابت الجريمة في النسيان. الى ان قررت المركيزة وبعد تسع سنين فضح امر زوجها.

في قاعة المحكمة وقف المتهم في القفص قصير القامة زائغ البصر لم يكن يظهر على ملامحه اي ارتباك وها هو الرئيس يبادره بالسؤال التالي بعد التحديد التقليدي للهوية:

ـ هذا الولد، هل كان يضايقك؟

ـ كلا، بتاتاً بل على العكس كنت اكثر اهتماماً به من امه.

ـ الحقيقة هي انك لم تهتم به الا بعد ان قررت التخلص منه. واهتمامك هذا افسد عليه حياته الهانئة التي كان يحياها في كنف مربيته في اورليان..

ـ فعلا سيدي الرئيس كانت حياته هناك هانئة جداً فقد كانت مربيته رائعة.

ـ اذا، لماذا انتزعته من عندها، ودون علم امه كما أفادت الام نفسها؟

ـ هذا غير صحيح يا سيدي. انها هي التي الحت علي بالاهتمام بتنشئته وكذا بابعاده عن اورليان حيث نحن معروفان جداً.

ـ ماذا كنت تنوي ان تصنع منه؟

ـ انا لم أنو شيئاً انما زوجتي ارادت ان يصبح ابنها راهباً وقد كان الهدف من ذلك ان يتمكن ايبوليت من الحضور ساعة يشاء للقاء امه لان ثوبه الكهنوتي لا يترك مجالا للشائعات والأقاويل.

واضيف الى انني انا الذي أعلمت الولد ان له اما دون كشف اسمها كنت انظر الى الموضوع من زاويته الانسانية لكنني لم اكن اقبل تشويه سمعة اولادي باكتشافهم أخاً لهم

ـ لكن الجميع حيث تقطنون يعلمون ان لزوجتك بالسّفاح .
ـ الجميع باستثناء اولادي . ولهذا ابعدته عن اورليان.

انتهى اليوم الأول عند هذا القدر من الأسئلة . وفي اليوم الثاني بادر الرئيس بالسؤال:

ـ الم تبد المركيزة رغبة في مرافقتك عندما ذهبت لنقل الولد في الدير الى ايطاليا؟
ـ كلا . ابدا . لقد كانت باردة العواطف.
ـ انا مقتنع انك لم تأخذها معك لأنك كنت تخشى ان تقرر المركيزة احضار الولد الى بيتها ليسكن معها . .
ـ هذا مستحيل، سيدي الرئيس. الا تتصور مدى العار الذي يلحق بأولادي من جراء عمل كهذا يؤدي الى اكتشافهم هذا الأخ؟
ـ ولماذا اخذته الى ايطاليا قاطعاً به مسافات طويلة؟

وقرأ الرئيس شهادة خطية من السيد انجلوتي، وهو فارس ايطالي رافق المركيز صدفة في مقصورة القطار. وفيها يذكر ما لاحظه من قسوة في معاملة المركيز للولد اثناء السفر.

لكن المركيز لم يحرك ساكنا عند سماعه هذه الشهادة كل ما قاله هو ان الايطاليين مشهورون بمخيلتهم الواسعة.

ولنعد الان الى بداية تنفيذ الجريمة.

في العاشر من تشرين الأول من عام ١٨٨٥، وصل المسافران الى كاستيلا ماري، بالقرب من سورنتو. من هناك مشى الاثنان طريقاً طويلاً محاذياً للبحر الى ان وصلا الى اعلى منحدر صخري يعلو ما يقارب المئة متر عن سطح الماء، ولما سأل الرئيس المتهم عن سبب هذه المسيرة الطويلة والشاقة لفتى يافع، اجاب بقوله:

ـ لأن هذه المنطقة هي احلى ما في ايطاليا وطريقها محفوف بأشجار الليمون.
ـ وعندما وصلت وكانت الساعة حوالي الثامنة مساء، ماذا حصل؟ هل دفعت به من فوق المنحدر ليتحطم في أسفله؟

هنا بدأ الارتباك على وجه المتهم ولهجته لكنه حاول التظاهر بالهدوء وقال:
ـ لقد شعرت عندما وصلنا الى طرف المنحدر بالالحاح لقضاء حاجة ابتعدت بعض الشيء لقضائها وعندما عدت لم اعثر للولد على أثر فكرت انه ربما توارى هربا مني ناديته مرات عدة وبأعلى صوتي: ولما لم يرد علي ذهبت بحثاً عنه، مشيت ما يقارب الثلاثة كيلو مترات ولما

بئست رجعت الى كاستيلا ماري حزين القلب مشوش الذهن. وعندما فكرت باعلام الشرطة تذكرت ان في هذا فضحا للسر الذي طالما تحاشيت كشفه وتشويها لسمعة عائلتي فنذلت وفضلت الصمت.

وعندما طلب الرئيس ان يكمل المتهم القصة، قال هذا:

ـ عدت لآكل في احد المطاعم. اما السهرة فقد امضيتها في احد بيوت المتعة وفي الصباح استقليت القطار الى مارسيليا.

ـ ما هو تقديرك الأولي لاختفاء الولد؟

ـ اول ما تبادر لذهني هو انه انزلق من اعلى وتحطم على الصخور.

ـ لماذا لم تصرخ للصيادين الذين كانوا في الاسفل؟

ـ كانوا بعيدين.

ـ قلت انك حاولت التفتيش عن الولد ما يقارب الثلاث ساعات بينما شاهدك احد سائقي العربات الساعة الثامنة والنصف اي بعد نصف ساعة من سقوط الولد في المنحدر وانت تسرع الخطى نحو كاستيلا ماري وتتجنب انوار العربة. انت تكذب اذا. ثم قلت، انك امضيت بقية سهرتك عند احدى بنات الهوى هناك حيث يدفن المجرمون هواجسهم عقب اقترافهم جرائمهم.

وبعد ان استراح الرئيس قليلاً من انفعاله عاد ليوجه كلامه الى المتهم:

ـ معلوم ان في مكان الحادث قنصلا فرنسيا. لماذا لم تتوجه اليه وتعلمه بالواقع؟

ـ ان في هذا سيدي الفضيحة التي عشت سنوات طويلة على اخفائها.

ـ غريب، تتحاشى طوال سنوات ان يعلم الناس وهم يعلمون فعلا، ان لزوجتك ابنا طبيعيا وانت نفسك ابن سفاح!

ـ الامر مختلف يا سيدي، ثم لقد سوي وضعي واعتبرت ولدا شرعياً بشهادة رسمية.

وهنا رفعت الجلسة لتعقد في اليوم التالي. في ذلك اليوم بدأ رئيس المحكمة من حيث انتهى بالأمس:

ـ كنت تخشى ان يستمر هذا الفتى في السعي لمعرفة امه هل اسر لك بشيء في نيته هذه؟

ـ اجل ولكن بغموض وقد صارحني كذلك بعدم رغبته في دخول الكهنوتية.

ـ وهذا ما جعلك تنوي تصفيته باعتبار ان حياته المدنية كانت ستعطيه الحرية والرغبة في التعرف الى أبويه.

ـ كلا، يا سيدي، بتاتاً، انا بريء اقسم اني بريء.

وهنا امر الرئيس بقراءة تقارير الخبراء والتي تثبت استحالة امكانية سقوط احد خطأ من على المنحدر وذلك بسبب وجود حافة حجرية تمنع مثل هذا السقوط.

بعد ذلك عاد المركيز ليقول امام المحكمة:

ـ انا اقر ان تصرفي لم يكن عقب الحادث بمستوى المسؤولية والادراك الحكيم لكن نيتي كانت متجهة فقط الى اخفاء الفضيحة، فضيحة ان يعرف الناس من هو الفتى القتيل.

ولم يكتف المركيز بكتم الامر بل ابرق الى زوجته في مرسيليا ليقول لها ان «ايبوليت هرب».

ولما سأله الرئيس:

ـ لماذا انتظرت ثلاثة ايام لتبرق الى زوجتك بالخبر ولم تفعل ذلك فورا ومن نابولي؟

ـ لم العجلة؟ ايبوليت ليس ابني.

ـ لكنه ابن زوجتك. فهلا يكفي هذا؟

ـ لم تطلب مني زوجتي اعلامها عن مكان وجود ابنها.

ـ وعندما رجعت الى حيث تسكن مكثت ثلاثة ايام عند والدتك دون علم زوجتك الا ترى في هذا امعاناً في الاستهتار بمشاعر زوجتك؟

ـ مشاعر زوجتي؟ هذه المشاعر، لماذا لم تتحرك طوال تسع سنوات على اختفاء ابنها؟

هذا التساؤل الأخير مثير فعلاً للاستغراب. لماذا هذا الانتظار الصامت الطويل من أم؟ ايعقل انها صدقت رواية زوجها ان ابنها قد انتحر؟

ويتابع الرئيس، استجواب المتهم:

ـ هل كانت زوجتك تعتقد ان ابنها انتحر؟

ـ لا أظن، كان ورعها يبعدعنها مثل هذا الاعتقاد.

ـ وانت ماذا فعلت بعد ان عدت الى بيتك؟

ـ سارعت الى الاعتراف فطمأنني الكاهن ان سلوكي سليم وان الامر لا يستدعي الاضطراب او القلق.

كان من الممكن ان يصدق الرئيس الجواب لولا تناقض برز اثناء التحقيق الأولي. هذا التناقض اشار اليه الرئيس بما يلي:

ـ الم تقل الى القس ماميه عندما قدمت اليه انك انتهيت ولا امل في انقاذك؟ فما معنى هذا الكلام؟ أليس معناه انك شعرت انه لا مناص من انكشاف امرك؟

ـ كلا. كنت فقط اخشى ان يكشف امر زوجتي وابنها غير الشرعي.

ـ كفاك مراوغة. الم تقل للقس ماميه ان الجميع سيقولون انك انت قاتل الفتى اذا ما اشعت انه انتحر؟ ثم، ألم تقل لزوجتك بعد فترة انك تخلصت من الولد بدفعك اياه على صخور المنحدر؟

ـ لم أقل لها ذلك. انه الأب روسلو الذي اوصى اليها بهذه الكذبة الملفقة.

والاب روسلو هذا هو معلم اولاد المركيز. وقد كان يكره المركيز لذلك ظل يعمل طوال سنوات حتى توصل الى إيغار صدر المركيزة على زوجها وبالتالي دفعها الى اقامة الدعوى ضده.

هذا، على الاقل ما قاله المتهم في رد التهمة عنه.

تجاه هذا الجواب، بدا الانفعال على ملامح الرئيس والتفت الى المتهم ليقول له:

ـ ماذا تظن زوجتك حتى تنخدع هكذا؟

ـ لقد خدعها الثوب الكهنوتي.

قال هذا وانهار على مقعده يجهش بالبكاء مما حمل الرئيس على رفع الجلسة الى اليوم التالي.

ذلك اليوم كان حاسماً. في بداية الجلسة ادخلت المركيزة الى القاعة وتقدمت الى منصة الشهود بجسمها البض ووجهها القبيح، لتقول بلهجة تخلو من حرارة:

ـ اتهم زوجي بانه في العاشر من شهر تشرين الأول عام ١٨٨٥ دفع بابني ايبوليت على صخور خليج نابولي.

وتابعت ببرودة وكأنها تتلو قصيدة لا تعي معناها:

ـ انتظرت تسع سنوات لأبوح بالسر. كان يسيء معاملتي ومعاملة اولادي وكان يهددنا بالقتل وهذا ما منعني من كشف السر طوال هذه المدة.

لم يكن هذا التبرير كافياً ولم يقنع احداً من الحضور واضافت:

ـ في البداية، استطاع اقناعي بان ايبوليت ربما انتحر او كان ضحية حادث لكنني بعد ان علمت عن اكتشاف الجثة وبعد ان وصل الى سمعي بعض الهمسات ربطت بين ما سمعت وبين بعض تصرفاته وايقنت انه هو الفاعل.

ـ اية تصرفات؟

ـ مثلا، عندما سألته لماذا لم يحضر لي الولد منذ مدة طويلة، اجابني انه ربما كان خائفا ولذلك توارى عن الانظار ولما استفسرت منه عن سبب خوفه لم يجبني.

وهنا سأل الرئيس الشاهدة عما اذا كان بامكانها مجابهة زوجها وجها لوجه بهذه الأقوال ففعلت وعن سؤال آخر هو:

ـ هل أثر عليك احد وأقنعك باقامة الدعوى على زوجك؟

اجابت:

ـ كلا. لكن امي لم تنفك منذ سنتين تلح علي بعدم الانتظار اكثر مما انتظر، والبوح بالسر.

وهنا، وقف المدعي العام ليقول:

ـ سيدتي، ان ما تقولينه خطير للغاية، هل تدركين انك تتهمين زوجك بجريمة قتل. ثم هل استشرت احدا قبل اقدامك على هذه الخطوة؟

ـ اجل لقد اخذت رأي الاب روسلو كما... اخذت رأي اب آخر لا أستطيع كشف اسمه لأني أقسمت على ذلك.

تجاه هذا التصريح طلب الرئيس من المركيزة الابراق الى الاب المجهول ليحلها من قسمها. ثم التفت نحوها ليسألها:

ـ هل تعتقدين ان زوجك ارتكب جريمته عن سابق تصور وتصميم؟

ـ كلا. ما اعتقده هو انه قتل الولد تحت تأثير فورة غضب آنية.

هذا النفي يتعارض مع ما كانت دونته في التحقيق الأولي، حيث اكدت ان زوجها اصطحب ابنها الى ايطاليا بهدف التخلص منه.

واستدعي الاب روسلو للشهادة. تقدم بقامته النحيلة ليصور بلهجته السلطوية المتهم بانه غضوب وشرس، وبأنه متهتك لا يقيم وزنا للقيم. ويصرخ المتهم في قفصه عند سماع هذه الاقوال.

ـ وشاية. وشاية رخيصة يريد بها الشاهد ان يغطي سلوكه المشين تجاه زوجتي. اسألوه ماذا كان يفعل وإياها طوال الساعات التي كانا يمضيانها معا في غرفتها. انه يريد الايقاع بي ليحل محلي بجانب زوجتي..

وشاية تقابلها وشاية وهذا ان دل على شيء فانه يدل على الكره المتبادل بين الرجلين.

وبعد ان امر الرئيس الحضور بالهدوء، وسط الهرج الذي ساد القاعة نتيجة هذه الاتهامات التفت الى الشاهد وسأله:

ـ ايها السيد، اجبني بنعم او بلا عن السؤال التالي: «هل انت من قام باملاء كتاب الاتهام على زوجة المتهم؟

ـ كلا. بل اكثر من ذلك. عندما علمت به، وكان قد ارسل، انحيت باللائحة عليها لكتابته.

وانسحب، الشاهد ليأتي بعده الابن الأكبر للمركيز. هذا الشاهد قلب الموازين عندما قال:

ـ ايها السادة؛ اعترف أنني أدليت بشهادة كاذبة ضد أبي اثناء التحقيق الأولي. وكان ذلك بتأثير من الأب روسلو! صحيح ان والدي كان يضربني من وقت لآخر، لكن هذا الضرب جعلني افهم الرياضيات اكثر من ذي قبل.

وزاد في اضطراب الميزان لصالح المتهم ما أدلى به الابن الثاني وهو مشابه لشهادة الأول, مفاجأة غير منتظرة تلاها رفع الجلسة.

وكرت سبحة الشهود خلال الايام التالية غير ان هؤلاء وامام استغراب لم يفسر كانوا يلوذون بالصمت ولا يفصحون عن امور هامة مما جعل الرئيس يستغرب هو الآخر بل ويستنكر.

وفي الخامس من تشرين الثاني افتتحت الجلسة بمرافعة المدعي العام الذي قال:

ـ ايها السادة، مما لا شك فيه ان ايبوليت مات والسؤال يدور حول ما اذا كان مات قتلاً ام انتحاراً ام نتيجة حادث نتج عن خطأ. كما أنه مما لا شك فيه ان ايبوليت عندما مات كان بصحبة المركيز وللاجابة عن هذا السؤال تراني مزكوم الأنف من رائحة جريمة، جريمتك انت، أيها المركيز.

واللافت للنظر، ان المدعي العام انهى مرافعته بزلة لسان فبدلا من ان يخلص الى انه يرى في الامر جريمة قتل، قال العكس قال ان الموت ناتج عن حادث او ربما عن انتحار.

هنا، ازداد البريق في عيني محامي الدفاع ووجدها مناسبة لابد من الانقضاض عليها والاستفادة منها الى اقصى حدود الاستفاد.

وفيما هو يتأهب لذلك، اذ بالرئيس يعلن مقاطعاً ان بين يديه ثلاث برقيات مرسلة من المركيزة:

الاولى تطلب من «الاب المجهول» بواسطة صديقة للمركيزة ان يحلها من قسمها بعدم البوح باسمه بناء لطلب المحكمة حتى الان لا شيء يثير التساؤل. في البرقية الثانية تعود المركيزة وتطلب من صديقتها ان تتوجه الى الكاتب العدل المختص وتشير عليه بان يرسل برقية الى رئيس المحكمة يقول له فيها ان «الاب» يرفض البوح باسمه، اما البرقية

الثالثة والتي ارسلت هي الاخرى، الى الصديقة نفسها، فتطلب ان يرسل جواب الى المركيزة بان الاب مات.

ويخيم هدوء ثقيل على المحكمة بجميع من فيها ولا يدع محامي الدفاع الفرصة تمر بل يقف ملتفتاً الى المدعي العام ليقول له:

- ماذا بقي من الاتهام الملفق؟ لا شيء اللهم الا كذب الزوجة وتآمر الاب روسلو.

ويدخل المحلفون غرفة المذاكرة ليخرجوا بعد اربعين دقيقة بقرار تبرئة المركيز.

هذه الدعوى تركت في اذهان الناس آنذاك ولفترة طويلة تلت تساؤلات عن عدم وقوف المحكمة عند ثغرات كثيرة في الملف: دور الاب روسلو، نية المركيزة المدعية، السبب الحقيقي للموت اصطحاب المركيز للفتى حتى ايطاليا وتساؤلات غيرها.

واحيل ملف القضية للحفظ لكن ما بقي من حياة المركيز الزوجية امضاه الزوجان دونما سعادة تذكر. لقد تباعدت القلوب. وهذا امر طبيعي بعد كل الذي حصل.

الدكتور أدامس

لم تكتظ قاعة محكمة أولد بيلي في لندن يوماً كما اكتظت في ذلك اليوم، الثامن عشر من شهر مارس- آذار عام ١٩٥٧ . فمنذ الصباح الباكر، تلاحق الحضور ليفوز كل منهم بمقعد من المقاعد غير المريحة التي تملأ القاعة . لم لا والمحاكمة مخصصة للدكتور جون بودكنز أدامس، طبيب القلب المتهم بقتل عدد من مرضاه المسنين، اوصلته أحدى الصحف اللندنية الى مئة وخمسين امرأة ومثله من الرجال؟ آخر ضحاياه كانت السيدة أديث موريل، المتوفاة عن اثنين وثمانين عاما في ١٣ تشرين الثاني، نوفمبر عام ١٩٥٠ .

بدأت قصة المحاكمة بشائعات سرت في ايستبورزن، حيث يسكن الطبيب وحيث عيادته . وكلفت بالاستقصاءات لجنة أولى لم تصل الى نتيجة ملموسة . اعقبتها لجنة ثانية، فثالثة، الى أن أمرت المحكمة بالقاء القبض على هذا الطبيب بتهمة قتل السيدة موريل .

كانت المغدورة مصابة بمرض في قلبها . ظل الطبيب أدامس يعالجها بالمهدئات وسواها الى أن ماتت، ولكن بعد أن أوصت اليه بجزء من فضياتها الثمينة وبسيارتها الرولز الفخمة .

وقبل موتها بثلاثة أيام، وصف لها الطبيب ست حبات من الهيروين يومياً، رفعها الى اثنتي عشرة حبة في اليوم السابق للوفاة . ومعلوم ان المسموح به من هذه المادة لا يتعدى، في الحالات الطبيعية، ربع حبة فقط . أليس هذامؤشراًعلى نية القتل؟

هذه المعلومات تلاها رئيس المحكمة في بداية الجلسة . والغريب؟ الطبيب تلقاها في قفصه بابتسامة المطمئن .

لكن الملف يتضمن اعترافاً واضحاً منه . ذلك أنه أجاب، اثناء التحقيق، بتحدي المحكمة أن تثبت أن في موت السيدة موريل جريمة . وعندما جوبه بهذا التحدي الاعتراف، قال: « ما كنت اعتقد ان في استطاعتكم التوصل الى مثل هذه المعلومات !.... »

ويلتفت أحد قضاة المحكمة الى المتهم يسأله :
ـ دكتور أدامس ، لقد استمعت الى قرار الاتهام . فبماذا تجيب؟ هل تقر بأنك مذنب ، أم لا ؟
ـ سيدي ، أنا بريء .

بهذا الجواب ، لم يعد بالامكان ، حسب القانون الانكليزي ، الاستماع الى المتهم الا بصفته شاهداً .

في اليوم التالي ، مثل أمام المحكمة شاهدان صيدليان . لم يكن في شهادتيهما ما يثير أية سلبية ضد المتهم . لقد ذكر الاثنان أنهما لم يكونا يلاحظان في وصفات الدكتور أدامس ما هو مدعاة للملاحظة . لكن الشاهد الثالث ، وهو واحدة من الممرضتين اللتين كانتا تشرفان على معالجة السيدة موريل ، اعطت انطباعاً آخر . سألها الرئيس :
ـ هل كنت أنت تقومين بحقن المرحومة بالدواء يومياً ؟
ـ كلا سيدي ، بل الدكتور أدامس نفسه . وعندما كان يفعل ذلك ، لم يكن يسمح لأحد بأن يكون معه في غرفة السيدة .
هذا الكلام أحدث همهمة في قاعة المحكمة ، اضطرت رئيس المحكمة الى طلب السكوت من الحاضرين .
وسألها الرئيس أن توضح هذه النقطة بقوله :
ـ هل كنت تشعرين أن الدكتور أدامس كان يتعمد إخراجك من الغرفة ، أم أن ذلك كان يحصل بشكل طبيعي ؟
ـ كان يقول لنا ، زميلتي وأنا ، أن السيدة موريل تفضل تلقي الحقنة دون وجود أحد سواه .
ـ هل تعتقدين أن الدكتور ، عندما كان يخلو بالسيدة موريل ، كان يقوم بأعمال طبية غير حقن الأبرة المألوفة ؟
ـ حتماً . كان يقوم بتحضير حقن أخرى .
ـ ما هي ؟
ـ لا أعلم . . .

وتذكر الممرضة كيف أن الدكتور أدامس اختلف مرة مع زميل له أحضرته السيدة موريل أثناء غياب طبيبها في رحلة صيد ، حول ضرورة او عدم ضرورة اجراء غسل لمعدتها في المستشفى بسبب ما لاحظه هذا الزميل من وجود تسمم في المعدة ناتج عن كميات مبالغ فيها من المخدرات . هذا الرفض ، غير المبرر طبياً ، جاء يضيف سحابة سوداء في سماء

الاتهام .

في اليوم التالي، جاء دور محامي الدفاع في الكلام ، وقد بدأ باستجواب شاهد البارحة ، اعني الممرضة !

ـمتى توقفت عن العمل في خدمة السيدة موريل؟

ـ في الثاني من تشرين الثاني- نوفمبر سنة ١٩٥٠ .

ـ أي قبل موتها بأحد عشر يوماً . وكنت قد قلت أنها كانت ، في هذه الأثناء ، مريضة جداً .

ـ نعم . لقد قلت ذلك .

كان المحامي يريد أن يفهم المحكمة أن موت السيدة موريل جاء نتيجة فقدان عافيتها البطيء والمستمر ، وليس نتيجة حقنة قضت عليها . وتابع اسئلته :

ـ أي نوع من الحقن كنت تحضرينه للمريضة؟

ـ الحقن العادية ، المورفين مثلاً .

ـ ولا نوع آخر؟

ـ لا .

ـ هل تقولين أن الدكتور أدامس كان يقوم بتحضير انواع اخرى عندما كان يخلو بالسيدة موريل؟

ـ أجل .

ـ تعنين أن التحضير كان يشمل أنواعاً خاصة؟

ـنعم .

ـ خاصة من المورفين؟

ـ مورفين . . . وسواه .

ـ اما كنت تقومين بتدوين ما كانت تتجرعه السيدة من عقاقير وما كانت تعطاه من حقن يومياً على سجل خاص بذلك؟

ـطبعاً .

ـهذا السجل ، اليس مرجعاً مضمرناً لتطور الوضع الصحي للمريضة؟

ـ دون أدنى شك .

ويخرج المحامي بسرعة البرق دفتراً أحمر ويطلب من الممرضة القاء نظرة عليه وسط اعناق مشرئبة ونظرات ثابتة :

ـأليس هذا هو السجل موضوع البحث؟

ـ أجل ، اجل . أنه هو . . .

وأمام دهشة الجميع ، يعلن المحامي ، وهو مشهور على أنه من ألمع محامي انكلترا ، أن في حوزته سبع سجلات مماثلة للمريضة نفسها . أعلن ذلك وقام فوراً بتوزيع صور عنها الى أعضاء المحكمة . لكن تصفح هذه السجلات لم يظهر بارزاً في نطاق الدفاع .

في الجلسة التالية ، أدخلت الممرضة الأخرى . وبدأ المحامي اسئلته لها :

ـ ليل موت السيدة موريل أعطاها الدكتور أدامس ، كما في السجلّ، حقنة عند الساعة العاشرة والدقيقة التاسعة والثلاثين . حصل اضطراب وتشنج . وبعد نصف ساعة من منتصف الليل ، هدأت . هكذا يقول السجل وبخط يدك .

ـ صحيح . كان هدوءاً ناتجاً عن غيبوبة .

ـ لكنك ذكرت في التحقيق أنك حقنتها بحقنة أخرى ، وهي في تمام الهدوء ، عند الساعة الواحدة .

ـ أجل . . .

ـ هذه الحقنة لم تكن بمشورة طبيبها ، الدكتور أدامس . لقد قررتها بنفسك . أليس كذلك ؟

ـ ليس تماماً .

ـ كيف «ليس تماماً» ؟ آه ، لقد ذكرت في التحقيق أنك اتصلت هاتفياً بالدكتور أدامس .

ـ أجل .

ـ لكنك لم تدوني ذلك في دفترك . ثم ، لماذا اتصلت بالدكتور ؟

ـ لأني كنت قلقة ، قلقة جداً . . .

ـ لماذا ، وقد أكدت أن الدكتور أدامس أشار عليك باعطائها الحقنة الأخرى ؟

ـ لم أعد أذكر . . . لم أعد أذكر .

ـ حاولي أن تتذكري . ألا يمكن أن تكوني تصرفت تلك الليلة «دون» أن تتذكري الرجوع الى الدكتور ، خوفاً» على مريضتك و«تأميناً» لراحتها ؟

ـ لقد طلبت الدكتور أدامس ، لكنه لم يجب . وكان علي أن اتصرف . لقد عادت السيدة موريل الى تشنجاتها وخفت أن تسوء حالتها . . . . لا أستطيع . . . لا أستطيع أن أتذكر . . . كان مشهدها رهيباً . . .

ـ افهم . . . افهم . لكنك . للأسف ، تصرفت دون مشورة الطبيب . كما أنك لم تدوني ذلك في السجل .

ويذكر التحقيق كذلك أن هذه الممرضة تركت السيدة موريل جثة هامدة وغادرت الى منزلها. وقد بررت مغادرتها تلك بأن وقت عملها انتهى . . . !

شيء آخر يدعو للتساؤل ، ورد ايضاً في التحقيق . لقد جن جنون السيدة موريل مرة عندما علمت أن الدكتور أدامس غادر الى رحلة صيد في سكوتلندا ، وهددت بتعديل وصيتها لجهة حرمانه من الفضيات ومن سيارة الرولز . هنا ، ما كان من هذه الممرضة الا أن سارعت بالاتصال به ليعود على جناح السرعة . فهل كانت الممرضة شريكاً متواطئاً مع الدكتور؟ هذا ما ستسعى المحكمة الى جلائه .

ويتابع المحامي استجوابه للشاهدة:

ـ سيدتي . هل كنت تستلطفين السيدة موريل؟

ـ بالطبع يا سيدي . شأني في ذلك مع كل مرضاي .

ـ ولكن ، الم يكن لديك أسبابك لاستلطافها بشكل خاص؟

ترددت الممرضة ولم تجب ، فأكمل المحامي بلطف متعمد :

ـ ألم تكوني في عداد الموصى اليهم في وصيتها؟

ـ نعم ، وبمبلغ ٣٠٠ جنيه .

هنا أيضاً ، اراد المحامي أن يترك الشك يخيم في اذهان الحاضرين نتيجة وجود مصلحة للممرضة بموت المريضة .

في اليوم التالي ، استدعت المحكمة للشهادة الدكتور هاريس ، الطبيب الذي حل محل الدكتور أدامس اثناء رحلة الصيد . ولم يكن في شهادته ما يلقي الريبة في وصفات الدكتور أدامس وكمياتها . ووسط ارتياح الدفاع وانشراح المتهم ، استدعي طبيب آخر للشهادة ، هو الدكتور دونويت ، الخبير في قضايا المخدرات .

عن سؤال للمدعي العام وجه اليه عن صوابية مزج المورفين والهيرويين في حقنة واحدة ، أجاب هذا الطبيب جازماً :

ـ هذا خطأ . خصوصاً بالنسبة لمريض عجوز متصلب الشرايين .

ـ وما ذا تقول بالكميات الموصوفة للمريضة من قبل الدكتور أدامس طوال الأيام الخمسة الأخيرة السابقة للموت؟

ـ هذه الكميات من الهيرويين والمورفين تدفعني الى الميل بأن في القضية نية على القتل . . . . !

اتهام خطير ونادر يوجهه طبيب الى طبيب آخر زميل له ، مما أحدث ضجة في قاعة المحكمة واستغراباً . وهذه الضجة جعلت الرئيس يرفع الجلسة .

وعندما عادت المحكمة والتأمت ، تقدم محامي الدفاع ، أياه ، لاستجواب الشاهد ، الدكتور دوتويت :

بدأ هذا المحامي اللامع بمفاجأة . ابرز محتوى سجلات مستشفى نستون ، حيث عولجت السيدة موريل قبل تولي الدكتور أدامس أمرها الصحي . هذه السجلات تذكر أن معالجة المريضة بالمورفين بدأت في المستشفى المذكور . ولما كان لا يمكن التوقف عن هذا العلاج بعد استمراره فترة ، فأنه لم يكن بد للدكتور أدامس من متابعة استعماله . ويلتفت المحامي نحو هيئة المحكمة ليقول بصوت واضح لا أبهام اوتلعثم فيه :

ـ لو أن الدكتور أدامس اوقف استعمال المورفين من قبل مريضته ، لتسبب في موتها حتماً .

ويلتفت نحو الشاهد ليقول له :

ـ هل تعتقد ، يا دكتور ، أن أطباء مستشفى نستون اخطأوا ، هم الآخرون ايضاً ، في وصف المورفين للسيدة موريل ؟

ويجيب الدكتور دوتيويت متلعثماً ومضطرباً :

ـ . . . أجل ، ربما ، الى حد ما . . .

ثم يسأله أحد قضاة المحكمة :

ـ هل أن موت السيدة موريل ، بنظرك ، قد سببته وصفة مغلوطة من قبل الدكتور أدامس ، نتيجة لعدم كفاءة فيه ؟

ـ هذا ممكن . . ممكن . هذه أمور ممكنة .

ـ لكنك لم تجزم حتى الآن . اريد منك جواباً جازماً عن سؤالي .

وسكت الشاهد وقد بدا عليه الارتباك والخوف . لكن القاضي تدخل لينقذه بقوله :

ـ تريد ان تقول أن الحكم على هذه الأمور لا يعود اليك .

ـ . . أجل . . . لا يعود الي . . .

وتنتهي جلسة لتبدأ بعدها أخرى بشهادة لخبير آخر في شؤون المخدرات ، هو الدكتور اشبي . هذا الشاهد ، وقد رأى ما جرى لسابقه من احراج وارتباك ، تحاشى الافخاخ كلها واعطى اجابات غير اكيدة ، اجابات تدعو كلها للتأويل والتفسير ولا تترك مجالاً ، أي مجال ، للجزم .

بعد الانتهاء من قافلة الشهود ، جاء محامي الدفاع ليلخص الموقف وليخلص الى القول :

ـ . . . لقد أدرك الجميع أن لا أدلة تدين موكلي . أما من هو الجاني الحقيقي ، فهذا

يخرج عن مهمتي . لهذا ، اطلب الافراج عن المتهم بعد اعلان براءته .

لكن المحكمة رأت ان لا تستعجل الأمور . طلبت الاستماع الى شهود الدفاع . وقد بدأت بخبير المورفين الشهير الدكتور هارمان ، الذي سئل :

- هل هناك من يمكنه القول ما هي كمية المورفين الكافية للتسبب بالموت؟

ولما لم يجب جزماً ، وبعد أن أكمل شهادته بما لديه من معلومات وكلها من النوع غير البارز وغير المثير ، شأنه في ذلك شأن سائر الشهود الذين اعقبوه ، جاء محامي الدفاع لإلقاء مرافعته .

هذه المرافعة من محام بارع ركزت على نقاط الضعف في الاتهام وابرزت نقاط القوة المقابلة . وهذا ما أثر فعلاً على مرافعة المدعي العام التي تلت تلك المرافعة .

ولم تستغرق المداولة وقتاً طويلاً لاعلان براءة الدكتور ادامس .

هذه البراءة وضعت حداً لتداول القضية من قبل الصحف . لكنها لم تخف الثغرات التي برزت في المحاكمة ، كدور الممرضة التي حقنت السيدة موريل دون أذن الطبيب؟ ووجود منفعة للدكتور المتهم نفسه في الحصول على ما خص به من الوصية ، وأمور أخرى وأخرى . المهم أن القضاء لفظ كلمته ، مذكرات الدكتور أدامس تصدرت واجهات المكتبات الانكليزية لفترة طويلة بعد اسدال الستار على القضية التي شغلت الانكليز لفترة غير قصيرة .

هنري مارتن

يوم السابع عشر من شهر تشرين الأول اوكتوبر من عام ١٩٥٠ كان يوماً مضطرباً جداً في مدينة طولون على الساحل الجنوبي لفرنسا، مظاهرات في كل مكان وتوزيع مناشير على كل ناحية من نواحي الشوارع الرئيسية. اما سبب ذلك فهو ان محاكمة سياسية من اهم المحاكمات وأولاها في السلسلة الخاصة بحرب الهند الصينية ستبدأ اليوم في هذه المدينة انها محاكمة هنري مارتن وشارل هامبرغر والتهمة هي قيامهما بتوزيع منشورات تدعو الى التمرد والتخريب على متن حاملة الطائرات ديكسمود.

هنري مارتن شاب في الثالثة والعشرين من عمره ولد في عائلة كادحة من اب يعمل في مخرطة عام ١٩٤٣ وكانت المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي على اشدها، انضم هنري، وكان عمره ست عشرة سنة الى صفوف المقاومين وامام رئيس مجموعته لحظة نزاعه الاخير اقسم على ان يكمل الطريق ولم يكن من النوع الذي يحنث بقسمه.

اواخر عام ١٩٤٤، وكانت الحرب لا تزال مشتعلة في اسيا لا سيما في الهند الصينية واليابان، قرر هنري الانضمام الى البحرية.

وفي الاول من حزيران - يونيو سنة ١٩٤٥ ابحر الى سايغون وكان في الثامنة عشرة.

في هذه الاثناء، كان ضرب هيروشيما وناكازاكي بالقنابل الذرية كما كان انتهاء الحرب في اليابان المسحوقة اما الهند الصينية فقد تغير فيها وجه الحرب. لم تعد الى جانب فرنسا ضد المانيا بل اصبحت ضد فرنسا ذاتها في نضال طويل استهدف الاستعمار هذا الوجه الجديد لم يكن هو الذي سعى الى التصدي له هذا الشاب عندما انخرط في صفوف البحرية لقد اراد محاربة الفاشية ولم يدر في خلده انه سيرى نفسه وجهاً لوجه امام من يسعون لتحرير بلدهم من مستعمر. من هنا بدأت ازمة في ضميره تتفاعل.

هذه الأزمة برزت بشكل واضح في رسائله الى اهله. ففي احداها ذكر انه يحارب

اناسا يسعون لان يكونوا احرارا» وفي اخرى يقول ان «الجيش الفرنسي يتصرف في الهند الصينية تماماً كما تصرف الجيش النازي عندنا. اني اشعر بالتقزز من رؤية ما يجري» اما في ثالثة، فيقول: «الآن وقد قتلنا ابنه واصبنازوجته، هذاالفيتنامي سينضم الى صفوف المقاومة ان لم يكن قد انضم فعلاً.

امام هذه الفظاعات صمم هنري ان يترك الجيش. تقدم بطلب لتسريحه فرفض الطلب. كرر ثانية وسعى دون جدوى وظل الرفض يصدمه في كل مرة الى ان كان القبول في المحاولة الرابعة. وفي ١٤ تشرين الأول - اكتوبر من سنة ١٩٤٧ عاد الى اهله في طولون ليعمل في محطة للمحروقات تابعة للجيش.

صحيح انه لم يعد تحت وطأة الأكراه على فعل ما لا يرغب لكنه لم ينس. لقدترعرع فيه ايمان راسخ بان حرب الهند الصينية حرب قذرة والواجب يقضي بالتصدي لها وهذا ما فعله. بدأ نضاله ضد تلك الحرب في تموز - يوليو عام ١٩٤٩ كما جاء في قرار الاتهام عندما قام للمرة الأولى بتوزيع منشور قام هو بصياغته يحض فيه على السعي لوضع حد للحرب وفظاعاتها وتلت منشورات اخرى كان يصدرها باسم «مجموعة من البحريين» وقد استطاع هنري ان يجمع حوله عدداً من المؤمنين بأفكاره ممن عاشوا تجربته، لكن عددهم ظل محدوداً وظلت منشورات الحزب الشيوعي الفرنسي هي الطاغية.

لم يكن هنري شيوعياً لكن اللغة التي كان يتكلمها في منشوراته كانت لغة الشيوعيين عينها. وقد سارع الحزب الى الاتصال به ولم يمض وقت حتى اصبح يقوم هو بنفسه بتوزيع منشورات الشيوعيين الخاصة بالتصدي لحرب الهند الصينية وها هم اليوم ينظمون التظاهرات ويقودون الحملة في بدء محاكمة الشاب المناضل.

القي القبض على هنري مارتن في ١٤ آذار - مارس سنة ١٩٥٠ بتهمة «هدم الروح المعنوية للجيش» وقد اضيفت الى هذه التهمة تهمة اخرى هي «المشاركة في محاولة للقيام باعمال تخريبية».

في ١٨ شباط - فبراير من السنة نفسها - قام شاب، يعمل مع هنري في محطة المحروقات ويدعى شارل هامبرغر، بوضع عبوة ناسفة في احد اقسام حاملة الطائرات ديكسمود المبحرة الى الهند الصينية. اكتشفت العبوة قبل انفجارها. وعندما حام الشك حول شارل واوقف اعترف بانه هو صاحب هذا العمل فألقي القبض عليه. وقد ذكر في اعترافاته انه احاط بعض رفاقه في المحطة علماً بما كان يزمع القيام به ومن بينهم هنري نفسه والمدعو رينيه ليبار. هذا الأخير اقر بصحة ما ذكره شارل. في حين لم يكتف هنري بالنفي بل اضاف

انه كان سيتصدى لشارل لو عرف بنيته، ذلك لأنه كما قال لا يقر بمثل هذه الوسائل لمخالفتها المبادىء التي يؤمن بها في النضال.

كانت الساعة تشير الى التاسعة صباحاً عندما دخل هنري قاعة المحكمة وبجانبه هامبرغر. وما ان استقر بهما المقام، حتى بدىء بقراءة قرار الاتهام، بعد ذلك التفت رئيس المحكمة نحو هنري يسأله:

ـ عندما تطوعت في الجيش، اقسمت على الطاعة أليس كذلك؟

ـ لم أقسم على الطاعة ان أحارب نساءً وأولاداً.

ـ طبعاً. طبعاً. لكنك ملزم بواجباتك بصفتك عنصراً في سلاح البحرية ثم انك تتلقى تعويضات لقاء ذلك.

ـ لقاء تعويضات! وماذا تريدني ان افعل؟ ان اعمل بالسخرة؟

ـ ما هذا الذي قصدته. قصدت ان أقول لماذا لم تطلب اعفاءك من عملك؟

ـ فعلت ذلك ثلاث مرات وكنت في كل مرة أقابل بالرفض الى ان نقلت من الهند الصينية الى محطة المحروقات العسكرية.

ـ صحيح! صحيح. هذا وارد في الملف. لكنك لجأت الى الحض على التمرد. وهذا واضح في مناشيرك.

ـ لا مجال للكلام عن التمرد عندما يكون الموضوع محصورا في الدعوة للنضال ضد حكومة لا تأخذ في الاعتبار مصلحة البلد العليا.

ـ وهل تريد ان يفعل كل واحد من الشعب ما يحلو له؟

ـ هناك فرق بين ان يعمل المرء ما يريد وبين ان يعصي اوامر اجرامية وما شاهدته في الهند الصينية يكفي لاتخاذ موقف.

هنا، دخل الرئيس في الحديث عن قضية العمل التخريبي في حاملة الطائرات لكن هنري نفى اية علاقة له بالموضوع وامام هذا النفي الجازم انتقل رئيس المحكمة ليسأل هامبرغر وكان قد ذكر ان هامبرغر هذا قال للمحقق ان هنري مارتن كان على علم بالعملية بل وانه قدم له ارشادات بالموضوع غير ان المفاجأة اذهلت الجميع عندما أنكر هامبرغر هذه المعلومات قائلاً:

ـ لقد أقحمت هنري بهذه العملية لكن ضميري لم يعد يسمح لي باتهام بريء لا علاقة له من قريب او من بعيد بالموضوع.

بهذه المفاجأة رفعت الجلسة وتفرق الحاضرون وسط علامات الاستغراب وهمهماته.

وفي اليوم التالي، لوحظ ان المحكمة استدعت كشاهد لا كمتهم المتهم الثاني في قضية حاملة الطائرات ليبار، الذي كشف عنه هامبرغر ويذكر ان ليبار هذا قال في التحقيق انه رفض الاشتراك في العملية وها هو في المحكمة يقول ان مارتن كان على علم وانه اشترك في الحديث بينه وبين هامبرغر لكن هامبرغر انتفض عند سماعه هذا الكلام ليقول بصوت عال:

ـ هذا غير صحيح. مارتن لم يحضر الا في نهاية الحديث. ولم يع شيئاً منه.

وينبري المدعي العام ليقول ان هذا التناقض قد يكون من صنع محامي دفاع هامبرغر ولا يعلم الا الله الى اين يود الدفاع ان يصل في هذه «الترتيبات».

لكن الاشارة لم تمر مرور الكرام على مسمع محامي هامبرغر الذي لم يتلكأ بالرد فوراً بقوله موجهاً كلامه الى المدعي العام:

ـ ماذا تقصد بذلك؟ اتقصد ان موكلي يريد ان يجعل من مارتن بطلا قوميا بوحي من الحزب الشيوعي؟ هذه اهانة واطالب برد الاعتبار.

قال المحامي هذا وتوجه نحو باب القاعة منسحباً من الجلسة. وتبعه محاميا مارتن وهكذا اضيف هذا الحادث عنصرا بارزا في مجريات المحاكمة.

بعد تعليق الجلسة لبعض الوقت عادت للانعقاد وبدأ المدعي العام بالمرافعة تبعه محامو الدفاع. تم ذلك في جلسة واحدة لم يحدث فيها ما يستحق الذكر اخيراً اختلت هيئتا المحكمة والمحلفين وقتا استغرق ساعتين وربع الساعة صدر على اثره الحكم بحبس المتهمين هنري مارتن وشارل هامبرغر مدة خمس سنوات مع انزال رتبتيهما العسكرية.

بعد تسعة اشهر وبناء على طلب مارتن عقدت اول جلسة من جلسات محكمة الاستئناف للنظر مجددا في القضية. وسبق ذلك ورافقه حملة واسعة من الحزب الشيوعي وانصاره تأييدا للسجين هذه الحملة تنوعت بين تظاهرات ومناشير وجمع تبرعات ومسيرات الى برست حيث المحاكمة الجديدة.

لم يبد هنري في قاعة المحكمة كما كان قبل تسعة اشهر اصبح اكثر تصميما وربما اكثر عنفا لقد طبعه السجن بطابع غير مألوف فيه. وهذا ما جعله أكثر بعداً عما كان من قبل في قلوب الحاضرين. كما جعل لهجته اكثر برودة واقل تأثيرا. وهذا ما ينطبق ايضاً على السجين الآخر شارل هامبرغر.

لم تكن المحاكمة هذه كسابقتها مثيرة. قافلة من الشهود كرر البعض منهم اقواله السابقة تلا ذلك مرافعة المدعي العام فالدفاع. أبرز ما قاله هذا الأخير هو ان تجريم هنري مارتن هو تجريم للملايين من الفرنسيين المتعاطفين معه والمؤازرين له. فلتتفضل المحكمة وتحاكم هؤلاء الملايين الذين تصدوا جميعاً للحرب في الهند الصينية.

وبدأت المداولة داخل قاعة مغلقة هذه المداولة لم تستمر وقتاً طويلاً خلافاً لسابقتها في طولون ربع ساعة فقط وقريء الحكم: خمس سنوات سجن لكل من الرجلين.

لم يكن متوقعاً ان يصدر حكم قاس كهذا خصوصا وانه تناول مسألة المس بالروح المعنوية للجيش، فقط، ولم يتطرق الى قضية حاملة الطائرات.

وتوالت المساعي والمداخلات لاطلاق سراح هنري ورفيقه هذه المساعي طالت لكنها اثمرت بمناسبة عيد ١٤ تموز - يوليو ١٩٥٢ اطلق سراح شارل هامبرغر وبعد سنة في آب ١٩٥٣ تبعه هنري مارتن بعفو خاص من رئيس الجمهورية آنذاك فنسان اوريول.

وقد يكون من المفيد القول ان هنري مارتن انتخب بعد وقت قصير من اطلاق سراحه عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي.

ساكو وفانزيتي

يوم ٢٢ حزيران - يونيو سنة ١٩٢٠، بدأت في مدينة بلايموث في ولاية ماساشوستس الاميركية محاكمة برتولوميو فانزيتي وهو شاب ايطالي طويل القامة اسمر البشرة اسود الشاربين هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية من ايطاليا منذ اثنتي عشرة سنة.

بدأت الحكاية في ٢٤ كانون الأول - ديسمبر سنة ١٩١٩. الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم، سطا رجال مسلحون في سيارة بويك بينهم شاب طويل اسمر على سيارة كانت تنقل رواتب عمال احد مصانع الاحذية في بريدج واتر القريبة من بوسطن لكن السائق تمكن من الفرار بسيارته وفشلت العملية.

في ١٥ نيسان - ابريل سنة ١٩٢٠ جرت عملية مماثلة في ساوث برانتري احدى ضواحي بوسطن ومن قبل اشخاص بينهم ايضا شاب طويل اسمر يركبون سيارة بويك لكن النتيجة كانت مغايرة فقد قتل على الفور واحد ممن جرى السطو عليهم ويدعى بيراردیلي. وفارق الثاني الحياة وهو في طريقة مصابا الى المستشفى ويدعى بارمنتر. اما المبلغ المستهدف فكان يبلغ ١٥,٧٧٦ دولاراً.

في المستشفى حيث تم تشريح الجثتين خط الطبيب الشرعي على الرصاص التي قتلت بيراردیلي الرقم ٣ بالأحرف الرومانية كما اشار الى ارقام اخرى على الرصاصة الاخرى التي قتلت بارمنتر والرصاصة تلك ذات الرقم ٣ ستكون محور القضية برمتها.

لم تتمكن الشرطة من الامساك بطرف الخيط في هذه الجريمة الى ان كان يوم تلقت فيه مخابرة من مجهول يفيدها فيها ان وراء القضية برمتها شخصا يدعى بودا، وهو فوضوي ايطالي. وضعت فرقة كاملة لاقتفاء اثر بودا هذا انطلاقاً من المرآب الذي كان يصلح فيه سيارته حيث كان برفقة اثنين من رفاقه وبعد خروجه من المرآب لم تتمكن عناصر الشرطة من تتبعه، كل ما فعلته هو انها القت القبض على رفيقيه نيقولا ساكو وبارتو لوميو فانزيتي وكانا مسلحين عند توقيفهما.

ولد ساكو عام ١٨٩١ في فوجيا جنوب ايطاليا في عائلة ميسورة لكن حب المغامرة دفعه للهجرة الى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٠٨ غير ان آماله تبددت وسط صعوبة العيش هناك. وقد اضطر بعد التنقل في اماكن عمل متعددة لان يعمل في مصنع للأحذية وفي عام ١٩١٠ تزوج من روزينا زمبيلي ورزق منها ابنا سماه دانتي.

لم يستطع ساكو الصمود امام اغراءات الشباب وطيشهم فانخرط في صفوف الفوضويين وفي عام ١٩١٧ هرب من الخدمة العسكرية الى المكسيك مع صديقه فانزيتي ليعودا معا بعد انتهاء الحرب.

وفانزيتي هذا ولد في بيامون الايطالية عام ١٨٨٨ من ابوين مزارعين وعلى الرغم من متابعته الدراسة هناك لدرجة متقدمة فقد آثر الهجرة الى اميركا بعد ان ماتت امه عام ١٩٠٨. وهناك تنقل هو ايضاً في اعمال متعددة وضيعة وبعد عودته من المكسيك طاب له العمل كبائع سمك متجول في بلايموث.

اثناء التحقيق مع المتهمين فانزيتي وساكو، لم يتمكن الأول من اثبات عدم وجوده في مكان الحادثتين اثناء حصولها بينما استطاع الثاني اثبات ذلك بالنسبة للحادثة الأولى فقط. ولهذا فان المتهم الوحيد الماثل في قاعة المحكمة اثناء النظر في الحادثة الأولى اي عملية سطو ٢٤ كانون الأول - ديسمبر سنة ١٩١٩ كان فانزيتي.

لم تكن قاعة المحكمة مكتظة بالحضور والسبب في ذلك يعود الى ان القضية غير مثيرة فهي من القضايا المألوفة في الولايات المتحدة يضاف إلى ذلك انها لم تتسبب في قتل اي من ابطالها او المستهدفين فيها.

بدأت المحاكمة بالاستماع الى الشهود وأولهم ويدعى كوكس اكد ان الفاعل هو فانزيتي هذا التأكيد لم يعطه الشاهد اثناء التحقيق اما الشاهد الثاني فكان بائع صحف وقد أكد ما أكده الأول داعماً قوله بانه تعرف على المتهم من بعيد ومن خلال طريقته في الجري الطريقة «الايطالية» على حد تعبيره. وهذا ما جعل محامي الدفاع يعترض لكن رئيس المحكمة لم يجد في الاعتراض ما يدفع لقبوله.

ثم جاء الخبير في الرصاص، الكابتيان بروكتور ليوحي ان الرصاص الوحيدة التي وجدت ربما انطلقت من مسدس فانزيتي وهنا ايضا يقف محامي الدفاع ليقول ان الرصاصة هذه وجدت مسحوقة ومشوهة على الرصيف لكن الرئيس، مرة اخرى يتخذ موقفاً آخر ويشير الى ان هذه الرصاصة تشكل عنصراً يقتضي على المحلفين اخذه في الاعتبار.

بعد ذلك، بدأت قافلة شهود الدفاع، وفي هذا المجال مجال الشهود بوجه عام

تستوقفنا ملاحظة تبدو على قدر من الأهمية. لقد اختير شهود الأدعاء من بين الاميركيين في حين كان جميع شهود الدفاع ايطاليين. ولا يخفى ما لهذا من تأثير على المحكمة وعلى المحلفين. فالأميركيون لا يشعرون بالغربة ولا يعانون مضايقات اللغة كما هي الحال بالنسبة للايطاليين.

توالى الشهود وكلهم من الشبان صغار السن والقاطنين في بلايموث لقد ذكروا جميعاً انهم شاهدوا فانزيتي يوم حادث السطو الأول في بلايموث وليس في بريدج واتر. كانوا واثقين من ذلك كل الثقة. ذلك ان هناك تقليداً ايطالياً يقضي بأكل السمك ليلة عيد الميلاد، وهي ليلة السطو، احد الشهود وهو حدث لا يتقن الانكليزية ويدعى براتراندو بريني استطاع على الرغم من ضعفه في اللغة وارتباكه من كثرة اسئلة رئيس المحكمة ان يجزم ان فانزيتي كان طوال الوقت يبيع السمك على عربته.

لم تطل المحاكمة. وقد صدر الحكم بسجن فانزيتي ١٢ سنة.

لم يدر في خلد احد عند سماعه الحكم ان ذيولاً له ستبرز. فقد تحركت اللجنة التي سبق وتشكلت من المهاجرين الايطاليين للدفاع عن ساكو وفانزيتي وعينت محامياً اميركيا مهما هو فريد مور الذي اشتهر بالدفاع عن الفوضويين امام المحاكم الاميركية هذا المحامي سيتولى الدفاع عن المتهمين في قضية السطو الثانية.

ويوم الثلاثاء في ٣١ ايار ـ مايو من عام ١٩٢١ بدأت هذه المحاكمة في بلدة ديدام التي طوقها الجيش وسد كل منافذها حتى انه كان على المتوجه الى قصر العدل لحضور المحاكمة ان يجتاز حواجز عدة وان يخضع لتفتيش دقيق بعد ان يبرز اوراقه الثبوتية واذناً خاصا بحضور المحاكمة.

والسبب في كل هذه الاجراءات يعود الى ان «قضية ساكو وفانزيتي» كما سميت في حينه شغلت الرأي العام الاميركي وقسمته فئتين متصارعتين فهناك دعاة فرض الأمن وترسيخ النظام سيما وان بداية العشرينات شهدت في الولايات المتحدة اضطرابات متنوعة من مظاهرات واضرابات واغتيالات لم تكن المافيا بعيدة عنها وهناك في الطرف الآخر المهاجرون الايطاليون ومعهم الجناح الليبرالي في اميركا واوروبا والذي بدأ بالتحرك مدفوعاً بمبادئه وشعاراته.

لم تتغير هيئة المحكمة في المحاكمة الثانية. المتغير الوحيد كان محامي الدفاع القوي مور هذا الرجل الآتي من كاليفورنيا اراد وهو ابن التاسعة والثلاثين ان يجعل من هذه القضية فرصة عمره لتحقيق طموحاته في المجد والشهرة كان ذلك محور اهتماماته مما جعل لجنة

الدفاع عن المتهمين تندم على اختيارها له . لكن ندمها هذا فات اوانه ولما لم يكن بامكانها استبداله فقد عينت مساعداً له هو المحامي جيري ماك انارني .

داخل القاعة كان الحضور يتكونون من رجال شرطة وصحفيين باستثناء زوجة ساكو روزينا وطفلها وعندما ادخل المتهمان القفص كانا يبدوان في داخله وكأنهما حيوانان مفترسان داخل قفصهما الحديدي .

ويدخل رئيس المحكمة بثوبه الاسود المهيب. يجلس ويجول بنظره في ارجاء القاعة وعندما وصل في جولته الى المحامي مور بقبعة رعاة البقر التي لا ينزعها عن رأسه اوقف نظراته بعض الوقت ثم اكمل .

كانت لائحة المحلفين المرشحين لهذه القضية تضم خمسماية محلف. وقد رفضهم محامي الدفاع برمتهم. هذا التكتيك غير المعقول مارسه مور بكل كياسة ودون اي تعليل .

وفي اليوم الخامس لتداول الادعاء والدفاع في الاتفاق على المحلفين لم يكن مور قد قبل إلا بسبعة فقط . وهذه هي المرة الأولى التي يحصل فيها مثل هذا الأمر ولما كان القانون الأميركي يقضي في مثل هذه الحالة بان تكلف الشرطة باستدعاء اوائل من يقع عليه نظرها من العابرين في الشارع ليكونوا هم المحلفين فقد أعطى رئيس المحكمة امره بتطبيق هذا النص الى شريف ديدام .

وما ان سرى الخبر في البلدة حتى هرع الناس كل الى مأوى هرباً من رجال الشرطة وتملصاً من التكليف. وهذا ما جعل هؤلاء يلاحقون كل من يرون ويسوقونه في اليوم التالي الى قاعة المحكمة وقد تجمع بذلك خليط متنافر من البشر كان منهم الموسيقيون الخارجون من علب الليل والمدعوون الى حفلة زفاف وسواهم ممن وضعهم سوء الطالع على مرمى انظار رجال الأمن .

وانتهت لعبة المحامي مور فقد كان عليه حسب القانون ان يقبل بالحاضرين وان يختار الخمسة الباقين من المحلفين وهذا ما تم دون تأخير.

بدأت قافلة شهود الادعاء بامرأة شابة لولا اندروس ذكرت هذه المرأة انها شاهدت سيارة البويك متوقفة في مكان الحادث وقد سألت احد ركابها عن الطريق. وهنا يسأل رئيس المحكمة الشاهدة عما اذا كان بامكانها التعرف على هذا الراكب من بين الماثلين امامها في القفص فأشارت فوراً باصبعها الى ساكو.

وتبعاً للقاعدة تقدم المحامي مور من السيدة اندروس يستوضحها عن بعض الامور . هذا الاستيضاح دام يومين كاملين اخرجت المسكينة في نهايتها مغمى عليها. وعلى الرغم

من اغراق المحامي للشاهدة بالاسئلة والاستفسارات والتي تناولت دقائق حياتها الخاصة فقد فاته سؤال واحد كان يمكن ان يغنيه عن مئات الاسئلة الاخرى. هذا السؤال هو: هل كان من سألته عن الطريق في السيارة اياها يتقن التحدث بالانكليزية؟ والسؤال هذا الذي لم يطرح في خلال يومين كاملين في الاستجوابات فوت على المحامي وموكليه فرصة قد لا تعوض. .

وتقدم شاهد آخرمايك نيفانجي ليقول انه رأى سيارة البويك تجري بسرعة جنونية قبل وقت قصير من الاعتداء وامام مقودها فانزيتي. هنا ايضاً لم يثر المحامي في جملة مئات الاسئلة مسألة ما اذا كان فانزيتي يحسن قيادة السيارات فرصة ماسية اخرى يفوتها هذا المحامي النبيه. .

ويأتي دور شاهد ثالث الشرطي اوستن كول الذي «رأى» ساكو يحتج لديه عن تأخيره بعض الوقت على حاجز للشرطة.

ولم يسأله مور وكذلك مساعده المحامي انارني عما اذا كان هذا المحتج يتحدث الانكليزية بطلاقة ابن البلد ام بلكنة الغريب.

ثلاثة اسابيع مرت والشهود يتوالون الواحد اثر الآخر وطوال هذه المدة كانت علامات الاستفهام تتراكم حول تصرف محامي الدفاع الانتحاري ومما زاد الطين بلة تبرم هيئة المحكمة والحضور على السواء في الجو الحار الذي كان يسود بلدة ديدام طوال تلك الفترة حتى ان المحامي مور كثيرا ما خلع امام المحكمة والمحلفين قميصه وحذاءيه وقد كان هذا التصرف مثيراً لاعصاب الجميع لا سيما الرئيس المتقدم في السن والمحافظ.

بعد هذه المرحلة المضنية من المحاكمة، جاء دور الاستماع الى خبراء السلاح. وهكذا في ٢١ حزيران ـ يونيو، حضر الكابيتان بروكتور، الذي قدم خبرته الى المحكمة في المحاكمة الأولى ليرد على اسئلة الرئيس:

ـ هل تعتقد ان الرصاصة التي اشير اليها برقم ٣ روماني والتي قتلت الشرطي بارارديللي قد اطلقت من مسدس ساكو؟

ـ برأيي ان هذه الرصاصة هي من النوع المتوافق والرصاص الذي يطلق مثل هذه المسدسات.

ماذا يمكن أن يفهم من هذا الكلام؟ هنا ايضاً، لم يتوقف المحامي مور عند هذه الشهادة، التي تتسم بالضعف والغموض. وعدم توقفه هذا تكرر أمام شهادة مماثلة لخبير آخر، هو السيد فان امبورغ.

ويأتي اليوم التالي، الذي عين للبدء في الاستماع الى شهود الدفاع. لائحة طويلة، وطويلة جداً، تقدم بها المحامي مور لهؤلاء الشهود. ستة عشر عاملاً في الطرقات كانوا مكلفين بحفر خندق على جانب الطريق حيث وقع الحادث، ثمانية عمال في سكة الحديد كانوا على بعد لا يقل عن ثلاثين متراً من مكان الحادث. واذا علمنا أن معظم هؤلاء الشهود هم من الايطاليين والاسبان، الذين يجهلون الانكليزية، وأن مترجماً خاصاً كان يتولى ترجمة ما يذكرونه من لغة كل منهم الى الانكليزية والعكس، تبين لنا مدى الأجواء المرهقة التي سادت قاعة المحكمة بمن فيها، ومدى ما عاناه الجميع من سأم وانفعال.

واللافت للنظر أن بعض الشهادات مّر مرور الكرام، مع أنه من النوع الذي يمكن اعتباره هاماً بالنسبة لمصير القضية. فقد أكدّ شاهدان أنهما التقيا بساكو وفانزيتي يوم ١٥ نيسان- ابريل، وهو يوم وقوع الحادث، وذلك في القنصلية الايطالية في بوسطن، حسبما سبق لساكو أن ذكر. وقد استدعي موظف القنصلية للشهادة فأكد الخبر.

بعد الانتهاء من سماع الشهود، مع ما رافق ذلك من علامات تعجب وعلامات استفهام، جاء دور المتهمين للادلاء بشهادتيهما في قضيتهما، عملاً بأصول المحاكمات في القانون الأميركي. تقدم فانزيتي أولاً وسرد كيف أنه كان ساعة وقوع الحادث مع صديق له يدعى بودا، وكان الاثنان متوجهين للمرآب لاحضار سيارة ساكو ونقل منشورات وكتب فوضوية فيها، بغية اخفائها اثر موجة من المداهمات تناولت أوساط الفوضويين.

وهنا، تدخل المدعي العام وقال للمتهم:

- ابق ضمن الموضوع ولا تحد عنه!

ذلك أن اتفاقاً تم بين هيئة المحكمة والمتهمين قبل بدء المحاكمة بعدم التطرق الى الأمور السياسية. لكن المحامي مور حض المتهمين على عدم التحفظ بالبوح بأفكارهما السياسية الفوضوية.

وقد كان هذا الحض مدمراً لهما بسبب ما تركه من انزعاج ونقمة في نفوس الحاضرين. كما أنه أعطى الاتهام فرصة رأى فيها نفسه طليق اليدين في طلب اقسى العقوبات وأشدها.

وعندما جاء دور ساكو في الشهادة، ذكر أنه هاجر الى الولايات المتحدة لأنه يحبها ويرى فيها بلد الحرية. هذه الأشارة، أراد المدعي العام توظيفها لغير صالح المتهم، فدار بينهما الحوار التالي:

- هل كانت محبتك لها أقل قبل أيار- مايو سنة ١٩١٧؟

ـ لا يمكنني الاجابة بكلمة واحدة وبهذه السرعة .

ـ لقد غادرت الى مكسيكو لتتهرب من الخدمة العسكرية . فهل هذه هي طريقتك في التعبير عن محبتك لهذا البلد؟

كان بامكان ساكو أن يفيض في الاجابة عن هذا السؤال، لكن صعوبات اللغة حالت دون ذلك . وها هو يكتفي بجواب في كلمة واحدة وبلهجة فيها الكثير من التحدي :

ـ أجل .

ـ ولماذا لم تبق هناك؟

ـ لم اتمكن من ايجاد عمل . .

ـ هذا يعني أن حبك للولايات المتحدة يقاس بما تكسبه فيها من المال!

منذ البداية واللعبة تبدو خاسرة بالنسبة لساكو. انه لا يستطيع التعبير بطلاقة عما يجول في ذهنه وما يعتمل في قلبه . وهذا ما جعله يصرخ متفجراً :

ـ دعني سيدي أعبر عن افكاري!

ويرد عليه المدعي العام باستهتار وسخرية :

ـ هذا تماماً ما أود أن تفعله .

وينطلق ساكو متعثراً متلعثماً :

ـ طبعاً يا سيدي . الناس هنا يأكلون بشكل أفضل لأن البلد كبير. ولكن الذين يأكلون هم اولئك الذين يملكون المال . في ايطاليا يستطيع العامل أن يأكل الخضرة والفاكهة . فهي طازجة . لقد مضى علي ثلاث عشرة سنة وأنا هنا أعمل بظروف قاسية للغاية . ومع ذلك ، فاني لم اتمكن بعد من ادخال ابني الى المدرسة . أسمع من وقت لآخر أن روكفلر منح جامعة هارفرد/ ٠٠٠ , ٥٠٠/ دولار ، ويرددون أنه رجل عظيم . ولكن أنا أسأل: من يمكنه أن يصل الى هارفرد؟

ويكمل ساكو معبراً عن أعماق مشاعره :

ـ نحن لا نريد أن نتصارع مع البنادق . لا نريد قتل رجال شبان . لقد تعبت امهاتهم في تربيتهم . بأي حق نقتل بعضنا بعضاً؟ لقد عملت عند فرنسي ، عند ايرلندي ، عند الماني . وأحبهم جميعاً . لماذا أقتلهم؟ ماذا فعلوا ضدي ؟

بهذه الكلمات ، أفرغ ساكو جعبة افكاره . صحيح أنه أثّر في نفوس الحاضرين . لكن الصحيح ، لم يغب عن بال الجميع ، هو أنه واحد من الفوضويين وأميركا العشرينات

لم تكن ، بطابعها المحافظ ، لتتقبل أفكار هؤلاء وتصرفاتهم .

يوم ١٤ تموز- يوليو سنة ١٩٢١ كان يوم صدور الحكم . وقد طلب رئيس المحكمة من كل من محامي الدفاع والادعاء اختصار مرافعتيهما بحيث لا تتعدى الواحدة منهما الأربع ساعات . هذا الطلب لم يعترض عليه المحامي مور ، مما أثار التساؤل ورسم أكثر من علامة استفهام .

بدأ مور مرافعته وتلاه المساعد ماك أنارني . وكلتا المرافعتين لم تكن بمستوى القضية . كانتا سطحيتين وباردتين . حتى أن المحامي المساعد اقترف خطأً جسيماً عندما أقر في مرافعته أن الرصاصة رقم ٣ اطلقت من مسدس ساكو ، خلافاً لما جاء في شهادة فان أمبورغ ، الذي لم يتعد فكرة الاحتمال .

أما مرافعة المدعي العام ، التي أعقبت الدفاع ، فقد جاءت صارمة وجازمة . لم تترك نقطة ضعف أو مجال اتهام الا وركزت عليه وهذا ما رسخ انطباعاً في اذهان الجميع أنهم أمام مجرمين محترفين لا يفارق السلاح تحركاتهما .

كانت الساعة قد بلغت الرابعة عشرة عندما دخلت هيئة المحلفين غرفة المداولة . وبعد ست ساعات ، خرجت لتعلن أولاً أن ساكو مذنب وأنه اقترف جريمة القتل من الدرجة الأولى .

وعلت صرخة من زوجة المحكوم ، طمسها كاتب المحكمة باعلانه الحكم نفسه على فانزيتي . القتل من الدرجة الأولى ودون أسباب تخفيفية . هذا يعني أن الاثنين سيعدمان .

ساد الهرج في قاعة المحكمة واختلط بصراخ المتهمين ببراءتهما واجهاش زوجة ساكو بالبكاء .

وسط هذا كله ، وأمام استغراب لم يعرف أحد له تفسيراً ، تقدم المحامي المساعد ماك أنارني من مساعد المدعي العام ليصافحه قائلاً له :

- تهاني على هذا الانتصار الرائع .

لكن مساعد المدعي العام أشاح بوجهه بازدراء ودون أن يمد يده للمصافحة ، وقال للمحامي :

لا داعي للكلام . شيء محزن للغاية ما حصل اليوم ما أن انتشر خبر الحكم ، حتى علت صرخات الاحتجاج من زوايا العالم الأربعة .

لقد كان هناك شعور عام بأن الشك لم يتبدد في المحاكمة وأن هذا الشك ربما أدى الى

تبرئة الايطاليين المسكينين .

ولما كان القانون الاميركي يسمح بالتقدم بطلب اعادة النظر بالمحاكمات ، اذا ما اكتشف عنصر جديد لم يكن وارداً في المحاكمة ، فقد تقدم المحامي مور من المحكمة بخمس طلبات اعادة نظر بين ١٥ تموز- يوليو وشهر نيسان- ابريل ١٩٢١ . ابرزها كان ما سمي ب «طلب بروكتور» . وبروكتور هذا هو خبير الأسلحة الذي سبق وأدلى بشهادته في القضية ، والذي لم يؤكد أن الرصاصة رقم ٣ انطلقت فعلاً من مسدس ساكو .

وعندما سأله مور ، بعد المحاكمة ، عن قناعته ، أجاب :

- أنا مقتنع أن ساكو وفانزيتي بريئان .
- ولماذا اذاً لم تقل هذا في المحكمة ؟
- لأن أحداً لم يسألني . حتى أنت لم تطرح علي هذا السؤال هكذا أجاب بروكتور بكل برودة .

ولنعد الى طلبات اعادة النظر الخمسة . لقد وصلت الى مكتب رئيس المحكمة دفعة واحدة في أول تشرين الأول- أ كتوبر سنة ١٩٢٣ . وبعد سنة بالتمام والكمال ، أي في أول تشرين الأول- أ كتوبر سنة ١٩٢٤ ، رفضها الرئيس كلها . في هذه الأثناء ، كان المحكومان يقبعان في سجن شارلستون على بعد خطوات من الكرسي الكهربائي .

بعد رفض جميع الطلبات ، رأت لجنة الدفاع عن المحكومين ابدال المحامي مور بآخر أكثر جدية ، وليام تومسون . عقب ذلك ، حدثت مفاجأة صاعقة : لقد اعترف أحد المحكوم عليه بالاعدام ، سلستينو ماديروس ، بأنه هو الذي نفذ جريمة برينتري وأن ساكو وفانزيتي لا دخل لهما بها .

هذا الاعتراف ، الذي حصل في ١١ تشرين الثاني- نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، لم يقنع الشرطة باعادة فتح الملف واجراء تحقيق جديد في القضية . يضاف الى ذلك أن محكمة ماساشيوستس العليا أعلنت براءة ماديروس ! وهكذا لم يبق الا طريق واحد : العفو من قبل حاكم الولاية .

ولما كانت الاجراءات القضائية بطيئة جداً في اميركا ، فان طلب العفو لم يصل الى مكتب الحاكم الا في شهر نيسان- ابريل سنة ١٩٢٧ . ست سنوات مضت والمسكينان ينتظران الموت بالقرب من الكرسي الكهربائي . في هذه الأثناء ، كانت الولايات المتحدة قد انقسمت بين طالب للعفو وطالب للتنفيذ . أما أوروبا فكانت مجمعة على طلب العفو . وكثرت فيها هذه الطلبات من شخصيات لا حصر لها ، منها انشتاين والرئيس لوبيه والبابا

بيوس الحادي عشر وموسوليني. موسوليني الذي تمنى، هو الآخر، العفو عن «الفوضويين. الايطاليين».

لم يكن هؤلاء المطالبون ومعهم الرأي العام مقتنعين ببراءة ساكو وفانزيتي. لكن الجميع كان مقتنعاً بأنه لا يجوز بعد سبع سنوات من الانتظار تنفيذ حكم كهذا. وهذا ما عبرت عنه بوضوح جريدة التايمس اللندنية المحافظة.

ولم توفر هذه القضية حاكم الولاية نفسه من التشويش والارتباك، مما دفعه الى تشكيل لجنة للنظر في براءة او عدم براءة المحكومين. وبعد معاينة المسدس والرصاصة رقم ٣ من قبل أشهر خبراء السلاح، قدمت اللجنة تقريرها الى الحاكم وفيه أكدت أن هذه الرصاصة اطلقت من مسدس ساكو.

وهكذا، أعلن الحاكم أمام الصحفيين أنه يرفض طلب العفو وحدد يوم ١٠ آب-أغسطس موعداً لتنفيذ الحكم. ثم أرجأه الى ٢٧ من الشهر نفسه أي بعد ٢٦٧٨ يوماً امضاها ساكو وفانزيتي في زنزانة المحكومين بالاعدام.

عند الساعة ٢٣ من اليوم الموعود، جيء بساكو الى غرفة الاعدام. اجتاز الامتار العشرين التي تفصل زنزانته عنها بخفة ودون وجل. كل ما قاله وهو يجلس على الكرسي الكهربائي هو هذه الكلمات:

- تحيا الفوضوية وداعاً يا سادة!

- وبالايطالية:

- وداعاً يا أمي!

ثم جيء بفانزيتي، الذي أحس بما حصل لرفيقه عندما خفت التيار الكهربائي في زنزانته لحظات. ذلك أن الكرسي الكهربائي يستهلك طاقة كبرى من الكهرباء.

فانزيتي، هو الآخر، مشى مسرعاً وشجاعاً نحو غرفة الاعدام وكل ما قاله قبل رحيله هو:

- أود أن أؤكد لكم أنني بريء، بريء من كل جريمة. كما أسامح كل من سبب لي ضرراً انتظر الجلاد حتى انتهى المحكوم من كلامه وضغط على الزر..

وانفجرت الجماهير غاضبة في باريس وفرنسا بكاملها في لندن وليبزيغ وهامبورغ. في جنيف وشانغهاي وطوكيو. في ملبورن وبيونس ايرس. أعلنت الاضرابات ونصبت المتاريس. ولم تحسر الصدامات دون ضحايا من قتلى وجرحى.

ولم تنته القضية فصولاً . فقد استمرت عائلتا ساكو وفانزيتي ومعهما اصدقاؤهما في السعي لاعلان براءتهما وهكذا ، عام ١٩٧٠ ، كلف الزعيم الاشتراكي الايطالي بياترو ناني مجموعة من الحقوقيين بالنظر مجدداً في القضية وكان بنتيجة ذلك أن أعلن هؤلاء الحقوقيون أنهم توصلوا الى اثبات البراءة .

كما أن هذه البراءة أعلنها حاكم ماساشيوستس ، مايكل داكاكيس ، بعد خمسين عاماً من الاعدام ، وتحديداً في ٢٠ تموز- يوليو سنة ١٩٧٧ .

ومما قاله الحاكم في اعلانه :

- اني احذر الشعب الاميركي من كل نزعة نحو التعصب ، كما أعلن يوم ٢٧ آب- أغسطس من كل عام يوم ذكرى اعدام ساكو وفانزيتي في جميع انحاء ولاية ماساشيوستس .

السيد بيل

يوم الاثنين في ٢٨ آذار- مارس سنة ١٩٦٠ ، افتتحت في قصر العدل في باريس محاكمة قاتل في الثالثة والعشرين من عمره هو جورج رابين ، المشهور ب «السيد بيل»

وتاريخ الجريمة يعود الى فجر يوم ٣٠ أيار- مايو عام ١٩٥٩ . فبينما كان سائقا سيارة يمران وسط غابة فونتين بلو ، لاحظا جثة توشك على الاحتراق بكاملها . نعم ، الاحتراق . ذلك أن المجرم عمد الى صب البنزين على المغدورة بعد اطلاق النار عليها من مسدس ، ومن ثم ، الى اشعال النار فيها . وأكثر من ذلك ، فقد اثبت التشريح أن عملية اشعال النار هذه بدأت قبل أن تفارق الروح الجسد . أما المغدورة فهي دومينيك تيرال ، احدى مومسات حي البيكال الباريسي .

لم يطل الوقت على انتزاع الاعتراف من السيد بيل . كان الأمر سهلاً . وزيادة في الايضاح ، وأمام دهشة رجال الشرطة واستغرابهم ، اعترف ، دون أن يطلب منه ، بجريمة أخرى هي قتله الاطفائي روجيه أدام ، يوم الخامس من نيسان- ابريل في فيل جويف . ولم يكتف بذلك ، بل استمرت اعترافاته تكرّ ، الواحدة تلو الأخرى . حتى بلغت ما يقارب عشر جرائم قتل ، لم يسمع أحد بها من قبل . ثم يعود وينفي ما اعترف به ، بما في ذلك قتله للاطفائي ولدومينك تيرال نفسها لكنه ذكر ، بشأن هذه الأخيرة ، أنه حضر مصرعها .

من هو جورج رابين؟ انه الولد الوحيد للمهندس مارسيل رابين . عاش وسط عائلة بورجوازية محاطاً بالعناية الفائقة وللتدليل على أهمية والده العلمية ، نذكر أن الحكومة الفرنسية أرسلته خفية الى أسبانيا لتهريبه من وجه الألمان عند اجتياح هؤلاء لفرنسا .

لم يكن جورج في الواقع الولد الوحيد لأبويه . فقد كان له أخ أصيب بمرض السحايا ومات وهو لا يزال صغير السن . هذه الفاجعة جعلت الأهل يعيشون في خوف دائم على جورج ، مما ترك أثراً في تربيته . كانت نزواته المتلاحقة تنفذ دون نقاش وتأثير تربيته هذه انعكس على دراسته ، كما انعكس على صحته . ومما زاد الطين بلة ، أن الصبي مرض وهو

في العاشرة من عمره . كانت اعراض المرض شبيهة بأعراض السحايا ، مما أفقد الأهل صوابهم . غير أن الأعراض هذه كانت ، لحسن الحظ ، كاذبة . هذه الحادثة العابرة زادت في تلهف الأهل على الولد . وقد ساهمت كلها في جعل جورج هزيلاً في جسده فاشلاً في دراسته . ولما كان أبوه كثير الأسفار نتيجة لمتطلبات عمله وتبعاً لأهميته ، فقد تولت والدته وجدته تربيته ، بالاضافة الى المربيات والخادمات . وهكذا عاش جورج محاطاً بالنساء ومشبعاً بعواطفهن .

وعندما بلغ السن ، استدعي الى الخدمة العسكرية . وكان نصيبه في مراكش . هناك ، رأى ما لم يتعوده . كان عليه أن يطيع الأوامر ، وهذا ما جعله يمضي معظم فترة خدمته في السجن . ولما عاد ، كان زائغاً لا يدري ماذا يفعل . هنا ، بدأت شخصية « السيد بيل» تترعرع في داخله . وحيث لم يستطع أن يكون ولداً ناجحاً ، اختار لنفسه أن يكون شاباً منحرفاً ويبدو أنه نجح في ذلك .

ذات يوم ، وبغية ايجاد عمل « منتج » ، طلب من أهله أن يشتروا له باراً ففعلوا . لكن النتيجة كانت الأفلاس . بعد ذلك طلب منهم شراء بار آخر ففعلوا ايضاً . وتكررت النتيجة . ثم طلب أن يكون صاحب مكتبة ، فنفذ طلبه . ثم أن يتعلم التمثيل المسرحي ، ثم . . ثم . أثناء كل هذا ، كان مزدوج الشخصية ، في النهار ، شاب ينعم بمظهر لائق ومستوى اجتماعي رفيع ، وفي الليل ، يضع على رأسه قبعة منحنية الى الأمام وعلى عينيه نظارتين قاتمتي السواد ، ويمضي الساعات يلعب البوكر في القاعات الخلفية لصالات البيكال . هناك ، كان « السيد بيل » نجماً وسط مومسات الحي الباريسي الشهير .

وبينما هو يتخبط في هذين العالمين ، عالم النهار وعالم الليل ، أحب نادين ، بنت البواب . كان امامها مثال الخطيب الرزين . وهذا ما جعلها تثق به وتحبه ، حتى أنها ، أثر وقوع الجريمة ، ساعدته في اخفاء معالمها بأن غسلت قميصه من الدم واتلفت حقيبة المغدورة ، بعد أن لجأ عندها ولفق لها رواية عن قتله لدومينيك ، قائلاً أنها رفضت ان تسدد له ٥٠٠,٠٠٠/ فرنك سبق ودفعها غرامة عنها . غير أن تضحية نادين ، الموقوفة حالياً بتهمة اخفاء مجرم ، كانت في غير محلها . ذلك أن « السيد بيل » ، ابن « الوسط الموبوء » ، الذي جعل منه مجرماً ، لم يكن يستحق أية تضحية من أي نوع . هذا الوسط خذله وأوقعه في وحول الرذيلة والانحراف ، بعد أن رأى فيه صعلوكاً غير قادر على العيش بين ذئابه . أليس هذا الوسط بعينه هو الذي أفقده أعصابه وتوازنه ودفعه الى اقتراف جريمة قتل الاطفائي أدام ؟

صحيح أنه تراجع عن اعترافاته لكنه كان بادي الكذب . فالأدلة كلها ضده .

في قاعة المحكمة، كان جورج واضحاً في اجاباته، متزناً في سلوكه. هذا الشاب النحيل ذو القامة القصيرة، التي لا تتعدى ١٦٠ سنتيمتراً، تمكن من الاحتفاظ بمستوى هدوئه طوال الساعات الخمس التي استغرقها الاستجواب الأول.

وعندما سأله الرئيس:

ـ بعد عودتك من الخدمة العسكرية عام ١٩٥٧، كان أبواك يرغبان في شراء مكتبة لك. لكنك فضلت شراء بار..

أجاب:

ـ كانت تلك المهنة الوحيدة التي كنت واثقاً أن قدمي أبي لا تطآن مكان ممارستها.

ـ وأمك التي تسلمت المكتبة، هل كنت تساعدها؟

ـ كنت أنوب عنها أثناء قيلولتها.

ـ كنت تنفق كل ما تأخذه من امك وجدتك على اللعب بالاضافة لما كنت تربحه في عملك اليس كذلك؟

ويهز جورج رأسه بالايجاب.

ـ لماذا أغراك «وسط» البيكال؟

ـ ان الاجابة عن هذا السؤال قد تطول.

ـ نحن هنا من أجل ذلك.

ـ حسناً. بعد أن بلغت السابعة عشرة من عمري، بدأت أتردد على حفلات الرقص، التي كانت تنظمها أوساط المجتمع المخملي. هناك، تعرفت على بعض الشباب المنحرفين. ولما كنت أملك سيارة، فقد كانوا يطلبون مني أن أوصلهم الى حي البيكال، حيث بدأت أتذوق المتعة. لقد شعرت منذ ذلك الحين أن أهميتي أكبر هناك منها في المجتمعات الجدية التي نشأت فيها. هنا، تكمن مشكلة هذا الفتى. كانت العناية التي لقيها من اهله تخنقه، هرب منها ليلجأ الى حيث ظن أنه المكان المناسب لتحقيق ذاته. غير أنه، وهو يهرب، لم يقطع العلاقة بأهله، بمموليه الأسخياء.

ويقاطع الرئيس استرساله ليسأله:

ـ وعن مقتل روجيه أدام؟ ما هو الواقع؟ اتمنى أن تصدقنا القول.

ودون أن يترك لنفسه مجالاً للتفكير، يجيب جورج:

ـ لست أنا الذي اقترف هذه الجريمة. بل أن كل من يقترف جريمة كتلك يستحق

الموت المحتم .

أما عن المجرمين ، فيقول المتهم :

ـ ان من قتل الاطفائي ليس واحداً ، بل أربعة أعرفهم معرفة سطحية . لقد سرقوا مسدسي ، ثم أعادوه لي بعد انجازهم جريمتهم . أعادوه وألحوا علي بعدم البوح عنهم . من هنا ، أخذت علماً بفعلتهم ، أما دومينيك تيرال ، فقاتلها يدعى روبير . ومشاركتي في قتلها اقتصرت على ايصاله الى الغابة ، دون علم مسبق مني بنيته .

ويكمل المتهم قائلاً :

ـ شاهدت الجريمة . وعندما تطلعت الى دومينيك وقالت لي وهي مضرجة بدمها : «لماذا . . . . لماذا؟ . . . » ، أبعدتها عني ، ولكن دون عنف . هنا ، بدا الاشمئزاز واضحاً على وجوه الجميع . كيف يمكن لأنسان أن لا يمد يد العون لجريح يتخبط بدمه . كيف يمكنه أن يتركه يقضي دون أن يعمل ما بوسعه لانقاذه؟

في اليوم الثاني للمحاكمة ، تقدم الطبيب النفساني غوريو ليشهد أمام الجميع أن المتهم ينمتع بتوازن عقلي وصحة نفسية لا غبار عليها . وهذا يعني أنه لا يمكنه الاستفادة من أسباب تخفيفية . ثم يستدعى الأب فيتقدم من المنصة دون أن يلقي ولو نظرة واحدة على ابنه . تقدم بخطى ثابتة . وما أن وصل حتى بدأ بالشهادة قائلاً :

ـ سيدي الرئيس ، كان همي دائماً هو أن أرى ابني ناجحاً في دراسته لكن المرض أعاقه عن ذلك ، وهنا ، أود أن أصحح أمراً ورد في المحاكمة : لقد قالوا ان ابني كان الأخير في صفه . .

ويقاطعه الرئيس :

ـ نعم ، أنا قلت هذا . قلته نقلاً عن الملف والآن أكمل ..

هذا التدخل المفاجىء من قبل الرئيس أربك الأب بعض الشيء ، لكنه أكمل متوغلاً بتفاصيل لا أهمية لها عن مراحل دراسة ابنه .

وعندما طلب اليه الرئيس الانتقال الى كيفية تنشئته ، قال :

ـ كنت اسعى لأفضل طريقة في تربيته لكن مرضه حال دون ذلك ، ففي العاشرة ، اصيب بمرض أقضّ مضجعنا وتركنا في هاجس الخوف من تكرار فاجعة أخيه . وهذا ما جعل الخيارات ضيقة وصعبة . ولا أنسى الحزن الذي سببه لنا اصراره على فتح بار . واذا ما قبلنا في نهاية المطاف ، فذلك خوفاً من أن نتركه يتخبط في رذيلة البطالة والفراغ .

ويطرق الاب لحظة ليكمل بصوت مليء بالأسى :

ـ انا مقتنع ايها السادة من براءة ابني. مقتنع لأني اعرف طبعه الرقيق وحبه للخير واذا كان هناك من مسؤول فلا شك انه ذاك (الوسط) الذي لم يردعه ضمير عن ان يجعل منه دمية في يده.

ويسأل الرئيس الشاهد :

ـ لكن، الم تكن تعرف ان ابنك يتردد على هذا «الوسط»؟

ـ قطعاً لا .

ـ الم يخطر ببالك ان تراقب معشر ابنك من خلال البار ورواده؟

ـ قد يكون هذا الاهمال خطأ مني اتحمل مسؤوليته لكني في الواقع لم اشك يوماً في ان الانزلاق سيتمكن من ابني وقد اصبح في الثانية والعشرين يضاف الى ذلك انه سبق ان وعدته بعدم التدخل في شؤونه الذاتية.

ـ الا تعتقد ان هناك مجالا بين عدم التدخل المطلق والتربية التي نشأ عليها ابنك، كان بالامكان التحرك ضمنه دون المساس بالمبادىء؟

ـ صحيح، سيدي، لكن لا تنس ان هناك ميولاً ونزعات لا تقوى عليها اية تربية.

بهذه الكلمات انهى الاب شهادته مضطرباً وآسفا لانه لم يتمكن ان يكون كما أراد مفيداً لابنه كل الافادة.

وتأتي الام لتضيف بشهادتها وضوحاً على الصورة . كان همها كما قالت ان ترى ابنها. اما ما كانت تغدق عليه من اموال فلم يكن بالأمر المهم والمؤثر بالنسبة لثراء العائلة ونمط عيشها. وعندما غادرت هذه الأم المنصة تركت انطباعاً لدى الجميع بأنها الأم التي لم يكن بالامكان ان يطلب منها اكثر مما فعلت.

الشاهد التالي والأهم كان نادين دوليسك هذه الفتاة التي طبعت حياة جورج بمرحلة وحيدة من الصفاء والاخلاص. لم تكن نادين تعرف من المتهم الا شخصية جورج رابين اما الشخصية الاخرى شخصية السيد بيل الليلية فقد كانت مجهولة منها كل الجهل واذا كانت ساعدته على اخفاء بعض مؤشرات الجريمة التي اقترفها بقتله دومينيك فذلك تم لأنها تحبه ولأنها صدقته في ما لفقه عن تبريره لها.

بعد نادين تقدم الشاهد جورج غرانييه صديق المتهم وقد ذكر ان صديقه كان يقص له اخبار جرائمه ومنها قتله دومينيك لكن معرفته لشخصيته لم تكن لتعطيه الانطباع بان ما يذكره يمكن ان يكون صحيحاً حتى ايداعه المسدس الذي اطلق منه الرصاصات القاتلة

على دومينيك فانه هو ايضا لم يعن له شيئا على الاطلاق.

وتوالى بعد ذلك عدد من الشهود من رجال الشرطة ومن رفاق الليل كانت شهاداتهم من النوع الفارغ ذلك انهم لم يكونوا يعرفون الشيء الكثير عن المتهم كل ما ذكروه هو انهم شاهدوه ليلة الجريمة، بصحبة دومينيك وهذا ما سهل فور وقوع الجريمة عملية القاء القبض عليه.

يوم ٣٠ اذار - مارس، كانت الجولة الثالثة للمحاكمة. في ذلك اليوم لم يكن الشهود اكثر اثارة من سابقيهم. لكن مرافعة محامي الادعاء في مقتل الاطفائي وقد وقف يرافع موجهاً معظم كلامه الى المتهم بدلت بعض الشيء في الأجواء، ومن جملة ما قاله له:

- تنكر اقترافك جرم قتل هذا الاطفائي اليس كذلك؟ سأكتفي لدحض انكارك بتذكيرك بكلماتك انت لقد سبق وقلت ما حرفيته: «لقد اهانني القتيل وعندما طلبت منه سحب كلماته، رفض عندها اطلقت في رأسه طلقة واحدة وقع على اثرها على الارض» هذه هي كلماتك يا رابين الا تذكرك بشيء.

وللمرة الاولى يخفض جورج رابين عينيه وتعلو الحمرة خديه غير انه لم يلبث ان يعود الى وضعه الاساسي وكأن شيئا لم يكن.

اما محامي دومينيك فقد كان عنيفا وواضحا لم يوارب في طلب الاعدام للقاتل. وفكرة الاعدام هذه ما فتئت منذ تلك اللحظة تحوم في أجواء المحكمة وتعتمل في نفوس وعقول المحلفين. ولم يكن المدعي العام في مرافعته اقل حزماً ولا اقل وضوحاً بهذا الصدد.

ولم يستطع محامو رابين الثلاثة محو الاثار التي خلفتها المحاكمة حتى اللحظة لدى الجميع هؤلاء المحامون ومنهم فلوريو الشهير الذي دامت مرافعته خمس ساعات متتالية ركزوا على الشك في الادلة وعلى التشرذم الداخلي الذي خلفته بيئة وتربية موكلهم.

غير ان ما تقرر يختلف عما اراده الدفاع. خمس وثلاثون دقيقة فقط استغرقتها المذاكرة وخرج المحلفون ليعلن احدهم ان جورج رابين اعتبر مذنباً ولا يتمتع باي من الاسباب التخفيفية.

وعندما سمع رابين الحكم باعدامه لم تبد منه ردة فعل تذكر ظل هادئا شأنه طوال المحاكمة او ليس هو من قال يوما: «الواقع هو انني كنت احصل على ما كنت اريد. كان لي ابوان يحبانني كان لدي المال وامكانية الحياة الطبيعية» لكن هل يكفي ان يكون للانسان ما يريد؟ اليس هناك ايضا ما يعتقد انه يريد؟

في قاعة المحكمة الباردة لم يبق سوى الاب كان يحس ان حكم الاعدام انما طاله هو. وعندما غادر القاعة بخطاه البطيئة والمتثاقلة كان يبدو مسحوقاً ربما لأول مرة في حياته فابنه الثاني الذي عاش هاجس موته بحكم من الله طوال سنوات سيموت بحكم من الانسان، تذكر ابنه الأول وغادر القاعة.

رفض جورج رابين تقديم طلب التماس العفو وقد قال لأمه مفسراً موقفه هذا: «امي، انت تعرفينني بما فيه الكفاية لتدركي انني أصر على الهلاك» هذا، وقد كتب على جدار زنزانته قبل دقائق من مغادرته لها: «ما هي الا رعشة كتف ويمحى العالم بهدوء وربما برفق».

سنك ـ مارس

كانت الساعة تشير الى الثامنة صباحا عندما احضر رئيس الشرطة امام محكمة ليون العليا سجينا تدل المظاهر كلها انه على قدر كبير من الأهمية ولمحاكمة هذا السجين قام الملك لويس الثالث عشر بالتشاور مع الكاردينال دي ريشيليو بدعـوة قضاة المحكمـة ونصب عليهم رئيساً هو المستشار سيفييه وزيـر العدل والشخصيـة الثانيـة في المملكة الفـرنسية بأسرها.

من هو هذا السجين المتهم؟ انه هنري ديفيا مركيز سنك ـ مارس، وابن ناظر المالية السابق الذي قضى في احدى معارك الجيش الفرنسي. هذا الشاب ذو الاثنين والعشرين ربيعاً دخل البلاط في سن السادسة عشرة بواسطة من ريشيليو نفسه، صديق والده. اما ما كان ريشيليو يرمي اليه من وراء تقريب هذا الفتى الجميل من الملك فهو اشغاله به عن محظيته المفضلة مدموزيل دي هوتفورد التي لم تكن تنفك عن التآمر على ريشيليو وايغار صدر الملك ضده. . وقد تجاوزت النتيجة بكثير ما كان يرمي اليه ريشيليو.

فمنذ اللقاء الاول، تعلق قلب الملك بالفتى وزيادة في اكرامه عينه ضابطاً للحرس الملكي. وبعد سنتين وكان قد بلغ الثامنة عشرة، سلمه مركز الرئيس الأعلى للحرس. وفي التاسعة عشرة، أصبح المسؤول الأول عن خيول الملك. وهو مركز حسده عليه معظم رجال الحاشية. من هنا بدأ اللغط حول العلاقة الملكية به. كما بدأت الدسائس تحاك للاساءة الى هذه العلاقة. ومما أعطى الحاسدين الفرصة التي ينتظرون، سلوك الشاب هنري نفسه فقد كان يتحين الفرص ليخرج من القصر ويلتقي عشيقاته الكثيرات وهذا ما كان موضع تقارير تقدم للملك من قبل جواسيس له لهذه الغاية وبالتالي موضع غيرة عارمة تضطرم نارها في قلبه.

ولم يكتف هنري ديفيا بهذا النوع من السلوك بل تعداه الى ما هو اشد خطرا لقد

اضاع صوابه ما وصل اليه من حظوة لدى الملك ولم يدرك ان ريشيلو اراد من وراء تقريبه من الملك ان يكون عميلاً له في اعلى المستويات في البلاط. وحبذا لو اكتفى هنري بهذا القدر من الجهل او بالاحرى من التجاهل لقد تعداه ليصبح متآمرا مع المتآمرين ضد ريشيليو ولي نعمته وسبب سعادته. وقد اخذ تعاونه مع اعداء ريشيليو منحى خطيراً هو التآمر ضد الدولة نفسها فمعلوم ان فرنسا كانت في حرب ضد اسبانيا وكانت كل من الدولتين تتصارعان على امتلاك مقاطعة روسيون وفي وقت من الأوقات فكر اعداء الداخل في اغتيال ريشيليو لكنهم وجدوا ان الامر خطير. لذلك خططوا لمؤامرة تقضي بالدعوة الى صلح مع الاسبان مقابل التنازل عن عدد من القلاع الفرنسية وهذا يعتبر بحد ذاته خيانة عظمى.

ورأس المؤامرة تلك كان فرنسوا دي تو المستشار لدى البرلمان اما روحها فلم يكن سوى غاسون دورليان شقيق الملك لويس الثالث عشر.

في شهر اذار ـ مارس سنة ١٦٤٢ وبينما كان ريشيليو يقود شخصياً حصار مقاطعة بربينيان رأى المتعاونون مع العدو ان الوقت مناسب فأرسلوا مبعوثهم مركيز فونتري ليعرض معاهدة الصلح على رئيس وزراء اسبانيا دوق أوليفار.

لكن نسخة عن وثيقة المعاهدة وصلت الى يد ريشيليو. فر معظم المشتركين في المؤامرة الى خارج فرنسا. اما هنري فلم يشأ ان يغادر معتمدا على غرام الملك له لكنه اخطأ التقدير القي القبض عليه في نازبون وسرعان ما شكل ريشيليو لجنة خاصة للنظر في قضيته.

لكن المسألة الأكثر دقة في مجمل هذه القضية هي ما يتعلق بشقيق الملك غاستون دورليان وقد قرر المستشار ساغييه الاستماع اليه كشاهد لا كمتهم تجنباً لاي احراج وهكذا لم يبق ماثلا من المتهمين امام المحكمة سوى اثنين: هنري ديفيا والمستشار في البرلمان فرنسوا دي تو. اما الباقون فقد غادروا البلاد ونجوا بانفسهم قبل ان يلقى القبض عليهم.

اختيرت مدينة ليون لتكون مقراً للمحاكمة وهذا الاختيار رمزي باعتبار ان فكرة اغتيال ريشيليو ولدت اصلا في هذه المدينة. وبينما كانت اللجنة الخاصة في طريقها اليها وبمرورها في فيل فرانش توقفت لتستمع الى شقيق الملك. لم ينكر هذا ما اتهم به لكنه قال ان سينك ـ مارس هو رأس التآمر. اما هو فقد وعد المتآمرين بالمساعدة اذا ما نجحت محاولتهم.

منذ اللحظة الأولى لوصول سينك ـ مارس الى ليون احضر امام اللجنة لتستمع اليه. في بداية الجلسة عرض عليه المدعي العام صفقة تقضي بمنحه العفو إن هو ادلى باعترافات كاملة وأقر بصورة خاصة ان دي تو الذي يكنّ ريشيلو حقدا خاصا كان على علم بالمؤامرة.

ولما كان هنري لا يزال غير ناضج على الرغم من المناصب العليا التي تبوأها فقد صدق العرض وها هو يدلي باعترافاته كاملة املا في ان يحظى بعطف ريشيليو وبصفح الملك. ولم يصل الى علمه ان الأوامر كانت في ذلك الوقت قد اعطيت الى شرطة ليون لاجراء الترتيبات اللازمة لاعدامه هو ودي تو.

بعد ان انتهى سنك ـ مارس من الادلاء بكل ما لديه دون ان ينسى التركيز على تآمر دي تو جاء دور هذا الاخير ليقف امام قضاة اللجنة.

لم يكن المسكين يعرف ما حيك ضده بواسطة سنك ـ مارس. أنكر علمه بالمؤامرة غير انه جوبه باعترافات هنري فامتقع وجهه ولما تمالك ما بقي لديه من اعصاب لجأ الى منحى آخر من الدفاع قال إنه لم يكن بمقدوره البوح بمعلومات غير أكيدة. ومن الصعب إثباتها تتناول شقيق الملك الأوحد، وكذلك المحظي الأول لدى الملك سنك ـ مارس. إن البوح بمعلومات ضد هذين النافذين عن معاهدة صلح سرية مع العدو يعني أنه وضع رأسه بملء إرادته تحت شفرة المقصلة.

دفاع قوي وحجة مفحمة ولكن ما الفائدة من كل ذلك والمصير قد تقرر؟

لم يتأخر صدور الحكم الاعدام بالاجماع لسنك ـ مارس وبالأكثرية لدي تو هذه الاكثرية كانت احد عشر صوتا من اصل ثلاثة عشر وبغية الحصول على الاجماع كما في حكم الأول فقد لجأ المستشار ساغييه الى بعض الحيلة، التفت الى القضاة قائلاً لهم ان الملك سيغضب ان هو رآكم تحكمون محظيه الأول بالاجماع بينما تحكمون زميلاً لكم بالأكثرية. ولم يكن القضاة بحاجة لأكثر من هذه النصيحة. اعيد النظر بحكم دي تو وصدر بالاجماع.

سيق المحكومان لسماع الحكم استمعا اليه ببعض الاطمئنان بالحصول على العفو الملكي الخاص. لكن سنك مارس احس برأسه يهتز بين كتفيه عندما علم انه سيساق قبل تنفيذ الحكم الى التعذيب. وهذه مرحلة اضافية ربما كان القصد منها الحصول منه على معلومات اوفر لكن التعذيب هذا يجب ان يتم في العلن وهذا قد يؤدي الى انشاء ما لا يستحسن انشاؤه خصوصا ما يتعلق بغرام الملك للمحكوم لذلك ارتؤي ان تتم هذه المرحلة شكلا وهذا ما حصل عندما اعيد سنك مارس من مكان التعذيب دون تعذيب الى زنزانته.

في الساحة التي ستشهد الاعدام تجمع الناس بكثرة لمشاهدة رأسين كانا لوقت قصير حديث حساد البلاط وهما يتدحرجان. لم يرغب سنك ـ مارس بالظهور إلا بأبهى حلة لبس ثياباً تليق بأكبر المناسبات اما دي تو فقد آثر البساطة.

تقدم سنك ـ مارس اولا الى حيث المقصلة، كان مصمماً على عدم الانهيار وقد نجح

في ذلك الى حد بعيد على الرغم من سوء حظه في طريقة الاعدام غير العادية : لقد كسرت ساق جلاد ليون الوحيد عشية تنفيذ الحكم مما اضطر السلطات الى الاستعانة باحد الجزارين وهذا يعني ان الاعدام سيتم بطريقة الذبح ، تماما كما تذبح النعاج.

ومع ذلك لم يفقد المسكين رباطة جأشه وها هو يستعجل الجزار بالتنفيذ .

بعد انجاز المهمة بانفصال الرأس عن الجسد جاء دور دي تو الذي لم يتمكن مما تمكن منه سلفه وها هو يصرخ وقد رأى ما رأى من هول طالباً منديلاً يعصب به عينيه ولما اعتذر الجزار لعدم وجرد منديل لديه سارعت الجماهير المحتشدة الى رمي عدد وفير من المناديل له التقط واحدا وعصب به عينيه وما هي الا لحظات حتى كان الرأس ينفصل بهدوء عن الكتفين.

صحيح ان سنك ـ مارس ودي تو كانا يستحقان الحكم الذي نزل بهما انطلاقا من منطق الدولة لكن الطريقة التي تم بها اعدامهما جعلت منهما بطلين دون بطولة.

بقي تفصيل بسيط قد يكون من المناسب الاشارة اليه : لقد وصل خبر تنفيذ حكم الاعدام بسنك ـ مارس ودي تو الى ريشيليو ساعة كانت الجيوش الفرنسية تدخل الى باربينيان منتصرة على العدو الاسباني في معركة اعتبرت من المعارك الفاصلة في تلك الحرب الضروس .

قضية ساري ـ شميت

لدقائق طويلة لم تنفك انوار الات التصوير الصحفية تبهر العيون وهي تلتقط الصورة تلو الاخرى للمتهمين الثلاثة وهم يهمون بالجلوس في قفص الاتهام الخاص بمحكمة ايكس ـ آن ـ بروفانس الفرنسية. ففي ذلك السبت ٢١ تشرين الأول ـ اوكتوبر سنة ١٩٣٣ تبدأ محاكمة امرأتين فيلومان وكاترين شميت ورجل، جورج ساري.

الرجل ولد في تريستا عام ١٨٧٩ من أبوين يونانيين وعند بلوغه سن الرابعة انتقل الى فرنسا وفي سنة ١٩٠٣ حصل على الجنسية الفرنسية.

عقب الحرب العالمية الأولى وكان جورج قد بلغ الاربعين بدأ دراسة الحقوق كان طموحه ان يصبح محامياً وان يعمل في السياسة لكنه عدل مساره بعد حصوله على الاجازة في الحقوق واسس في مرسيليا مكتباً للأعمال.

كان نجاحه في عالم الأعمال سريعاً وقد ساعده في ذلك ما طبعه في أذهان عملائه من ثقة اضافة الى مهارة في تسيير الأمور لفتت انظار الجميع وفي تلك الفترة من حياته تعرف على الأختين شميت.

احدى الاختين فيلدمان وصلت الى فرنسا واستقرت فيها قبل اختها كاترين التي تصغرها بسبع سنوات. في فرنسا حملت فيلومان ووضعت طفلا ولما كانت ترغب باي ثمن في الحصول على الجنسية الفرنسية فقد توجهت الى مكتب ساري لهذه الغاية وها هو سيد المكتب يزوجها من رجل يكبرها بعشرين سنة رجل متزوج اصلا انما مضى عليه وقت طويل دون اخبار عن زوجته، بعد الزواج قدم ساري الى عميلته الألمانية الشابة نصيحة مخلصة وهي ان تقنع زوجها بتنظيم عقد تأمين على حياته اقتنع الرجل وفعل، وبعد أربعة اشهر مات الزوج وبذلك انتجت النصيحة وتقاضت الأرملة قيمة العقد.

بعد نجاح الصفقة وكانت كاترين قد لحقت باختها في فرنسا بهدف الزواج والحصول على الجنسية الفرنسية كان من الطبيعي ان تلجأ الى مكتب «الشاطر» للغاية المرجوة.

والزوج هذه المرة يصغر العروس بخمس وعشرين سنة كان ملاحقا من قبل العدالة تزوج ونظم عقد تأمين و. . مات بعد ثمانية اشهر من زواجه.

ومما يثير التساؤل ان الفتاتين الالمانيتين لم تريا من يلاحقهما او حتى يطرح عليهما سؤالا واحدا طوال وجودهما في فرنسا مع ان احدا من الالمان المقيمين هناك لم ينج من بعض المضايقات في فترة كانت العلاقات بين البلدين على اشد ما تكون من التوتر طوال سنوات ما بين الحربين العالميتين وقبلها.

لقد خلقت علاقات العمل ونصائحها المثمرة بين ساري والفتاتين مودة عميقة حتى ان احداهما كاترين انقلبت علاقتها بساري الى غرام واصبحت عشيقته. في هذه الاثناء ونتيجة للطرق الملتوية التي انتهجها الشاب في مكتبه كانت اعمال المكتب تنتقل من سيء الى أسوأ وبينما الوضع على هذه الحال التقى ساري بالمدعو شامبون.

وشامبون هذا هو راهب سابق خلع ثوب الرهبنة وعاش مع امرأة متزوجة تركت زوجها بعد ان استأثرت بكامل ماله وقد اشترى الاثنان بالمال فندقاً تولى شامبون ادارته.

ولما كانت الطيور على اشكالها تقع فقد رأى ساري بشامبون وخليلته جوه الملائم. ومع بداية هذه الرابطة وانطلاقاً منها وضع ساري خطته الاجرامية، استأجر فيلا منعزلة في ضواحي ايكس على طريق ڤوڤنارغ. في هذه الفيلا، وضع مغطساً اشترته كاترين بتكليف منه، وتولى هو شخصيا مهمة الحصول على كمية من حامض الكبريت.

في ١٩ آب اوغسطس سنة ١٩٢٥ ذهبت كاترين الى بيت شامبون في مرسيليا واصطحبته الى الفيلا التي يقطنها ساري وهناك وعند وصوله صرعه ساري بطلق ناري واحد بعد ذلك عادت كاترين ثانية الى مرسيليا لتحضر السيدة بالندرو التي ما ان وصلت هي الاخرى الى فيلا ساري حتى عاجلها هذا بطلق ناري الحقها بعشيقها كل هذا وفيلومان ترقب المكان حول الفيلا خوفا من ان يمر احد ويلاحظ ما يجري من جرائم سريعة.

القى ساري بالجثتين في المغطس المليء بحامض الكبريت وما هو الا وقت ليس بطويل حتى ذابت الجثتان ولم يبق منهما سوى سائل لزج سرعان ما تخلص منه الفاعل وشريكتاه بان نقلوه الى الخارج وسكبوه على تراب الحديقة.

بعد ان تم كل شيء حسب الخطة المرسومة قام ساري بتسليم مفاتيح الفيلا الى صاحبها الذي لاحظ وهو يدخلها ان روائح غريبة تنبعث منها كما لاحظ بقعا من

الحامض على البلاد وفي المستودعات التي لا زالت رائحة الحامض وما حـل به تعبق في ارجائها، ارتاب الرجل بالأمر وقام بابلاغ الشرطة لكن التحقيق لم يثبت وقتئذ شيئاً وهذا ما جعل ملف القضية يحال للحفظ.

بقي ان يحصل مقترفو الجريمتين على املاك شامبون كان الموضوع صعبا بعض الشيء بوجود زوج بالندرو الذي بدأ يتساءل عن مصير زوجته لكنه لم يكن مستحيلا. وقد تم دون تعقيدات تذكر.

بعد هذه الصفقة تشجع الثالوث وبدأ انطلاقاً جديداً في ترتيب جرائم جديدة. عادوا إلى قصة عقود التأمين على الحياة وفي أحد المستشفيات اكتشفت فيلدمان امرأة مصابة بالسل في درجته الثالثة احاطها الثلاثة بالرعاية وتبرعوا بخدمتها في بيتها مدعين ان البيت افضل لها من المستشفى بعد ذلك نظمت كاترين عقد تأمين على حياتها بمبلغ مليـون وسبعماية الف فرنك وما هي الا ايام حتى كانت المسلولة المسكينة ترقد في قبرها متسممة بكأس من الشامبانيا قدمها لها اصدقاؤها الثلاثة.

وبغية قبض قيمة التأمين اتفق الثالوث على اعلان موت كاترين على انها تلك المرأة وتوجهت «امها» المزعومة فيلدمان الى شركة التأمين وقبضت المبلغ.

لكن الامور لم تجر هذه المرة حسبما اشتهاها الثلاثة ذلك ان كاترين وقد كان عليها ان تتوارى عن الانظار باعتبارها «ميتة»، لم تستطع تحمل هذا النوع من الحياة فقررت كشف كل شيء كل شيء بما فيه قضية شامبون بالندرو ومغطس الحامض..

في بداية المحاكمة سأل الرئيس كاترين:

ـ لقد أنشأ ساري في فيلته نوعاً من المصيدة، أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ وهو الذي طلب منك وضع بعض الاثاث فيها؟

ـ نعم يا سيدي اشتريت مغطسا بمئة فرنك.. لكنني لم أكن أدري ما كان يزمع القيام به عندما طلب مني شراءه.

وتكمل كاترين بصوت متهدج ولكنة المانية:

ـ ارسلني ساري يوما لاحضر شامبون وفي الطريق كان يحدثني عن اعماله وانا كنت احدثه عن الخياطة.. وعندما وصلنا صعد شـامبون الى الـطابق الاول وبقيت انا في الـطابق الارضي وما هي الا لحظات حتى سمعت طلقة مدوية اسرعت فاذا بي ارى شامبون يتخبط بدمه وساري يحمل بندقية بيده قال لي: «كنت بحاجة للمال لا تجزعي ولا تقـولي شيئا

سأتدبر الأمر».

وتكمل كاترين روايتها:

ـ عدت الى مرسيليا واحضرت بالندرو وتكرر معها ما جرى مع عشيقها، بكينااانا واختي من هول ما حدث غير ان ساري هددنا بقوله: «انتما المانيتان لذلك لن يصدقكم احد ان انتما كشفتماالسر، ضعا ثقتكما بي فانا رجل قوي ونافذ» وفي اليوم التالي تساعدنا جميعا في عملية ازالة آثار الجريمتين لكن الروائح لم تكن تنفك تنبعث بقوة.

انتهت كاترين دون ان يبدو عليها اثر لاي انفعال وعندما طلب الرئيس من فيلدمان سرد روايتها اكتفت بتأييد ما ذكرته اختها واضافت انها واختها حزنتا جدا لما حدث.

ويصرخ المدعي العام في وجهها:

ـ حزنتما؟ لذلك ساعدتما المجرم الاساسي في ازالة آثار جريمته ودونما تأثر يذكر!

لم تجب فيلدمان ويطلب الرئيس من ساري سرد روايته قائلا له:

ـ انت مجاز في الحقوق وقد سبق واقسمت اليمين في هذه القاعة بالذات على قول الحقيقة واتباع الحق. لذلك سأعطيك الكلام بوصفك محاميا:

ويبدو ان هذه المقدمة اربكت المتهم بعض الشيء فقال:

ـ محاميا؟ لا. فانا لم ألبس الثوب مرة، سجنوني، سيدي الرئيس كأي كان كأي متهم ولكن لا كمحام.

ويبدأ ساري بسرد الرواية:

ـ كنت في مكتبي في مرسيليا عندما حضرت فيلدمان مضطربة لتخبرني ان شامبون قتل عشيقته بالندرو في الفيلا.

غريب امر هذه الرواية التي تذكر لأول مرة على لسان ساري من اين أتى بها وهو الذي لم ينكر في التحقيقات اقترافه الجريمة؟

ويتابع ساري:

ـ هرعت صوب الفيلا فوجدت شامبون فيها وقد اقترف لتوه جريمته طلب مني بعض المال رفضت اعطاءه اياه جرى تلاسن بيننا ما لبث ان تطور الى عراك بالايدي واثناء العراك امسكت بمسدسه فانطلقت منه رصاصة أصابته خطأ وكانت قاتلة..

ـ ولماذا لم تخبر الشرطة؟

طرح الرئيس سؤاله هذا بلهجة من التهكم والازدراء وها هو المتهم يجيب:
ـ لان الأختين شميت لم تريدا ذلك قالتا لي: « نحن لا دخل لنا بكل ما جرى . ولهذا فاننا لا نريد متاعب وتعقيدات مع رجال الأمن .

ـ اذا انت رهن بمشيئتهما. اليس هذا ما تريد قوله؟

ـ اجل سيدي .
ـ والجثتان؟
ـ بشأن اخفاء الجثتين، وجدنا بعد التداول ان خير وسيلة لطمس وجودهما هي في تذويبهما بحامض الكبريت الموجود اصلا في الفيلا .

ـ او على الاصح الذي اشتريته لهذه الغاية وقبل ايام من الجريمة . .
ـ انا لم اشتر شيئا سيدي، شامبون هو الذي اشتراه وأودعه الفيلا، باعتبار انه يهتم بالكيمياء الصناعية .

انها المرة الأولى التي يذكر فيها ان شامبون الراهب السابق كان يتعاطى بامور الكيمياء الصناعية .

وهنا يلتفت المدعي العام الى المرأتين الجالستين في القفص ويقول لهما:

ـ انظرا جيدا الى هذا الرجل الذي يتحمل مسؤولية جرائم اخرى انظرا اليه وقولا له دون وجل ان ما يقوله غير صحيح!

فتتحرك احداهما كاترين وتصرخ في وجهه:
ـ انت تعرف يا سيدي ساري ان ما تقوله كذب . .

امافيلدمان فتنقض عليه كما لو تود طعنه بخنجر ثم تغرز اظافرها في ثيابه وتنفجر في وجهه بكلمات نصفها الماني ونصفها الآخر فرنسي:
ـ لقد عانيت كثيراً . . انه هو الذي قتل! هو، هو، هو . .

ويجيب ساري مرتبكاً:

ـ سيتولى محامي اجابتك . .

يوم ٢٤ تشرين الأول ـ اكتوبر ١٩٣٣ وكان اليوم الثالث في سلسلة ايام المحاكمة رأت المحكمة ان تخصصه للبحث في الوجه الآخر لجرائم هذا الثالوث اعني قضية الاحتيال في عقود التأمين على الحياة .

صحيح ان المحاكمة لا تدور حول موت زوجي الاختين في ظروف غامضة وبعد

زواج كل منهما بأشهر معدودة وكذلك اثر تنظيمها عقد تأمين شخصي على الحياة لكن اثارة الموضوع يفرض نفسه بحكم طبيعته على سير المحاكمة وفي جنباتها.

ثم يتطرق الرئيس الى قضية موت العجوزماغاليهربن، التي تولى الثالوث «العناية» بها بعد اخراجها من المستشفى وبعد الاستيضاح تجيب كاترين:

ـ لم تكن كأس الشمبانيا التي طلبتها مني يوما مسمومة، ولو كان كذلك لوجدت طعمه غريبا ولتألمت قبل ان تموت لقد عاشت اياما بعد تجرعه ومن دون اي ألم.

ويقاطعها الرئيس قائلاً ببعض الانفعال:

ـ لكنك انت التي احضرتها من المستشفى وبغرض قتلها. لقد أغراك مبلغ التأمين على حياتها!

ـ كنت مجبرة على ذلك لكني أؤكد انني لست امرأة سيئة كما تظن.

وهنا، يجلس محامي الدفاع مغلوبا على امره ودون ان ينبس ببنت شفة.

ويأتي دور الشهود وأولهم كان صاحب الفيلا المؤجرة من المتهم. قال:

ـ بعد رحيل المستأجرين لاحظت بقعاً غريبة على البلاط كما لاحظت بقايا مواد محروقة في الحديقة. اشعرت الشرطة جاءوا واهتموا بالموضوع لكنهم امروا بحفظ الملف لعدم وجود دليل.

ـ يقول شاهد آخر صاحب صيدلية في مرسيليا:

ـ في اواخر تموز ـ يوليو سنة ١٩٢٥ جاءني ساري وطلب مني تأمين مئة ليتر من الحامض في قوارير صغيرة لم يكن لدى مثل هذه الكمية فاستعنت بزميل لي لتأمينها وعندما سألت الزبون عن الغاية لمثل هذه الكمية الضخمة اجابني انه يحتاجها لأعماله في مزرعته.

وهنا يقاطع الرئيس الشاهد ويلتفت نحو المتهم ليسأله:

ـ اشتريت هذه الكمية من اجل شامبون اليس كذلك؟

ـ اجل، كان يزمع استخدامها في ابحاثه.

ثم يسأله:

ـ لماذا افرغت بيت شامبون وبالندرو من جميع محتوياته ولم تترك فيه اي اثر لاثاث او حتى لأغراض شخصية؟

ـ لا اعرف

وجاء يوم ٢٦ تشرين الأول ـ أكتوبر ١٩٣٣ وهو اليوم الخامس للمحاكمة، لتستمع

فيه المحكمة الى الخبراء.

اولهم، البروفسور بارال وهو استاذ في علم السموم اكد ان ماغـالي هربن مـاتت مسمومة بملح الزنك الذي اعطي لها على دفعات ذلك ان كبدها وجد مشبعا به.

ويوم ٢٧ اليوم التالي تقدم شاهد آخر هو كاتب العدل في مرسيليا الاستاذ ليوتار وما قاله جاء مثيرا وأضفى على جو المحاكمة بعض الرومانسية:

ـ كنت في مكتبي عندما حضرت عندي امرأة في لباس الحداد متقدمة في السن وقالت لي انها مدام شميدت وان لها بنتين فيلدمان وكاترين.

واضافت:

ـ كاترين ماتت منذ بعض الوقت وقبل موتها نظمت لصالحي عقد تأمين ولما كنت ازمع العودة الى بافاريا فاني اطلب تحويل قيمة هذا العقد الى ابنتي فيلدمان لتتمكن من قبضها في غيابي.

ولا حاجة للتوضيح ان هذه المرأة المتقدمة في السن ليست سـوى فيلدمان نفسهـا جاءت الى كاتب العدل بعد ان تنكرت بهذا المظهر بمساعدة ساري.

وتدخل زوجة ساري السابقة لتدلي بشهادتها نقول السابقة لان هذين الزوجين قد تطلقا قالت:

ـ من وقت لآخر كان يحضر عندي ومعه بعض الاثاث قائلاً انه من اثاث عميل عنده كلفه تصفيته لوفاء بعض الدين.

ولدى سؤال الرئيس عما اذا كان لدى المتهم ما يضيفه يجيب هذا:

ـ لا شيء!

في هذه السلسلة الطويلة من ايام المحاكمة كان يوما ٣٠ و ٣١ تشرين الأول ـ اكتوبر، آخرها. لم يستطع محامو الدفاع الوقوف في مرافعاتهم على ارض صلبة، خلافاً للمدعي العام.

وتأتي المذاكرة، وقد دامت ثلاث ساعات كان على المحلفين خلالها الاجابة عن ١٧٦ سؤالاً. وما ان خرجوا حتى اعلن الرئيس الحكم:

ـ عشر سنوات سجن لكل من كاترين وفيلدمان بعد الاخذ بالاعتبار الاسباب التخفيفية الناتجة خاصة عن شلل ارادتها تجاه تسلط ساري والاعدام لساري».

لم يجب احد من المحكومين عن سؤال الرئيس عما اذا كان لديهم ما يقولونه لكنهم لم يستطيعوا اخفاء شحوبهم وامتقاع وجوههم.

وهكذا، اسدل الستار على هذه القضية بعد ان نفذ حكم الاعدام بساري في العاشر من نيسان ابريل سنة ١٩٣٤ بعد خمسة اشهر من صدوره.

محاكمة لافال

في الرابع من شهر تشرين الأول- اكتوبر من عام ١٩٤٥ ، بدأت محاكمة بيار لافال ، رئيس وزراء فرنسا في حكومة الماريشال بيتان . لافال الذي يرى فيه معظم الناس المسؤول الأول عن معاناة الشعب الفرنسي في الفترة ما بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٤ ، وهي الفترة التي كانت فيها فرنسا محتلة من قبل المانيا النازية .

ولهذه الغاية ، تشكلت محكمة عليا ، نظرت في البدء في قضية الماريشال بيتان ، رئيس الدولة الفرنسية السابق ما بين تموز-يوليو وآب-أ غسطس سنة ١٩٤٥ . وها هي اليوم تنظر في قضية لافال ، وبعد ذلك ، في قضايا جميع الوزراء والنافذين في حكومة فيشي .

وهيئة المحلفين في هذه المحاكمة كانت قد تألفت من ستة وثلاثين محلفاً ، نصفهم من عناصر المقاومة والنصف الآخر من اعضاء مجلس النواب المنتخب في ظل الجمهورية الثالثة .

غير أن هذا العدد عاد واختصر الى أربعة وعشرين : اثنا عشر منهم من البرلمانيين والاثنا عشر الآخرون من غير البرلمانيين . هذا التوزيع أثار انتقادات لاذعة من قبل الفرنسيين ، ذلك أن الانتخابات النيابية لم تكن قد جرت بعد عندما تقرر ذلك . وهي لم تجر إلا بعد ثلاثة أسابيع من بدء المحاكمة . يضاف الى ذلك ان الجمهورية الثالثة كانت غير قائمة فعلاً . فقد سبق وأولت هذه الجمهورية كافة صلاحياتها الدستورية الى الماريشال بيتان . أما الجمهورية الرابعة ، فأنها لم تبدأ قانوناً الا بعد انتخابات العاشر من تشرين الثاني- نوفمبر والثامن من كانون الأول- ديسمبر من سنة ١٩٤٥ .

كل هذا يعني أن ما تقرر بالنسبة لتشكيل هيئة المحلفين ، انما تقرر في الفراغ الدستوري ، وبالتالي ، يعتريه عيب جوهري .

وقد أثار محامو بيتان هذه النقطة اثناء محاكمته . لكن المحكمة ردت الاعتراض

واعتبرت نفسها صالحة للنظر في القضية . وهذا ما تم بالفعل . لذلك ، لم يعد من المفيد العودة الى هذه النقطة في محاكمة لافال .

بدأت المحاكمة بعد أن احتل كل من الرئيس والاعضاء وهيئة المحلفين اماكنهم . أما المتهم ، فقد كان في القفص شاحباً ، مما يوحي بأنه كان مريضاً . مقاعد الدفاع وحدها كانت شاغرة . لماذا؟ هذا السؤال طرحه الحضور كل على نفسه . وسرعان ما أتى الجواب عندما قرأ الرئيس كتاباً من محامي الدفاع الثلاثة يقولون فيه أن «التحقيقات التي سبق وطلبناها لم تؤمن ، على الرغم من الوعد بتأمينها . ونحن نخشى أن تؤدي السرعة في اجراء المحاكمة ، والتي أملتها ضغوطات سياسية ، لا اعتبارات قضائية ، الى التضحية بالعدالة . يتضح هذا من قول رئيس المحكمة أنه سينتهي من المحاكمة بأكملها قبل الانتخابات ، ولو اضطره ذلك الى وصل الوقت صباحاً وظهراً ومساءً . »

ولو علمنا أن الانتخابات عينت في ٢١ تشرين الأول ـ اكتوبر ، وأن المحامي الذي كتب الرسالة باسمه واسم زميليه هو من قدامى المقاومة ، ولا يكن بالتالي أي تعاطف مع المتهم ، وقد عينته المحكمة نفسها ، لاتضح الثقل الذي أرخت به الرسالة على المحكمة ، والاحراج الذي سببته لها .

والواقع أن التحقيقات بمعظمها اختزلت ، ان لم نقل نسفت . فبعد ان كان قاضي التحقيق يزمع اجراء خمس وعشرين جلسة ، انزل العدد الى سبع ، ودون أي تعليل . هذا بالاضافة الى ثغرات اخرى في ملف الدفاع نفسه . وثغرات التحقيق والدفاع هذه حصلت بالطريقة عينها في ملف محاكمة بيتان التي تمت .

غير أن مكابرة رئيس المحكمة أدت الى اعتبار رسالة محامي الدفاع نوعاً من الابتزاز . وها هو يصرخ من على القوس منفعلاً :

ـ قلت واكرر انني لن أؤخذ بالمناورات . ولن أسمح بالعودة الى هذه النقطة !

وتلاه المدعي العام الذي استنكر ، هو الآخر ، رسالة الدفاع ، لا سيما ما جاء فيها من أن المحكمة تتأثر بضغوطات سياسية .

لكن لافال ينتفض في قفصه ليصرخ في وجهه :

ـ لكن الواقع هو أن هذا صحيح . وأنت ، أنت نفسك كنت في حكومتي ! واليوم تسوق ضدي تهماً من أنواع مختلفة . لا يحق لكم ذلك . بامكانكم فقط قتلي . أما ما عدا ذلك فلا .

ويعود المدعي العام لينتفض في وجه المتهم ملصقاً به مسؤولية ما حل بفرنسا من

احتلال ومعاناة طوال خمس سنوات . أما عن اختصار التحقيقات ، فقد رد الملاحظة معتبراً انها تفتقر لأي دليل .

لكن لافال اجاب مدافعاً :

ـ اذا كنت اقف متهماً في هذا القفص ، فلأني حاولت تجنيب بلادي ويلات الحرب . صحيح أنني قابلت هتلر وموسوليني وستالين والبابا ، لكن الصحيح ايضاً انني فعلت ذلك من أجل فرنسا . وقد كنت مستعداً لمقابلة الشيطان والتحدث معه من أجل هذه الغاية .

وساد في القاعة صمت عميق . صمت قطعه المتهم عندما اكمل قائلاً :

ـ غلطتي الكبرى هي أنني وثقت بالماريشال بيتان . هذا الرجل لم يكن رجل الظرف . واذا كنتم تعتقدون انكم باتهامي تدافعون عن فرنسا ، فاني اقول لكم انكم بالاستماع الي تعرفون كم خدمت بلدي . أما عن التحقيقات ، فأني اطلب تمديد مهلتها ثمانية أيام للتوسع فيها .

ولم تقبل المحكمة الطلب . فينتفض لافال ثانية ويقول :

ـ غريب هذا الأمر فعلاً ! اعتقد ان مثل هذا الطلب هام ، حتى ولو جاء في قضية سرقة واحد من المخازن الكبرى .

ويلتفت الى المدعي العام ليقول في وجهه :

ـ قرأت قرار الاتهام الذي نظمته بحقي . انه عبارة عن مقال رديء في صحيفة . فالاتهامات التي تلصقها بي رهيبة . الهدنة؟ ألا ترى أنه كان لا بد منها وأنها كانت مطلب ٩٩٪ من الفرنسيين؟

ويضيف بعد تنهد :

ـ عندما يحارب العسكريون عندنا ، فانما يحاربون بشكل سيء جداً . أما عندما يتدخلون في السياسة ، فأن تدخلهم يكون أسوأ بكثير .

وحتى يعرف الجميع أن المقصود بهذه الملاحظة هو الجنرال ديغول ، فقد أضاف :

ـ استميح الجنرال ، الذي هو الآن في السلطة ، عذراً . لكنني اعتبر ، وهو في هذا الموقع ، أنه مدني ليس الا وتجري ملاسنة حادة بين المدعي العام والمتهم ، يصرخ في نهايتها هذا الأخير في وجه خصمه قائلاً :

ـلن تتمكنوا من السيطرة على افكاري وعلى مشاعري . يمكنكم الحكم عليّ فوراً بالاعدام . احكموا عليّ . فهذا سيكون اكثر وضوحاً .

وهنا ، ينفعل الرئيس ويأمر الشرطة بأخراج المتهم . فيرد هذا قائلاً :

ـ لا لزوم لذلك . سأخرج وحدي .

ويخرج فيصفق له أحد الحاضرين، الذي عرف، فيما بعد، انه ابن أحد الوزراء في حكومة فيشي.

وعندما عاد الهدوء الى القاعة، أعلن الرئيس أنه يرفع الجلسة لتعقد في اليوم التالي، ولو دون وجود المتهم.

وخرج الحضور وفي اذهانهم أن شيئاً ما غير طبيعي يحدث في هذه المحاكمة، وأن لافال كان على صواب عندما أشار اليه بوضوح. في اليوم التالي، بدأت الأمور مختلفة بعض الشيء. فقد اعلن الرئيس أن المحلفين رجوه بالاجماع أن يسمح للمتهم بالعودة الى القاعة شرط أن لا يعاود سلوكه بالأمس، تحت طائلة طرده نهائياً منها. أما محامو الدفاع، فقد قطعوا امتناعهم عن الحضور وأتوا جميعاً ليحتلوا مقاعدهم. جديد آخر، وهو أن الاستماع الى رئيس الجمهورية السابق، البير لوبرون، قد ارجىء الى وقت آخر سيعلن فيما بعد.

بدأ محامي الدفاع الجلسة بتوضيح اسباب عدم حضورة بالأمس، هو وزملاؤه، قائلاً أن مستندات التحقيق لم تودع اياهم كلها. ولهذا، ارادوا «اعلان ذلك للملأ، حتى يأخذ الرأي العام علماً به وبالتالي، بالحد من حقوق الدفاع المقدسة».

ثم انتقل الى انتقاد سوء معاملة موكله طوال فترة التوقيف. فالزنزانة التي وضع فيها لا مثيل لها في السجن لأي موقوفٍ من الموقوفين السياسيين. هذه الملاحظة لم ترق للرئيس، مما تسبب في تعكير الجو، لولا أن تدخل نقيب المحامين ورطب الاجواء بعض الشيء. لكن الأعصاب كانت أصبحت من التوتر بحيث تنذر بما قد لا تحمد عقباه.

وأنهى محامي الدفاع ملاحظاته بطلب اعادة القضية برمتها الى قاضي التحقيق لاستكمال الملف وسد الثغرات فيه. ويذكر أن المتهم طلب الأمر نفسه في جلسة الأمس. وقد قال المحامي في هذا الصدد:

- لماذا لا تكون قضية بيار لافال كبيرة قدركبره؟ لماذانحرمه من أبسط مبادىء العدالة ونمنع عليه ضمانات تعتبر من المسلمات التي لا نقاش حولها؟ أليس في هذا مناسبة لالقاء الضوء على سنوات أربع من تاريخنا الدراماتيكي؟

وتلاه زميله، محامي الدفاع الثاني، جاك بارادوك، ليؤكد الطلب، مبرراً اياه بصعوبة استدعاء السياسيين، الذين يزمع دعوتهم للشهادة، في خضم المعركة الانتخابية التي تخوضها البلاد. وأنهى المحامي طلبه بهذا التساؤل، الذي طرحه بنبرة الاتهام المبطن:

- ما هي الأوامر التي وجهت اليك، سيدي الرئيس، لتتغاضى عن مثل هذه النواقص؟

ويستشيط الرئيس غضباً واحراجاً ويرد على المحامي قائلاً :
ـ امنعك من أن تكلمني بهذه اللهجة . وعليك أن تعلم أنني لا اتلقى أمراً من أحد . وهذا نهجي منذ خمس وأربعين سنة ، أي منذ أن بدأت أتولى منصب القضاء .

وهنا يتدخل المتهم ليطلب من المحكمة أن تستكمل اجراءات التحقيق وسط صخب اضطر الرئيس لرفع الجلسة بحجة التداول من الدفاع .
استمر رفع الجلسة ثلاثة ارباع الساعة خرجت هيئة المحكمة في اثرها ليعلن الرئيس أن طلب الدفاع مردود وأن ملف التحقيقات لن يعاد الى قاضي التحقيق .

وصرخ لافال من قفصه :
ـ هذا معيب . أنها فضيحة . انكم لا تحاكمون هنا شخصاً بقدر ما تحاكمون سياسة .

ويرد عليه المدعي العام :
ـ صحيح . نحن نحاكم سياسة . لكنها سياسة صنعها وجسدها هذا الشخص .
فيردف لافال قائلاً :
ـ طالما انكم ترفضون طلب استكمال نواقص التحقيق ، فاني اطلب ادراج الطلب ومناقشته في الجريدة الرسمية . لعل في هذا تعويضاً عن الاجحاف وطعن العدالة .
لقد استعاد لافال ذاته . انه يتحدث ، كما كان بالأمس ، كرئيس للوزراء ، لا كمتهم . يتحدث وهو جالس بملء راحته على كرسيه في قفص الاتهام . وقد يكون هذا السلوك من دواعي الامتعاض الذي بدا واضحاً على وجوه اعضاء المحكمة وهيئة المحلفين .
ويكمل الرئيس استجوابه وسط هذا الجو المشحون :
ـألم تكن تمارس سيطرتك وتأثيرك على الرئيس بيتان في ما كان يتخذه من قرارات؟
ـ أبداً . . . كان يكفي أن أبدي له رأياً ليعمل بعكسه .
ـلكنك كنت في فترة من الفترات وزير دولة ومرشحاً لخلافة بيتان .
ـ وزير دولة ! وأي دور لي في هذا المنصب؟
لم يكن التقليل من دور لافال أمام الماريشال بيتان بالأمر الجديد . لقد حاول ايهام الجميع بهذا منذ الجلسة الأولى ، ساعة لمح الى الخلافات المستمرة بينه وبين رئيسه .
ويسترسل قائلاً :
ـ لم يكن موضوع خلافة بيتان بالأمر المهم بالنسبة لي . واذا كنت قد فكرت به في يوم من الأيام ، فذلك حتى لا أترك الساحة ، بعد رحيل الماريشال ، الى عسكري مثله . كنت

مقتنعاً بأن رجلاً مدنياً يتسلم السلطة خير من أي عسكري . وهذا تفكير مبدئي لا يدخل الأشخاص في تكوينه . وهو ينطلق من مصلحة البلد العليا .

ثم يكمل مدفوعاً بالحماسة ، التي شحنته بها عبارته عن البلد ومصلحته العليا ، وكأنه على منصة يلقي خطاباً سياسياً خطيراً :

ـ وأذكّركم انفعلت عندما رأيت مرة تلك العبارة «نحن ، فيليب بيتان» يتوج بها توقيعه . قلت يومئذٍ في نفسي أن التاريخ يعيد البلد الى الوراء ، الى عهد الملكية . وهذا ما أغاظني في العمق .

ـ وهل ابديت احتجاجاً على هذا؟

ـوهل ينفع احتجاج مع الماريشال؟

ـلكنك مع ذلك ، قبلت منصباً رفيعاً في حكومته .

ـ لا منصب رفيعاً معه ، لأنه كان يملك كل الصلاحيات . كان ، دون سواه ، كل شيء . ولازلت أذكر ما قلته له ذات يوم من أنه يحكم كما لم يحكم أي ملك من ملوك فرنسا ، ابان عهود الملكية المتمادية . لم يجبني . لكنه ، في اليوم التالي ، واثناء اجتماع به ، قال لي : «هل تشك بأن صلاحياتي تفوق بكثير ما كان لويس الرابع عشر يملك»؟ .

ـ ومع ذلك احتفظت بمنصبك في حكومته !

ـاحتفظت به كما احتفظ به الجميع ، كل في الموقع الذي هو فيه .

في هذا الجو، انتهت جلسة اليوم . وفي اليوم التالي ، في السادس من تشرين الأول ـ اكتوبر ، بدأ المتهم الجلسة بطلب الكلام . أثار قضية غيار ـ بوراجاس ، الذي حكم بالاعدام غيابياً لاشتراكه في عملية بيع صحيفة مارسيلية الى الألمان وبالتجسس لحسابهم .

وكان اسم لافال قد تلوث بها . لكنه لم يحاكم ، كما لم يمثل أمام المحكمة لوجوده آنئذٍ في اسبانيا . لقد أراد المتهم من اثارته لهذه القضية أن يربك المحكمة عن طريق اعادتها الى قوانين أصدرتها حكومة فيشي بضغط نازي . وهذه القوانين هي التي طبقتها المحكمة في القضية المذكورة . لكن المدعي العام رفض هذه العودة الى الوراء قائلاً للمتهم :

ـ لكن هذه القوانين اقترنت بتوقيعك عندما كنت في الحكم .

ـوأنت طبقتها .

ـ أبداً .

وتدخل الرئيس لحسم الجدال واعادة بعض الهدوء الى القاعة ، وسأل المتهم :

ـبالأمس سألتك كيف بقيت في منصبك في حكومة فيشي وسط هذا الجو المشحون بالضغوطات النازية وبفرض ارادة المحتل . والجواب لا شك هو أن الألمان هم الذين

وضعوك في هذا الموقع وأرادوا لك هذا الدور.

ـلا ، سيدي الرئيس .

ـ بلى. علماً بأني لا أود أن اتخذ صفة الاتهام . لكني القي ضوءاً ربما يكون في ذلك بعض الفائدة .

هنا ، بدأت همهمة في القاعة . صحيح أن معظم الحضور لا يتعاطف مع لافال ، لكن تنصيب الرئيس نفسه في مركز الاتهام لم يرق لهم . فهذا مخالف لأبسط قواعد اصول المحاكمة وطعن للعدالة في الصميم .

وينتهزها لافال ليهاجم . وتدب الفوضى في القاعة . ووسط هذه الفوضى ينطلق المتهم كالنمر في وجه الرئيس والأعضاء :

ـ أمام ما خلقته بمخالفتك للأصول وكذلك ما يحـويه ملف التحقيق من ثغـرات وانحرافات ، ارى نفسي أمام صعوبات لست مسؤولاً عنها . . . .

ـولست مسؤولاً كذلك عن افعالك طوال اربع سنوات من العمالة أليس كذلك؟

ـطالما أن المحكمة تطرح السؤال وتعقبه بالجواب ، فأني أرى أن نتوقف عند هذا الحد ، حفاظاً على حرمة العدالة وجلالها .

ويتـدخل أحـد المحلفين للدفـاع عن موقف الـرئيس فتختلط الأصـوات وتـدب الفوضى . ويحاول صوت الرئيس ان ينفذ ليسأل المتهم :

ـالكلمة الآن للمحكمة . هل يرغب المتهم بالاجابة عن اسئلتها؟

ـلا .

ـأحذرك من مغبة هذا الموقف . مرة ثانية ، هل تجيب عن الأسئلة .

ـكلا ، طالما أن الطريقة في طرح الأسئلة هي اياها ، وطالما أن الأسئلة تطرح . بروح عدائية .

ـحسناً . رفعت الجلسة .

قال الرئيس هذا وهو يغلي حنقا وحرجاً .

ويعود الهرج والمرج على أشده . حتى أن بعض المحلفين توصل الى رفع الأيدي في وجه المتهم والى اغراقه بالسباب والشتائم :

ـ محرض . . . !

ـ نذل .

ـسوف تلقاها ، رصاصاتك الاثنتي عشرة !

ـبل حبل المشنقة !

ـ سنسمعك تعوي بعد خمسة عشر يوماً!
وعندما قال له محلف آخر بلهجة مليئة بالحقد :
ـلم تتغير!
أجابه :
ـولن اتغير.
ظلت الجلسة مرفوعة بعض الوقت . وعندما عادت والتأمت ، بدأها المتهم بقوله :
ـان الطريقة التي تعاملني بها محكمتكم تطعن العدالة في الصميم . وحتى لا أكون شريكاً في هذه الجريمة تساق ضد العدالة ، فأني اعلن امتناعي عن الكلام .
ويرد عليه الرئيس بقوله :
ـيعني ذلك أنك لا زلت ترفض الاجابة ، اليس كذلك؟
أجل .
ويهز الرئيس كتفه مبدياً بوضوح عجزه في الأمر . وبعد ذلك ، يأمر مباشر المحكمة أن يدخل الشاهد الأول.

لكن مهزلة جديدة تبدأ وسط الفوضى والضجيج . لم يكن منتظراً ان يستدعى الشهود في هذه الجلسة . ذلك أن استجواب المتهم كان سيستغرق جلسات ، مما لم يتم معه استدعاء أي شاهد هذا اليوم .

أمام هذا الواقع المخزي ، اعلن الرئيس تعليق الجلسة ، وأسرع في ارسال المباشر ليفتش في طول باريس وعرضها عن واحد من شهود الادعاء الأربعة ، رئيس الجمهورية السابق البير لوبرون ، السفير ليون نويل ، الجنرال دواين وأمين سر مجلس الشيوخ السابق دي لا بومراي .

في هذه الأثناء ، ارسل رئيس المحكمة ايضاً أحد موظفيه الى المتهم ليقنعه بالعدول عن موقفه والتجاوب مع المحكمة برده على اسئلتها . لكن موقف لافال كان صلباً :
ـلا تراجع . كل ما يجري هو من صنع المحكمة . فليحكموا علي ، انما لن يحاكموني .

وعادت المحكمة الى الانعقاد وسط احراج لها كبير. فلا المتهم ولا محاموه الثلاثة ، الذين تضامنوا معه ، حاضرين في مقاعدهم . مخرج صغير اتيح بشق النفس : لقد حضر ، أو أحضر ، شاهد واحد من الأربعة ، وهو الرئيس السابق للجمهورية ، البير لوبرون ، وقف هذا الشاهد ليعلن أنه ليس لديه ما يقوله وما يمكن أن يكون مفيداً . اكتفى بسرد بعض الوقائع عن تسلم لافال الحكومة وعن الهدنة . وكلها أمور لا تؤثر في صلب سير

المحاكمة أو في القضية من قريب أو بعيد .

كان من المتوقع أن تستمر المناقشات ما يقرب من ثلاثة أسابيع . لكن السؤال هو كيف لهذا الوقت ان يملأ وملف التحقيق شبه فارغ؟ ناهيك عن اصرار المتهم على عدم المثول امام المحكمة!

وهكذا كانت جلسة الثامن من الشهر تتخبط في جو باهت من الفراغ في الشكل وفي الأساس . فمقاعد المتهم ومحاميه فارغة . أما المناقشات ، فكانت تافهة لدرجة أنها لم تثر اهتمام أحد . حتى الشهود ، شهود الادعاء ، ومنهم الجنرال دوايين وامين السر العام لمجلس الشيوخ وعضو اتحاد العمال ، فكثيراً ما كانوا يغرقون ويغرقون الآخرين من تفاصيل مملة وسخيفة . واللحظة الوحيدة ، طوال هذه الجلسة والتي وجد فيها الحاضرون أنفسهم مشدودين بعض الشيء الى أمر على قدر من الأهمية ، هي تلك التي قال فيها عضو الاتحاد هذا كيف أن لافال كان يستعجل فيها حكام المقاطعات على القاء القبض على العمال المعارضين لسياسته وزجهم في السجون . وقد بلغ عددهم خمسين الفاً ذهبوا ولم يرجعوا .

وجاء دور شهود الدفاع : ادوار هيريو، بول بونكور، البيرسارو، بول رينو، ليون بلوم والجنرالات دونين وبريدو ودي بيناي .

والغريب ان أحداً من هؤلاء لم يكن حاضراً . جميعهم ، وهم من السياسيين، كانوا منهمكين في معاركهم الانتخابية بعيداً عن باريس .

وبغية كسر الجليد الذي تراكم منذ بداية هذه الجلسة ، فقد أمر المدعي العام كاتب المحكمة بقراءة الشهادة الخطية المقدمة من السيد غازيل ، وهو دبلوماسي فرنسي سابق عمل في اسبانيا . ولشد ما كانت الدهشة مروعة للمحكمة بكافة عناصرها عندما لوحظ ان هذه الشهادة لاتمت للقضية بصلة وأنها ضمّت سهواً الى الملف!

وحتى يستوعب الاستهجان الذي بدا واضحاً على الوجوه ، صرخ الرئيس بوجه الكاتب قائلاً له :

ـ ما هذا الذي تتلوه؟!

وبذلك أضيفت مهزلة الى المهازل المتراكمة في تلك المحاكمة ، التي تنظر، في الواقع ، بأربع سنوات من حياة فرنسا ، اربع سنوات ، ربما كانت الأخطر في تاريخ هذا البلد الطويل .

بعد ذلك ، وللتخلص من الورطة ، أمر الرئيس برفع الجلسة لتعقد بعد قليل . وفي

بداية الجلسة التالية، رأت المحكمة أن تقرأ الصفحات الخمس عشرة، التي يتألف منها ملف التحقيقات. لكنها، وقد وجدت أن القراءة ستستغرق وقتاً غير قليل، طرحت فكرة قراءة مقتطفات فقط. ولم تحتج الى عناء إقناع هيئة المحلفين بالفكرة. فموافقتها جاءت فورية وهذا دليل آخر، يضاف الى الأدلة السابقة، على استهتار وسطحية، قلما لوحظ مثلهما في محاكمة أخرى.

هذا الجو استمر في جلسة التاسع من الشهر، وبعمق أكبر. كان على المحكمة أن تستمع في هذه الجلسة الى شهادة ليون نويل، سفير فرنسا الذي سبق وأدلى بشهادة في قضية الماريشال بيتان. تقدم هذا الشاهد الى المنصة. وعندما طلب منه الرئيس حلف اليمين، رفض قائلاً أنه سبق أن حلفها قبل شهادته المدونة في ملف التحقيق، وأنه لا يرى مسوغاً لحلفها ثانية طالما أن المتهم ومحاميه متغيبون، وبالتالي، لا يسعهم مناقشتها والدفاع فيها.

وغادر الشاهد القاعة ملقناً المحكمة درساً في أصول المحاكمات، وكذا في الحفاظ على حد ادنى من الاعتبار للعدالة وحرمتها.

وسط الضيق والحرج اللذين سببهما هذا التصرف للمحكمة بكامل هيئتها، وقف المدعي العام يلقي مرافعته. كان بارداً، بل ومتعباً. وبكلمة مختصرة، كان غير موفق.

ومما زاد الطين بلة، انه لم يتورع عن القول ان هذه المحاكمة ينقصها الوضوح في الرؤية والصفاء في المعطيات. قالها وكأنه غير مسؤول، مع سائر المسؤولين، عن هذا الواقع. وأضاف متسائلاً:

ـ كيف لا تكون هذه المحاكمة كذلك، والمتهم أصر منذ الجلسة الأولى على عدم المشاركة؟

ويضاف اختصار الى اختصار. فقد كانت مرافعة المدعي العام قصيرة ولم تعقبها مرافعات الدفاع أو ملاحظات المتهم. وهكذا، في الساعة الرابعة والدقيقة العاشرة، بدأت خلوة المداولة ولم تستمر أكثر من ساعة واحدة. ساعة واحدة في قضية على هذا القدر من الأهمية والتشعب.

وصدر الحكم المنتظر. الاعدام بسبب «محاولة قلب نظام الحكم الجمهوري والتعامل مع العدو والخيانة العظمى». وأعقب هذا الحكم ملحق بمصادرة ممتلكات لافال بكاملها لصالح الأمة.

وعندما ابلغ المحكوم الحكم، استمع اليه بهدوء ثم قال:

ـ مؤسف انهم لم يتركوا لي مزيداً من الوقت لأكتب صفحات اخرى من تاريخ

فرنسا. وأضاف :

ـ ليس في نيتي التقدم بطلب التماس للعفو.

كانت الضجة التي احدثها هذا الحكم كبيرة في فرنسا. لم يكن الاحتجاج عليه لأنه انزل عقوبة بمن تعاون مع العدو النازي، لكن الثغرات التي لم تستكمل في التحقيقات وتحيز المحكمة طوال المحاكمة هي التي القت بظلال كثيفة على القضية وأحاطتها بأكثر من علامة استفهام.

وهرع محامو لافال الى محاولة، بل محاولات انقاذ موكلهم. في العاشر من الشهر، طلبوا مقابلة رئيس الحكومة، الجنرال ديغول. وفي الحادي عشر منه، توجهوا الى شخصيات عدة يمكن أن تكون مفيدة في هذا الاطار. منها رئيس الحكومة السابق، بول رينو، الذي قبل ان ينشر في جريدته، النظام، مقالاً ينتقد اجراءات المحاكمة دون جوهرها.

أما ليون بلوم، فقد صرح بأنه لا يعتقد أن لافال كان طيباً بقدر ما يعتقد انه كان مسالماً أكثر من اللازم. واستغرب كيف أن المحكمة فوتت فرصة عدم التوسع في المحاكمة. ذلك انها، في نظره، مشوّقة ومفيدة في آن معاً.

في اليوم التالي، أي في الثاني عشر، وعند الساعة السابعة مساءً، استقبل الجنرال ديغول المحامين الثلاثة في مكتبه. كانت المقابلة بروتوكولية. وبعدما شرح أحد المحامين وجهة نظره وطلب اعادة المحاكمة، سألهم الجنرال عمّا اذا كان لديهم ما يضيفونه، ووقف منهيا المقابلة ومودعاً إياهم بلباقة كلية.

وكان الجنرال في ظهيرة اليوم نفسه، قد صرح لصحفيين انكليز جاؤوا يسألونه عن القضية أنه لن تكون هناك «محاكمة ثانية للافال».

خرج المحامون من مكتب الجنرال. وفي الغرفة الملاصقة، حيث مكتب مدير قضايا العفو، رأوا مدير مكتب الرئيس، غاستون بالوسكي، يدخل عند الرئيس وفي يده نسخة من مجموعة القوانين. وها هو يخرج بعد لحظات ليعلن للمحامين الثلاثة أن الرئيس سيطلب استشارة من حارس الاختام الموجود حالياً في مدينة رين لادارة حملته الانتخابية. وعلى هذا، فأنه سيرسل اليه غداً رسالة محمولة بالطائرة مع أحد موظفي وزارة العدل لهذه الغاية.

وأسرع المحامون الى الكاتب فرنسوا مورياك لينشر في جريدة الفيغارو مقالاً آخر يضيفه الى مقالاته التي باشر بنشرها منذ أيام، وفيها ينتقد سياسة التصفيات التي تتبعها

المحاكم للتخلص من خصوم غير مرغوب فيهم . وقد اراد المحامون بهذه الخطوة دفع الحكومة والمحكمة العليا لتقرير اعادة المحاكمة ، خوفاً من التلوث في الاتهام بنحر العدالة .

لم يكتب مورياك المقال . لكنه كتب ، وبعد شيء من النقاش ، رسالة الى حارس الأختام حملتها الطائرة ، التي حملت رسالة ديغول .

يوم الثالث عشر ، لم يرشح أي خبر من رئاسة الحكومة . اليوم التالي ، كان يوم أحد . ويوم الأحد لا تنفذ أحكام اعدام . مساء ذلك اليوم الطويل ، رن جرس التلفون في مكتب أحد المحامين ، الأستاذ البيرنو ، ليعلن المتحدث عبر الخط :
ـ سيدي ، أنا مكلف من الرئاسة بابلاغك أن بيار لافال سيعدم غداً صباحاً . اللقاء أمام قصر العدل ، حيث ستكون بانتظارك سيارة تنقلك الى مكان التنفيذ .

وهكذا حسم الموضوع ، ولن تكون هناك اعادة للمحاكمة . ما أن انتهت تلك المخابرة الهاتفية ، حتى توجه المحامون الى السجن حيث يقبع موكلهم في احدى زنزاناته . دخلوا اليه بعد اذن خاص ، وبعد أن أشير اليهم بعدم ابلاغه موعد تنفيذ الحكم . وقد وجدوا لافال آخر . لم يعد ذلك الرجل القوي والمتغطرس لقد حل محله انسان آخر ، انسان يتمسك بالحياة ويريد ان يستمر فيها .

وها هو يتوجه الى محاميه يطلب ان يتصلوا بشخصيات ، سماها لهم ، ممن يمكن أن يكونوا مفيدين في اطار طلب العفو أو اعادة المحاكمة . ولم يكتف بذلك ، بل أشار اليهم أن يمسكوا اقلاماً وورقاً ليملي عليهم رسائل بهذا الشأن . كان عصبياً ومتشنجاً وهو يردد : أرفض أن أموت . أرفض .

انه يرفض ان يموت . ولكن ، أليس بعد فوات الأوان ؟ وارتبك المحامون . أطاعوه في كتابة الرسائل ولم يكشفوا له السر الرهيب .

كانت الساعة تدق الثامنة صباحاً ، يوم الرابع عشر من شهر تشرين الأول ـ اكتوبر من عام ١٩٤٥ ، عندما بدأ الموجلون بالتنفيذ ، من رسميين وسواهم ، بالصعود الى السيارات التي ستقلهم الى السجن . وصلوا ودخلوا زنزانة لافال . أما سائر الزنزانات ، فقد اغلقت شبابيكها الصغيرة المطلة على الممر حتى لا يرى المحكومون الآخرون ترتيبات تنفيذ حكم باعدام محكوم زميل لهم .

فتح الحارس المكلف زنزانة لافال الذي كان نائماً . لحق به المدعي العام وربت على كتفه ليوقظه . نهض المسكين ، فقال له المدعي العام :
ـ بيار لافال ، حان الوقت ، تهيأ للموت بشجاعة .

لم يجب لافال. ولم يتحرك. تقدم أحد محاميه وهزه قليلاً قائلاً له :
ـأرجوك يا سيدي. من أجلك ، من أجل محاميك، من أجل التاريخ ، تشجع.
واستمر لافال في جموده بعض الوقت. أخيراً، التفت ببطء وأفلت زجاجة صغيرة فارغة كان يمسكها بيده. لقد تجرع السم.
ويتقدم الطبيب الشرعي بسرعة ليتفحص الزجاجة ويقول :
ـأنه السيانور.
وتسترعي انتباه الحضور قصاصة ورق كتب عليها :
ـأرفض ان أموت برصاصات فرنسية. لا أريد أن يشترك جنود فرنسيون في قتل القانون. لقد اخترت موتي بسم الرومان. هذا السم، سبق وخبأته في طيات ثيابي.
وأسرع طبيب السجن الى اسعاف لافال المحتضر، بعد أن رفض الطبيب الشرعي هذه المهمة متذرعاً بموقف انساني. اسرع الى الحقن اللازمة وغسيل المعدة. وقد دام هذا الاسعاف قرابة ساعتين.
وحوالي الساعة الثانية عشرة ظهراً، وكان لافال قد تماثل الى الشفاء، اذاعت وزارة العدل بياناً فيه من البلية ما يضحك : قال البيان :
«لم تعد حياة بيار لافال في خطر» وهذا يعني أن الاعدام سيتم.
وبعد لحظات ، كان لافال قد لبس ثيابه ووضع ياقته البيضاء ووشاحه ذا اللونين. كما كان قد مشط شعره ووضع قبعته على رأسه.
أرادوا أن يجلسوه على كرسي لينقلوه الى حيث الاعدام فرفض قائلاً :
ـرئيس وزراء فرنسا يموت واقفاً. سأستجمع قواي لأصمد هذه اللحظة التي بقيت في حياتي.
وبسبب الحالة الصحية التي وصل اليها فقد رأى أولو الأمر ان ينفذ الحكم في فناء السجن، لا في قلعة شاتيون، كما كان مقررا.
والتفت الى القضاة الذين حكموا عليه وقال لهم :
ـ لقد اردتم حضور هذا المشهد. ابقوا اذاً حتى النهاية.
وعندما طلب أن يسمح له باعطاء الأمر، هو، للجنود المكلفين باطلاق النار، رفض طلبه لأنه «مخالف للقانون.».
عندها، التفت الى هؤلاء وقال لهم :
ـأنا اسامحكم. فأنتم غير مسؤولين. صوبوا نحو القلب. تحيا فرنسا!
وقبل أن ينهي مرة ثانية عبارة «تحيا فرنسا»، كان كل شيء قد انتهى. مات بيار لافال وكانت الساعة تشير الى الثانية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين ظهراً.

كاترين سابورين

يوم الجمعة في ٢٥ أيار- مايو من عام ١٩٠٦ ، كان يوماً مشهوداً في مدينة بـوردو الفرنسية . آلاف من الناس احتشدت أمام قصر العدل هناك ، ومئات غصت بها قـاعة المحكمة . منذ عام ، وأهالي بوردو يتشوقون لحضور محاكمة كاترين سابورين كانابي ، سليلة المجتمع المخملي وبنت أحد كبار صناعيي المدينة .

دخلت المتهمة القفص فاشرأبت الأعناق لمشاهدتها . لم تظهر بالصورة التي رسمها لها الناس . في الأربعين من عمرها ، كانت كاترين باهتة شاحبـة . عينان صغيـرتان دون حاجبين ، وشفتان رقيقتان دون حياة . أما الهندام فلـم يكن ، هو الآخر ، بالشكل المنتظر .

بدأت المحاكمة بقراءة قرار الاتهام . هذا القرار التي لم يثر اهتمام أحد ، فالجميع يعرفون تفاصيله من قبل .

في ١١ أيار- مايو ١٩٠٥ ، أي قبل ما يقرب من سنة ، استدعت عائلة كانابي طبيبها الخاص على عجل . فالسيد كانابي يشكو من آلام حادة في بطنه . حضر الطبيب وفحص المريض . كان تشخيصه أن العوارض تنبيء بالوافدة . وعلى هذا ، وصف الدواء المناسب وغادر المنزل .

بعد ساعات قليلة ، عادت العائلة واستدعت الطبيب . لقد ساءت حالة المريض كثيراً . أصبح متشنجاً وأطرافه بلا حراك . كما بدأ قلبه متقطع الضربات .

أمام هذه الحال المنذرة بـأسوأ العـواقب ، رأى الطبيب استـدعاء بعض الـزملاء للتشاور . وقد أجمعوا كلهم أن الحالة ناتجة عن تسمم . لذا ، نقل السيد كانابي الى أحد المستشفيات ، حيث أجريت له الاسعافات اللازمة . ونتيجة للفحـوصات والتحـاليل ، وجدت كمية كبيرة من الأرسنيك في شعر رأسه وذقنه .

بعد يومين من ذاك الذي جرى ، تذكر أحد الصيادلة في بوردو أن السيدة كانابي

اشترت من صيدليته كميات من الأكونيتين والديجيتالين والأرسنيك بموجب وصفات موقعة من الدكتور غوب، أحد أطباء الأرياف وعندما عرض الصيدلي هذه الوصفات على هذا الطبيب، صرح أنها مزورة وسارع الى اقامة الدعوى أمام المحكمة.

وانفجرت الفضيحة. كيف لا وعائلة كانابي هي واحدة من هذا المجتمع المخملي، الذي يحلو للجميع التندر بحكايات عنه؟ أما العائلة اياها، فقد تصرفت بتعاون وثيق محاولة طمس الفضيحة على أساس أن الزوجين سعيدان وأن شائبة لم تظهر في حياتها الزوجية المستمرة منذ سبع عشرة سنة والتي انجبت ولدين اضافا الى العائلة سعادة فوق سعادتها.

لدى استجواب السيدة، حبكت حكاية لا تنطلي على منطق. قالت أن الدكتور غوب أوصاها أن تشتري له هذه الكميات من السموم لتجاربه العلمية. وقد أرسل لها شخصاً لا تعرفه لاستلامها منها. ومما زاد في الحبكة غير الموفقة، أن تفحص الخط، الذي كتبت به وصفات الطبيب، دل على أن هذه الوصفات كتبت بخط السيدة كانابي نفسها.

هذا ليس كل شيء. فقد اكتشفت استقصاءات الشرطة أن شخصاً يدعى بيار رابو ظهر في حياة كاترين قبل أسابيع من مرض زوجها. هذا الشخص كان يزمع الزواج منها قبل سبع عشرة سنة، أي قبل زواجها من أميل. غير أن أغرب ما في القضية هو موقف عائلة المتهمة. لقد أكد الزوج وهو الضحية، أن زوجته المخلصة لا يمكن أن تقدم على تسميمه. وجاءت أم الزوج تدلي بأطيب الشهادات بحق زوجة ابنها المحبة والطيبة. موقف العائلة هذا أعطى المتهمة ما لم تعطه متهمة في قضية قبلها. ولعل هذا ناتج عن اصرار هذه العائلة البورجوازية على طمس الفضيحة تحاشياً لأن تسترسل الألسن في لوكها.

ولم تفت رئيس المحكمة الأشارة الى هذا الأمر، وهو يقرأ قرار الاتهام مفنداً تفاصيله من جرم تزوير الوصفات، الى جرم تسميم الزوج. قال:

- وسط هذه الجرائم، لا يزال الزوج يحتج على اتهام زوجته ويرفض هذا الاتهام.

وتجيبه المتهمة:

- لو قال عكس ذلك لأساء الى الحقيقة.

فيرد الرئيس:

- سنرى ذلك في ما بعد. ماذا عن علاقتك ببيار رابو؟

- كنا صديقين وقد سرتني رؤيته بعد طول غياب.

وجاء جوابها هذا دون أي ارتباك أو تصنع .

ـ وعن مكوثك معه مرات عدة في بيتك طوال النهار ، وذهابك للقائه عند عمته؟ وكذلك عن رحيلك معه لقضاء أيام عطلة في سويسرا؟

ـ وماذا في ذلك؟ انه ، في الوقت نفسه صديق زوجي . لقد كانا رفيقي صف واحد..

ويتململ الرئيس متبرماً ويكمل :

ـ وعن الرسالة التي ادعيت أنك تلقيتها من الدكتور غوب والتي كلفك فيها بشراء السموم التجارية ، أين هي؟

ـ لقد مزقتها فليس من عادتي الاحتفاظ برسائل لا أهمية لها .

ـ ورسول الدكتور غوب ، الذي ادعيت انه تسلم المواد؟

ـ لقد اعطيت اوصافه للشرطة . وهي لم تعثر عليه .

بعد الاستجواب ، جاء دور الخبراء . وهؤلاء جميعاً أكدوا أن الكميات التي اشترتها كاترين من السم تكفي لقتل عشرات بل مئات من الأشخاص . ذلك أن ميليغرامين اثنين من الديجيتالين مميتان ، وقد حصلت المتهمة من هذه المادة فقط على خمسة سنتيغرامات!

وقد أشار الأطباء الى أن مقاومة السيد كانابي للسم الذي أعطي له يمكن اعتبارها نوعاً من المعجزات . لقد وجد في شعره ما يقارب أربعين ميليغراماً من الأرسنيك ، في حين أن آخر ضحية لهذه المادة في سجل الشرطة قضت من اثني عشر ميلغراماً فقط .

استمع الحضور الى هذه الشهادات الفنية دونما لهفة تذكر . لكن اهتمامهم تبدل عند سماعهم الشهادات التالية . فأولها كانت تلك التي جاء بيار رابو ، صديق كاترين ، يدلي بها .

هذه الشهادة مهمة للغاية . وأي انحراف بها يميناً أو يساراً قد يكون من شأنه الاضرار به أو الاضرار بالصديقة الجالسة في قفصها . لكن الشاهد مر في الامتحان بنجاح .

بادره الرئيس بقوله :

ـ تعرف ، سيد رابو ، أن لقاءاتك المتكررة بالمتهمة وخروجكما معاً أثارت لغطاً في أوساط بوردو . حتى أن الطباخة في بيت كانابي استفظعت الأمر . . فرد عليه الشاهد بشيء من التهكم :

ـ يبدو أنها تستفظع أبسط الأمور .

ـ ممكن . غير أنكما ذهبتما معاً الى سويسرا لقضاء بضعة أيام .

ـ هذا الأمر تم بأذن من السيد كانابي. وأثناء الرحلة، لم ينقطع اتصالي به لقد تصرفت بأمانة وبراءة.

وعلى الرغم من الحاح الرئيس للنفاذ الى حقيقة هذه العلاقة، فانه لم يصل مع الشاهد الى نتيجة.

ويأتي دور السيدة كانابي الأم. قالت:

ـ أقسم بطهارة روحي أن زوجة ابني لا يمكن أن تكون خائنة ان اخلاصها له لا غبار عليه. هذا الاخلاص لزوجها، بالاضافة الى تفانيها في خدمة ومحبة أولادها، كان ضحية لغط رخيص من قبل البعض من أهالي هذه المدينة.

وما أن انتهت السيدة كانابي الأم من الادلاء بشهادتها، حتى سرت موجة من الاهتمام المميز في نفوس الحضور. فالشاهد التالي هو السيد كانابي نفسه.

كان رجلا في الواحدة والأربعين من عمره. على قسط كبير من الوسامة تقدم يتوكأ على عصا، من ذيول ما حل به مؤخراً. وقد بدأ بالتحدث عن قصة «مرضه المفاجىء». لكن الرئيس قاطعه بقوله:

ـ ألم تشتك، في ذلك اليوم، من طعم كوب الشوكولاتة الى الخادمة؟
ـ أبداً لم يحصل أن اشتكيت لها شيئاً هذا هراء من قبل الطباخة.
ـ وأين مصلحتها في الكذب؟
ـ الانتقام، سيدي الرئيس. لقد طردتها زوجتي اثر مرضي مباشرة وما أشيع عنه في المدينة.

ثم ينتقل الزوج الى الاطناب في امتداح صديق زوجته، رابو.

ـ لقد كان بيار وما يزال الصديق الحميم لي ولزوجتي. لم يكن في اخلاصه أدنى شك. كان لنا أكثر من أخ. وهذا تجلى، بصورة خاصة، اثناء وعكتي الصحية الأخيرة.

أنهى السيد كانابي شهادته الطويلة، دون أن يخص زوجته خلالها بنظرة واحدة. هذه الزوجة «المخلصة» التي لا يرى في سلوكها أية شائبة تستدعي التحدث فيها.

في الجلسة التالية، جلسة ٢٧ أيار ـ مايو، بدا أن الرئيس ضاق ذرعاً بالمتهمة وانكارها، وبعائلة زوجها ومكابرتها. لذا، فقد استهل بمخاطبة كاترين بجدية وحزم لم يعهدهما الحضور به من قبل. قال صارخاً في وجهها:

ـ للمرة الأخيرة، اطلب اليك قول الحقيقة. ماذا فعلت بكميات السم التي اشتريتها

من الصيدلية؟

ـ الحقيقة قلتها وأرددها. لقد أودعتها رسولاً أوفده الي الدكتور غوب.

ـ وتزويرك الوصفات؟ أيمكن أن يكون ذلك لغير هدف التسميم؟

هنا ينتفض محامي الدفاع واقفاً ومحتجا على سلوك الرئاسة التي تستعمل موقعها لتؤكد التهمة.. فهذا من صلاحيات المدعي العام وحده.

ويهم الرئيس بالاجابة. الا أنه يتوقف على صرخة أطلقتها المتهمة من داخل قفصها وغابت بعدها في اغماءة، مما استدعى رفع الجلسة.

يوم ٢٩، كان المدعي العام أول المتكلمين. لم يوفر كاترين من تهمة محاولة القتل عن طريق التسميم. لقد «أرادت العودة الى عشيق سابق ظهر بعد سبع عشرة سنة، فأفاق بظهوره المفاجىء هذا مشاعرها. وكيف الوصول الى مبتغاها بغير ازاحة زوجها من الطريق؟ أما شهادات العائلة من زوج وأم زوج، فهذه حيلة لا تنطلي على العدالة. واذا ارادت العائلة الكريمة انقاذ شرفها ومستقبل أولادها، فلتسلك طريقاً آخر غير طريق تضليل القضاء وخداعه».

بعد هذه المرافعة العنيفة والتي هدمت كل ما بني حتى الآن من مظاهر براقة وخداعة عن تماسك العائلة وتمسكها بالقيم، وقف محامي الدفاع ليلقي مرافعته. قال وسط نظرات الجميع واهتمامهم:

ـ استغرب الموقف القائل باتهام موكلتي، في الوقت الذي رد التهمة من يفترض أن يكون ضحيتها. ماذا تريدون أيها السادة؟ تحطيم عائلة لمجرد أنها عائلة مشبعة بالمثل والقيم؟ لماذا الاتهام مع عدم وجود الدليل؟ اذا كانت العدالة تقضي باحقاق الحق، فاني اطلب تطبيقها واعلان البراءة.

وأنهى المحامي مرافعته دون أن يشير، الا بصورة عابرة، الى تفاصيل الأحداث والوقائع، ومنها واقعة التزوير. بعدها، سألت المحكمة المتهمة ان كان لديها ما تضيفه، فلم تجب، بل صمتت مغمى عليها. وهرع الحراس الى نقلها لاسعافها.

أثر ذلك، دخلت هيئة المحلفين غرفة المذاكرة لتخرج بعد ساعة ونصف الساعة وتعلن براءة كاترين من تهمة التسميم. أما تهمة تزوير وصفات الطبيب، فقد حكمت عليها بخمسة عشر شهراً من السجن.

ما أن انتهى الرئيس من تلاوة الحكم، حتى انقلبت هذه المرأة رأسا على عقب. لم تعد تلك المسحوقة القابعة في قفص الاتهام والمستدرة للشفقة. وقفت كعادتها السابقة

منتصبة باستعلاء . وعندما هم حراسها لمساعدتها على المشي ، لما عرفوه عنها من انحراف في صحتها واغماء متكرر ، دفعتهم بيديها ومشت .

لقد برئت كاترين في المحكمة التقليدية ، المحكمة الناطقة باسم الشعب . أما محكمة العائلة ، فكان حكمها أقسى وأطول . منذ عودتها الى بيتها ، التأمت هذه المحكمة وحكمت عليها أن تغادر البيت من غير رجعة ، أن تنفي نفسها مع حرمانها من رؤية ولديها ما بقي لها من أيام حياتها . لم يطلقها زوجها . وهذا نوع آخر من التعذيب . غابت كاترين من بوردو لتعيش وحيدة وبعيدة مع اخت لها .

وبعد اربع وعشرين سنة قضتها في المنفى ، عادت الى بوردو ، ولكن دون أن يسمح لها برؤية ولديها . ظلت هكذا في عذاب وشقاء مستمرين الى أن ماتت . ماتت بعد ست واربعين سنة من خروجها من السجن .

بقي أمر واحد يجدر ذكره . فأثناء محاكمتها ، كان من بين الحضور شاب في العشرين من عمره . استمع الى تفاصيل القضية . وقد استهوته . وبعد سنوات ، كتب فيها قصة هذه القصة «تيريز ديكيرو» . أما الشاب الكاتب فلم يكن سوى الشهير فرانسوا مورياك .

جيل دي رايس

انها محاكمة لا سابق لها، تلك التي تبدأ اليوم، التاسع عشر من شهر سبتمبر-أيلول من عام ١٤٤٠، في البرج الجديد من قلعة نانت الفرنسية، أمام هيئة نصفها من العلمانيين، والنصف الآخر من رجال الدين.

المتهم هو جيل دي رايس. شاب في السادسة والثلاثين من عمره، يلبس ثياباً بيضاء. ويعتمر قبعة رمادية. في وقفته المنتصبة وكأنها التحدي بعينه، تبرز أشارة مطرزة بخيوط الذهب لتدل على أنه من كبار رجال المملكة.

من هو جيل دي رايس؟ انه ابن غي دي لافال، سليل عائلة لافال- مونمورانسي وماري كراون، وهي عائلة تساوى فيها الجاه والثراء سواء بسواء. وبالاضافة الى نسبه العريق، فهو يشغل منصب ماريشال فرنسا، كما أنه رفيق جان دارك. هذا الرجل الذي يرتع في هكذا منبت وهكذا ثراء، متهم اليوم بأبشع ما يمكن أن يتهم به كائن بشري.

لم يكن جيل قد تجاوز الثانية عشرة من عمره عندما فقد أباه وأمه تعهده جده وقام بتربيته. هذا من الناحية النظرية أما عملياً، فقد ترك الولد يكبر مدفوعاً دون رقيب بزخم نزواته وانحرافاته.

في السادسة عشرة، تزوج من كاترين دي توار، ابنة عمه. تزوج دونما رغبة أو حماس. والشيء الوحيد البارز في هذا الزواج كان بائنة ضخمة ضمها العريس الى ارثه الكبير من أمه وأبيه على السواء.

وعام ١٤٢٩، تغير كل شيء. لقد دخل الفتى جيل في حاشية جورج دي لاتريموای، أحد نبلاء قصر ولي العهد شارل في مدينة شينون. وهناك، تعرف على جان دارك. وسرعان ما ارتبط الاثنان بعلاقة بريئة، انما جامحة، من حب كبير متبادل. وأصبح جيل يرافق الفتاة جان كظلها في جميع تحركاتها.

وها هو بجانبها ايضاً عند تنصيب ولي العهد شارل ملكاً على فرنسا . وقد عين في ذلك اليوم في منصب ماريشال فرنسا غير أن هذا الصعود السريع ما لبث أن انتهى ليحل محله أفول للنجم سريع هو الآخر . فبعد سنة فقط ، القي القبض على جان دارك وحوكمت وأعدمت حرقاً . وكان ذلك في شهر مايو أيار سنة ١٤٣١ .

بعد جان دارك ، عزل جيل نفسه وسط أملاكه في حياة متخمة بالترف والأبهة . وقد ساعدته ثروته الطائلة في ذلك ، كما ساعده لقبه كماريشال لفرنسا ، وان كان هذا اللقب مجرد اسم دون مهام .

عام ١٤٣٢ ، مات جد جيل جان دي كراون . وبموت هذا الجد ، انطلقت يد الشباب الوريث ، أكثر بكثير من ذي قبل ، في النمط الذي اختاره لحياته ، وكذلك في اشباع نزواته المنحرفة .

في الفترة من عام ١٤٣٢ الى عام ١٤٤٠ ، اختفى ما لا يقل عن الف وخمسماية ولد في الأراضي التي يملكها جيل . لم يشك أحد بأن الأمر لا بد وأنه يعود الى الانكليز المحتلين للمنطقة آنذاك . فهم الذين يخطفون هؤلاء الأولاد ليبعدوهم الى انكلترا . كان هذا هو الاحتمال ، بل التأكيد الأقوى وبعض من الناس كان يضيف اليه احتمالاً آخر هو الذئاب ، وطبعها المفترس المعهود .

وبينما الحال على ما ذكر ، والناس على ما هم عليه من قلق واضطراب ، كان جيل يتمادى في البذخ والترف . كان لا يوفر مناسبة الا وينتهزها ليقيم الحفلات والاحتفالات . حتى أن ثروته ، على ضخامتها واسطوريتها ، بدأت تهتز .

وبغية اشباع نهمه الجارف ، طفق جيل يبيع أملاكه الواحد تلو الآخر ، وبأسعار بخسة . حتى اذا وجد نفسه وقد شح الذهب بين يديه ، استدعى أحد السحرة الايطاليين ليستحضر له الجان علها تتمكن من ايجاد موارد اضافية له من هذا المعدن الثمين . ولكن ، وعلى الرغم من كل الطقوس التي مارسها الساحر ، ومنها القداديس السوداء ، فان الجان لم تحضر ولم تأت بالذهب الموعود .

في هذه الأثناء ، بدأت الألسن في المنطقة تلوك حكايات من أمور غريبة . أولاد بالعشرات يدخلون قصر جيل ولا يخرجون منه . وكل مساء ، يغلق جيل أبواب قصره على نفسه ولا يُرى من ملامح الحياة في هذا القصر سوى دخان كثيف ينبعث من مدخنته ، وتنبعث معه روائح كريهة وغريبة . وبدأ الناس يتحدثون عن ذبح جيل للأولاد وحرق جثثهم بالاشتراك مع ساحره الايطالي بريلاتي . كما ذكر أن قداساً أسود قد أقيم في القصر

على قلب ولد صغير ويده اليمنى .

ومرت السنون وجيل على هذه الحال يسارع الخطى في منحدره الرهيب . وفي بداية عام ١٤٤٠ ، باع مزرعة له من المدعو غودفروا لوفرون . وقد أسكن هذا فيها أخاه جان ، وهو راهب في رهبنة سانت اتيان .

لم يرق لجيل أن يسكن الراهب جيل في مزرعته السابقة . وذات يوم ، وبينما كان جان يقيم قداساً في كنيسة الدير، اقتحم جان الكنيسة مع زمرة من الرجال المسلحين وخطفوه واقتادوه الى جهة مجهولة .

لم يكن هذا العمل بنظر الناس والأعراف طائشاً فحسب، بل كان من الرعونة بحيث لوحق جيل على أساسه من العدالة . وفي ١٤ سبتمبر أيلول سنة ١٤٤٠ ، اعتقل جيل مع اثنين من حراسه، هنرييه وبواتو واقتيد الجميع من القصر الى السجن، دون أية مقاومة، على الرغم من أن القصر هذا كان عبارة عن قلعة حصينة بامكانها الصمود طويلاً أمام أي حصار يضرب حولها . هذا الاعتقال جاء ظاهرياً نتيجة لعملية الاختطاف، لكنه في الواقع لم يكن سوى تتويج لما سبق من شائعات ولغط على مدى سنوات حول اختفاء الأولاد . سيما وأن كاهن نانت، جان دي ماليتروا، قد قام بنفسه بالتقصي عن صحة هذه الشائعات والاستماع الى الناس يروون أخبارها الفظيعة .

في ١٩ سبتمبر ـ ايلول ١٤٤٠ ، كانت الجلسة الأولى للمحاكمة . لم تكن هناك سوى تهمة واحدة، تلك الخاصة بعملية الاختطاف اضيفت اليها في اثناء الجلسة تهمة الهرتقة . أما اختفاء الأولاد، فلم يثر موضوعه أحد . وانتهت الجلسة بعد اجراءات شكلية لتعقد في ٨ تشرين الأول ـ أوكتوبر التالي .

في هذه الأثناء، وبعد أن اطمأن الناس الى أن ماريشال فرنسا مسجون وبالتالي، لا يقوى على ممارسة شراسة نفوذه عليهم، بدأوا بالكشف عن حوادث اختفاء الأولاد . كان المنظر اليومي رهيباً . منظر الآباء والأمهات يأتون الى الكاهن ماليتروا ـ وهو رئيس المحكمة الناظرة في القضية، ويفيدونه بأسىً ما بعده أسى عن اختفاء أولادهم . واستطالت اللائحة الى أن بلغت الآلاف من البراعم الضحايا .

وجاء يوم الجلسة وظهر جيل في القاعة في أبهى حلة له . فلم يكن يدري أن المحاكمة ستتناول قضية الأولاد . وهذا ما جعله في الجلسة السابقة يجيب بعدم الاعتراض عن سؤال المحكمة عما اذا كان لديه ملاحظات على أحد من اعضائها، كما هي العادة آنذاك . أما وقد علم بأن قضية الأولاد ستثار، فانه أحس بالخطأ وشعر بالخوف، ذلك أن هذه المحكمة

ستنظر معاً بالاختطاف والهرتقة واختفاء الأولاد والمحاكمات الخاصة بالهـرتقة تمنع على المهتمين فيها الاستعانة بمحام. وهذا يعني أن جيل سيكون وحيدا في وجه المحكمة ولن يستطيع ايجاد محام الى جانبه.

تنبه جيل لهذا واعترض قائلاً:

ـ لدي ما أقوله بشأن موقع كل من أعضاء هيئة المحكمة بالنسبة لي. أنهم جميعاً تابعون لإقطاعيين وهذا ما قد يجعلهم غير مؤهلين للنظر في القضية بحرية كافية.

صحيح ما أشار اليه المتهم. وقد أحسن الكاهن، رئيس المحكمة بحرج الملاحظة. لكنه سرعان ما وجد مخرجاً لذلك، حينما رد قائلاً:
ـهذا ليس بالأمر الجوهري أمام فظاعة الاتهامات وثقلها.

«فظاعة الاتهامات». هذه العبارة جعلت جيل يحسن بالفخ يضيق من حوله. لكنه كابر وتظاهر بعدم الاكتراث.

تبعاً لأصول المحاكمات آنذاك، كان على رئيس المحكمة أن يقسم يمين العدل قبل أن يطلب من المتهم حلف يمينه. وهذا ما فعله الرئيس في بدء الجلسة. وعندما طلب من المتهم أن يحلف يمينه، رفض بترفع قائلاً:

ـلن أحلف.

ولما اصر على الرفض، هدده الرئيس الكاهن بالحرم وأمر برفع الجلسة، على أن تعقد الجلسة التالية بتاريخ ١٣ أوكتوبر ـ تشرين الأول.

وفي الموعد المحدد، بدأت الجلسة بتلاوة لائحة الاتهامـات. وهي لائحة مثقلة. وأكثر ما يثقل فيها اقدام المتهم على قتل عدد كبير من الأولاد ودفعهم الى مرضاة الشيطان، بالاضافة الى ممارسة اللواط معهم تارة قبل قتلهم وطوراً أثناء عملية القتل أو بعدها. وقد كان هذا يجري يومياً وعلى مدى سنوات طوال.

وينتقل الرئيس في تلاوته الى بعض التفاصيل التي تمكن من الحصول عليها شخصياً بفضل التحريات التي قام بها بعد أن ترامت الى سمعه الاشاعات والحكـايات عن تلك الفظائع. من هذه التفاصيل أن المتهم اعتاد أن يأوي ليلاً الى غرفة علوية في بيت من بيوت المدينة وهناك، قام بقتل مئة وأربعين ولداً بوحشية وفظاعة لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الاجرام. كذلك، قام بتهريب صناديق تحوي رؤوس خمسة وأربعين ولداً مع عظام

لهم من قصر شانتوسيه اثناء حصاره. وقد اتضح أن فعل اللواط مورس مع هؤلاء الأولاد قبل قتلهم.

ويكمل الرئيس القراءة، وكلها مليئة بما تقشعر له الأبدان. وما ان انتهى، حتى ساد صمت رهيب، قطعه المتهم بتكرار اعتراضه على هيئة المحكمة قائلاً بانفعال شديد:

ـان رئيس المحكمة واعضاءها ليسوا سوى تجار للدين وفجّار. أفضل أن أموت شنقاً على أن اجيب عن اسئلة هؤلاء الفسّاق.

لكن الرئيس يتجاهل الاتهام ويلتفت الى جيل ليطلب منه الرد على الاتهامات الموجهة ضده. والا، فانه سيعاقب بالحرم. لكن جيل يصر على الرفض قائلاً.

ـليس عندي ما أجيب به. أنا أعرف الشرائع الكاثوليكية أكثر مما تعرفونها انتم، وأكثر مما يعرفها هؤلاء الذين سطروا التهم ضدي.

عندها، ما كان من الرئيس وهيئة محكمته الا أن أعلنا الحرم ضد المتهم. ورفعت الجلسة.

والحرم عام ١٤٤٠ كان خطير النتائج على صاحبه. فهو يعزله عن المجتمع عزلاً تاماً. ناهيك عن أنه يودي بصاحبه الى الجحيم الأبدي في الحالات التي يكون فيها من يمسه معرضاً للحكم بالموت، كما هو الوضع بالنسبة الى جيل.

حانت الجلسة الثالثة. ومنذ ابتدائها، أحس الجميع أن شيئاً ما قد تغير في سلوك المتهم. لم يعد ذاك المتعالي والمتهجم على هيئة المحكمة. وها هو يطلب الكلام ليقول:

ـأقر بصلاحية وكفاءة القضاة الذين يتولون محاكمتي. كما أعترف باقتراف جميع ما ورد في الاتهام من جرائم. لكني أتوسل أن يصفح عني على ما بدا مني في الجلسة السابقة من كلام مهين للسادة أعضاء المحكمة.

ولم يلبث القضاء أن منحوه الصفح. والتفت اليه الرئيس يسأله:

ـبماذا تقر من لائحة الاتهام التي تليت أمامك؟

ويبدأ جيل يشير الى النقاط غير الهامة في تلك اللائحة، وكأنه يرمي من وراء ذلك الى ربح الوقت. ثم يقول:

ـأؤكد أني لم اتحالف، كما ورد، مع الشيطان. واني على استعداد لتقبل عذاب النار ان انا لا أنطق بالصدق.

ثم يجثو على ركبتيه ويرجو المحكمة رفع الحرم عنه، فتقبل أمام استغراب ودهشة الجميع. ولا يكتفي بهذا، بل يطلب أن يأتي رفع الحرم بقرار خطي، كما انزل الحرم في الجلسة السابقة. وهنا أيضاً، تقبل المحكمة الطلب دونما نقاش أو الحاح يذكر. هذا السلوك السهل أعطى الحاضرين انطباعاً أن جيل لا يزال يمارس على قضاته الهيمنة غير المنظورة هيمنة كونه ماريشال فرنسا بجاهه وعزه الماثلين دوماً في الأذهان.

يوم ٢٠ أوكتوبر ـ تشرين الأول، حدد للجلسة الرابعة. وقد بدأها الرئيس بسؤال المتهم كما اذا كان لديه ما يضيفه من اعترافات، فأجاب هذا بالنفي. وعندما تراجع بعد لحظات، رفض رئيس المحكمة الاستماع اليه مبرراً هذا الرفض بأنه يرى أن اعترافات المتهم السابقة كافية وأن مرحلة التعذيب حانت. وقد وافقت هيئة المحكمة بالاجماع على قرار الرئيس. وها هو ذا يعلن:

ـوسيعرض المتهم للتعذيب غداً صباحاً. وخلال التعذيب ستطرح عليه الأسئلة المناسبة.

لا شك أن لهذا القرار خلفيات تعود بمعظمها الى سلوك المتهم خلال الجلستين الأوليين. صحيح أنه عاد وعدّل من هذا السلوك فيما بعد، لكن ترفعه السابق وعباراته المهينة تركته أمام تشفي قضاته وحقدهم.

جاء الغد الرهيب ونقل المتهم الى غرفة التعذيب. وما أن أدخل فيها حتى انهار كبرياؤه. لم يعد هو. لم يعد ماريشال فرنسا الذي كانت الفرائص ترتعد لذكره ولمقدمه. انهار عندما رأى وسائل التعذيب الرهيبة تنتصب وسط الظلمة الموشحة بنور الخرق المشتعلة. وسرعان ما التفت الى قضاته يرجوهم تأجيل التعذيب الى الغد، اذ ربما لن يروا بعد هذه المهلة لزوماً لذلك. فاعترافاته، كما قال، ستكون كاملة.

تداولت الهيئة بالطلب وقبلته لكن التأجيل لن يكون ليوم كامل بل لنصف يوم واذا ما حانت الساعة الرابعة عشرة ولم يكن المتهم قد اعترف بكل شيء فانه سيعرض للتعذيب وستنتزع الاعترافات كاملة منه.

الساعة الثالثة عشرة دخلت هيئة من القضاة زنزانة جيل للاستماع اليه وبدأ المتهم بدفقات من الاعترافات اذهلت سامعيه: اقر بعدد لا يحصى من جرائم قتل الاولاد كما اقر بتعذيب ضحاياه وارتكاب فعل اللواط معهم اما عن تعاونه مع الشياطين فقد اعترف به بعد ان اجرت هيئة القضاة مقابلة بينه وبين الساحر الايطالي بريلاتي في هذه المقابلة عانق جيل ساحره وقال له:

ـ الوداع يا صديقي. اصبروجالد حتى نلتقي في الجنة.

الجنة! غريب امر هذا المجرم. انه يأمل بالجنة بعد اقترافه هذا العدد الضخم والمتنوع من الجرائم المشينة والفظيعة غريب امره لا سيما في ذلك الزمان المتزمت في ايمانه الصلب في معتقداته.

وجاء اليوم التالي يوم الاعتراف العلني هذا الاعتراف تجمع له جمهور غفير جاؤوا ليسمعوا بآذانهم من المجرم بعينه ما سبق وسمعوه شائعات. واكتظت القاعة الفسيحة التي خصصت للمناسبة كان في الحضور اصدقاء وجيران ومعارف لكن الأهم فيها كان اولئك المساكين إباء وأمهات الضحايا الصغيرة.

وبدأ جيل يعترف. لم يترك تفصيلا الا وذكره كان يتكلم والناس في دهشة واشمئزاز يسمعون. كان ما سرده فظيعاً لدرجة ان الرئيس في لحظة من اللحظات قام منفعلا وخلع معطفه وغطى به صورة المسيح والصليب على الحائط فوق رأسه.هنا بكى جيل.

بكى والتفت الى الحضور ليقول لهم:

ـ لقد سببت لكم الكثير من المآسي، اوصيكم بحسن تربية ما بقي لكم من اولاد حتى لا يلقوا ما ألقاه انا من مصير. لقد عشت يتيماً ولم اجد من يحسن تربيتي عشت في تلك الفترة الرهيبة في حرب المئة عام واني على الرغم من صورتي اللعينة عندكم اتوسّل اليكم ان تصلوا من اجلي.

وامام استغراب لا مثيل له ركع الحضور وصلوا صلوا لاجل سفاح فلذات اكبادهم كما صلوا لاجل مآسيهم الاخرى في حياة لا قيمة للانسان فيها وزمن لا يقيم وزنا لاناس بسطاء امثالهم وكانت صلاة مشبعة بالايمان الايمان بالله رمز الخلاص والمحبة والتسامح.

اليوم التالي ٢٣ اكتوبر تشرين الأول كان يوم الحكم. في بداية الجلسة وقف الرئيس الكاهن ماليتروا ليعلن ان جيل مذنب. لكن المحكمة الكنسية غير صالحة لاكثر من هذا الاعلان لذلك فانها تقرر احالته على محكمة مدنية للنظر بامره.

التأمت المحكمة المدنية التي سبق وحكمت على خادمي جيل هانرييه وبواتو بالاعدام وها هي تحكم على سيدهما بالاعدام ايضاً.

استمع ماريشال فرنسا السابق الى الحكم بهدوء وطلب الكلام. تكلم ليرجو هيئة المحكمة ان يتم اعدام الخادمين بعد اعدامه لئلا «يظنا انني قد اعفى من الاعدام بعد

موتهما» قبل الطلب. ويتكلم جيل ثانيا ليرجو المحكمة ان تطلب من كاهن نانت ورجال كنيسته ان يصلوا ويطلبوا من الله ان يعفو عنه ويقربه منه. قبلت المحكمة الطلب وقبل الكاهن ورجاله اقامة الصلاة من قبلهم ومن قبل رواد الكنائس في انحاء المنطقة.

ويوم الاربعاء في ٢٦ من الشهر الساعة التاسعة صباحاً بدأ موكب المحكومين الثلاثة يظهر وبدأ الناس كل الناس ينضمون اليه من كل زاوية وكل مفترق. كان المشهد مهيباً لا سيما بوجود الكهنة ورجال الكنيسة الآخرين.

وعندما ظهر جيل بدأ يرتل وبدأ الجميع يرتلون معه وعندما وصل مع خادميه الى المنصات الثلاثة التي خصصت لشنقهم وحرقهم وقف والتفت للجموع الغفيرة ليقول لهم:

ـ بصفتي اخا مسيحياً لكم ارجوكم الصلاة من اجل راحة نفسي كما ارجو القديس جاك والقديس ميشال ان يشفعا لي امام الرب.

كم هم طيبون هؤلاء الناس،ما ان انتهى جيل من كلامه حتى بدأوا يصلون تماما كما فعلوا منذ اربعة ايام في قاعة المحكمة.

ولم تمض لحظات حتى كان كل شيء قد انتهى وتقدمت خمس نساء محجبات بالبياض علامة الحداد لتسلم الجثة تبعتهن سادسة هي زوجته كاترين.

والغريب في هذه القضية المشحونة بالعجائب ان جثمان جيل دفن في كنيسة كارم في نانت وكان ضريحه على مدار ثلاثماية سنة مزارا يحج اليه الحجاج.. الى ان كانت الثورة الفرنسية عندما اهمل الضريح ودرس شأنه شأن اضرحة سائر اسياد مقاطعة بريتانيا.

ترى هل سمع القديس جاك والقديس ميشال صلاة جيل وسعيا الى تقريبه من الله؟ هل يمكن ان يحظى اكبر مجرم عرفه التاريخ بلفتة كهذه؟ لا احد يمكنه الجزم لكن الجازم هو ان شعب نانت صلى من اجل جيل يوم اعدامه في ٢٦ ا كتوبر ـ تشرين الاول من عام ١٤٤٠.

قضية بايتال

انها القضية الاكثر اثارة من بين قضايا القرن التاسع عشر. كل شيء اعد يوم ٢٦ آب اغسطس سنة ١٨٣٩ لمحاكمة المتهم سيباستيان بايتال في قصر العدل في مقاطعة بور ـ أن ـ بريس الفرنسية. في ذلك اليوم كانت الحركة غير عادية عربات تغدو وتروح ناقلة علية القوم الى قاعة المحاكمة.

بدأت المحاكمة مع بداية الصباح بدخول الرئيس والاعضاء مصحوبين بالمدعي العام بعد ذلك دخل بايتال القفص وسط هرج الحاضرين وصراخهم: الموت للمجرم.. وجلس ملتقطا انفاسه من فرط الانفعال والاحراج.

من هو بايتال؟ انه كاتب العدل في بالاي من مقاطعة الاين شاب في الواحدة والثلاثين متهم بقتل زوجته الحامل في شهرها الخامس وكذلك بقتل خادمه.

بعد ان استقر على مقعده جال بنظره على الحضور علّه يجد فيهم صديقا او يصادف ابتسامة ولكن دون جدوى ومما زاد في مظهر الاسى والضياع الذي كان باديا على وجهه سترته السوداء وشعره القاتم الطويل والمتدلي على جبينه فوق لحية تغطي كامل الخدين والرقبة.

هذا المتهم ليس عاديا بالمعنى الحرفي للكلمة. درس الحقوق في باريس وهناك تمكن من التعرف على علية القوم في المجتمع الادبي والسياسي وقد ساعده على ذلك ما يتمتع به من ذكاء وكياسة وما كان يطمح اليه في السياسة حتى انه كان اول من قارن الملك لويس فيليب بالاجاصة في مقال صاعق نشره عام ١٨٣٢ تحت عنوان «سيكولوجية الاجاصة».

بعد انهاء دراسته غادر بايتال باريس دون مبرر معروف واستقر في بالاي بعد ان اشترى فيها منصب الكاتب العدل وظل يشغل هذا المنصب حتى حصول الجريمة التي يحاكم بها اليوم.

بدأت الجلسة بتلاوة قرار الاتهام تلاوة لم يأبه لها أحد من الحاضرين ذلك ان الجميع يعرفون التفاصيل من خلال ما قامت الصحف بنشره على مدى شهور عدة.

في ٣١ اكتوبر تشرين الاول سنة ١٨٣٨ عاد بايتال وزوجته فيليسي الحامل في شهرها الخامس في عربة. عادا الى البيت بعد سفرة عمل في ماكون وكان وراءهما في عربة مكشوفة خادمهما لويس راي.

وحوالي الساعة الواحدة من صباح اليوم الأول من شهر نوفمبر - تشرين الثاني وعلى بعد خطوات من بالاي حيث بيتهما توجه بايتال كالمجنون الى احد البيوت بيت الحداد تارمي وبدأ يطرق على الباب طرقاً عنيفاً الى ان فتح الباب واخذ الطارق يشرح لأهل الدار ان زوجته مصابة بطلقات نارية وانه قتل خادمه. اصطحبه صاحب الدار وابنه الى حيث الضحيتان فرأيا مشهداً مروعاً سيدة مقتولة تتخبط في دمها وجثة هي جثة الخادم رأسها مهشم بضربات شديدة من مطرقة.

في دائرة الشرطة حيث استدعي روى الزوج انه كان في غفوة في عربته اثناء عودته مع زوجته وخادمه الى البيت عندما استفاق مذعورا على طلقات نارية واستغاثة زوجته تقول له:

- سيباستيان اخرج مسدسيك لقد قتلوني!

ويكمل قائلا:

- اشهرت مسدسي الاثنين واطلقت النار على شخص كان يركض امامي هاربا بعد ذلك امسكت مطرقة وركضت في اعقابه وعندما بلغته انقضضت عليه بالمطرقة وهشمت جمجمته وقد تبين لي فيما بعد ان هذا الذي قتلته ليس سوى خادمي راي.

لم يصدق رجال الشرطة رواية بايتال وهذا ما دفعهم الى القاء القبض عليه. في اليوم التالي لوقوع الجريمة افاد الاطباء الشرعيون ان الزوجة قتلت برصاصتين اطلقتا عليها عن قرب من الجهة اليمنى ولدى سؤال المتهم افاد انه كان جالسا طوال الطريق على يمين زوجته ثم كيف يمكن ان يتمكن بايتال من الانقضاض على خادمه بعد مطاردة وينزل به ضربا بالمطرقة والخادم شاب ممتلىء قوة ويصغر سيده بعشر سنوات؟

اما تفسير دوافع الجريمة فقد كان من السهل اكتشافها في حياة المتهم العائلية لقد تزوج بايتال من فيليسي من اجل بائنتها البالغة خمسين الف فرنك تزوجها على الرغم من قبحها ومن حمقها واطوارها الغريبة والصبيانية المعروفة بها.

وقد بدأ هذا الزواج بالمتاعب منذ يومه الأول في ايار مايو سنة ١٨٣٨ فبعد ان انتهت

حفلة الزفاف وغادر المدعوون كل الى بيته انسحب العروسان الى مخدعهم وهناك انفجرت العروس بالبكاء ونادت امها .حضرت الام ورتبت الأمور لكن الوضع بعد ذلك كان يتطور من سيء الى أسوأ.

وقد استثمر الزوج حمق زوجته وضعف عقلها فدفعها إلى كتابة اعترافات له باخطائها وبانها طلبت منه ايواءها في احد الأديرة وقبل الجريمة تمكن من الحصول منها على وصية تهبه فيها كل ما تملك ان هي ماتت قبل ان تضع الطفل الذي في احشائها، هذه الوصية كانت بمثابة رصاصة الرحمة بالنسبة لاي شك باتهامه بجريمة قتل زوجته عن سابق تصور وتصميم. لقد فتح بها القفص ودخل فيه بملء ارادته.

بعد تلاوة قرار الاتهام بدأ رئيس المحكمة باستجواب المتهم، تناول الاستجواب في البدء تلك الرسائل التي كانت الزوجة تكتبها وتوقعها من وقت لآخر والتي تناولت فيها اعترافات باخطاء وحماقات مفندة بكل وضوح ولما سأل الرئيس المتهم عما اذا كانت نماذج هذه الرسائل قد وضعت من قبله بالذات اجاب بايتال بالنفي لكن ملامح الرئيس دلت على عدم اقتناعه.وعن الوصية سأل رئيس المحكمة:

ـ هل يعقل ان تكتب زوجة شابة في العشرين من عمرها وبعد شهرين فقط على زواجها وصيتها؟ ماذا يمكن ان يكون المبرر؟

فرد المتهم:

ـ ليس في الامر اية غرابة لقد سبق وكتبت وصيتي قبل ان تفعل هي والسبب هو انني املك حصانا حرونا وخوفا من ان اقع من فوقه وقعة مميتة وقد حصل ان وقعت مرات عدة فقد رأيت من الانسب كتابة وصيتي ولما رأتني زوجتي افعل هذا ارادت تقليدي ففعلت.

وهنا ينفعل الرئيس ويتصدى للمتهم قائلا:

ـ كفى، كفى من الذي نظم نموذج الوصية؟

ـ انا

ثم تبدأ الاسئلة عن مقتل الخادم:

ـ لماذا قتلته؟

ـ لم يكن بد من ذلك لقد حاول قتلنا زوجتي وانا واعتقد ان هدفه كان سرقتنا لقد حاول مرات عدة سرقة بعض النقود مني.

ـ ولماذا اذا لم تطرده؟

لم يجب بايتال عن هذا السؤال وقد اعطى بسكوته هذا انطباعا بانه يكذب.

ثم يكمل الرئيس الاستجواب بعد ان يأمر الكاتب بفتح صندوق يحوي ادوات الجريمة ،جريمة قتل الخادم والزوجة وهي عبارة عن مطرقة ومسدسين كما يحوي ثياب المغدورين وكانت مغطاة بالغبار وببقع برشاء:

- لقد كان خادمك طويل القامة قوي البنية وقد ذكرت انت انه كان على بعد ما لا يقل عن مئتي خطوة منك فكيف استطعت اللحاق به والوصول اليه وتهشيم رأسه بالمطرقة؟

- هذا ما أسأل نفسي عنه . . لكني اعتقد ان السبب هو معوق عارض أصاب رجله اثناء الهرب.

- اين كانت زوجتك تجلس في العربة التي كانت تقلكما الى البيت؟
- كنت جالسا على يمينها وكانت تسند رأسها على كتفي الايسر:
- لقد اطلقت النار على زوجتك من جهة اليمين وعن قرب بدليل انها احرقت الحاجبين والرموش بكاملها وهذا يعني ان القاتل تمكن من تمرير المسدس من فوق صدرك قبل ان يطلق النار.

- لم تطلق النار عن قرب أؤكد ذلك واطلب اثباته بواسطة خبراء.

لم يعر الرئيس هذه الناحية اهمية اضافية وها هو يتجاوزها ويكمل استجوابه:

- لقد ذكرت في التحقيق ان زوجتك صرخت بعد اصابتها: «سيباستيان اخرج مسدسيك لقد قتلوني».
- اجل. لقد قالت ذلك.
- وهل قالته بشكل واضح؟
- اجل.

هنا، وقع المتهم في الفخ لقد اكد الاطباء الذين عاينوا جثة الزوجة ان احدى الرصاصات اخترقت اللسان مرورا بالجيب الانفي وهذا ما يجعلها عاجزة عن النطق بأية كلمة لكن المتهم يرد بان الخبراء سيثبتون عكس ذلك.

ثلاث ساعات طويلة رفعت في نهايتها جلسة اليوم وخرج الحضور .خرجوا من القاعة بانطباع غير ايجابي من موقف المتهم لقد كان ضعيفا في دفاعه ضعيفا في اثباته لبراءته لكنه مع ذلك كان يبدو وكأنه يخفي شيئا ما . . فما هو هذا الشيء ولماذا يخفيه؟

في اليوم التالي بدأت الجلسة الثانية .دخل بايتال قفص الاتهام في طرف قاعة المحكمة وسط تهجم الحضور وصرخات استنكارهم حتى انه اخفى وجهه تحت قبعته تحاشيا لالتقاء

النظرات. كانت الجلسة مخصصة لسماع الشهود والشاهد الاول هو الحداد تيرميه، الذي طرق بايتال بابه على الطريق عقب وقوع الحادث المشؤوم. تقدم تيرميه ويبدأ الادلاء بشهادته بثقة وطلاقة وكأنه يلقي خطابا سبق وقام بتحضيره قال:

ـ طوال المسافة التي تفصل بيتي عن مكان الحادث لم يكن بايتال منفعلا بل على العكس كان هادئا لدرجة البرودة وعندما وصل الى حيث زوجته لم يلق عليها نظرة واحدة. .

هذا السلوك المستغرب للزوج عاد واكده الاطباء الذين استدعوا لمعاينة الجثتين اكدوه كشهود في المحكمة أمام شاهد اخر وهو المسؤول عن دائرة الإسكان في شايون فقد ذكر أنه صدفة في مكان الحادث عقب وقوعه مباشرة وهناك اخذه بايتال من ذراعه وقال له «لا يمكنك ان تعرف الجحيم الذي كنت اعيش فيه. كانت زوجتي عشيقة لخادمي. كانت تحبه. . اجل كانت تحبه».

هنا، ينتفض المتهم في قفصه صارخاً:

ـ هذا غير صحيح لم يحصل ان شككت مرة بزوجتي.

ثم يعود الى تكرار روايته عن محاولة خادمه قتله وزوجته بهدف السرقة علما بان هذا الاصرار الذي يعوزه الاثبات يمكن ان يكون اكثر ضررا عليه من الرواية التي ذكرها هذا الشاهد والتي قد تجد في طياتها بعض الاسباب التخفيفية.

وأحضر للشهادة ايضا الاطباء الذين قاموا بتشريح الجثة جاؤوا ومعهم تمثال لرأس الزوجة وضعوه في وسط القاعة وبدأوا يشرحون عليه كيف اخترقته الرصاصات عن قرب. وانتهوا مؤكدين ان الأمكنة التي اصابتها الطلقات النارية تجعل من المستحيل على الضحية أن تتفوه بكلمة واحدة خلافا لما ادعاه المتهم.

امام هذا التأكيد كان هناك استغراب، استغراب من عدم معارضة المتهم كذلك من عدم معارضة محاميه. لكن من يدري ربما كان هذا الصمت مقصوداً الا يعقل ان تكون النية مبيتة من الاثنين معا وبناء لخطة متفق عليها فيما بينهما لأن يحتفظا بالجواب الى فرصة اخرى مناسبة وذات وقع افضل من تلك؟ انه أسلوب يتبعه بعض المحامين أسلوب قد يكون له بعض الايجابيات لكنه قد يأتي متأخرا ويفوت الفرصة منه وذلك بتركه المجال لانطباعات سلبية ان ترسخ في اذهان المحلفين مما يجعل من الصعب فيما بعد محوها او ازالة اثرها.

ونأتي الان الى جلسة الثاني والعشرين من آب ـ اغسطس. في هذه الجلسة بعض الاثارة. لقد وضعت وسط القاعة عربة الزوجين التي كانت ستقلهما الى البيت العربة بكاملها هكذا دفعة واحدة وتقدم الشاهد غيان وهو نقيب في سلاح المدفعية وخبير في السلاح

وتهامس البعض في القاعة ان غيان هذا قد اجرى قبل حضوره الى المحكمة اكثر من الفي تجربة على كيفية حصول الجريمة واستخدم في تجاربه انواعا من البارود وفي ظروف مناخية مختلفة من جفاف ورطوبة وسواهما حتى انه همس في آذان البعض عن اجرائه تجارب على جثة في مستشفى ليون.

تقدم وأدلى بشهادته. كان جازما في ان المغدورة قتلت برصاصتين احداهما اطلقت من مسافة لا تتعدى عشرة سنتيمترات وهذا يخالف تماما ما رواه المتهم من ان رصاصة واحدة اطلقت وان الجاني كان بعيداً بعض الشيء من مرماه.

هنا ايضا لم يتدخل بايتال كما لم يتدخل محاميه على الرغم مما لـوحظ من سلبية في نظرات وحركات الحاضرين وقد بلغ هذا الانطباع اوجه عندما تقدم مونريشار الضابط في الشرطة وصهر المغدورة للادلاء بشهادته قال هذا الشاهد:

- في اليوم التالي لزواج السيد بايتال شهدت وضعا متوترا في بيت الزوجية. لم يتمكن الزوج الجديد من ممارسة حقوقه الزوجية ليلة زواجه وقد لاحظت بعض الخدوش والاحمرار على الظاهر من جسد الزوجة.

واضاف:

- على كل حال ان السيدة بايتال كانت مائعة كما كانت ذا طبع عنيف وعنيد. لم تكن نزواتها تقف عند حد كل هذا بالاضافة الى خبث وتدين في آن معا ولا استغرب مع مزاج كهذا ان تحصل مشادات وتوترات بينهما وبين زوجها.

وجاءت اخت فيليسي وبعدها امها لتؤكدا معا ان حياة ابنتهما الزوجية لم تكن على ما يرام حتى ان المغدورة اسرت الى اختها كما اوردت هذه الاخيرة انها عندما تجد نفسها وحيدة مع زوجها فانها توكل امرها الى الله.

رابع يوم من ايام المحاكمة خصص لسماع شهود الدفاع واولهم كان الدكتور اوليفيه الذي خالف زملاءه بقوله:

- أؤكد ان المغدورة لم تمت على التو. وهذا يعني انه كان بامكانها ان تتكلم أؤكد ذلك واستغرب كيف ان زملاء لي قد تجاوزوا أبسط قواعد العلم عندما جزموا باستحالة تمكنها من الكلام بعد تلقيها الطلقة النارية الأولى..

لم تقع هذه الشهادة موقعا حسنا في نفوس من استمع اليها فقد كان فيها الكثير من الاستعلاء من طبيب قادم من باريس على زملاء له في بلدة صغيرة.

وادلى اطباء آخرون بخبرتهم امام المحكمة وقد جزموا جميعا بان المغدورة قتلت برصاصة واحدة اخترقت الفك وانحرفت نحو الحنجرة ثم استدعي شهود آخرون من معارف واصدقاء المتهم ليشيدوا بخلقه وتعامله لكن هذه الشهادات وما سبقها من شهادات الخبراء والاطباء لم تغير من قناعات هيئتي المحكمة والمحلفين على السواء فقد كانت النظرة السلبية هي الطاغية.

وسط هذه الاجواء والمؤشرات كان بايتال متفائلاً: اسر بذلك الى حراسه في اليوم الأخير للمحاكمة حتى انه ذهب في تفاؤله الواثق لان طلب من شقيقته احضار ثياب جديدة له الى المحكمة ليتمكن من ارتدائها عند خروجه بعد صدور الحكم.

بدأت محاكمة اليوم الأخير بمرافعة المدعي العام بيرو كانت مرافعة طويلة وعنيفة أوغر فيها صدر الجميع من محلفين وغيرهم ضد المتهم بقتل ثلاثة هم زوجته وابنه وخادمه جريمة كما قال لم يسبق لها مثيل لجهة التخطيط لها والاستعداد لاقترافها الم ينو بيتال ارتكاب فعلته منذ اليوم الاول لزواجه بل وربما قبل ذلك؟

هذه النية المبيتة والمنفذة بوحشية وفظاعة تستحق كما ختم المدعي العام ان تنزل بالفاعل اقصى العقوبة.

ويأتي محامي الدفاع مارغيران ليلقي مرافعته طوال ست ساعات متواصلة لم يترك ميزة الا ونسبها الى موكله ست ساعات انهاها هذا المحامي بقوله ملتفتا الى المحلفين: «لا شك انكم لن تدعوا التاريخ يقول عن اثني عشر مواطنا من خيرة مواطني المقاطعة انهم اخطأوا لن تدعوه يلصق بكم الشعور بالندم ان موكلي بريء، وعليكم ـ مدفوعين بالجرأة ـ اعلان ذلك»

وعلى الرغم من براعة المحامي فان الانطباع الذي تكون في نهاية مرافعته الطويلة هو انه لم يوفق في الاقناع الذي اراد.

بعد المحامي سأل الرئيس المتهم عما اذا كان لديه ما يضيفه فاجاب بالنفي ،عندها قام الرئيس بتلخيص القضية وهذا اجراء كان متبعا في المحاكمات قبل ان يلغى عام ١٨٨١ ومن شأنه اعطاء وزن في التأثير على المحلفين باعتباره آخر ما يقال في سياق المحاكمة وعلى الرغم من الموضوعية التي قصدها رئيس المحكمة في تلخيصه للوقائع والاقوال فان التأثير قد فعل فعله.

انسحبت هيئة المحلفين لتعود بعد ساعة ونصف الساعة وتعلن ان بانيال مـذنب مذنب في قتله زوجته في قتله خادمه كذلك، عن سبق التصور والتصميم .

ويقرأ الرئيس الحكم بالاعدام فيضع بايتال يده على رأسه ويصرخ: «يا الهي احس ان نقطة دم تتجمد في رأسي» ثم ينهار.

بعد صدور الحكم تحرك صديقان لبايتال هما كافارني وبالزاك لم يعدما وسيلة الا وسلكاها للانقاذ، حتى ان بالزاك كتب سلسلة من المقالات في جريدة «العصر» فند فيها نقاط الضعف في المحاكمة والتي تشكل نقاط قوة للمحكوم من هذه النقاط ان الدافع للجريمة لا يمكن ان يكون المال فللمحكوم عليه ثروة تبلغ صعفي ثروة زوجته المغدورة كما انه وهو الرجل الذكي كان بامكانه سلوك طريق آخر لجريمته غير الذي سلكه كأن يلقي بزوجته وخادمه والعربة في مستنقع من المستنقعات التي تملأ مكان حصول الجريمة وان يركض في الطريق صارخاً: «النجدة».

لكن المساعي هذه باءت كلها بالفشل وذات يوم قبل تنفيذ الحكم بوقت ليس بطويل رأى احد المارة امام السجن الذي يقبع فيه بايتال وتحديدا تحت شباك زنزانته مغلفا يرمى من فوق وقد كتب عليه «رجاء من يجد هذا المغلف ان يوصله دون فتحه الى العنوان التالي: السيد كافارني، شارع فونتان ـ سان جورج ـ باريس» التقط عابر السبيل المغلف وبدلا من ايداعه صاحب العنوان اودعه دائرة الشرطة وقد فهم أن المغلف يحوي طلبا الى كافارني صديق بايتال بايداع هذا الاخير كمية «كافية» من الأفيون او اية مادة سامة اخرى.

هذا المغلف انتقل من دائرة الشرطة الى مدير الداخلية فوزير الداخلية حتى وصل في نهاية المطاف الى الملك لويس فيليب نفسه لويس فيليب الذي شبهه بايتال فيما مضى بالاجاصة. .

ونشطت المساعي للحصول من الملك على العفو. لكن الملك اعلن قراره بالرفض في ٢١ تشرين الاول ـ اكتوبر ١٨٣٩ ويوم ٢٨ عند الظهر نفذ الحكم ومات بايتال من غير ان يفقد رباطة جأشه وشجاعته مات بعد لحظة من اصراره على براءته امام الجمع الغفير الذي حضر لمشاهدة التنفيذ.

والان بعد ان انتهت هذه القضية فصولا يدور في الذهن عدد من التساؤلات: الا يعقل ان يكون الخادم هو القاتل تقدم ليقتل الزوج بالاتفاق مع الزوجة عشيقته؟ سؤال آخر: الا يعقل ان يكون الزوج قد اقدم على قتل الاثنين معا في لحظة وجدهما فيها بوضع مشين؟ اذا كان هذا الاحتمال ممكنا فلماذا لم يقل ذلك في المحكمة مع علمه انه يشكل في القضية سببا مخففا وبالتالي مجالا لانقاذ رأسه من المقصلة؟ الا يمكن ان يكون الدافع لاخفائه هذه الحقيقة هو حرصه على سمعة زوجة هي الان في العالم الآخر؟

اسئلة وتساؤلات ظلت دون جواب بعد ان طويت صفحة هذه القضية الى الابد كما طويت صفحات اخرى قبلها وبعدها واذا ما قيل ان التاريخ في مجال الظلم او الغموض هو الذي يقيم عدالة زلت او يوضح إشكالاً استمر فانه عاجز وسيظل هكذا في قضايا كهذه عفى عليها الزمن وطواها النسيان.

جيرمين دانغلومون

اليوم : ٦ شباط ـ فبرار سنة ١٩٣٤ ، تبدأ محاكمة جيرمين دانغلو مون، الاسم الفني للممثلة المسرحية الشهيرة جرمين هيو.

في القفص تجلس المتهمة : بقايا من جرمين الامس . امرأة في السادسة والأربعين باهتة هرمة تلبس ثيابا سوداء بكليتها .

انها متهمة بقتل عشيقها محافظ البوش دي رون جان كوزريه هذا ما يقوله الادعاء اما الدفاع فانه يعزو موت جان إلى حادث ليس الا .

لم تفقد جرمين هذه جمالها وشهرتها فقط بل فقدت ايضا ثروتها التي جمعتها من هذا وذاك طوال سنوات كانت فيها الفتاة المشتهاة والمرأة التي يجثو امامها علية القوم من ذوي الحول والسلطة.

في الخامسة عشرة من عمرها امضتها لقيطة في ميتم، غادرت جيرمين وفي نيتها ان تصبح ممثلة وبدأت قافلة الرجال تعبر في حياتها اولهم كان مسيو ليلياز الذي اصبح فيها بعد نائبا في الجمعية الوطنية . طوال المدة التي امضتها جيرمين معه كانت هداياه لها من حلي وفراء وسيارات تتدفق حتى الاغراق ثم فجأة اختفى الشاب وجاء بعده ثري ارجنتيني اسكنها في شقة من طابقين في شارع جوليبت ـ لاجير. عن هذا سألها رئيس المحكمة :

ـ كم كان عمرك عندما اساكنك، خمس عشرة سنة؟

ـ كلا، ثماني عشرة.

بعد الارجنتيني قدم دوق بافيير فرنسوا جوزيف ومعه سافرت الى افريقيا وجابت أوروبا . كانت فترة عاشت فيها سحر الف ليلة وليلة حتى ان العشيقين تحدثا في لحظة من اللحظات عن الزواج لكن الدولاب تعود على الدوران . وبعد حضرة الدوق جاء كونت بولوني صاحب مصرف وقمة في الثراء . . وعن الكونت هذا مرر الرئيس هذه المداخلة :

ـ لقد اهداك ثرث ألماسات تزن الواحدة منها عشرين قيراطا وعقدا الماسيا مع عقدين من اللؤلؤ.

لم تجب جيرين بل اكتفت بهزة كتف وتكمل قافلة العشاق مرورها وسط سنوات الحرب العالمية الاولى وفيها اسم بشهير هوالاغاخان. وبعد الحرب جاء كميل بيكار نائب مقاطعة القوج وفرانك الذي اغرقها هو الآخر بالهدايا.

ويبدو ان ضخامة القافلة اثارت اعصاب الرئيس فالتفت اليها متهجما:

ـ كنت قاسية مع اصدقائك تماما كما كنت فظة امام قاضي التحقيق عندما لم تكن اسئلته تروق لك.

وهنا ايضا لم تجب جرمين. وتنتقل المحكمة الى الحديث عن الضحية كوزريه. لقد تعرفت اليه في المرة الاولى سنة ١٩١٧ بواسطة صديقها بيكار الذي صادفه مرة وقدمه لها ومنذ اللحظة الاولى وقعت جرمين في غرام هذا الشاب الممتلىء نضارة وطموحا ولم يمض طويل وقت حتى اصبح هذا القادم الجديد عشيقها لكن بيكار علم بالامر وكانت مشادة بين الصديقين انتهت بان تخلصت جرمين من الاثنين معا وطردتهما من بيتها وحياتها.

ومرت السنون خمس عشرة سنة صعد خلالها كوزريه سلم طموحه ليصبح امين سر عاما للجزائر فمحافظا لمنطقة البوش دي رؤن ومنحته الدولة وسام جوقة الشرف وبهذه المناسبة ارسلت اليه جرمين رسالة تهنئة وكان لقاء وكانت استعادة للماضي وتكررت اللقاءات الى ان صار كوزريه ينزل في بيت عشيقته القديمة الجديدة عندما كان يأتي الى باريس من وقت لآخر كما انه خصص لها معاشا شهريا بقيمة الف من الفرنكات الفرنسية.

هذه العلاقة الجديدة المستعادة بدلت امورا كثيرة في حياة جرمين انتقلت الى بيت بسيط من غرفتين ولم يعد في حياتها ما كان من هدايا ثمينة ومظاهر الفتاة اللعوب التي كانت لقد استعاضت عن كل هذا بما رأته احلى واثمن: حبها لكوزريه.

لكن شدة تعلقها به جعلها تخاف عليه وتحصي عليه خطواته الى ان كان يوم تلقت فيه مخابرة هاتفية من مجهول ينصحها بمراقبة «المحافظ» لتعرف امور كثيرة. هذه المخابرة اضاعت صوابها فسارعت الى تكليف مخبر خاص ينقل اليها تحركات العشيق بكل تفاصيلها والمخبر هذا هو امرأة وتدعى مدام لاغروس.

بتاريخ السادس من مارس ـ اذار، حضر المحافظ الى باريس وامضى الليل عند جرمين وصباح اليوم التالي ودعها قائلا لها انه متوجه الى وزارة الداخلية لكن مدام لاغروس تعقبته ورأته يدخل محلا كبيرا ويشتري منه مجموعة من اواني البورسلين ويذهب بها الى بيت

ارملة احد اصدقائه وصل الخبر فورا الى جرمين وعند الساعة الواحدة والربع ظهرا عاد الى بيت عشيقته جرمين ليجري بينهما عراك غيرة عنيف.

هنا وبهذه المناسبة سأل رئيس المحكمة المتهمة:

ـ ماذا قلت عندئذ لكوزريه؟

ـ قلت له انه لم يذهب الى وزارة الداخلية بل الى محلات الربيع!

رد الرئيس:

ـ لا بل اتهمته بالكذب وتشاجرتما وفي هذا الوقت شهرت مسدسك..

لقد عرف فيما بعد ان جرمين كانت تحتفظ دوما بمسدسين محشوين في بيتها. وعن هذا افادت ان السبب هو الخوف من السرقة كما عرف انها كانت تتدرب على اطلاق النار على يد رجل يدعى غاستين رينيث.

ونعود لى الاستجواب لنسمع المتهمة ترد:

ـ قلت له ضاحكة: المرة القادمة سنعرف ماذا سيحصل.. فما كان من جان الا ان دفعني بيده فانطلقت الرصاصة من المسدس واصابته.

هذه الرواية جاء الطبيب الشرعي الدكتور بول يدحضها بتأكيده ان كوزريه كان رافعا ذراعيه عندما اصيب، وهذا بنظره يدل على انه كان خائفا ويتوسل الى قاتلته لكي لا تفعل.

وامر الرئيس بتمثيل الجريمة. تقدمت جرمين وسط القاعة وامسكت بالمسدس الذي اعطي لها امسكت به وظلت تروح وتجيء وتدور حول نفسها مرتبكة وعلى الرغم من انفعال الرئيس والحاحه بان تمثل الجريمة كما حصلت فان جرمين لم تقم بالعمل كما يجب مما افشل العملية وعادت جرمين الى قفصها وعلى وجهها سيماء الثقة بالنفس.

واستدعي خبراء السلاح ليدلي كل منهم بالافادة التي يرى. منهم من قال ان المسدس المستعمل يحوي نظاما للأمان لا يدع مجالا لخطأ كالذي ذكر، ومنهم من قال خلاف ذلك وهذا ما اوقع المحكمة في الحيرة مرة اخرى.

في اليوم التالي انعقدت المحكمة للاستماع الى الشهود. والقافلة الاولى منهم كانت تتألف من اصدقاء قدامى للمتهمة باستثناء كبار الاسماء منهم فهؤلاء اختفوا ليخفوا فضائح لا مصلحة لهم في كشفها. كانت الشهادات كلها ملائمة لها وقد امتلأت بامتداح العذوبة وإطراء اللطف فيها.

بعدها جاء من يلصق بالمتهمة اقسى صفات العجرفةوالشراسة :من هؤلاء وجلهم اصدقاء للمغدور السيدان اوجيه وسيريس.

وعادت المحكمة للخبرة مع خبراء جدد هذه المرة عادت لتقع ثانية في الحيرة: امكانية انطلاق الرصاصة لذاتها عدم الامكانية ، فعالية نظام الأمان ، عدم فعاليته الى ما هنالك من آراء وتكهنات .

ويقف محامي الدفاع ليدافع ويؤكد من خلال تضعضع الخبراء وتناقض افاداتهم ان المسدس الذي استعمل لا يحوي نظاما للامان اكيدا والدليل هو ان هذا النوع من المسدسات الالية لا تكتفي باطلاق رصاصة واحدة بل ان هذه الرصاصة لا بد وان تعقبها رصاصات اخرى اذا ما ضغط على الزناد ،وهذا يدل على ان المتهمة لم تضغط على الزناد وبالتالي لم تقصد استعمال المسدس.

هذا الرأي ايده الخبير رينو وخالفه المحامي العام غوديل وضاعت المحكمة في متاهات الخبرات المتناقضة والتي لم يتمكن اي من الادعاء والدفاع من تغليب واحدة منها على الاخرى.

بعد هذا ووسط الجو الذي خلقته تلك الحيرة وقف المدعي العام ومن بعده المحامي العام ليرافع كل منهما ويؤكد حصول جريمة في محل جرمين وقد توسل كل منهما لاقناع هيئة المحلفين بماضي المتهمة هذا الماضي المشحون بالانحرافات واللااخلاقية، اتفق الاثنان على الاتهام كما اتفقا على القبول بالاسباب التخفيفية.

بعد هاتين المرافعتين وما تركتاه من اثر في اذهان الجميع محكمة وهيئة محلفين وقف محامي الدفاع بوغران ليقلب الموازين ويبدل الصورة.

ماذا قال المحامي؟ اشار الى ماضي موكلته دون اي تعقيد لكنه فصل هذا الماضي عن الفعل الذي تحاكم فيه . وعندما وصل الى ساعة وقوع الحادث كان رائعاً في تصويره تصويرا بسيطا لا يمكن ان يخرج عن سوء الحظ وعن الصدفة. لماذا تقتل جرمين؟ الأنها تحب؟ فالذي يحب لا يقتل صحيح انها ارسلت من يتعقب عشيقها لكن هذا امر طبيعي ويمكن ان يحصل كل يوم مع كل عاشق وكل عاشقة. ولو كانت جرمين تريد قتله فعلا لما اكتفت برصاصة واحدة.

وانتهت المرافعة ومعها تغير كل شيء . بعدها دخل المحلفون غرفة المذاكرة ليخرجوا بعد ساعة ونصف الساعة بحكم هو السجن سنتين لجرمين .

استمعت المرأة الى الحكم بهدوء وشحوب وعندما توارت مع حارسيها الى داخل

السجن توارت معها حياتها السابقة بكل ما فيها ومن فيها .

ومنذ تلك اللحظة اختفت الى الابد جرمين دانغلومون لتعود ببساطة كلية جرمين هيو المرأة المغمورة التي عاشت بقية ايامها في ما يشبه الظلام الدامس .

الماريشال ناي

نحن الآن في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر من عام ١٨١٥ . باريس تغلي قلقة فالحكم فيها يواجه بداية تحركات يمكن ان تتطور وتحتد .

والملك لويس الثامن عشر يشعر بهذا الخطر ويحاول ترسيخ ملكه وضرب كل ما من شأنه زعزعة هذا الملك . في هذا الاطار اصدر امرا بتشكيل مجلس حربي خاص لمحاكمة واحد من اقرب الناس الى نابولويون بونابرت الماريشال ميشال ناي .

ولد ناي سنة ١٧٦٩ في سارلوي في عائلة بسيطة وعند بلوغه الثالثة عشرة دخل في خدمة احد الكتاب العدل لكنه ما لبث ان تركه عام ١٧٨٧ ليتطوع جنديا في فرقة الخيالة الرابعة وما ان دخل سلك الجندية حتى بدأت مواهبه تبرز وبدأ رؤساؤه يرون فيه الجندي المثالي خلقا واندفاعاومهارة . ولم يمض طويل وقت حتى اخذ يصعد السلم بثبات واقدام وهكذا عام ١٧٩٣ اصبح ملازما اول فنقيبا عام ١٧٩٤ . في هذه الفترة التقى كليبير الشهير الذي اعجب بكفاءته وعينه رئيسا لاحدى فرقه . وبين عامي ١٧٩٤ و ١٧٩٥ ابلى ناي بلاء حسنا في المعارك التي خاضها تحت امرة كليبير ولم يكد يبلغ السابعة والعشرين من عمره حتى اصبح جنرالا . كان هذا عام ١٧٩٦ . وفي الثلاثين من عمره صار قـائدا لجيش بكامله .

واستمر نجمه يتألق. وها هو بونابرت سنة ١٨٠٤ يرقيه الى رتبة ماريشال ويرسله عام ١٨٠٥ لاحراز النصر في معركتي ايلشنجن واولم، وللاستيلاء على التيرول . بعد هذا وبعد انتصاره في معركة اوسترليتز وضربه البروسيين في معركة ايانا انتقل «أشجع الشجعان» كما صار يلقب الى اسبانيا حيث بدا ان التعب بدأ يأخذ منه .

لكن هذا العسكري الفذ لم يدع الرهان يفلت منه وهكذا انتقـل عام ١٨١٢ الى روسيا لينقذ جيش نابوليون هناك ومكافأة له على ما بذل من تضحيات منحه الامبراطور لقب امير موسكوفا وفي ١٤ تشرين الاول ـ اكتوبر سنة ١٨١٢ دخل ناي وجيشه مدينة

موسكو لكنه لم يبق فيها اكثر من اربعة ايام اضطر بعدها الى التراجع وبين كر وفر استمر حتى عام ١٨١٣، انهزم ناي في معركة دينيويتز الفاصلة.

وبدأت حبات السبحة تكر الى الوراء. خسر ناي معركة دريسد فمعركة ليبزيغ واصبح الجيش الفرنسي بقيادته يحارب متراجعا على الاراضي الفرنسية انها بداية النهاية.

وفي ٣١ اذار - مارس سنة ١٨١٤ وبعد هزائم متلاحقة ومتضاربة دخل العدو باريس وانسحب نابوليون الى فونتينبلو

وبطلب من نابوليون نفسه بقي ناي في باريس ليفاوض القيصر صلحاً مشرفا، لكن المفاوضات انهارت وانسحب ناي هو الآخر الى حيث سيده.

وعندما دخل ناي على نابوليون في فونتينبلو قال له بصوت مختنق جملته الشهيرة:

- لم تعد امبراطورا يا سيدي. ها هي وثيقة تنازلك لم يعد لدينا جيش يطيع الأوامر والتنازل وحده ينقذ فرنسا.

وفي ٢٠ نيسان - ابريل سنة ١٨١٤ ابحر نابوليون منفيا الى جزيرة الب وبعد ساعات توجه ناي الى مقر الحكومة المؤقته ووضع نفسه بتصرفها وتصرف النظام الملكي العائد وقد كتب وقتها الى تاليران يقول: لم يعد امام الفرنسيين، اذا ما ارادوا تجنب حرب اهلية سوى الالتفاف حول ملوكنا القدامى».

ويوم الثاني عشر من الشهر نفسه وقف ناي مستقبلا الكونت دارتوا شقيق الملك في باريس وقائلاً له: سيدي، لقد تفانينا في تنفيذ اوامر حكومية صدرت الينا في اطار خدمة فرنسا واليوم سترون انتم وجلالة الملك مدى اخلاصنا وتفانينا بخدمة مليكنا الشرعي والمفدى».

ولم يمض طويل وقت حتى عين الملك لويس الثاني عشر ناي قائداً اعلى لاهم الفرق المحاربة في الجيش الفرنسي.

ظل في هذا المنصب مدة تسعة اشهر بعدها عينه وزير الحرب سوت وهو الآخر صديق قديم لنابوليون حاكماً عسكريا للمنطقة السادسة، تم ذلك في ٦ اذار - مارس سنة ١٨١٥ وفي اليوم التالي فقط لهذا التعيين علم ناي ان نابوليون وصل الى كان في بداية رحلته من منفاه لاستعادة ملكه، ترى هل بدأ نجم هذا الماريشال يأفل من جديد؟ وهل يمكن ان يضعف هذا الحدث المفاجيء والمستجد عزيمة هذا القائد في خدمة الملك والملكية والتي ارتضى بها في اطار خدمته لبلدة؟

لم يجرؤ احد على التشكيك باخلاص الماريشال للنظام وصاحبه والواقع ان هذا الاخلاص اكيد ولاتعتريه شائبة وها هو يجدد العهد في وداعه الملك ليتسلم منصبه الجديد ولم يكتف بهذا بل تعداه الى الاطار العملي. ففي العاشر من اذار ـ مارس علم ناي ان الكونت دارتوا شقيق الملك دخل مدينة ليون على رأس جيش ملكي مظفر عندها كتب ناي الى الكونت يرجوه ان يستدعيه ليخدم تحت امرته ويقدم البرهان على المهارة والاخلاص اللذين يضعهما بتصرفه ومما قال له في رسالته: هنا في بيزنسون ليس لدينا معلومات عن نابوليون واعتقد انه يعيش الفصل الاخير من نهايته المفجعة».

بعد ساعات فقط من كتابته هذه الرسالة الى الكونت علم ناي ان حامية غرونوبل انضمت الى نابوليون وان مدينة ليون نفسها مهددة بالسقوط. عندها اتصل بوزير الحرب ليعلمه انه سيتصدى لقوات الامبراطور السابق وامام موظفين خائفين على مصيرهم قال ناي: هؤلاء الجنود الذين يتمردون ويصرخون (ليحي الامبراطور) يجب ان يحاربوا الى جانب الملك واني اعلن انني سأغمد سيفي في جسم اول جندي يرفض اوامري».

وتعاقبت الاحداث متسارعة وكلها تشير الى انتهاء حكم الملك لويس الثامن عشر وفي ليلة ١٣ـ١٤ آذار مارس التقى الماريشال ناي رسلا من نابوليون جاؤوا لاقناعه بان نابوليون عائد لا محالة بالاتفاق بينه وبين الانكليز والنمسويين وبان التصدي له سيشعل حربا اهلية طاحنة ويبدو ان عملية اقناع ناي لم تتطلب وقتا كما لم تتطلب جهدا ففي اليوم التالي وقف هذا الضابط الكبير ليلقي في ضباطه وجنوده الامر اليومي وفيه ان «عائلة البوربون الحاكمة انتهت الى الابد وبلدنا الجميل سيعود الى حكم الامبراطور المفدى نابوليون لقد انتصرت الحرية وبعد ايام سيتحقق حلمنا في باريس وستعود الينا السعادة» وينتهي هذا الامر بالعبارة التقليدية: «يحيا الامبراطور» اما التوقيع فهو: «ماريشال الامبراطورية امير موسكوفا» وهي صفاته القديمة دون زيادة او نقصان.

ودخل نابوليون باريس واستقر في قصر التويلري وما هي الا ساعات حتى تلقى رسالة من ناي يضع فيها نفسه بتصرف وخدمة الامبراطور العائد.

كانت اولى معاركه في جيش نابوليون المتجدد واترلو وعلى الرغم من البسالة التي ابداها في القتال خسر ناي ومعه نابوليون آخر ما خاض من معارك وبعد ايام من الهزيمة هزيمة نابوليون وقف الماريشال في مجلس المندوبين ليقول: «يقتضي استدعاء عائلة البوربون اما انا فاني ساسافر الى الولايات المتحدة..».

وبانتظار هجرته الى هذا البلد هرب ناي الى سويسرا وبينما هو في الطريق اليها علم

انه متهم وثمانية عشر ضابطا آخرين بالخيانة العظمى وانه مطلوب للمثول امـام مجلس عرفي.

وسرعان ما القي القبض عليه مختبئـا في قصر بيسـونيس وسيق الى سجن باريس المركزي.

تولى قائد الشرطة استجواب الماريشال الموقوف وعن سؤال له عن قسمه بـالولاء للملك لويس الثامن عشر اجاب ناي:

ـ كنت مصمما على هذا الولاء وقد قلت للملك ان بونابرت رجل عديم الشعور بالمسؤولية وانه يستحق ان يلقى القبض عليه ويساق الى باريس في قفص من حديد.

وعن سؤال حول العودة الى اعلان ولائه للامبراطور اجاب:

ـ ان امر الولاء أتاني بواسطة احد الضباط في الحرس الامبراطوري وقد ابلغته قبل قراءته امام عناصر الجيش الى الجنرالين بومون ولوكورب ماذا كنت استطيع ان افعل؟ وقد اجابني بومون بان من المستحسن ان انضم الى بونابرت فالعائلة المالكة اقترفت اخطاء كثيرة ولا بد من الانفصاض عنها وهكذا يوم ١٤ اذار مارس عند الظهر قرأت الامر لكني علمت فيما بعد ان هذا الامر كان قد اشيع بواسطة عملاء لنابوليون انتشروا في المدينة كما ان رسلا اتوني من عنده وابلغوني ان القوى العظمى وافقت على عودة الامبراطور الى الحكم وفوق كل هذا فان ما دفعني بصورة خاصة الى اتخاذ الموقف الذي تشيرون اليه هو خوفي من حرب اهلية.

في ايلول سبتمبر سنة ١٨١٥ تشكل المجلس العرفي لمحاكمة ناي فاعترض المتهم مدعيا عدم صلاحية هذا المجلس لمحاكمته وقد برر اعتراضه بقوله ان رتبته العسكريـة والاوسمة والالقاب التي يحملها لا تسمح بان يحاكم من غير مجلس النواب لكنه مع ذلك يقبل أن يجيب عن الأسئلة التي يوجهها اليه مقرر المجلس وحده.

وبعد اخذ ورد في جلسات عقدها المجلس المذكور جاء القرار بجانب المتهم وهكذا سجل ناي هدفا هاما في بداية الجولة.

وبعد يومـين من صدور هـذا القرار صـدر امران ملكيـان الى المجلس بالانعقـاد كمحكمة وبمحاكمة الماريشال دون اي ابطاء.

وفي ٢١ تشرين الثاني ـ نـوفمبر ١٨١٥ بـدأت في قصر «اللوكسمبـورغ» بباريس المحاكمة بشكلها العملي وسط حشد كبير من الامراء والسفراء والوزراء بالاضافة الى عدد كبير ايضا من النواب وكبار الضباط وما ان دخل المتهم قفصه في قاعة المحكمة حتى بدأ الكاتب بقراءة قرار الاتهام.

كان القرار طويلا بالتحقيقات التي احتواها وهي تحقيقات تضمنت مواقف متناقضة يصعب الخروج منها بانطباع موحد ومتكامل لكن البارز فيها كان ما اشير عن اتصالاته المشبوهة السرية وهو «اشجع الشجعان» والتي تفسر بانها موجهة ضد الملك ونظامه بل موجهة ضد الوطن نفسه وشرف المنصب.

في الرابع من شهر كانون الاول ديسمبر عادت المحكمة الى الالتئام وكانت جلستها مخصصة لسماع الشهود وتقدم اول هؤلاء وهو الدوق دوراس ومما قاله:

ـ لقد حنث ناي بيمين الولاء للملك لقد اكد له وهو يقبل يده بانه سيأتي اليه بنابوليون في قفص من حديد، فاذا به يأتي به الى العرش.

وجاء شاهد ثان هو الكونت ساي ومعه شهادة مشبعة بالحقد ضد المتهم وصمه بالرشوة عندما قال انه قبض «٧٠٠,٠٠٠» الف فرنك ليمول المعركة ضد الملك غير ان المتهم وقد اطار هذا الاتهام صوابه صرخ من داخل قفصه:

ـ الاشاعة تلك سرت في بيزنسون على لسان عملاء حاقدين لكنها سرعان ما انطفأت لان احدا لم يصدقها وهي الموجهة ضدي انا، انا من عرف عنه الاباء والشرف.. ولو قضيت قبل غسل هذا العار لكان اولادي الان يتمرغون في وحل سمعة اورثها اياهم ابوهم ظلما وافتراء.

ويأتي شاهد ثالث هو الجنرال دي بورمون احد مرؤوسي الماريشال السابقين ليشيد باخلاص المتهم قبل اعلان الامر المذكور اما بعد هذا الاعلان فان كل شيء تغير واضاف ان ناي قال له:

ـ الملك لم يعد في باريس ليذهب ليبحر يجب الاسراع لملاقاة الامبراطور.. ويهب ناي في قفصه صارخا في وجه الشاهد:

ـ اذا كنت خائنا كما تقول فلماذا لم تقتلني وانا الاعزل امامك وقتئذ؟

ويبدو ان رئيس المحكمة اخذ بهذه المداخلة فسأل الشاهد:

ـ طالما ان موقف المتهم اصبح كما ذكرت فلماذا تبعته الى حيث المعارك جارية ودون ان تتصرف كما يمليه عليه ولاؤك للملك؟

فأجاب الشاهد:

ـ فعلت ذلك لارى ما اذا كان سيبث روح التمرد ضد الملك في صفوف المحاربين. ويسأله احد اعضاء المحكمة:

ـ لماذا لم تلق القبض على رسل نابوليون عندما حضروا اليك؟

ـ لم اعلم بحضورهم الا من قبل الماريشال وبعد مغادرتهم.

ويلي هذا الشاهد شاهد رابع هو البارون كلويه الذي قال انه يعزو مواقف الماريشال المتناقضة والمتبدلة الى مزاجه المتسرع والانفعالي والى عقليته التي تسعى الى البريق والتألق.

اما آخر الشهود فكان الماريشال ديكمول وقد قال:

ـ كنت أقود فرقتي في المعركة ضد جنود نابوليون ليلة الثاني الى الثالث من شهر تموز ـ يوليو من عام ١٨١٥ عندما تلقيت امرا من الماريشال ناي بفتح ثغرات يتسرب منها رجال الامبراطور الى باريس وذلك تمهيدا للتراجع..

فيتدخل ناي من داخل قفصه:

ـ لقد فعلت هذا لأتجنب حمام دم رهيب كان سيقضي على مئات الالاف من ابناء الوطن الواحد ويشهد شرفي العسكري اني لم اقصد سوى انقاذ بلدي واهله.

وتنتهي قافلة الشهود ليبدأ المدعي العام مرافعته المليئة بالاتهامات بعد ذلك وقف محامي الدفاع ليتساءل ويسأل:

ـ ماذا كان يمكن ان يفعله الماريشال ان يصرخ: ليحيا الملك ويدفع بجنوده يموتون امام اخوان لهم في الوطن؟ ماذا كان افاد الملك لو فعل هذا؟ اني أؤكد ان موكلي لم يكن يدين الا لسيد واحد هو وطنه.

وينتهي هذا المحامي بطلب البراءة. بعد هذا وبعد سؤال المتهم عما اذا كان لديه ما يضيفه وجوابه بالنفي اخليت القاعة الا من اعضاء المحكمة للمداولة واصدار الحكم وبعد ست ساعات صدر الحكم... بالاعدام وذلك بـ ١٢٨ صوتاً من اصل ١٦١ مقترعاً.

وفي اليوم التالي الساعة الخامسة صباحا كان موقفاً مؤثرا بين ناي وزوجته واولاده حاولت الزوجة السعي لدى الدوق دي دوراس للحصول على عفو ملكي لكن المسعى جاء متأخرا: لقد سبق السيف العذل.

مات ناي واقفا ورافضا وضع العصبة على عينية وقد اصرعلى ان يعطي هو بنفسه الامر باطلاق النار وكان آخر ما قاله:

ـ احتج امام الله والوطن على الحكم باعدامي واتوجه باحتجاجي هذا الى الرجال الى الاجيال القادمة الى الله!

واسدل الستار عن قصة بطل كان في الثلاثين من عمره جنرال الثورة ومات في السادسة والاربعين بحكم لم يحكم عليه التاريخ بعد.

ترى، ايكون صحيحا ما اورده اثناء محاكمته من ان كل ما أدين به لم يكن يهدف الا الى تجنب حرب أهلية تسيل فيها دماء ابناء الوطن الواحد ؟ ربما لكن ما يمكن تأكيده هو ان تبدل تبدل الحكام لا بدوان يسحق البعض والمسألة قد تكون مسألة صدفة بل ربما مسألة مغامرة.

إيفون شيفالييه

على الرغم من الأمطار الغزيرة التي كانت تتساقط على مدينة ريمس الفرنسية، صبيحة السادس من شهر تشرين الثاني- نوفمبر من عام ١٩٥٢، فقد خفت أعداد غفيرة الى قصر العدل هناك لتكون في محاكمة ايفون شيفالييه المتهمة بقتل زوجها شيفالييه، نائب اورليان ووزير الدولة لشؤون التعليم الفني. وعلى الرغم من أن الجريمة حصلت في أورليان، فقد رأت الدوائر العدلية ان تجري المحاكمة في ريمس، وذلك تجنباً لأية اضطرابات قد تثار، اذا ما حوكمت ايفون بالقرب من اتباع زوجها ومؤيديه.

وتدخل هيئة المحكمة الى القاعة وتستقر في أماكنها. وتدخل المتهمة قفصها وسط حارسيها، فتنطلق آلات التصوير تبهر العيون بأنوارها. حتى أن المسكينة وقد أعمتها هذه الأنوار، رفعت منديلها على وجهها تغطيه وكأنها كانت تقصد، بالاضافة الى تحاشي الازعاج ان تتحاشى الاحراج.

يوم ١٢ آب أوغسطس ١٩٥١، كان يوم الجريمة وقد استمرت التحقيقات، منذ ذلك التاريخ، تضيف الى الملف الوثيقة تلو الوثيقة والمستند تلو المستند.

بدأت الجلسة، كما هي العادة، بقراءة قرار الاتهام. بعد ذلك، عمد الرئيس الى استجواب المتهمة. والرئيس رجل مهيب. لكنه بدا أنه يتجنب ان يثقل على المسكينة بوطء مهابته هذه، فكانت استفساراته توجه اليها بمنتهى الأناة واللطف. ولعل هذا السلوك خفف من اضطراب ايفون، فبدأت تسرد الوقائع بارتياح وحضور بارزين.

كانت البداية عام ١٩٣٧ عندما التقى بيار بايفون للمرة الأولى. هو ابن العائلة البورجوازية، والطبيب سليل أسلاف اطباء. وهي الممرضة البسيطة، بنت الفلاحين والمجردة من أي مظهر من مظاهر التألق الاجتماعي. وشاء القدر أن ينشأ بينهما غرام جامح، توج، عام ١٩٣٩، بزواج، هذا الزواج تم بكثير من التكتم، تجنباً لحدوث اية اشكالات مع عائلة بيار، التي رأت فيه عدم تكافؤ اجتماعي صارخ.

وسنة الزواج تلك كانت سنة الحرب العالمية الثانية أيضاً ذهب الزوج الى الحرب ليعود بعد فترة برتبة ملازم أول. وكان الاحتلال النازي لفرنسا. هذا الاحتلال دفع بيار المتحمس الى الانخراط في صفوف المقاومة السرية.

لقد أبلى بلاء حسناً وأظهر حماساً ووطنية استحق عليهما اعجاب الجميع. وعندما وضعت الحرب أوزارها، وكان نجم بيار قد تألق كمناضل فذ، انتخب هذا الشاب المتحمس نائباً عن منطقة اورليان. وكان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ويبدو أن علاقة بيار بزوجته بدأت تتبدل. منذ تلك الفترة لم تستطع ايفون الفلاحة أن تتكيف مع الأوساط الاجتماعية والسياسية التي فتحتها طموحات زوجها وامكانياته. حاولت أن ترتفع الى هذه المستويات فلم تفلح. حاولت عن طريق ارتداء أغلى الثياب واكثرها اناقة كما انكبت على مطالعة المجلات الأدبية والكتب الاجتماعية تستظهر منها العبارات والفقرات لترددها في احاديثها مع علية القوم من مجتمع زوجها. ومما زاد في انزعاجها أن زوجها بدأ يوجه اليها ملاحظاته عن تصرفاتها واحاديثها. صحيح أن هذه الملاحظات أرادها الزوج ناعمة في البداية ولطيفة، لكن الوضع سرعان ما تطور الى أقسى الى ان انتهى بمنع زوجها لها من مرافقته في لقاءاته وسهراته، حتى تلك التي يقيمها في بيته.

وعندما انتخب بيار نائباً في الجمعية الوطنية، اضطرته مهامه الجديدة أن يقضي في باريس ثلاثة أيام من كل أسبوع. ولهذا، استأجر شقة مفروشة هناك. ولما لم يعرض على زوجته ان ترافقه في تنقلاته الى باريس، فقد بدأ الشك يخامرها وبدأت الغيرة تعصف بقلبها ومما زاد في الطين بلة، أن زوجها قابلها بتدبير أصابها في الصميم. فعندما ثارت أمامه بسبب اسفاره المنفردة الى باريس، انفصل عنها في المخدع الزوجي وخصص لنفسه غرفة نوم مستقلة.

ومع ذلك، حاولت اطفاء نار الغيرة، أو على الأقل، التخفيف من سعيرها، عن طريق الاهتمام بولديها، فلم تفلح. وصارت تتلوى كالأفعى. تثور كلما رأته وتفتش في جيوبه اذا غاب وذات يوم، عثرت في جيب له على رسالة من امرأة تدعى بوليت م. من تكون بوليت م هذه؟ ان ايفون تعرف امرأة بهذا الأسم، هي وزوجها، اونوريه، صديقان لها ولزوجها.

وتثور ايفون وتفاتح زوجها لكن الزوج ينكر. وبغية التمويه، يقول لها أن بوليت هذه عشيقته، وأنها ليست زوجة اونوريه. لكن ايفون لم تصدق. وتسرع الى بيت بوليت لتثور في وجهها. لكنها تنكر، هي الأخرى، أية علاقة بينها وبين بيار.

في ١٧ حزيران- يونيو ١٩٥١، أعيد انتخاب بيار نائباً عن منطقته. وقد أقام بهذه

المناسبة حفلة استقبال كبرى لم يدع اليها زوجته . لكن الزوجة ، وقد أفقدتها نار الغيرة صوابها ، اقتحمت مكان الاحتفال لترى زوجها بصحبة بوليت . جن جنونها وانقضت على عنق زوجها . لكن هذا دفعها بقوة وشتمها . وكان مشهداً معيباً ، وكانت فضيحة .

وفي البيت ، طلبت ايفون من زوجها تبرير تصرفه المشين . وبدأ الزوج لائحة تبريراته : « لم يعد يحتملها ، انها وضيعة المستوى ، غبية ، لا تحسن التصرف مع الآخرين ، تردد كالببغاء عبارات لا تفهمها » . وأنهى هذا السرد الجارح والصاعق بأن قال لها ببرودة ما بعدها برودة :

ـ أريد أن أطلق .

فتجيبه ايفون بسرعة ونزق :

ـ كلا ، بتاتاً . .

وتمر الأيام بتثاقل وفي شهر آب ـ غسطس من العام نفسه ١٩٥١ . ذهبت ايفون وولداها لقضاء فترة العطلة ، في حين بقي بيار في باريس أو هكذا افترضت . ذلك أن أخباره قطعت عنها تماماً .

لكن المقام لم يطب للزوجة وسط نار غيرتها المتأججة . وها هي تتوجه الى باريس لتسأل عن الزوج في مقر الجمعية الوطنية . وقد قيل لها هناك أنه لم يحضر منذ مدة . عندها ، ما كان منها الا أن توجهت الى شقته ، التي تحمل مفتاحاً لها فتحت الباب ووجدت العشيقين معا ، صعقت بالحقيقة . وبدلاً من أن تعالج الموضوع بشيء من الروية أو التفاهم اسرعت الى الزوج المخدوع تقص عليه كل شيء وتطلب منه أن يساعدها بدا وكأن وقع الصدمة شديد على أونوريه . غير أن كل ما فعله في هذه المرحلة ، هو أنه طلب من ايفون عدم التصرف بحماقة ، وذلك خوفاً من الفضيحة .

الفضيحة ؟ تكتّم ؟ لم تعد هاتان الكلمتان تساويان شيئاً يذكر بالنسبة لهذه المرأة التي أفقدتها الغيرة أعصابها . ما يهمها هي لا يتعدى شيئاً واحداً : المحافظة على زوجها مهما كان الثمن . وشاءت الصدف أن تتلقى ايفون من زوجها مكالمة هاتفية قصيرة من باريس يخبرها فيها أنه سيحضر الى بيته في اليوم التالي ليغادره بعد وقت قصير . وقد طلب منها أن تحضر له حقيبة ثيابه .

وفي اليوم التالي ، حضر بيار فعلاً الى البيت . كان ذلك في ١٢ آب ـ غسطس سنة ١٩٥١ دخل البيت . سلم على ولديه دون أن يلقي ولو نظرة على الزوجة التي تنتظره . بعد ذلك ، دخل الاثنان غرفة النوم ، حيث بدأت ايفون تحضر الحقيبة . في خزانة الثياب ،

وضعت ايفون مسدساً كانت اشترته منذ أسبوع وطلبت رخصة لحمله من دائرة الشرطة بحجة أنها تخاف وحدها في بيتها الكبير أثناء الليل .

حتى هذه المرحلة من التفاصيل ، لم تكن ايفون بحاجة لكبير عناء لاثبات ما روته . فهناك شهود وهناك اثباتات مادية . أما منذ اللحظة التي دخلت وزوجها غرفة نومهما ، فقد اعتمد التحقيق ، بصورة خاصة ، على رواية الزوجة ، التي قالت مكملة تفاصيل ما حدث :

- طلبت اليه ان يعود الى الحياة الزوجية الطبيعية . لم يكن يعيرني ، على ما يبدو ، أي اهتمام . قال لي ببرود :

- سأتزوج بوليت . وأنت ستعودين الى قريتك .

عندها ، قالت ايفون : «أخرجت المسدس وقلت له : سأقتل نفسي» فقال :

- عظيم . اقتلي نفسك اذا أردت . لكني انتظري حتى أخرج . وأطلقت ايفون النار أربع مرات متتالية . لم تطلقها على نفسها ، بل على بيار . في هذه اللحظة ، سمعت صوت ابنها الاصغر يصرخ مذعوراً في غرفته الملاصقة لغرفتها ، فطمأنته بصوتها وأطلقت على الجثة طلقتها الخامسة والأخيرة .

وأنهت ايفون سردها ، وقد بدا عليها الانزعاج والاعياء ، كما بدا على وجوه الحضور تعاطفاً كان ظاهراً طوال فترة السرد . وتنتهي الجلسة الأولى .

الجلسة الثانية كانت في اليوم التالي ، يوم ٧ تشرين الثاني- نوفمبر وقد بدأت بسماع الشاهدين الرئيسيين فيها : أونوريه وزوجته اللعوب ، تقدم أونوريه نحيلاً ، قصيراً ليجيب عن أسئلة رئيس المحكمة :

- نعم سيدي الرئيس كنت على علم بعلاقة زوجتي بالمغدور منذ بدايتها . وقد اتفقنا على البقاء معاً من أجل الأولاد فقط .

ويهمهم الحضور تضايقاً وازدراء ذلك أن هذا النوع من الأزواج لا يروق لرواد المحاكم ولا يأتلف مع جدية وعمق العدالة في قاعات المحاكم .

ويسأل الرئيس الشاهد :

تكلم عن الزيارة التي قامت بها المتهمة إليك ساعة اخبرتك عن اكتشافها للعلاقة بين زوجتك وزوجها .

هنا ، بدا أن أونوريه تضايق من السؤال . لكنه أجاب قائلاً :

ـ نصحتها أن لا تفعل شيئاً . كنت اتحاشى الفضيحة .

ـ لكنك تصرفت خلاف ذلك في علاقة سابقة لزوجتك مع رجل آخر . . عندما طلبت منها أن تقطع علاقتها به .

ـ صحيح ! كان ذاك الرجل منّفرا ، خلافاً للآخر .

ـ وهل كان بيار شيفالييه يعجبك؟

ـ نعم ، سيدي الرئيس . قد تستغرب ذلك . لكنه كان قريباً وكنت استلطفه . ويهمهم الحاضرون ثانية .

ـ لقد كتبت زوجتك رسالة الى عشيقها بيار قالت له فيها أنك ستترك له الساحة ان هو عينك في منصب ملائم . هل صحيح أنك كنت ستطلق لو فعل المغدور ذلك .

ـ أجل، صحيح.

وتنتهي شهادة الزوج «المتفهم» ويغادر القاعة . وتليه زوجته بوليت باناقتها وشبابها البارزين . تقدمت وسط استهجان الحضور . لكنها بدت وكأنها لا تعير أي اهتمام لما يفكر الآخرون بها ، ولما تعنيه نظراتهم المصوبة نحوها .

بدأت بوليت بسرد الوقائع عن علاقتها ببيار . كانت تحبه وكان هو يبادلها الشعور نفسه . وهذا الماضي ، كما قالت ، لم يعد يعني أحداً طالما أن بيار مات . ويهب محامي الدفاع مصعوقاً بوقاحة هذه المرأة ويقول لها :

ـ سيدتي هناك محكمة عليا في السماء لا بد ستحاكمك . واذا كنت لا تقفين في قفص الاتهام محل المتهمة ، كما كان يفترض ان يكون ، فلأن العدالة الألهية ستنال منك ولن تتمكني من التهرب منها ، كما هي الحال مع عدالة الأرض .

وتهب في القاعة عاصفة من التصفيق لم يكن من السهل على الرئيس تهدئتها . بعدها ، لم تتخلف بوليت عن اجابة المحامي بقولها ان علاقتها بعشيقها مسألة محصورة بينها وبين ضميرها ، ولا تقبل حكماً عليها من أحد . .

بعد ذلك ، توالى شهود لم يضيفوا جديداً على ما ذكر . ويقف المدعي العام لإلقاء مرافعته . كانت مرافعة نادرة في نوعها . لم يهاجم ، لم يقس كل ما قاله كان نوعاً من الدفاع عن «تلك المرأة» التي كانت متمسكة بشرفها» حاولت انقاذ هذا الشرف واستعانت على ذلك بزوج العشيقة ، التي افترضت فيه بعض الشعور بالشرف لكنها فشلت . وعندما وجدت نفسها أمام طريق مسدود وبمواجهة زوج مستهتر ومتعال ، فعلت ما فعلت . وأنهى

المدعي العام مرافعته بطلب السجن لمدة لا تزيد على سنتين، منها المدة التي أمضتها في التوقيف وهي خمسة عشر شهراً.

وتلاه المحامي ليرى نفسه مسبوقاً بدفاع المدعي العام لم يقل المحامي شيئاً يذكر. وكل ما اختلف فيه مع المدعي العام، هو أنه طلب البراءة الكاملة لموكلته.

وانتهت المحاكمة ودخل المحلفون قاعة المذاكرة ليخرجوا منها بعد ثلاثة ارباع الساعة مع الحكم بالبراءة. ايفون شيفالييه ليست مذنبة بجرم قتل زوجها! وتعالى التصفيق في أرجاء القاعة ومعه تعالت صيحات التحية للمحكمة وللعدالة أما ايفون، فكانت تبدو وكأنها لم تسمع الحكم. كانت شاردة الذهن. زائغة البصر.

خرجت المسكينة من السجن، ومضت السنون دون أن يعرف أحد شيئاً عنها الى أن جاء من يقول انها غادرت الى افريقيا لتعود هناك الى العمل كممرضة، كما كانت تفعل قبل زواجها المشؤوم.

هيلين جيفادو

المحاكمة التي بدأت ذلك السبت ٦ كانون الأول- ديسمبر من عام ١٨٥١ في مدينة رين ، غربي فرنسا ، للنظر في قضية هيلين جيفادو ، يمكن اعتبارها واحدة من المحاكمات الأكثر اثارة في تاريخ القضاء الفرنسي . وعلى الرغم من الأحداث الجسام التي كانت تقع في فرنسا في تلك الأثناء ، والمتمحورة حول عودة الأمير لويس نابوليون بونابرت الى الحكم ، وسط معارك طاحنة في باريس ، وعلى الرغم من الغموض والقلق المسيطرين آنذاك على مصير العباد والبلاد ، فان المحاكمة استطاعت أن تحتفظ لنفسها ببعض الأضـواء ، وأن تشغل جزءاً كبيراً من الرأي العام الفرنسي ، لا في مكان اجراء المحاكمة فحسب ، بل في فرنسا برمتها .

كانت المتهمة ، وهي امرأة في الثامنة والأربعين من عمرها شعرها أسـود وجبينها ضيق ، تخفي وجهها تحت قبعة معطفها وهي تستمع الى قرار الاتهام يتلوه الكاتب .

ويغرق الحاضرون في القاعة الفسيحة وسط امواج الاتهامات العاتية ، وقد نسوا ما حدث ويحدث في البلد ابتداء من الانقلاب الـذي أتى بلويس- نابـوليون وانتهـاء بموت الجمهورية ، مروراً بحمامات الدم التي غرقت فيها باريس ولا تزال .

كان عام ١٨٥٠ بداية القصة . في ذلك العام ، دخلت هيلين في خدمة السيد تيوفيل بيدار ، وهو أستاذ بكلية الحقوق في جامعة رين . دخلت بصفة طاهية بعد أن كانت تعمل في احد فنادق المدينة ، حيث لم يمض وقت طويل على موت خادمة فيه بظروف غامضة واثر احتضار طويل ورهيب .

لم يرق لهيلين أن تعمل في بيت الأستاذ بيدار تحت امرة خادمته القديمة روز تيسيه . وهكذا ، في٣ تشرين الثاني- نوفمبر ١٨٥٠ ، وبعد عشاء تناولته المسكينة روز ، وكان محضراً من قبل الطاهية الجديدة ، بدأت أعراض مرضية مفاجئة تظهر عليها مصحوبة بآلام مبرحة . وما لبثت حالها تسوء من يوم الى يوم ، على الرغم من الاعتناء بها واستدعاء الطبيب

لها ، حتى جاء السابع من الشهر فقضت بعد نوبات من الاحتضار تقشعر لها الأبدان .

بعد موت روز ، استقدم الأستاذ بيدار خادمة جديدة ، فرنسواز هوريو وما هي الا أيام ، حتى بدأت الآلام والتقيؤ تعصف بها ، هي التي لم يسبق لها أن عانت من مرض في حياتها . حضر أهلها وأعادوها الى بيتها . ولم يدروا أنهم بهذا العمل العفوي والحكيم ، انقذوها في اللحظة الأخيرة من مصير قاتم محتوم .

بعد هذا الحادث ، أعاد التاريخ نفسه . خادمة ثالثة تدعى هذه المرة روزالي سارازين في البدء ، كانت العلاقة حميمة بين الوافدة والطاهية هيلين . الى أن كان يوم غضب الله فيه على روزالي وذلك عندما كلفها سيدها دون الأخرى ، بمسك حسابات البيت . ولم يمض طويل وقت حتى بدأت المشاكل تعصف بين الاثنتين . ولما أصبح الوضع داخل البيت لا يطاق ، أبلغ الأستاذ بيدار الطاهية هيلين تصميمه على اعفائها من خدمته .

حصل ذلك يوم ١٠ حزيران- يونيو سنة ١٨٥١ ، اثناء النهار وفي المساء ، قدمت هيلين لمخدومها طبقاً من اللحم بالباسلاء . ولما لم يكن السيد بيدار يشعر بالجوع ، فقد تولت الخادمة روزالي أكل الطبق . وما هي الا دقائق حتى بدأت تتلوى من الألم والتقيؤ ، لدرجة أن حالتها استدعت احضار الطبيب . أما هيلين ، وتلك هي الغرابة بعينها ، فقد لازمت «صديقتها» وقامت على خدمتها بكل تفان واندفاع وقد راحت خلال هذه الفترة تردد أكثر من مرة : «هنا ماتت روز ، وهنا مرضت فرنسواز . وروزالي ستموت هنا . . »

ظلت المسكينة تعاني من آلام لم يعرف أحد سبباً لها ، الى أن قضت في الأولّ من تموز- يوليو .

وبقضائها تفتحت عيون كانت حتى الساعة غافلة عما جرى . فالأستاذ بيدار والطبيبان اللذان سبق واستدعيا للمعالجة بدأوا يتساءلون حتى أن الأستاذ ذهب في شكه الى الاحتفاظ بقليل من تقيؤ الضحية وببقايا الطبق الذي قدم لها بعد عزوفه هو عن أكله .

وأبلغ الطبيبان اياهما الشرطة ، التي سارعت الى ارسال المحققين لبيت السيد بيدار . وما أن فتحت هيلين الباب لهؤلاء ورأتهم بمواجهتها ، حتى ارتبكت وقالت لهم : «أنا بريئة» ، وقد وقعت بذلك على مستند اتهامها لنفسها قبل اتهام الآخرين لها .

ألقي القبض على هيلين وأثناء التحقيق واستعراض حياتها في مراحلها السابقة ، بدأت حبات السبحة الرهيبة تكر : الواحدة تلو الأخرى . حبات تشكل في الواقع مجموعات من المجازر التي يعجز عن اقترافها أطول المجرمين باعاً .

ففي سنة ١٨٣٨ ، أي منذ اثنتي عشرة سنة ، كانت هيلين تعمل خادمة عند الأب

دروغو، في شهر حزيران ـ يونيو من تلك السنة ، وقع الأشخاص السبعة الذين تقوم بخدمتهم في البيت فريسة مرض واحد ، ذي أعراض متشابهة وهؤلاء هم : الخوري ، ابوه ، امه ، ابنة شقيقته ، خادمتان وأخت هيلين نفسها . وتتولى «المسكينة» رعايتهم والعناية بهم بتفان مثار اعجاب القرية كلها ، وصارت هيلين معه موضع تقدير الجميع . وقضى السبعة ، الواحد تلو الآخر ، بين الثامن والعشرين من الشهر المذكور والسابع من الشهر الذي تلاه ، متأثرين بمرضهم المجهول وبعد معاناة وآلام تفطرت لها قلوب الناس في انحاء المنطقة .

بعد المجزرة تلك ، انتقلت هيلين الى قرية لوكمينيه، حيث لم يلبث أن مات سبعة آخرون في بيوت ثلاثة تولت اللعينة الخدمة فيها تباعاً . وذاع صيتها على أنها مسكونة من الشيطان وأن الاقتراب منها شؤم يجلب الويل لصاحبه . لكن أحداً لم يخطر بباله أن تكون مسممة لجميع تلك الضحايا والضحايا التي سبقتها .

وتترك هيلين القرية لترحل بعيداً هذه المرة . تترك الى بونتيفي وعلى كتفيها عبء سبع عشرة جريمة تسميم . وفي بونتيفي ، القرية النائية الهادئة ، دخلت في خدمة المختار ، الذي سرعان ما فجع بابنه ذي الأربع عشرة سنة ، بعد أن أكل شطيرة حضرتها له هيلين بنفسها . ولم تغادر اللعينة بونتيفي الا بعد أن خلفت فيها سبعة من ضحاياها . واستمرت في فعلتها وهي في الطريق الى رين، وفي رين ، كانت أولى ضحاياها خادمة الفندق التي ذكرنا . أما بقية المسلسل الرهيب ، فقد سبق ذكرها ، وآخرها روزالي ، خادمة السيد بيدار .

عكف الاختصاصيون ، بناء لأوامر الشرطة ، على تشريح وفحص جثة كل من روزالي وروز تيسيه وخادمة الفندق ، فوجدوا فيها كميات ضخمة من الأرسنيك كما وجدوا مادة الأرسنيك في تقيؤ روزالي وبقية الطبق الذي كانت هيأته هيلين لسيدها وأكلته روزالي لسوء طالعها .

لدى سؤالها من قبل الشرطة ، انكرت هيلين أية علاقة لها بلائحة المغدورين الطويلة . لكن الشك يحوم حولها ملامساً اليقين . شكاً ألصق بها لقب «أكبر مسممة عرفها تاريخ العدالة الفرنسية » .

الا أن سؤالين بقيا دون جواب وستتولى المحكمة جلاء غوامضهما : من أين استطاعت هيلين اقتناء هذه الكميات من الأرسنيك؟ وما هو الدافع لاقترافها هذا العدد الضخم من عمليات التسميم؟

انعقدت الجلسة الأولى ، كما أسلفنا ، في ٦ كانون الأول ـ ديسمبر من عام ١٨٥١ .

وقد خصصت لقراءة قرار الاتهام الطويل والمشبع بالأحداث، وما أن مر ذلك اليوم حتى بدأت الأحداث السياسية تتسارع في فرنسا، وتلقي بظلها على سير المحاكمة. فمن بين الشهود الكيميائي راسباي والدكتور بودين. أما راسباي، فقد القي القبض عليه اثر الانقلاب الذي أتى بلويس- نابوليون الى الحكم. في حين قتل الشاهد الآخر في أحد الخنادق. وقد انتهزها محامي الدفاع دورانج فرصة لتأجيل المحاكمة. لكن المحكمة رفضت وقررت المتابعة.

وعملاً بالقانون آنذاك، فان هيلين لن تحاكم الا بجرائمها السبعة الأخيرة فقط.
وهذا على كل حال لن يغير سير المحاكمة في شيء، ان لجهة المناقشات أو لجهة العقوبة

ويبدأ رئيس المحكمة استجواب المتهمة:

- كم كان عمرك عندما بدأت العمل في البيوت؟

- كنت في السابعة عملت مع خالات لي كن يعملن في بيت العميد بوربي.

صحيح ما تقوله هذه المرأة فحياتها بدأت كخادمة وامتدت لتخلق منها انسانة معقدة حاقدة. لكن أحداً لم يعر انتباهه لهذه الناحية. ويكمل الرئيس:

- وعن موت عائلة الاب دروغو ومن بينهم اختك مادا لديك من اقوال؟

- القضية.. هي ان ستائر البيت اشتعلت بالقنديل الذي نسي الاب اطفاءه قبل النوم، فاختنق الجميع.

- سبعة اشخاص اختنقوا وماتوا بعد الام وتقيؤات هل يعقل هذا؟

- ليس صحيحاً تماما انهم ماتوا كلهم بعد تقيؤفظيع لكن فاختي لم تتقيأ الا قليلاً قليلاً جدا.

- هل من وباء كان منتشرا في تلك الاثناء في البلد؟

- هل استطيع ان اعرف انا؟

- على كل حال انت التي قمت بالاعتناء بهم جميعا في مرضهم..

- اجل واحسرتاه هذا ما سبب لي لوعة كبيرة لازلت اعاني منها حتى الآن.

- وعندما غادرت بيت الاب الذي افرغته من سكانه ذهبت لتحلي محل اختك في بيت الكاهن بوربي.

- صحيح يا سيدي العطوف..

- وفي هذا البيت مات ثلاثة..

- صحيح يا سيدي. وقمت انا بخدمتهم طوال مدة مرضهم رباه كم امضيت من الليالي وانا لا افعل شيئا سوى الاعتناء بهم حتى ان الخالة ماري جان لم تكن ترضى شرب الحليب الا

بيدي انا!

ويستكمل الاستجواب حول قوافل الشهداء.. وها هو الرئيس ينتقل الى نقطة محددة:

- في قرية لوكمينيه قضيت ليلة عند بائعة تدعى ماري بيليك وهناك شوهدت في صندوقك صرة تحوي مسحوقا ابيض كثيفا يشبه المحاة.

هنا وللمرة الاولى تنفعل هيلين بعض الشيء:

- مستحيل! الا اذا قام احدهم بدس هذه الصرة في صندوقي.

ويكمل الرئيس غير عابىء بالانكار:

- لم تستعملي في جرائمك كلها الا الأرسنيك لا شيء غير الأرسنيك.

- لم اسمم احدا ولا اعرف ما هو الارسنيك الهي يا يسوع المحب لا اطلب منك الا ان تحفظ لي صحتي حتى اخرج من السجن.كم احن على من قمت بخدمتهم وهم طيبون احبهم جميعا.

ويتجاوز الرئيس هذه المناجاة ليدخل في صلب الجرائم التي تحاكم هيلين فعلياً عنها:

عند دخولك في خدمة السيد رابو، انزعجت من النفور الذي اظهره لك ابنه الفتى. بعدها صار يشكو من آلام ويتقيأ إثر كل وجبة مساء كنت تقدمينها له، أليس كذلك؟

تنهدت هيلين وأجابت:

شكراً لك يا الهي لأنك منعتني من الأضرار بالناس. وهذا الفتى، كم كنت اشعر انه لطيف ومحبب!

- وبعد موته، قضت أمه وامرأة أخرى في البيت، أليس كذلك؟

-آه! هاتان السيدتان، كم حزنتا لموت الصبي المسكين. وقد ماتتا حزناً عليه.

وينتقل الرئيس الى الآخرين وصولاً الى الخادمتين روز تيسيه وروزالي سارازين، وفرانسواز التي انقذها أهلها في اللحظة الأخيرة عندما أعادوها الى بيتها. وكلما توغل في السؤال، تتعنت هي بالانكار. وتذهب بعيداً في التضليل مظهرة نفسها امرأة طيبة تقية ومتدينة. ألم تقدم الصليب الى المسكينة روز لتقبله وهي تحتضر؟ ثم، ألم تقم بخدمة ضحاياها بكل تفان، حتى ان عنايتها بهم أصبحت حديث الناس ومحط اعجابهم؟

يبقى السؤالان عن مصدر السموم التي حصلت عليها ودوافع اقترافها هذه الجرائم يدوران في أذهان قضاة المحكمة دون جواب.

عن السؤال الأول، بدأت معالم الجواب تتكشف . ففي الجلسة الثانية ، جلسة السابع من كانون الأول- ديسمبر ، جاء الأب جوليان غيمار ليقول في المحكمة :
-أذكر ان العميد كونان جلب كمية من الأرسنيك ليقضي على الجرذان في بيته . وقد ترك هذه الكمية في متناول خدمه ، وبينهم آنذاك هيلين ، بعد أن نبههم الى التحوط تجاهها .

ويأتي شاهد آخر ، هو الدكتور تورسان ، ليقول انه هو الذي اكتشف المسحوق الأبيض في صندوق المتهمة . وكانت كميته تفوق عشرة غرامات ولدى سؤالها عن هذا ، اجابت هيلين :
-باعوني اياها في لوكمينيه كدواء لارتفاع الحرارة .
ويلتفت الرئيس صوب الدكتور تورسان ليسأله :
-ما هو المسحوق الأبيض الذي يستعمل كدواء لارتفاع الحرارة؟
-انه سولفات الكينا ، سيدي . لكني أستطيع التأكيد أن المسحوق الذي كان في حوزة المتهمة لم يكن سوى الأرسنيك .

تفصيل آخر على قدر كبير من الأهمية ، أورده الدكتور تورسان في شهادته :
-عندما استدعيت لمعالجة مخدومي هيلين وكانا يحتضران ، ادعت المتهمة أنها ، هي أيضاً ، تشكو من الأعراض نفسها . وعندما توجهت الى غرفتها لأقوم بفحصها ، رأيتها بحالة جيدة جيدة ومنكبة على وعاء تذيب فيه مادة بيضاء . اقتربت منها فتظاهرت أنها متألمة جداً وقذفت بمحتوى الوعاء . وعبثاً حاولت ايجاد اثار السائل .

وهنا سألها الرئيس عما لديها من توضيح حول هذه الواقعة ، فما كان منها الا ان تسلحت بالصمت .

وتتعاقب الجلسات وفيها توالت قافلة الشهود ، وجلهم من ذوي الضحايا وأصدقائهم . الى أن جاء دور الأستاذ بيدار ، الذي شهد آخر جريمتين للمتهمة ، والذي كان على وشك ان يحشر في عداد ضحاياها . قال هذا الشاهد في وصف احتضار خادمته روزالي سارازين :
- دخلت هيلين وفي يدها كوب من املاح السلز المسهلة . وما أن رأتها روزالي حتى صرخت وسط آلامها : «لا أعرف ماذا تقدم لي في هذه الأكواب؟ أحس وكأن لهيباً يخترق أحشائي عندما أشرب منها» . هذا الكلام جعل هيلين تقذف روزالي بنظرات حادة وكأنها نظرات وحش مفترس .

ويكمل الأستاذ بيدار واصفاً لحظات روزالي الأخيرة بآلامها وحشرجاتها التي لم ير مثيلاً لها على أحد . ثم يقول :

ـ ماتت المسكينة يوم الأول من تموز ـ يوليو الساعة السابعة صباحاً ، ولم تكن هيلين في البيت . وعند عودتها ، اخبرتها ، فكان اول ما فعلته هو توجهها الى الوعاء الذي يحوي تقيؤ ضحيتها تريد اخفاءه . كما توجهت الى الطبق الذي أكلت منه للغرض نفسه . لكني اخفيتها وقمت فوراً باشعار الشرطة . ولو لم أفعل ، لكنت سأصبح في عداد ضحايا هذه اللعينة . ذلك أنها كانت تنوي قتلي بعد أسبوع ، كما علمتم من خلال التحقيق .

وينتهي الأستاذ بيدار من سرده وسط نظرات الاستنكار والاستهجان يطلقها الحضور باتجاه من تقبع في القفص . بعدها ، يبدأ الرئيس بتلخيص الوقائع . وعندما ينتهي ، يتوجه الى المتهمة سائلاً اياها عما اذا كان لديها ما تقوله . هنا ، تغطي جزءاً كبيراً من وجهها بقبعتها وتقول :

ـ تحدثتم كثيراً عن الأرسنيك . أنا أسأل : هل رآني أحد أستعمل هذه المادة او أقدمها لأحد ؟

صحيح . ليس هناك من رأى هيلين تذيب هذا السم في وعاء . ولو تم ذلك وضع حداً لهذا العدد الهائل من الضحايا . . .

وصلنا الآن الى اليوم الخامس من المحاكمة . في ذلك اليوم ، احتشد عدد كبير من الناس في قاعة المحكمة وخارجها وهم يهتفون ضد المتهمة . كانوا يرددون انها أكبر مسممة للناس في كل مامضى من عصور وأزمنة . حتى أن حماسهم هذا أنساهم ما هم فيه من أوضاع سياسية واجتماعية بعد اسبوع على انقلاب الثاني من شهر كانون الأول ديسمبر الشهير .

بدأت الجلسة بالاستماع الى الخادمة فرانسواز هوريو ، التي أعادها أهلها أثر أعراض ظهرت عليها وآلام نزلت بها بعد تجرعها حساء قدمته لها هيلين كما سبق ذكره . قالت فرانسواز ، وقد بدأ عليها الأعياء وثقلت خطواتها ، هي التي كانت مشهورة بقوة بنيتها وصلابة عودها :

ـ عندما كنت اذوق أطعمة المساء التي تقدمها لي هيلين ، كنت احس بطعم الملوحة الحارقة واتقيأ . كما كنت افقد القوة على الاتيان بأية حركة أو الصعود درجة واحدة من السلّم . وذات مساء ازداد عليّ المرض أثر أكلي طبقاً من اللوبياء بالبصل . وعندما لم أكن آكل الطبق كله ، كانت تصب البقايا في القمامة ، وترميني بنظرات شرسة وتقول لي : « هل تعتقدين بأني أسممك ؟ » . أما أيام الآحاد التي كنت اقضيها عند أهلي ، فقد كنت آكل دون

أن يحدث ما آكله أي ألم في معدتي . . .

هنا ، يلتفت الرئيس الى المتهمة ويسألها :

ـلماذا كنت تصبين بقايا صحون فرانسواز في القمامة؟

. فتجيب :

ـهذا غير صحيح . أنا ما تعودت أن أفعل ذلك . كنت أعطي البقايا من الأكل الى امرأة فقيرة تأتيني كل أسبوع لهذه الغاية .

وتنتهي الجلسة لتعقد في اليوم التالي . هذه الجلسة خصصت لسماع شهود الخبرة . وأول الخبراء كان البروفسور مالاغوتي ، استاذ الكيمياء في كلية العلوم بجامعة رين . تقدم هذا الشاهد ليؤكد أن تشريح الجثث اظهر وجود كميات كبيرة من الأرسنيك فيها . ثم يأتي الدكتور تورسان ثانية . ويعرض الرئيس أمامه ثلاث لفافات تحوي الأولى مسحوق سولفات الكينا ، والثانية مسحوقاً ابيض لصناعة المماحي . أما الثالثة . فتحوي مسحوق الأرسنيك . ثم يطلب ان يدله على لفافة الأرسنيك فيفعل دون تردد .

ثم يستدعي خبراء الطب النفسي . ومنهم الدكتور بيتوا وغابين ، اللذان أكدا ان الحالة العقلية لهيلين ليست طبيعية . وقد ظهر من خلال ما ذكره هذان الشاهدان ، ما كان يتخبط به الطب النفسي من تناقضات في ذلك العصر . ومما قاله احدهما ، الدكتور بيتوا ، ان جبين المتهمة الضيق من أسفل والعريض من أعلى يؤكد أنها مريضة بعقلها . ناهيك عن أن مناطق دماغها الخاصة بالخداع والسرقة نامية نمواً غير اعتيادي! . . .

ويتقدم محامي الدفاع ، وسط دهشة الحضور واعجابهم الغامض بمعلومات الدكتور بيتوا ، ليسأل :

ـلقد اشرفت على معالجة موكلتي . الا تعتقد أن العقل المريض وآلام المعدة أموراً متلازمة في مثل الحالة التي تشكو منها؟ أنت تعرف ان هيلين كانت تعاني من آلام في معدتها وقد تقيأت مرة دماً . . .

ـ لا أرى علاقة بين مرض هيلين العقلي وآلام معدتها .

ويضيف بثقة متناهية :

ـأما عن التقيؤ ، فهذا لم يكن دماً ، . . بل مسحوق الكرمس الأحمر ، تجرعته المحتالة لتضليلي .

ثم يأتي طبيب آخر للأدلاء بشهادته . هذا الطبيب هو الدكتور غابين ، الذي أدخل المحكمة في متاهات نظريات ميتافيزيقية عندما قال :

ـان في الانسان خمس مجموعات من الطاقات أو الامكانات : العدل ، الشعور

الديني ، التفلسف ، الاجتماع ، ثم الشعور بالمثالية . وقد تتعطل واحدة أو أكثر من هذه الامكانيات عند بعض الأشخاص .

ثم يروي القصة التالية :

-ذات يوم أتاني صديق ، وهو قاض ، يحمل جمجمة . امسكت بهذه الجمجمة وتفحصتها ، فاذا بي اكتشف ان صاحبها كان قاتلاً خطيراً . وبالفعل ، فقداعترف صديقي ان صاحب الجمجمة ليس سوى ريفيون ،سفّاح مدينة انجيه الشهير.

ويسأل الرئيس الشاهد ، وكأنه يريد أن ينتهي من هذه الشروحات الادعائية والدعائية :

-وعن هيلين جيفارو، ماذا تقول؟

-هيلين ذكية . لكنها تفتقر الى الحس الخلقي . هذه المرأة هي من النوع الذي يقتل كمن يكسر خشبة . أنه لا يشعر بالذنب ولا ينتابه احساس بالندم . . .

صحيح أن الحضور في القاعة لم يكن ملّما بما يفصله الشاهد من تصنيف لأنواع البشر ، لكنهم جميعاً كانوا يحسون أن هيلين هي من هذا النوع الذي ذكره الطبيب . فهي تقتل ببرودة لم يسبق لمجرم أن مارس اجرامه بمثلها .

بعد ذلك ، وفي جلسة الثالث عشر من شهر كانون الأول- ديسمبر ١٨٥١ ، وقف المدعي العام يلقي مرافعته ، وكانت أشبه شيء بالحمم تنصب على رأس المتهمة . ومما قاله ملتفتاً اليها :

-أنا لا أحتاج الى اعتراف منك لأطلب لك الأعدام . لكني اتوجه الى بقية ، قد تكون ، من انسانية فيك ،لعلّ فيها مدخلاً للقاء ربك ، الديان العظيم . اعترفي لتحققي جزءاً من ذاتك .

وما قاله المدعي العام كان له أثر في نفوس الحاضرين . لقد شعروا ، كما لم يسبق لهم أن شعروا ، انهم أمام مجرمة تاريخية في خطرها وفي اصرارها على الانكار . وعندما جاء محامي الدفاع ليرافع ، لم يكن من السهل عليه انتزاع هذا الانطباع الراسخ .

وقف هذا المحامي ، لا لينكر ، كما تفعل موكلته ، بل ليعترف . ومما قاله :

-لن أدخل في مناقشات عقيمة ومتعنتة حول الجرائم المقترفة والسموم التي تسببت بها . بل أقر أن السم كان يحل اينما حلت هذه المرأة . أجل ، لقد قامت بتسميم ابرياء كثيرين . لكن السؤال الكبير ، السؤال الضخم الذي يجب أن لا يغيب عن أذهاننا ، والذي يقتضي ايجاد جواب واضح وصريح عنه ، هو التالي : ما هو الدافع نحو هذه الجرائم ، وهل أن هيلين كانت طليقة الارادة عندما اقترفت جرائمها ؟ »

ويتابع بالحماس نفسه :

ـأليس من الممكن والمعقول أن يكون في عقل هذه المرأة مس افقدها القدرة على التمييز وضبط النفس؟ ثم ، الا يحسن أن نساعدها على الرجوع الى الله تائبة بدلاً من أن ندفعها للذهاب إليه مذنبة؟ من هنا ، استحلفكم باسم العدالة ، باسم الرحمة وباسم الله ذاته ، جل وعلا ، أن تنظروا الى قضية هذه المسكينة في اطار الأسباب التخفيفية المحققة ، وذلك حرصاً على ضمائركم وضناً بخطأ لن يكون من الممكن معالجته .

أنهى المحامي مرافعته . وكانت أصول المحاكمة آنذاك أن من حق المدعي العام الرد . وها هو يفعل بصلابة اكبر وعنف أعظم . لم يترك شاردة ولا واردة الا وفندها في رده على طوباويات الدفاع . وانتهى بتأكيد طلب الاعدام .

بعد ذلك ، يقف المحامي ليكون آخر المتكلمين ، وليردد ما سبق ودافع به عن موكلته ، مركزاً على الرحمة والأخذ بالأسباب النفسية والعقلية التخفيفية .

أما هيلين ، فقد كانت ، طوال هذه الساعات من المرافعات والمرافعات المضادة تجلس ووجهها شبه مغطى بقبعتها السوداء ، وكأن شيئاً لا يحدث حولها .

ويدخل المحلفون غرفة المذاكرة ظهر الأحد الواقع في ١٤ كانون الأول ـ ديسمبر ، آخر يوم من أيام المحاكمة ، ليخرجوا بعد ثلاث ساعات معلنين هيلين مذنبة ومن غير أسباب تخفيفية .

وللمرة الأولى ، تتكلم هيلين بصوت مرتفع صارخة في وجه الحكم الذي استمعت اليه :

ـ امنيتي أن أموت بريئة . فهذا خير من أن أموت مجرمة . لقد حكمت ضحية شهادات كاذبة ووشايات خبيثة . والله وحده هو العادل ، وهو الذي سيحاكمنا جميعاً في الحياة الآخرة . . . .

لكن صوتها سرعان ما اختفى وسط موجات السخط وصرخات الاشمئزاز ، قذفها الحاضرون مدوية في وجهها .

وبعد أن هدأت العاصفة ، التفت الرئيس الى من كانت لا تزال جالسة في القفص ليقول لها :

ـهيلين جيفادو ، فكري الآن بالله فقط ، وهيئي نفسك لملاقاته بتوبة نصوح ، عسى أن يغفر لك بعض ما سببته من مآس للآخرين ، وأن يحيطك بواسع رحمته . . . .

وفي ٢٥ شباط من سنة ١٨٥٢ ، تم تنفيذ الحكم بالمقصلة . في ذلك اليوم ، توجهت

هيلين الى منصة نهايتها بشجاعة ، بعد أن اعترفت خطياً أمام الكاهن بأنها قامت باقتراف الجرائم التي وردت في قرار الاتهام . ولم تكتف بذلك ، بل اضافت جرائم ثلاث لم يثرها أحد وسمت شركاء لها فيها .

وكأنها أرادت بذلك أن لا تغادر هذا العالم قبل أن تصب ثلاث جرعات اخيرة من السم ، وتقدمها لمن ذكرت اسماءهم كشركاء في بعض جرائمها . وبهذا كانت مجرمة خطيرة في حياتها وقاتلة مجانية في مماتها .

دواء التاليدوميد

في الخامس من شهر تشرين الثاني عام ١٩٦٢، بدأت في مدينة لياج البلجيكية المحاكمة الشهيرة حول دواء التاليدوميد فما هو هذا الدواء؟

ولماذا المحاكمة بسببه؟

التاليدوميد دواء اكتشفه اطباء سويسريون منذ ما يقرب من ثلاث سنوات لمعالجة التوتر العصبي كذلك وبصورة خاصة لمعالجة حالات الغثيان التي تصاب بها النساء الحوامل خلال الاشهر الثلاثة الاولى للحمل وقد سمح بان يوضع في التداول ويباع في الصيدليات ابتداء من عام ١٩٥٩ في كل من بلجيكا والمانيا وانكلترا لكن الباحثين اكتشفوا بعد هذه السنوات الثلاث وبعد ان كانت الالاف من النساء قد استعملنه انه يسبب كوارث وراثية رهيبة فالاطفال الذين يولدون من امهات تعاطينه اثناء حملهن انما يولولدون مشوهين تشويها تقشعر له الابدان: اجسام بلا اطراف، وجوه مخيفة ناهيك عن العطب العقلي والخلل العصبي بكل ما فيهمامن اشكال ومآس.

لكن المحكمة التي ستبدأ اليوم ليست مخصصة للنظر في تهم موجهة الى صانعي هذا الدواء او مروجيه بل هي للنظر في قضية عائلة فاندبوت المتهمة بقتل وليدتها كورين بنت الستة ايام والتي ولدت مشوهة تشويها فظيعا لا يستطيع احد تحمل مرآه.

وتبدأ المحاكمة بحضور حشد كبير من الناس جاؤوا ليروا في القفص خمسة متهمين هم: سوزان وجان نوبل فاندبوت والدا الضحية وفرناند يرنا جدتها لأمها ومونيك دي لامارك خالتها واخيرا الدكتور كاستير الذي وصف للطفلة الدواء القاتل ومقابل هؤلاء المتهمين الخمسة ستة محامين حضروا جميعا الى المحكمة للدفاع في اغرب قضية من نوعها شغلت اروقة قصر العدل في لياج.

ليس في المتهمين ما يثير فهم اناس عاديون: الام شابة شقراء طويلة القامة في

الخامسة والعشرين من عمرها والاب تبدو على وجه ملامح طفل كبير على الرغم من شاربيه الرقيقين اللذين يكحلان هذا الوجه والجدة تبلغ الثمانين وهي امرأة مهيبة بشعرها الابيض وتجاعيدها المعبرة اما الخالة مونيك فهي الاكثر اناقة وجها وهنداما وتنتهي بالطبيب لنجد فيه شابا رياضي المظهر بسيط الملامح واللباس.

ويبدأ رئيس المحكمة بسرد وقائع القضية . في ١٩ أيار ـ مايو سنة ١٩٦٢ ، توجهت السيدة سوزان فاند بوت الى المستشفى النسائي بعد ان شعرت باعراض المخاض . هناك ، ظلت تعاني من الآلام الى أن تمت الولادة في ٢٣ من الشهر . لكن ليتها لم تتم . فالمولودة وهي بنت ، دون ذراعين ودون اصابع كاملة العدد . كما أن فتحة الشرج عندها موصدة . امام هذه الفظاعة ، كان لا بد للدكتور وهو الذي اشرف على الولادة ، من أن يعلم احد أفراد العائلة ، ولما كانت ام سوزان وحدها هناك ، فقد قام بابلاغها ويعرض المولودة عليها .

أمام هول المنظر ، لم تتمكن الجدة من تمالك نفسها ، فعرضت على الطبيب أن يخلص العائلة من هذا المخلوق العجيب ، بل من هذه المصيبة ، فرفض .

عندها ، قامت الجدة بابلاغ الخبر الى ابنتها الثانية مونيك دي لامارك ، التي سرعان ما توجهت الى طبيبها الخاص ، الدكتور كاستير تبلغه ما نتج عن ولادة اختها . عرضت عليه فكرة تخليص العائلة من المولود فقبل عن طريق وصف منوم يعطى له بكمية غير عادية تؤدي الى وضع حد لحياته .

بعد يومين من الولادة ، أي في ٢٥ من الشهر ، كان على الدكتور و. أن يهيىء الأم لتلقي الصدمة وهكذا ، دخل الى غرفتها في المستشفى وبدأ يحدثها عن المولودة التي انجبتها وكيف أن في جسمها « تشويها بسيطا» يمكن تجاوزه والتعود عليه . وفي اليوم التالي ، عرضت البنت على أمها ، فكانت الصدمة كالصاعقة .

كان مع الأم في غرفتها في المستشفى كل من الأب والأخت وزوج الأخت والجدة . وقد توافقت اراؤهم جميعاً على ضرورة التخلص من المخلوق العجيب . والأكثر حماسة لهذه المهمة كانت الأم نفسها . والطريقة التي صممت على التخلص بواسطتها من ابنتها هي وضع الدواء المنوم الذي وصفه الدكتور كاستير.

وفي ٢٩ أيار ـ مايو ، بعد ستة ايام من الوضع ، عادت سوزان الى بيتها مع المولودة . وبعد نقاش بينها وبين زوجها ، الذي استهول في البدء ، عبء التنفيذ وضعت في قنينة الحليب كمية من المنوم وأعطت الخليط الى الطفلة . وبذلك كانت آخر رضاعة .

ماتت كورين ودفنت بتكتم ودون مراسم تذكر . لكن موتها المفاجىء اثار فضول

طبيب العائلة ، الدكتور هربين ، الذي سرعان ما ارتاب في الأمر وظن فيه تسمياً مقصوداً . وعندما تسرب الخبر الى النيابة العامة ، بدا أنها كانت تميل الى طمسه . لكن وصوله الى الصحافة ، واثارته من قبلها جعلا من الصعب تجاهله . فتحركت النيابة العامة . في هذا الوقت ، كانت الضجة تتزايد حول دواء التاليدوميد في اوروبا والعالم أجمع . وكانت لائحة ضحاياه الرهيبة تكبر وتكبر . وعندما انكشفت قضية عائلة فاندبوت ، تمحور الرأي العام حولها واندفع محتجاً ومطالباً بالبدء بمحاكمة المسبب قبل الضحية . وهكذا انطلقت الصحافة في هذا الأطار ، باعتبار أنه لا يجوز الاقتصاص من الضحية وترك المجرم يسرح ويمرح بحرية لا يستحقها.

لم يستطع التحقيق أن يأتي بما يشين عائلة فاندبوت أو يسيء الى الدكتور كاستير. فالعائلة ذات سمعة جيدة وسلوك حسن . أما الطبيب ، فالكل أجمع على ضميره المهني الحي وتفانيه في خدمة مرضاه . فهل يتوافق كل هذا مع اتهامهم جميعاً بجريمة قتل؟ . . .

بدأت المحاكمة . وها هو الرئيس يقوم بسحب اسماء اثني عشر محلفاً من بين لائحة المحلفين . ولما كان للمدعي العام حق الاعتراض ، فقد جاء اعتراضه على المرأة الوحيدة التي صدف وجودها في لائحة الاثني عشر . وعلى هذا ، فقد استبدلت هذه المرأة ليصبح المحلفون جميعاً من الذكور .

منذ بداية المحاكمة ، تبين للحضور أن الرئيس يقوم بواجبه وفي تحركاته تعاطف ظاهر مع المتهمين . وها هو يسأل الأم :

ـ سيدتي ، لقد اتضح انك كنت مصممة على التخلص من مولودتك ، حتى قبل توجهك معها الى البيت .

أجابت سوزان وفي صوتها غصة :

ـ كان مرآها رهيباً . . لم يكن بامكانها أن تستمر في الحياة على ما هي عليه . وقد جاءتني الراهبة ممن يتولين ادارة المستشفى واقترحت عليّ ايداعها احدى المؤسسات الانسانية . لكني فضلت الا أكون انانية وألا أدعها تعيش .

ـ لقد أكد الأطباء أن هذا المخلوق كان بامكانه أن يحيا . كما أكدوا ان دماغه يتمتع بوضع طبيعي .

ـ تلك هي المصيبة بعينها ، سيدي . وهذا هو الدافع الأكبر لانهاء مأساتها . هل كانت ستغفر لي أن هي بقيت على قيد الحياة وكبرت لترى نفسها ، بتفكيرها الذي قيل أنه طبيعي ، على الحال العجيب كالذي كانت عليه؟

بهذا القدر من الاستجواب الملطف اكتفى الرئيس . وها هو ينتقل للزوج ، جان ـ

نويل ، الذي بادر للقول :

عندما رفض الدكتور و. ، وهو المولد ، أن يقوم بعمل يضع حداً لحياة المولود العجيب ، قال لي : «نحن لا نقدم عادة على عمل يميت هذا النوع من المواليد ، لكننا ، في الوقت نفسه ، لا ننشط في مساعدتهم على الحياة . . . .

ويقاطعه الرئيس مكتفياً ، ويلتفت نحو الدكتور كاستير سائلاً اياه :

ـ بماذا فكرت عندما جاء الزوجان فاندبوت وطلبا منك كتابة الوصفة التي وضعت حدا لحياة مولودتها؟

كان ذلك في ٢٣ من الشهر ولم ارهما بعدها الا في ٢٩ منه واعترف بان صورة هذه البنت التعيسة لم تفارقني لحظة في الليل كما في النهار.

ـ سبق وقلت انك ارتكبت خطأ فهلا تزال ترى ذلك؟

ـ قد اكون قلت ذلك لكني اقر انني لم اكن لأتأخر عن فعل الشيء نفسه لو ان المولودة كانت مولودتي .

في اليوم الثاني للمحاكمة وقف محامي الدكتور كاستير في بدء الجلسة ليقول:

ـ اسف ان اعلن لكم ايها السادة خبرا مفجعا لقد وضعت اخت زوجة موكلي يوم امس مولودا هو الآخر مشوه بفعل التاليدوميد الذي تجرعته الام خلال الاسبوع السادس لحملها ان هذا الخبر يمكن ، مع عدم صلته المباشرة بالقضية التي نشهد أمامكم محاكمتها ونشارك فيها ان يشكل عنصرا مفيدا عند النظر في قضيتنا سيما اذا علمنا ان التشويه فظيع . فالأطراف مطوية على نفسها وقصيرة قصرا غير طبيعي واليدان هما ايضا مطويتان على بعضهما. .

هنا سرت قشعريرة من الرهبة في اجساد الحاضرين تماما كما لو كان كل منهم قد اصيب بفاجعة مماثلة .

لكن المحكمة تجاوزت هذا الجو الذي ساد وتابعت المحاكمة وكان من المقرر الاستماع الى شهود من المستشفى الذي حصلت فيه الولادة ويذكر ان همسا سرى عن بعض الارتخاء في عملية تحضير الام وتهيئتها نفسيا لتلقي الخبر قبل رؤية مولودتها ذلك ان كل ما جرى في هذه الناحية هو ان الراهبة فيلومان تولت المهمة وعندما رأت ما انتاب الام من ذعر وبعدما لمست نيتها في التخلص من وليدها اكتفت بان احالت الموضوع على الله الذي «يعطي وحده الحياة ولا يجوز لسواه ان يأخذها او يضع حدا لها»

اول الشهود كان الدكتور و. الذي تولى الولادة وقد بادر محامي الدفاع الى توجيه الاسئلة اليه :

- هل صحيح انك في جلسة البارحة قد ارسلت بمحام لك ينقل اليك وقائع الجلسة بالتفصيل.

- صحيح.

هنا التفت المحامي الى المحلفين وخاطبهم قائلا:

- انها المرة الاولى ارى فيها شاهدا يفعل ما فعله الدكتور و.

وبدلا من ان يتولى الشاهد الرد دفاعا عن نفسه رأينا المدعي العام يقوم بهذه المهمة قائلا:

- لانها المرة الاولى نرى فيها شاهدا يتعرض للهجوم والتجريح كما حصل بالنسبة للدكتور.

والواقع أن الدكتور و. أنكر في شهادته ما ذكره الأب عن لسانه بأن «الأطفال في هذه الحالات يتركون يموتون من غير أن ينشط الطب في العمل على انقاذهم»، لكنه اعترف أنه قال للأم، وهو يعلن لها عن انسداد الشرج، أن هذا النوع من المواليد غير قابل للحياة. لذلك، فهو لا يلبث ان يموت بعد فترة قصيرة. وهذا الذي قاله يشكل عبئاً أدبياً عليه، وسبباً مساعداً لمن تولى التعجيل في النتيجة «المحتومة».

ويأتي شاهد آخر، هو الدكتور ج. الأختصاصي في طب الأطفال ومما قاله:

- كانت كورين مولودة طبيعية باستثناء اختفاء الذراعين وانسداد الشرج كانت تأكل بشكل طبيعي ولم يكن هناك ما يمنع من أن تعيش.

وعندما سأله الرئيس عن السبب الذي جعله يأمر بوضع المولودة الجديدة في الحاضنة الزجاجية، أجاب:

- عادة ما نفعل ذلك للأولاد الذين يولدون وفيهم بعض العاهات البسيطة. وما نفعله هو لمصلحتهم، ولحمايتهم مما قد يصيبهم اذا ما تعرضوا في أيامهم الأولى الى الجراثيم. وسرعة العطب الممكنة هذه هي التي دفعتني لأن ابلغ النيابة العامة دون ذكر اسمي.

اذاً، فان الشخص، الذي قام بابلاغ النيابة العامة عن نية الأم سوزان بوضع حد لحياة ابنتها كورين، هو الدكتور ج. وقد فعل ذلك فور مغادرة الأم للمستشفى.

وتستدعى الأخت فيلومان للادلاء بشهادتها. وقد قالت أنها استغربت أن تحزن الأم عند ابلاغها حقيقة ما وضعت. وأضافت: لماذا الحزن والأسى والأمر يعود للخالق، هو الذي يفعل ما يشاء. ولا أهمية لكل هذه الأمور طالما هي ارادة الله.

بعد الأخت فيلومان، يأتي الدكتور هوات، استاذ علم التناسل في جامعة لوفان الكاتوليكية. بدأ هذا الاستاذ شهادته باستعراض الضحايا العديدة التي سقطت نتيجة استعمال التاليدوميد. حتى أن النسبة بلغت واحداً بالمئة من مجموع الولادات. وهي نسبة مرتفعة جداً اذا ما قيست بما كانت عليه قبل وضع هذا الدواء في التداول. ومما زاد في رهبة ما ذكره الاستاذ هوات بعرضه في المحكمة افلاماً ثابتة عن حالات من التشوه سببها الدواء المذكور. هذه الأفلام فاقت بفظاعتها ما عرض عن معسكرات الاعتقال النازية في محاكمات نورمبرغ.

وبعد الانتهاء من كابوس ما عرض في قاعة المحكمة، سأل الرئيس الشاهد:

ـ وهل يستطيع الولد المتأثر بهذا الدواء أن يعيش؟

ـ فأجاب:

ـ عادة، لا يتجاوز من يرى النور من هؤلاء المواليد السنة أو السنتين. أما عن المولودة موضوع القضية المطروحة، فأنني لا أستطيع الجزم بشيء لأن تقارير التشريح غير واضحة بشكل كاف.

عندها، توجه الرئيس بالسؤال نفسه الى الدكتور وارن الطبيب الشرعي، الذي قام بتشريح جثة كورين، فأجاب:

ـ كانت المولودة كورين قابلة للحياة بشكل لا يعتريه أي شك.

وتدخل الرئيس قائلاً:

ـ اعتقد أننا أمام اختلاف في تفسير التعابير فعندما يقول الطبيب الشرعي أن انساناً ما قابل للحياة، هذ ا يعني أن من الممكن أن يحيا حتى اليوم التالي. بينما يعتبر طبيب علم التناسل أن عبارة «قابل للحياة» تعني أن هذا المخلوق سيحيا حتى بلوغ سن الشباب.

الأربعاء في ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر سنة ١٩٦٢، هو يوم الجلسة الثالثة وقد افتتحت هذه الجلسة بالاستماع الى شهادة الدكتور ديفري، وهو طبيب نفسي. لقد أكد هذا الطبيب أن الحالة العقلية والنفسية للمتهمين طبيعية، باستثناء الزوج، الذي رأى فيه انساناً ضعيف الارادة، متعباً، وواقعاً تحت تأثير زوجته. وهذا ما قد يخفف من مسؤوليته في ما اقترف.

بعد الدكتور ديفري، تتقدم السيدة ماري ـ لويز، زوجة الدكتور كاستير الجالس مع المتهمين الآخرين في قفص الاتهام. عرضت، في بداية الشهادة، الحالة المضطربة لزوجها

عندما جاءته الجدة تطلب منه وصفة تنهي حياة المولودة كورين. «وكان في صراع مستعر حتى أنه صعد عندي تاركاً الجدة في العيادة. وعندما عاد، كان قد قرر أن يساعد هذه العائلة المنكوبة، ففعل»

ثم تكر قافلة من الشهود، تشيد كلها، بالسمعة الجيدة والضمير المهني، اللذين يتمتع بهما الدكتور كاستير.

ثم يلي الدكتور هربن، الذي استدعاه الأب بعد اتمام العملية ليحصل منه على شهادة الوفاة. وقد قال:

ـ عندما فحصت الجثة، ظننت أن الوفاة حصلت نتيجة اختناق طبيعي لكن الأب، سرعان ما اعترف بما حصل. عندها، لم يكن بد من ذكر الحقيقة مع كل ما تثير من احراج. غير أن هذه الحقيقة ذكرتها بعبارة غامضة اخترتها بعد مداولة تمت بيني وبين الدكتور كاستير، وبعد أن استشرت زميلاً لي أكبر سناً مني وأوسع خبرة. هذه العبارة هي «موت عنيف».

وهنا، تدخل أحد محامي الدفاع وسأل الشاهد:

ـ ماذا كنت فعلت لو لم يعترف لك الأب بالحقيقة؟

ـ كنت سأعتبر أن الوفاة طبيعية، طالما أنني على علم بحالة المولودة. ثم، لماذا المبالغة في الحذق واقحام نفسي في متاهات ومضاعفات ابلاغ القضاء؟

ما أن قال الشاهد ذلك، حتى انفجرت عاصفة حادة من التصفيق ملأت أرجاء القاعة. ولما لم يتمكن الرئيس من اعادة النظام على الرغم من ضربات مطرقته المتلاحقة، فقد أمر باخلاء القاعة وقرر أن تستمر الجلسة سرية. هذا الاستمرار تم في جو من السكون القانط. وقد توالى فيه عدد من الأصدقاء والأقرباء، وكلهم أبدوا تعاطفهم مع المتهمين، بعد أن أحاطوهم بالثناء والمديح. حتى أن احدى السيدات من هؤلاء الشهود دخلت في تفاصيل الأسى والحزن اللذين سببتهما المولودة لأهلها عندما ذكرت كيف أن الزوار الذين كانوا على علم بالأمر، لم يكونوا ليتمكنوا من اخفاء دموعهم عند دخولهم غرفة الأم، على الرغم من الجهود الجبارة التي كانوا يبذلونها لأخفاء تأثرهم. أما الزوار الآخرون، ممن لم يكونوا على علم بحقيقة الطفلة، فان منهم من أحضر هدايا للأم هي عبارة عن ثياب لابنتها، ثياب تحوي أكماماً لطفلة دون ذراعين.

ويأتي يوم الخميس، الثامن من الشهر، ليكون يوماً مشهوداً في سلسلة أيام هذه المحاكمة. ذلك أن المدعي العام سيلقي فيه مرافعته، هذه المرافعة التي جاءت كأحسن ما

يمكن أن تكون اتزاناً وانسانية . ومما قاله المدعي العام :

ـ منذ البداية ، أعلم كم هي شاقة مهمتي . لقد سبق الناس القضاء في اصدار الحكم عندما تعاطفوا بحق مع المتهمين . لكن موقفي يختلف . فأنا مضطر بما أمثل أن أطبق القانون . واذا لم أفعل ، فسترون مئات بل آلافاً من الأمهات والآباء المفجوعين بأولاد مشوهين ينساقون وراء الأغراء ويضعون حداً لمآسيهم ومآسي من يحبون .

وأضاف :

ـ بالنسبة للأم ، فان القانون لا يمكن الا أن يعتبرها مذنبة أما الآخرون ، فاني أرى اعتبارهم مشاركين في الجريمة ، دونما صفة أخرى . أخيراً ، اعترف أن مشاعري تميل نحو الرحمة . وبهذه المشاعر ، اتوافق مع الكثيرين غيري ممن شغلتهم هذه القضية .

بعد المدعي العام ، وقف أحد محامي الدفاع ، الأستاذ دروال ، يرافع مركزاً على الصدمة التي احدثتها رؤية البنت للأم . كما أشار الى النقص المريع في تحضير هذه المفجوعة لتلقي الخبر . وانتهى بطلب البراءة بعد أن أشار الى أن القانون البلجيكي لا يسمح بالحكم مع وقف التنفيذ وهذا يعني أن الحكم الرمزي لا يصلح . فاما ادانة مع كل ما ينتج عنها من مفاعيل ، واما ابراء .

وانتهت جلسة اليوم لتستأنف في اليوم التالي مع أحد محامي الدفاع ، محامي الأب ، الأستاذ بولوس . ركز هذا المحامي على صدق موكله وبساطته عندما ذكر الحقيقة للدكتور هربين . وتساءل : كم من أناس مثله فعلوا ما فعله هو دون ان يكشفوا الحقيقة لأحد؟ وخلص موجهاً كلامه الى المحلفين : «من الممكن أن نقول ان خطأً ما حصل في هذه القضية . أما أن نقول أن في الأمر جريمة ، فهذا ما هو غير مقبول» .

بعد محامي الأب ، تقدم محامي الدكتور كاستير ليرافع . كان رائعاً في اظهار انسانية موكله والصراع الداخلي الذي أحدثه لجوء تلك العائلة اليه ، هو الذي عرف برد لهفة الملهوف ، كما عرف بترفعه عن المادة والثراء . ومما قاله أيضاً أنه كان بامكان موكله أن يختار الطريق السهل والآمن ويرفض المساعدة . لكنه فضل الأشواك في ما قرر لأنه غلّب حسه الانساني على منطق الهروب . ولو فعل خلاف ذلك ، لكان اليوم خارج هذه القاعة وخارج القفص الذي يقبع فيه .

الجلسات تتلاحق . وها هو اليم ، العاشر من الشهر ، قد جدد لأصدار الحكم . لهذا ، تجمعت مدينة لياج بكاملها أمام قصر العدل . كان الجميع في هياج . وكانت النية متجهة لاحداث شغب ، فيما لو صدر الحكم بادانة المتهمين . وهذا ما دعا السلطة الى حشد

عدد كبير من رجال الشرطة تحسباً لكل طارىء .

في بداية الجلسة ، استكمل محامو الدفاع مرافعاتهم التي بدأوها بالأمس . وها هو أحدهم ، الأستاذ جونوم ، يبرز في مرافعته رسالة من أستاذ في جامعة السوربون ، أب لولد مشوه ، يقول فيها أن «مأساته استمرت مع ابنه خمس عشرة سنة ولا تزال ، لأنه لم يجد الجرأة والانسانية ، اللتين وجدهما أبوا كورين والدكتور كاستير، المشبع هو الآخر بالحس الانساني والمنطقي».،

ثم تلاه الأستاذ موتار ، الذي ركز على النقطة التي اثيرت في مختلف الصحف . وهي أن المحاكمة تمس الضحايا وتترك مسببي الفجيعة . وخلص طالباً البراءة الكاملة لجميع المتهمين .

بعد الانتهاء من كل هذه المرافعات ، وخلافاً للعادة ، اعطي الكلام للمدعي العام بناءً لطلبه . فوقف يطلب من المحلفين اعتبار القضية جريمة قتل ، قائلاً : «ان قانوناً وحيداً صدر عبر التاريخ ويسمح بقتل نفس بشرية ، هو قانون الأول من ايلول ـ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، الذي ذيل بتوقيع ادولف هتلر !

هنا ، وقف محامي الدفاع موتار صارخاً في وجه المدعي العام ، وسط الامتعاض والشدة اللذين أحدثتهما مداخلة هذا الأخير :

ـ كم هو رهيب أن نعامل على قدم المساواة مع هتلر . هل تعلمون ، أيها السادة المحلفون أن والد سوزان ومونيك ، وكذلك والد الدكتور كاستير كانا في عداد أسرى النازيين في معتقلاتهم ؟

بهذا الرد ، انتهت المرافعات . ودخل المحلفون قاعة المذاكرة . ساعة وثلاثة أرباع الساعة امضتها الحشود داخل المحكمة وخارجها مشدودة الأعصاب . بعدها ، خرج المحلفون فاشرأبت الأعنق ، علها تتمكن من استنتاج الحكم من التعابير .

وما هي الا لحظات جلس الجميع خلالها ، حتى لفظ الرئيس الحكم : البراءة لجميع المتهمين . ودوت عواصف من التصفيق في الداخل ، تبعتها عواصف أخرى أكثر زخماً في الخارج . واندفع الناس في الشوارع بتظاهرات عفوية ، سرعان ما انقلبت مهرجانات عمت مدينة لياج بأكملها حتى ساعات الفجر الأولى . وفي اليوم التالي ، لم تتمكن المطابع من تلبية طلبات قارئي الصحف على الرغم من الطبعات المتلاحقة .

وأمام بيت فاندبوت وكذا أمام بيت الدكتور كاستير ، كانت الجماهير تهتف على مدى ساعات . لقد انتصر المنطق على القانون . وعن سؤال للصحافيين ، أجاب الدكتور كاستير ببساطة كلية :

ـ كان الأمر يعني قضية خاصة حصلت في ظروف ، هي الأخرى ، خاصة . . .

غاليليو

في الثاني عشر من شهر نيسان- ابريل من عام ١٦٣٣ ، بدأت في روما محاكمة غاليليو، ابن السبعين وكبير علماء عصره.

ما هي التهمة التي ساقتها الكنيسة الى هذا الرجل الجليل ليستحق المحاكمة؟ انها، بكل بساطة افكاره عن الفيزياء والفلك والتي ضمنها كتابه الشهير «حوار حول نظامي العالم الرئيسيين». وقد أكد فيها أن الأرض تدور دورتين، الأولى حول نفسها، والثانية حول الشمس. وهذا مخالف لما جاء في الكتابات المقدسة ومخالف لأفكار الكنيسة الكاثوليكية.

والذي يزيد الاتهام خطورة، هو أنه، خلافاً لاتهامات اخرى تدور حول أمور حياتية بسيطة، يتناول أمراً يتعلق بنظام الكون، هذا النظام الموضوع من قبل الخالق وحده. ومن يمسه يكن قد ارتكب هرتقة لا تغتفر.

ورأي الكنيسة بالأرض وما حولها ينطبق على آراء العلماء من قدامى ومعاصرين، ومنهم اريسطو وبطليموس. هذه الآراء توافقت على أن الأرض هي مركز العالم وأن كل شيء في الكون يدور حولها، بما في ذلك الشمس والقمر. على هذا اذاً، ركزت الكنيسة سائر فرضياتها المتعلقة بالفلك وما يتصل به من علوم ذلك العصر. ولم يأت من يهتك قدسية هذه الفرضيات الا العالم جيوردانو، الذي قال ان مركز العالم يقع في نقطة داخل الكون السحيق آهلة بعوالم منوعة. وقد كلفته نظريته هذه حياته عندما أعدمته الكنيسة سنة ١٦٠٠، سنة «الرحمة».

وها هو غاليليو يلعب بالنار ويقامر هو الآخر بحياته. وقد بدأ بهذا اللعب عام ١٦٠٩، وكان عمره لا يجاوز الخامسة والأربعين. كان يتولى تدريس الرياضيات وفن العمارة والميكانيك والفلك في جامعة بادو، عندما صنع منظاراً فلكياً تمكن بواسطته من رؤية ما لم يره غيره قبله في هذا الكون العجيب والفسيح. والحدث الذي دفعه لصنع هذا

المنظار تمثل في مشاهدته مرة ، وقبل خمس سنوات ، مجرة جديدة تظهر في قبة السماء ، اطلق عليها اسم «نوفا» . والجدير ذكره هو أن ظهور هذه المجرة يعتبر أمراً جديداً في الفلك ، والجديد، أي جديد ، لا ترتضيه الكنيسة ، التي كانت تعتبر ، حتى ذلك الحين ، ان كل ما في الكون ثابت وأبدي . وعليه ، فان اي تبديل فيه مرفوض في المبدأ .

لم يكتف غاليليو بهذه «الهرتقة» ، بل زاد عليها ما اكتشفه ، بواسطة منظاره ، من كواكب اخرى ، هي كواكب جوبيتير. هذا الاكتشاف أيضاً ألقى ظلاً كثيفاً على ما كان يعتقد به من قبل ، وهو أن الشمس والقمر وحدهما يتحركان ، وأن كل ما هو دونهما ثابت . ثم جاء ما أوضحه «المنظار العجيب» لغاليليو وهو أن الشمس تحوى بقعاً ، خلافاً للثوابت الكنسية عن صفاء سطحها . وقد جاء هذا يزيد الطين بلة .

في تلك الأثناء ، وتقديراً للعالم واكتشافاته ، عين غاليليو في منصب الرياضي والفيلسوف الأول في قصر دوق توسكانا ، وانتقل بذلك ليعيش في فلورنسا . وفي آذار ـ مارس من عام ١٦١١ ، توجه في رحلة الى روما مع منظاره الشهير، ليثبت للكنيسة هناك ما اكتشفه من عوالم الكون ، ويقنعها بتغيير ارائها بشأنه .

كانت الكنيسة ، عند حضور غاليليو الى روما ، تشهد بعض المتغيرات . فقد بدأ يتكون فيها فريق من المجددين المؤمنين بالنظريات العلمية الحديثة . وهؤلاء أحاطوا العالم القادم بمنتهى الحفاوة والتكريم . اما يسوعيو المعهد الروماني ، المشهورون بتزمتهم ومحافظتهم ، فانهم بدأوا ، هم أيضاً ، يتقبلون حقيقة مشاهداته الفلكية وفوق كل هذا ، وجد غاليليو في روما حليفاً ، بل صديقاً ، بشخص الكاردينال بربريني ، الذي أصبح في ما بعد البابا أوربان الثامن .

لكن القطعة النقدية تحوي وجهاً آخر . فقد بدأ تكتل معارض لنظريات واستنتاجات هذا العالم يتشكل من كبار دكاترة الكنيسة وقضاتها . رفضوا ما ساقه اليهم عن دوران الأرض . وحجتهم في ذلك تتلخص في ما يلي : «لو قبلنا بنظرية النظام الكوبرنيكي لأصبح من المحتم أن نلغي مقاطع كاملة من الكتاب المقدس . وهذا مستحيل . » . وقد رد غاليليو مبتسماً : « ان الكتاب المقدس لا يشكل دراسة لعالمنا الفيزيائي . ونية الروح القدس هي في تعليمنا كيف نصل الى السماء ، لا كيف تسير هذه السماء» .

عام ١٦١٦ ، منع كتاب كوبرنيك حول الفلك من التداول . لم يكن غاليليو مقصوداً بهذا المنع . لكن التدبير كان بمثابة الانذار الموجه له . وحتى يكون هذا الأنذار اكثر وضوحاً ، فقد ابلغه صديقه الكاردينال بربريني أن عليه الامتناع عن تعليم النظريات الكوبرنيكية أو الدفاع عنها ، بل وحتى عن مجرد التحدث فيها . وقد وعد غاليليو بالالتزام بهذا المنع ، وظل

سنوات عدة يوجه ابحاثه في مسالك اخرى .

لكن الرغبة عنده في قول الحقيقة غلبت كل ارادة وطغت على كل التزام . وهكذا ، توجه عام ١٦٢٤ الى صديقه البابا اوربان الثامن يلتمس منه السماح له بكتابة ونشر مؤلفه الشهير «حوار حول نظامي العالم الرئيسيين» . والنظامان هما : النظام الكنسي المحافظ والنظام الكوبرنيكي الحديث . وكم كان انتصاره ودهشته كبيرين عندما منحه البابا الاذن المطلوب ، على الرغم من الشرط الذي وضعه صاحب الأذن وهو أن يعرض غاليليو في كتابه كلا من النظامين بمنتهى الموضوعية ، ودون ان يبدي ميلاً لأي منهما . هذا الانتصار بانتزاع الأذن يعتبر كبيراً اذا ما وضع في الزمن الذي صدر فيه ، وسط المعطيات المتحكمة آنذاك بمثل تلك النظريات . وهكذا سيكون من الممكن ، ولأول مرة منذ سنة ١٦١٦ ، طرح الأفكار الجديدة عن الفلك والكون دون حرم أو تقييد .

وانكب غاليليو على تحضير الكتاب الى أن انتهى منه ونشره في هولندا خلال شهر شباط من عام ١٦٣٢ . وكم كان الاقبال عليه شديداً ! كيف لا وقد حظي هذا النشر بموافقة الكنيسة ، في زمن لم يكن من السهل أن تصدر مثل هذه الموافقة ؟

ومما زاد في ضخامة الحدث هو أن الكتاب كتب باللغة الايطالية الدارجة ، ولم يكتب باللاتينية . مما جعله اسهل فهماً وبالتالي ، أوسع انتشاراً . كما أن هذا الكتاب تضمن نبذات لاذعة عن افكار العصر العلمية العقيمة ، وآراء لصاحبه هي في الواقع انتصار لآراء كوبرنيك وتحيزله . وهذه كلها عناصر لن يكون من المريح لهيئة المحكمة ان تتقبلها أو ترتاح لوجودها .

ولعل ما زاد الأمر خطورة استياء البابا اوربان الثامن مما اعتبره خروجاً من الكاتب عن الاتفاق الذي تم بينهما وانحرافاً عن الخط والخطة اللذين سمح له على أساسهما بكتابة الكتاب ونشره .

في الأول من شهر تشرين الأول ـ اكتوبر من سنة ١٦٣٢ ، وهي السنة التي نشر فيها الكتاب ، كما سلف ذكره ، استدعي غاليليو من فلورنسا ، حيث يعيش ، الى روما للمثول أمام المحكمة الكنسية العليا . حاول بادىء الأمر التذرع بحالته الصحية التي لا تسمح له بتحمل عناء سفر طويل كهذا ، ثم بوباء الطاعون ، الذي ضرب وسط ايطاليا للتهرب من هذا المثول الخطير . لكن المحكمة تلك لم تتعود السماح لطريدة لها أن تفلت من بين يديها . وهكذا ، لم يكن بد لغاليليو ، في النهاية ، من أن ينصاع .

والماثل أمام المحكمة الكنسية العليا ، وهي متصلة مباشرة بالكرسي الرسولي ، كان

يجد صعوبة في الدفاع عن نفسه . فالحرية الوحيدة التي كانت تمنح له هي أن يقر بما اتهم به .

في بداية الجلسة الأولى ، بادر رئيس المحكمة غاليليو بالسؤال التالي :

ـهل تعرف السبب الذي من أجله استدعيت الى روما؟

كانت لهجة السؤال جادة وحاسمة . ومع ذلك ، فقد بادر غاليليو السائل بهدوء تام قائلاً :

ـافترض انكم ستطلبون مني تقديم توضيحات تتعلق بكتابي .

صحيح وغير صحيح . ان ما يود هؤلاء القضاة معرفته ، بالاضافة الى موضوع الكتاب ، هو السبب الذي جعل المتهم يخالف الوعد الذي سبق أن قطعه على نفسه منذ سنوات بأن يمتنع عن تدريس نظريات كوبرنيك في الجامعة ، وذلك بعد أن اعتبروا أن هذا الوعد لم يحترم كل الاحترام .

لقد احس غاليليو بالفخ الذي نصب له بمجرد ان طرح عليه السؤال . وها هو يضيف :

ـعام ١٦١٦ ، حضرت الى روما بصورة عفوية . وهناك ، التقيت ببعض الكرادلة ، ومنهم الكاردينال باليرمان ، وكانت تدور بيننا مناقشات حول هذه المسائل ، اعني النظريات العلمية الجديدة . وقد لمست منهم ميلاً للتعرف عليها بشكل معمق ومفصل . . . .

ويقاطعه الرئيس :

ـوما الذي تم الاتفاق عليه بينك وبين الكاردينال باليرمان؟

ـ لقد قال لي الكاردينال ان نظرية كوبرنيك مخالفة للكتابات المقدسة ، وان الدفاع عنها لا يمكن أن يحصل الا على أساس أنها فرضية للعمل لا أكثر.

ـألم يمنعك الكاردينال ، أمام شهود كانوا معكما ، من الدفاع عن النظرية ومن تدريسها؟

وجاء جواب غاليليو غامضاً وكأنه أحس أن صلابة الأرض لم تعد كما هي تحت رجليه . قال :

ـلا أذكر وجود أحد معنا آنذاك . غير أن من الممكن أن يكون قد أورد عبارة «عدم التدريس» ، بل وحتى عبارة «بأي شكل من الأشكال» . . .

ويتظاهر الرئيس بقبول الجواب على علاته . ويطرح سؤالاً آخر :

ـ بعد أن أخذت علماً بهذا المنع ، كيف تمكنت من الحصول على اذن بكتابة الكتاب؟

هنا ايضاً ، أحس غاليليو بالاحراج الكلي . صحيح أن البابا نفسه سمح له بما سمح ، لكن العالم تجاوز حدود السماح عندما لم يلتزم بالموضوعية المتفق عليها . لقد انتصر

فيه جموح العلم على العهد الذي قطع . وأكثر من ذلك . فقد سعى الكاتب لدى كل المراجع المختصة وبشتى الوسائل ، لكي لا تتناول يد الرقابة أي مقطع من كتابه .

وحتى يبلغ هدفه هذا ، لجأ الى الحيلة . فعندما أودع مسودة كتابه المسؤول عن اعطاء مثل هذه الأذونات لدى الكرسي الرسولي في روما ، جاء الرد بالقبول بشرطين : الأول ان تتم المراحل اللاحقة من تصحيح وشطب وما الى ذلك في روما وباشراف المسؤول نفسه ، الثاني أن يحذف من الكتاب بعض المقاطع مما ارتؤيت ضرورة حذفها . هذان الشرطان لم يروقا لغاليليو . فلجأ لكي يتهرب من الشرط الأول الى الكذب . كتب للمسؤول في فلورنسا يتذرع بالمرض وبوباء الطاعون ، ويرجوه اعفاءه من الحضور الى روما . أما الشرط الثاني ، فقد كتب اليه يطلب منه نقل الرقابة قبل الطبع من روما الى فلورنسا . وفي فلورنسا ، كانت المهمة بالنسبة للمؤلف ، أسهل . فالأكليروس هناك على علاقة وثيقة به . كما أن رجال الأكليروس يشعرون ببعض الدونية تجاهه ، وهو العالم الكبير ورياضي العصر وفيلسوفه . وهكذا انطلت الحيلة وطبع الكتاب .

حيلة أخرى توسلها الكاتب خشية أن تتعقد الأمور . لم يثر أمام المسؤول في روما مسألة الوعد الذي سبق ان قطعه على نفسه بعدم الأخذ بنظرية كوبرنيك وبعدم تدريسها لطلابه في الجامعة . ذلك انه لو فعل لتفتحت العيون أكثر ولجاءت الرقابة اشد .

نعود الى سؤال الرئيس حول الأذن وكيفية الحصول عليه بعد التحظير الصادر عن الكاردنيال باليرمان . هذا السؤال ، جاء جواب غاليليو عنه مفاجئاً وغامضاً . فقد قال :

ـ لم أثر قضية المنع تلك أمام المسؤول عن الأذن . والسبب هو أنني لم ادافع في كتابي عن نظرية حركة الأرض . حتى أنني ذهبت أبعد من ذلك عندما ذكرت في الكتاب أن هذه النظرية وما دار حولها من آراء لكوبرنيك ليست جازمة ونهائية .

هنا أيضاً ، ارتكب غاليليو خطأً فادحاً : لقد كذب ويكذبه هذا ، اضاف ثغرة اخرى في مسيرة دفاعه المترجرج . ناهيك عن أن قضاة المحكمة اعتبروا أن طريقة المتهم تمس كرامتهم في الصميم ، لأنها تنظر اليهم وكأنهم أناس مغفلون ليست لديهم القدرة على التمييز بين الصحيح القويم والخطأ الملتوي .

في الجلسة التالية ، جلسة ٣٠ نيسان ـ ابريل ، بدا واضحاً ان المتهم ، وقد أحس بوطأة ما ارتكب ، يحاول الأصلاح والترميم . وها هو يقف في بداية الجلسة ليقول :

ـ بعد التمعن في ما ذكرته في جلسة ١٢ نيسان ـ ابريل ، رأيت من المناسب أن أعود الى الكتاب لأقرأه بتعمق أكبر . وقد رأيت فيه ما يمكن أن يعتبره القارىء العادي خروجاً

مني ، غير مقصود ، عن العهد . ذلك أن هذا القارىء قد يفهم من بعض مقاطع الكتاب أن الحجج الخاصة بالنظريات موضوع المنع لم يجر دحضها من قبلي بشكل كاف .

لدى سماعهم ما قاله المتهم ، ظهر على وجوه قضاة المحكمة بعض الارتياح . لكن المتهم لم يعارض صراحة نظريات كوبرنيك حول حركة الأرض . كل ما قاله لا يعدو ، هو الآخر ، نوعاً من المراوغة والتضليل .

لذلك ، صمّمت المحكمة بكامل اعضائها على اللجوء الى الحسم في جلسة ٢١ حزيران ـ يونيو . صممت ولمحت باللجوء الى التعذيب في حال تعذر الحصول من المتهم على مواقف صريحة واجابات واضحة . وأحس غاليليو بهذا الجو وعبئه الثقيل فرمى سلاحه واستسلم .

وجاء السؤال الأول :

ـ هل سبق للمتهم أن اعتقد ، ومنذ متى ، ان الشمس هي المركز وأن الأرض تدور حولها ؟

ـ منذ وقت طويل ، أي قبل منعي من تدريس النظرية ، كنت ادرس كلاً من نظرية بطليموس ونظرية كوبرنيك ، دون أن انحاز الى أي منهما . غير أنني عدت ، بعد المنع ، واقتنعت بحكمة الكنيسة . ومنذ ذلك الحين ، لم ادافع الا كما تؤمن به الكنيسة بهذا الشأن . . .

هذا كذب وليس أدل عليه أكثر من الكتاب نفسه . وعندما واجهته المحكمة بهذا الدفع ، أجاب :

ـ كلا . أنا لم اتخذ موقفاً من أحدى النظريتين في كتابي . كل ما فعلته هو أني عرضتهما وعرضت مع كل منهما الحجج والبراهين التي يسوقهما صاحبهما لدعمهما . وقد توخيت الوضوح عندما ذكرت ان ايا من النظريتين لا تتمتع بالقوة الجازمة والنهائية .

هنا أيضاً ، أخطأ غاليليو عندما ساوى بين النظريتين لجهة عدم وجود قوة الجزم . فنظرية الكنيسة بثبات الأرض لها قوة القانون . والتشكيك فيها من شأنه أن يعرض المشكك الى الملاحقة القضائية . وهذا ما لم يجد قضاة المحكمة عناءً في تذكير المتهم به .

أطرق غاليليو قليلاً وفكر للحظة بما يمكن أن ينتظره في غرفة التعذيب ان هو أصر على أقواله . وها هو يسارع الى القول :

ـ أنا هنا لأطيع . لذا ، أعلن وأؤكد أنني لم أدافع ، سواء في قراءة نفسي أو في العلن ، عن النظرية التي منعت في الأخذ بها ومن تدريسها .

وهكذا انقذ العالم العجوز نفسه من التعذيب ورقبته من سيف الجلاد. وبذلك يكون أول رجل في التاريخ يبرهن أن الأرض تدو حول الشمس، ثم يعود ليقول انها ثابتة لا تتحرك.

وتنتهي المحاكمة وينتظر غاليليو الحكم. هذا الانتظار طال في جلسة كل ما فيها مسهب وممل، ووسط افكار مضطربة لا يكاد صاحبها يتوصل الى لملمتها.

وتأتي اللحظة الحاسمة عند سماع الرئيس يقرأ الجزء الأخير من معلقته قائلاً:

-حيث أن النظرية القائلة بأن الشمس هي مركز العالم وثابتة نظرية بعيدة عن المنطق، ومغلوطة فلسفياً. بالاضافة الى أنها تشكل هرتقة مرفوضة لأنها مخالفة لما جاء في الكتاب المقدس.

وحيث أن النظرية القائلة بأن الأرض ليست في مركز العالم ولا هي متحركة، بل تدور حول الشمس، هي ايضاً نظرية بعيدة عن المنطق ومغلوطة فلسفياً، كما أنها مغلوطة ومخالفة للقصيدة.

وحيث انك في كتابك، وبمواضع عدة، تشير الى مسألة حركة الأرض على أنها مسألة غير محسومة، على الرغم من أنها محسومة في الكتاب المقدس ولا تقبل أي تأويل أو تفسير آخر.

ولما كان عملك هذا يشبه الى حد بعيد ما جرى في سنة ١٦٠٠ مع الفيلسوف جيوردانو برونو،

وهنا، توقف القاضي عن القراءة ليرتاح لحظات، أحس الجميع اثناءها بشبح هذا الفيلسوف، الذي أعدم حرقاً، يهيم في أرجاء القاعة. ومعلوم أنه حكم بالاعدام في تلك السنة بسبب افكار اعتبرت انذاك هرتقة ومخالفة لما جاء في الكتابات المقدسة، ولم يقدم على انكارها.

وها هو الرئيس ينهي فترة راحته ويكمل قراءة الحكم:

-فأننا نعلن ابراءك مما اقترفت من اخطاء وما ارتكبت من انحرافات، شرط ان تعلن هنا وبصوت عال أنك تلعن هذه النظريات وتلك الآراء وتعتبرها هرتقة ومخالفة للكنيسة الكاتوليكية.

ويسود صمت آخر. ويلتفت الجميع نحو غاليليو ليعرفوا هل سيتراجع وينقذ رأسه، أم كما أصّر برونو ويدفع حياته ثمناً لما امن به؟

ولم يطل الانتظار فسرعان ما انطلق صوت العجوز خافتاً مختنقاً ليقول:

-بقلب مخلص وايمان عميق ألعن واحتقر كل خطأ وكل هرتقة ضد الكنيسة. واقسم

آني لن اقدم في المستقبل على تأكيد أمر من شأنه أن يعتبر مشيناً بحق ما ورد في الكتابات المقدسة . كما لن أقدم على الدعوة اليه بأي شكل من الأشكال . أنا ، غاليليو ، أعلن هذا وأوقع عليه بيدي .

وانتهى الأمر عند هذا الحد . وأعيد المسكين الى فلورنسا ليمضي باقي أيامه في فيلا ألسيتري تحت المراقبة . ومع ذلك ، فقد كتب عام ١٦٣٨ ، كتاباً أخيراً ضمنه ملخصاً لأعماله وأفكاره . ثم أصيب بالمرض والعمى . وسنة ١٦٤٢ ، مات أول رجل تطلع الى الكواكب بعين العالم المتفحص ، عن عمر يناهز الثامنة والسبعين .

وخلافاً لما يشاع ، فان غاليليو لم يقل ، وهو يخرج من قاعة المحكمة بعد اعلان براءته ، متحدثاً عن الأرض : « ومع ذلك ، فهي تدور » . ولو قالها ، لكلفه ذلك حياته في الموقد الذي سبق وأحرق فيه سواه . لكنه لم يحد عن الايمان بها ، هو الذي اثبتها . وهذا صحيح ، فهي تدور . . . . .

فهرس

أشهر المحاكمات عبر التاريخ

هذا الكتاب ليس كسائر كتب التاريخ أو السِّير أو الروايات والقصص، إنه كتاب ينفرد بتصوير واقع من العصر القديم وآخر من القرن العشرين، واقع قد يتبادر إلى ذهن القارىء لأول وهلة أنه من صنع الخيال. بينما هو حقيقة راسخة لا تحتاج إلى شرح أو تأويل.

أكثر ما في هذا الكتاب محاكمات جنائية.بعضها (أي الجنائية) لا يخطر على بال بشر، وبعضها لا ترتكبه السباع الضارية، وبعضها كأنه من عمل الشياطين وكلها تدور حول القتل والتقتيل والأسباب والمسببات ونظرة القانون والعدالة ثم القضاء، ومرافعات بعضها قمة في الدفاع، وأخرى قمة في الاتهام، ومجرمين يصعب تصنيفهم بشرا ينتمون إلى هذا الخلق الذي يتمتع بالعقل والنطق والتفكير.

من يقرأ إحدى هذه المحاكمات لا يملك إلا أن يقرأ الثانية فإذا قرأ الثانية وجد نفسه منساقاً وراء الثالثة فالرابعة حتى يبلغ الخمسين وهي آخرها.



المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الغلاف: زهير أبو شايب